إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد
الغـــزالي
(المتوفى سنة ٥٠٥ هـ)

وبذيله كتاب

المغني عن الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار
للعلامة
زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي
(المتوفى سنة ٨٠٦ هـ)

ضبط نصه وخرج أحاديثه
د/ محمد محمد تامر
كلية دار العلوم - قسم الشريعة الإسلامية

الجزء الرابع

دار الآفاق العربية

دار الآفاق العربية
نشر – توزيع – طباعة
٥٥ ش محمود طلعت – من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون: ٢٦١٧٣٣٩ – تليفاكس: ٢٦١٠١٦٤
e-mail: daralafk@hotmail.com

اسم الكتاب : إحياء علوم الدين
اسم المؤلف : الإمام الغزالى
اسم المحقق : د. محمد محمد تامر

رقم الإيداع : ١٥٨٤ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى : 4 - 083 - 344 - 977

الطبعة الأولى
٢٠٠٤م

كتاب التوبة

وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب، وبذكره يصدّر كل خطاب، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الثواب، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التوّاب، ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديدُ العقاب.

ونصلي على نبيه محمد وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب. وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب.

أما بعد: فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب، مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأوّل إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرّبين، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين، وما أجدر بالأولاد، الاقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم، فهي شنشنة نعرفها من أخزم، ومن أشبه أباه فما ظلم.

ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات والوجود والعدم، ولقد قرع آدم سن الندم، وتندّم على ما سبق منه وتقدم. فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم. بل التجرّد لمحض الخير دأب الملائكة المقرّبين، والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين، فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان، فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيتان. وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان، فالتائب قد أقام البرهان، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حدّ الإنسان، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان، فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان؛ فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنًا محكمًا لا يخلصه إلا إحدى النارين: نار الندم أو نار جهنم، فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين، والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يطوى

بساط الاختيار، ويساق إلى دار الاضطرار. إما إلى الجنة وإما إلى النار. وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان:

الركن الأول: في نفس التوبة وبيان حدّها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال، وأنها إذا صحت كانت مقبولة.

الركن الثاني: فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات، وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر.

الركن الثالث: في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة.

الركن الرابع: في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين.

ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل.

الركن الأول في نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدها:

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل. فالعلم الأوّل، والحال الثاني، والفعل الثالث. والأوّل موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجابًا اقتضاه اطراد سنّة الله في الملك والملكوت. أما العلم، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابًا بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندمًا، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدًا إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسًا، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر. وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلًا للجبر، فالعلم هو الأوّل وهو مطلع هذه الخيرات وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن

التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبًا عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرًا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدّمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ» (١). إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه؛ فيكون الندم محفوفًا بطرفيه أعني ثمرته ومثمره؛ وبهذا الاعتبار قيل في حدّ التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ؛ فإن هذا يعرض لمجرّد الألم، ولذلك قيل: هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب، وباعتبار معنى الترك قيل في حدّ التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء. وقال سهل بن عبد الله التستري: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة، والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر؛ وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجرّدة.

بيان وجوب التوبة وفضلها:

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار (٢) والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيًا عن قائد يقوده في كل خطوة. فالسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه، وإما بصير يهدى إلى أوّل الطريق ثم يهتدي بنفسه، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام؛ فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصًا من كتاب الله أو سنّة رسوله، وربما يعوزه ذلك فيتحير؛ فسير هذا وإن

---

(١) **صحيح**: حديث «الندم توبة». أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين. [ابن ماجه: ٤٢٥٢، وانظر صحيح الجامع: ٦٨٠٢].

(٢) حديث: اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار. أخرج مسلم من حديث الأغر المزني «يا أيها الناس توبوا إلى الله... الحديث» [مسلم: ٢٧٠٢] ولابن ماجه من حديث جابر «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا... الحديث» وسنده ضعيف. [ابن ماجه: ١٠٨١، وانظر ضعيف الترغيب: ٤٤٤].

طال عمره وعظم جدّه مختصر وخطاه قاصرة.

ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، وهو لشدّة نور باطنه يجتزئ بأدنى بيان، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار؛ فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أوّلًا بنور البصيرة إلى التوبة ما هي، ثم إلى الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها، وذلك بأن يعلم معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبًا معنى.

وقول القائل: صار واجبًا بالإيجاب، حديث محض فإن ما لا غرض لنا آجلًا وعاجلًا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به، أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه؟ فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد، وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم.

وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعًا، وعلم أنه لا مقرّب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله طلبًا للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته، وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبًا مبعدًا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفعة ذروته عن حدود أكثر الخلق، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله ﷺ وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١] وهذا أمر على العموم، وقال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨] الآية ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى خاليًا عن الشوائب مأخوذ من النصح.

ويدل على فضل التوبة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]

وقال عليه السلام: «التائبُ حَبِيبُ الله وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ» (١)، وقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ العَبْدِ المُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ بِأَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُه فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الحَرُّ وَالعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ؛ فَاللهُمَّ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ العَبْدِ المُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ» (٢).

وفي بعض الألفاظ: «قال من شدّة فرحه إذ أراد شكر الله: أنا ربك وأنت عبدي».

ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا: يا آدم قرّت عينك بتوبة الله عليك، فقال آدم عليه السلام: يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي؟ فأوحى الله إليه: يا آدم ورّثت ذويك التعب والنصب وورّثتهم التوبة، فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب، يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب. والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها؛ إذ معناه العلم بأنّ الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى، وهذا داخل في وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه، فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة، ولا خلاف في وجوبها. ومن معانيها: ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال، وذلك لا يشك في وجوبه. وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب، وهو روح التوبة، وبه تمام التلافي، فكيف لا يكون واجبًا، بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله.

فإن قلت: تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار، فكيف يوصف بالوجوب؟ فاعلم أنّ سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإن ذلك محال،

---

(١) **حسن:** حديث «التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له». أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني دون الأول [ابن ماجه: ٤٢٥٠، وانظر صحيح الجامع: ٣٠٠٨]، وأما الشطر الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف «إن الله يحب الشاب التائب» [ضعيف: انظر الضعيفة: ٩٧] ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبي يعلى بسند ضعيف من حديث علي «إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب». [موضوع: انظر الضعيفة: ٩٦].

(٢) **صحيح:** حديث «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة... الحديث». متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس. زاد مسلم في حديث أنس «ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح» ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصرا. [البخاري: ٦٣٠٨، مسلم: ٢٧٤٤].

بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات :٩٦] .

هذا هو الحق عند ذوي الأبصار وما سوى هذا ضلال.

فإن قلت : أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك؟ قلنا: نعم وذلك لا يناقض قولنا: إنّ الكل من خلق الله تعالى، بل الاختيار أيضًا من خلق الله، والعبد مضطر في الاختيار الذي له، فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ، وخلق الشهوة للطعام في المعدة، وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول؛ فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارًا، ولا بدّ من حصوله عند تمام أسبابه؛ فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تحرّكت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة، إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريًا، فتحصل الحركة، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة، وهما أيضًا من خلق الله، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع، وهما أيضًا من خلق الله تعالى، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبًا جرت به سنّة الله تعالى في خلقه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب :٦٢] فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة مجزومة، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلًا في النفس، ولا ينبعث هذا الميل انبعاثًا تامًا ما لم يخلق علمًا بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المآل، ولا يخلق العلم أيضًا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم؛ فالعلم والميل الطبيعي أبدًا يستتبع الإرادة الجازمة، والقدرة والإرادة أبدًا تستردف الحركة، وهكذا الترتيب في كل فعل، والكل من اختراع الله تعالى، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض، فلذلك يجب تقدّم البعض وتأخر البعض، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم؛ فيكون خلق الجسم شرطًا لحدوث الحياة لا أن الحياة تتولد من الجسم، ويكون خلق الحياة شرطًا لخلق العلم لا أنّ العلم يتولد من الحياة، ولكن لا يستعدّ المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيًا ويكون خلق العلم شرطًا لجزم الإرادة لا أنّ العلم يولد الإرادة، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم، ولا يدخل في الوجود إلا ممكن، وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال، فمهما وجد شرط الوصف استعدّ المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد، ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب، والعبد مجري هذه الحوادث المرتبة؛

وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلمح البصر ترتيبًا كليًا لا يتغير، وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر، ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة، وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت، وقالوا يا أيها الرجل قد تحرّكت ورميت وكتبت، ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] وما قتلت إذ قتلت. ولكن ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤].

وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة؛ فمن قائل إنه جبر محض، ومن قائل إنه اختراع صرف، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب، ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه، وأنّ القصور شامل لجميعهم. فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحط علمه بجوانبه، وتمام علمه ينال بإشراق النور من كوّة نافذة إلى عالم الغيب، وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول. وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء، ومن حرّك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علمًا يقينًا أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه.

فإن قلت: قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض، فكيف يمكن فهم ذلك؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال؟ فاعلم أنّ جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه، فقالوا لا بدّ لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه، فطلبوه، فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه، فقالوا قد عرفناه، فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرجل: إنّ الفيل ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها، وقال الذي لمس الناب: ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس في غلظ الأسطوانة أصلًا بل هو مثل عمود، وقال الذي لمس الأذن: لعمري هو لين وفيه خشونة، فصدق أحدهما فيه ولكن قال:

ما هو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ، فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل، ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل، فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه، وإن كان هذا كلامًا يناطح علوم المكاشفة ويحرّك أمواجها وليس ذلك من غرضنا، فلنرجع إلى ما كنا بصدده وهو بيان أنّ التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة: العلم والندم والترك، وأنّ الندم داخل في الوجوب لكونه واقعًا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله.

بيان أن وجوب التوبة على الفور:

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور والمتقصي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه، فإنّ هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل، بل هي من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثًا على عمل فلا يقع التقصي عن عهدته ما لم يصر باعثًا عليه؛ فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثًا لتركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله عليه السلام: «لا يَزْنِي الزَّاني حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١)، وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فإنّ ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي، وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعدًا عن الله تعالى موجبًا للمقت، كما إذا قال الطبيب: هذا سم فلا تتناوله، فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبًا وغير مصدّق به، بل المراد أنه غير مصدّق بقوله إنه سم مهلك؛ فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلًا، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابًا واحدًا بل هو نيف وسبعون بابًا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ومثاله قول القائل: ليس الإنسان موجودًا واحدًا بل هو نيف وسبعون موجودًا أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظافر نقي البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها، وهذا مثال مطابق، فالإيمان كالإنسان، وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقد الروح، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح، وكما أن

(١) صحيح: حديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». متفق عليه من حديث أبي هريرة. [البخاري: ٢٤٧٥، مسلم: ٥٧].

من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدّها وتقوّيها؛ فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدّمة قدوم ملك الموت ووروده؛ فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة لا ما يسقى بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت. وقول العاصي للمطيع إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر: أنا شجرة وأنت شجرة، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف، فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار:

وسوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفَرَسٌ تحتك أم حمارُ

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة، وإنما انقطع نياط العارفين خوفًا من دواعي الموت ومقدّماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون؛ فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالبًا لا يقع فجأة، فيقال له: الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت، وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار؛ فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها، إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة، فكذلك المعاصي، فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيًا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية، فمتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم، وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدّته، إذ ليس لمدّته آخر ألبتة؛ فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملًا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين، ويدخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ

عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾[يس:٨-١٠] ولا يغرّنك لفظ الإيمان، فنقول: المراد بالآية الكافر، إذ بيّن لك أن الإيمان بضع وسبعون بابًا وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل؛ فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد: وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعًا يستدعي وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع، ووجود الفرع بالأصل، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغني أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها، فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها، ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر، كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم.

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة:

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور:٣١] فعمم الخطاب. ونور البصيرة أيضًا يرشد إليه، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان، ولا يتصوّر ذلك إلا من عاقل، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان.

إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين، وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ، ومبادئه تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئًا فشيئًا على التدريج، فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٦٢] وإن كمل العقل وقوي كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات، ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان، إلى طريق الله تعالى، وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته

التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريًا في حق كل إنسان نبيًا كان أو غبيًا، فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام، وقد قيل:

فلا تحسبنَّ هندًا لها الغدرُ وحدها سجية نفس، كل غانيةٍ هندُ

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدّل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها، فإذن كل من بلغ كافرًا جاهلًا فعليه التوبة من جهله وكفره، فإذا بلغ مسلمًا تبعًا لأبويه غافلًا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام، فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئًا ما لم يسلم بنفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق والانفكاك والاسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه، وكل هذا رجوع وتوبة، فدل على أنّ التوبة فرض عين في حق كل شخص يتصوّر أن يستغني عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم، فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلًا. وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أنّ كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه، إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضدّه والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يتصوّر الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بدّ منه، ولهذا قال عليه السلام: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً» (١). الحديث، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]. وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره؟.

فإن قلت: لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص، وأنّ الكمال في الخلو عنه، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال، وأنّ الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع، والرجوع توبة، ولكن هذه

---

(١) حديث «أنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة». أخرجه مسلم من حديث الأغر المزني، إلا أنه قال «في اليوم مائة مرة» وكذا عند أبي داود، [مسلم: ٢٧٠٢، أبو داود: ١٥١٥]. وللبخاري من حديث أبي هريرة «إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة» [البخاري: ٦٣٠٧]. وفي رواية البيهقي في الشعب «سبعين» لم يقل «أكثر» وتقدم في الأذكار والدعوات.

فضائل لا فرائض، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع: فما المراد بقولك: التوبة واجبة في كل حال؟ فاعلم أنه قد سبق أنّ الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلًا، وليس معنى التوبة تركها فقط، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار رينًا كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثًا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين:١٤] فإذا تراكم الرين صار طبعًا فيطبع على قلبه، كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث، ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب، كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها»[(١)] ، فإذن لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات؛ هذا في قلب حصل أوّلًا صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة؛ فأما التصقيل الأوّل ففيه يطول الصقل؛ إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة؛ فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلًا، وكل ذلك يرجع إلى التوبة، فأما قولك: إن هذا لا يسمى واجبًا بل هو فضل وطلب كمال، فاعلم أن الواجب له معنيان:

أحدهما: ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية، ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرّغ أحد للتقوى، بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار.

والواجب الثاني: هو الذي لا بدّ منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصدّيقين، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال: الطهارة واجبة في صلاة التطوّع أي لمن يريدها، فإنه لا يتوصل إليه إلا بها.

---

(١) **حسن**: حديث «أتبع السيئة الحسنة تمحها». أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره وقال حسن صحيح، وقد تقدم في رياضة النفس. [الترمذي: ١٩٨٧، وانظر صحيح الترمذي].

فأما من رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوّع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها، كما يقال: العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان، يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانًا كاملًا ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا، فأما من قنع بأصل الحياة ورضي أن يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل، فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة، وأصل النجاة كأصل الحياة، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تنتهي الحياة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تتهيأ الحياة وفيه سعي الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل، وعليه كان حرصهم، وحواليه كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرًا في منامه، فجاء إليه الشيطان وقال: أما كنت تركت الدنيا للآخرة؛ فقال: نعم، وما الذي حدث؟ فقال: توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض، وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم.

أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجبًا في فتاوى العامة؟ أفترى أن نبينا محمدًا ﷺ لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزعه[1] وشغله شراك نعله الذي جدّده حتى أعاد الشراك الخلق[2]. لم يعلم أن ذلك ليس واجبًا في شرعه الذي شرعه لكافة عباده، فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرًا في قلبه أثرًا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به؟ أفترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر؟ وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجه؟ فلم تاب عن شرابه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره عرّفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصدّيقون، فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله، وإياك مرة واحدة أن تغرّك الحياة الدنيا، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور، فهذه أسرار من استنشق مبادئ روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمّر عُمر نوح، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة، ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان

(١) حديث نزعه ﷺ الثوب الذي كان عليه في الصلاة: تقدم في الصلاة أيضا

(٢) حديث نزعه الشراك الجديد وإعادة الشراك الخلق: تقدم في الصلاة أيضا.

خليقًا أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله؟ وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشدّ، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد، وأي جوهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانًا مبينًا، وإن صرفتها إلى معصية فقد هلكت هلاكًا فاحشًا. فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة، فإنّ نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته، وقد رفع الناس عن التدارك.

قال بعض العارفين: إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلًا، وهو أوّل ما يظهر من معاني قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ:٥٤] وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١٠-١١] فقيل: الأجل القريب الذي يطلبه: معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يا ملك الموت أخرني يومًا أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأتزوّد صالحًا لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: فأخرني ساعة فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسفه، ويتجرّع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولمثل هذا يقال: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء:١٨] وقوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧] ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندّم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال: «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا» ولذلك قال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين:

أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينًا وطبعًا فلا يقبل المحو.

الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الخبر: «إن أكثر صياح أهل النار من التسويف»(١)، فما هلك من هلك إلا بالتسويف، فيكون تسويده القلب نقدًا وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده، والعمر أمانة الله عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر.

قال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام:

أحدهما: إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرًا نظيفًا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إليّ كيف تلقاني.

والثاني: عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وبقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى، ومستعدّ لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى، وعلموا أن القلب خلق سليمًا في الأصل، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، كما أنّ كل ثوب نظيف فهو مقبول، فإنما عليك التزكية والتطهير. وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له، وهو المسمى فلاحًا في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أنّ القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرًا متضادًا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل، ويستعار للآخر لفظ

---

(١) حديث «إن أكثر صياح أهل النار من التسويف». لم أجد له أصلًا.

النور كما يستعار للعلم، وأنّ بين النور والظلمة تضادًا ضروريًا لا يتصور الجمع بينهما، فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعني به قلبه، إذ بقلبه يعرف غير قلبه، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه، فمن يتوهم أنّ التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أنّ الشمس تطلع والظلام لا يزول، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه، فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعًا ورينًا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب، نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلًا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به، فهذا حال امتناع أصل التوبة، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية، فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به، وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥]وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر:٣]إلى غير ذلك من الآيات. وقال ﷺ «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ....» الحديث والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة. وقال ﷺ «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالتَّوْبَةِ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ وَلِمُسِيءِ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» (١)، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل، فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل. وقال ﷺ «لَوْ عَمِلْتُم الخَطَايا حَتى تَبْلُغَ السَّمَاءَ ثُمَّ نَدِمْتُمْ لَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» (٢)، وقال أيضًا: «إِنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ، فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يَكُونُ نُصْبَ عَيْنِيه تائبًا مِنْهُ فارًّا حَتَّى يُدْخُلَ الجَنَّةَ» (٣)، وقال ﷺ «كَفَّارَةُ الذَّنْبِ النَّدَامَةُ» (٤)، وقال ﷺ «التَّائب مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ».

---

(١) صحيح: حديث «إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار».... الحديث رواه مسلم من حديث أبي موسى بلفظ «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار... الحديث» [مسلم: ٢٧٥٩] وفي رواية للطبراني «لمسيء الليل أن يتوب بالنهار... الحديث».

(٢) حسن صحيح: حديث «لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ «لو أخطأتم» وقال «ثم تبتم».[ابن ماجه: ٤٢٤٨].

(٣) ضعيف: حديث «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة». أخرجه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلا، ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة «إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه، فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له... الحديث» وفيه صالح المرى، وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث. ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر «إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه» والحديث غير محفوظ، قاله العقيلي. [الضعيفة: ٢٠٣١].

(٤) ضعيف: حديث «كفارة الذنب الندامة». أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن

ويروى «أن حبشيًا قال: يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال: «نعم» فولى ثم رجع فقال: يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها؟ قال: «نعم» فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه»[١].

ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه[٢].

وقال ﷺ: «إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبن السَّيِّئَاتِ كَمَا يُذْهِبُ المَاءُ الوَسَخَ»[٣]، والأخبار في هذا لا تحصى.

وأما الآثار: فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٥] في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

وقال الفضيل: قال الله تعالى: بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصدّيقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم.

وقال طلق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: من ذكر خطيئة ألمَّ بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب.

ويروى أن نبيًا من أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لئن عدت لأعذبنك، فقال: يا ربِّ أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تعصمني لأعودن فعصمه الله تعالى.

وقال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادمًا حتى يدخل الجنة فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب.

وقال حبيب بن ثابت: تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول: أما إني قد كنت مشفقًا منه، فيغفر له.

عباس، وفيه يحيى بن عمرو بن مالك اليشكري ضعيف. [أحمد: ٢٦١٨، وانظر الضعيفة: ٢٢٣٦].

(١) حديث «أن حبشيا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من التوبة قال: «نعم». لم أجد له أصلا.

(٢) حسن: حديث «إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح». أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أزال أغوى عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني، أورده المصنف بصيغة: ويروي كذا ولم يعزه إلى النبي صلى الله عليه، فذكرته احتياطا. [أحمد: ٢٧٦٢٧، وانظر الصحيحة: ١٠٤، وصحيح الجامع: ١٦٥٠].

(٣) حديث «إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ». لم أجده بهذا اللفظ، وهو صحيح المعنى وهو بمعنى «أتبع السيئة الحسنة تمحها» رواه الترمذي وتقدم قريبا.

ويروى أن رجلًا سأل ابن مسعود عن ذنب ألمَّ به هل له من توبة؟

فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان؛ فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكًا موكلًا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس.

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم: تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨] فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالًا، ولقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام.

وقال عبد الله بن سلام: لا أحدّثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنبًا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين.

وقال عمر رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوّابين فإنهم أرق أفئدة.

وقال بعضهم: أنا أعلم متى يغفر الله لي. قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب عليَّ.

وقال آخر: أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة، أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة.

ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلًا يقول ولا يرى شخصًا: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: إن لله عبادًا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندمًا وحزنًا، فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عي ولا بكم، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبرو جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة، فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة.

فإن قلت: أفتقول ما قالته المعتزلة من أنّ قبول التوبة واجب على الله؟ فأقول: لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله: إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ، وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش، وإنه إذا منع الماء مدّة

وجب العطش، وإنه إذا دام العطش وجب الموت، وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى، بل أقول: خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية، والحسنة ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلًا للعطش، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة، فلا واجب على الله تعالى، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة.

فإن قلت: فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته، والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه؟ فأقول شكه في القبول كشكه في وجود شرائط الصحة، فإنّ للتوبة أركانًا وشروطًا دقيقة كما سيأتي، وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للإسهال في أنه هل يسهل وذلك لشكه في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته، فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى.

الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم أنّ التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته، وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجبًا، فمعرفة الذنوب إذن واجبة، والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أوّلها إلى آخرها، وليس ذلك من غرضنا، ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها، والله الموفق للصواب برحمته.

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أنّ للإنسان أوصافًا وأخلاقًا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله، ولكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات: صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية. وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة، فاقتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثرًا من الآثار كما يقتضي السكر والخل والزعفران في السكنجبين آثارًا مختلفة، فأما ما يقتضي النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبًا: وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات.

الثانية: هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال.

الثالثة: الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفة السبعية، ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال، ويتفرّع عنها جمل من الذنوب، وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أوّلًا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيًا، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق. فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها على العين والسمع، وبعضها على اللسان، وبعضها على البطن والفرج، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح.

قسمة ثانية: اعلم أنّ الذنوب تقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد. فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير، فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجرأة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركًا فالعفو فيه أرجى وأقرب، وقد جاء في الخبر، الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر، وديوان لا يغفر، وديوان لا يترك: فالديوان الذي يغفر: ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى، وأما الديوان الذي لا يغفر: فالشرك بالله تعالى. وأما الديوان الذي لا يترك. فمظالم العباد(١) أي لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها.

قسمة ثالثة: اعلم أنّ الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها، فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة، وهذا ضعيف، إذ قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

---

(١) **ضعيف:** حديث «الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر». أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة، وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره، وله شاهد من حديث سلمان، رواه الطبراني. [أحمد: ٢٥٥٠٠، وانظر ضعيف الجامع: ٣٠٢٢].

[النساء: ٣١] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢] وقال ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر» (١). وفي لفظ آخر: «كفارات لما بينهن إلا الكبائر» وقد قال ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص: «الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس» (٢)، واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك، فقال ابن مسعود: هن أربع. وقال ابن عمر: هن سبع. وقال عبد الله بن عمرو: هن تسع. وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر: الكبائر سبع، يقول: هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع، وقال مرة: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة. وقال غيره: كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر. وقال بعض السلف: كل ما أوجب عليه الحدّ في الدنيا فهو كبيرة، وقيل: إنها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة. وقال ابن مسعود لما سئل عنها: اقرأ من أوّل سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ [النساء:٣١] فكل ما نهي عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة. وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار (٣)، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن

---

(١) صحيح: حديث «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر». رواه مسلم من حديث أبي هريرة. [مسلم: ٢٣٣].

(٢) صحيح: حديث عبد الله بن عمرو «الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس». رواه البخاري. [البخاري: ٦٦٧٥].

(٣) - الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال: الكبائر سبع عشرة جميعها من جملة الأخبار، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم. الشرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره، وشهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس، والسحر، وشرب الخمر والمسكر، وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا، والزنا، واللواط، والقتل، والسرقة، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين.

وسأذكر ما ورد منها مرفوعا، وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «اجتنبوا السبع الموبقات» [البخاري: ٢٧٦٧، ومسلم: ٨٩ عن أبي هريرة] قالوا: يا رسول الله وما هي؟ قال «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف. وقذف المحصنات المؤمنات» ولهما من حديث أبي بكرة «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور - أو قال قول الزور - » [البخاري: ٥٩٧٦، ومسلم: ٨٧ عن أبي بكرة،] ولهما من حديث أنس: سئل عن الكبائر قال «الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين» [البخاري ٥٩٧٧، ومسلم: ٨٨ عن أنس،] وقال «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور، أو قال شهادة الزور» ولهما من حديث ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم: قال «أن تجعل لله ندا وهو خلقك» قلت ثم أي؟ قال «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قلت ثم أي؟ قال «أن تزاني حليلة جارك». [البخاري: ٤٤٧٧، ومسلم: ٨٦ عن ابن مسعود] وللطبراني من حديث سلمة بن قيس: «إنما هي أربع: لا تشركوا بالله شيئا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا» [السلسلة الصحيحة: ١٨٥٣] وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تزنوا، ولا تسرقوا» وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس «الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر» وفيه موقوفا على عبد الله بن عمرو «أعظم الكبائر شرب الخمر» [انظر صحيح الترغيب: ٢٣٧٠] وكلاهما ضعيف. وللبزار من حديث ابن عباس بإسناد حسن: أن رجلا

عمر وغيرهم؛ أربعة في القلب وهي الشرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره. وأربع في اللسان، وهي: شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس، وهي التي يحق بها باطلًا أو يبطل بها حقًا، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلًا ولو سواكًا من أراك. وسميت غموسًا لأنها تغمس صاحبها في النار.

والسحر: وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة. وثلاث في البطن: وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الربا وهو يعلم. واثنتان في الفرج وهما: الزنا واللواط. واثنتان في اليدين وهما: القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين: وهي الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين. وواحدة في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين.

قال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال «الشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله» [انظر السلسلة الصحيحة: ٢٠٥١] وله من حديث بريدة «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ومنع فضل الماء ومنع الفحل» [انظر صحيح الترغيب: ١٨٤٨، وقال الألباني: حسن لغيره] وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، وله من حديث أبي هريرة «الكبائر أولهن الإشراك بالله» وفيه «والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته» وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حثمة في الكبائر «والتعرب بعد الهجرة» [انظر السلسلة الصحيحة: ٢٢٤٤] وفيه ابن لهيعة، وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري «الكبائر سبع» وفيه «والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة» [انظر صحيح الجامع: ٤٦٠٦، وحسنه الألباني] وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني، وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه «الكبائر تسع» فذكر منها واستحلال البيت الحرام» [أبي داود: ٢٨٧٥، وانظر ضعيف الترغيب: ٤٦١] وللطبراني من حديث واثلة «إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل علي ما لم أقل» وله أيضا من حديثه «إن من أكبر الكبائر أن ينتفي الرجل من ولده» ولمسلم من حديث جابر «بين الرجل وبين الشرك – أو الكفر ترك الصلاة» [مسلم: ٨٢] ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو «من الكبائر شتم الرجل والديه» [البخاري: ٥٩٧٣، ومسلم: ٩٠] ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد «من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق» [عند أبي داود: ٤٨٧٦، وانظر السلسلة الصحيحة: ٣٩٥٠] وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: أنه ﷺ مر على قبرين فقال «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وإنه لكبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله» [البخاري: ٢١٦، ومسلم: ٢٩٢] الحديث ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكرة «أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس» [انظر ضعيف الترغيب: ١٦٩٣] الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث أنس «عرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أتيها رجل ثم نسيها» [أبي داود: ٤٦١، والترمذي: ٢٩١٦، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٤] سكت عليه أبو داود واستغربه البخاري والترمذي. وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس «لا صغيرة مع إصرار» [انظر السلسلة الضعيفة: ٤٨١٠، وقال الألباني: منكر] وفيه أبو شيبة الخراساني والحديث منكر يعرف به. وأما الموقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله. وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال: الكبائر الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف، وأكل الربا، والسحر، والزنا، واليمين الغموس الفاجرة، والغلول، ومنع الزكاة، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة وشرب الخمر، وترك الصلاة متعمدا وأشياء مما فرضها الله، ونقض العهد، وقطيعة الرحم. وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس: كل ذنب أصر عليه العبد كبيرة، وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه. وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله: لا صغيرة مع الإصرار، وإسناده جيد، فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون، إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم، وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف. وللبيهقي في الشعب عن ابن عباس أنه قيل له: الكبائر سبع، فقال: هي إلى السبعين أقرب. وروى البيهقي أيضا فيه عن ابن عباس قال: كل ما نهى الله عنه كبيرة والله أعلم.

قال: وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما، وإن يسباه فيضربهما، ويجوعان فلا يطعمهما: هذا ما قاله وهو قريب، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه، فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر، وهي جناية على الأموال، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل، فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرّض له، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله، كيف وفي الخبر: «مِنَ الكَبَائِرِ السَّبَّتَانِ بِالسَّبَّةِ وَمِنَ الكَبَائِرِ اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ المُسْلِمِ»(١)، وهذا زائد على قذف المحصن. وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر(٢).

وقالت طائفة: كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة أم لا: لا يصح. ما لم يفهم معنى الكبيرة، والمراد بها كقول القائل: السرقة حرام أم لا؟ لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أوّلاً ثم البحث عن وجوده في السرقة؛ فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأنّ الكبيرة والصغيرة من المضافات، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة، صغيرة بالإضافة إلى الزّنا، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه، صغيرة بالإضافة إلى قتله. نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة، ونعني بوصفه بالكبيرة: أنّ العقوبة بالنار عظيمة، وله أن يطلق على ما أوجب الحدّ عليه مصيرًا إلى أنّ ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه فيقول: تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه، ثم يكون عظيمًا وكبيرة لا محالة بالإضافة، إذ منصوصات القرآن أيضًا تتفاوت درجاتها، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردّد بين هذه الجهات، ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات، نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ

---

(١) **ضعيف:** حديث «من الكبائر السبّتان بالسّبة، ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم». عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعد بن زيد، والذي عندهما من حديثه «من أربى الربا استطالة الرجل في عرض المسلم بغير حق» كما تقدم.[أبو داود: ٤٨٧٧ وانظر ضعيف الجامع: ٥٢٩١].

(٢) **صحيح:** حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة: إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر. أخرجه أحمد [أحمد: ١٠٦١٢] والبزار بسند صحيح وقال «من الموبقات» بدل الكبائر. ورواه البخاري من حديث أنس [البخاري: ٦٤٩٢] وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال. صحيح الإسناد.

عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء :٣١] وقول رسول الله ﷺ: «الصَّلَوَاتُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إلاَّ الكَبائِر» فإن هذا إثبات حكم الكبائر. والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها، وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر، وإلى ما يشك فيه، فلا يدري حكمه، فالطمع في معرفة حدّ حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله ﷺ بأن يقول: إني أردت بالكبائر عشرًا أو خمسًا ويفصلها فإن لم يرد هذا، بل ورد في بعض الألفاظ: «ثَلاثٌ مِنَ الكَبائِرِ» (١)، وفي بعضها: «سَبْعٌ مِنَ الكَبائِرِ» (٢)، ثم ورد: «أنَّ السَّبَّتَيْنِ بِالسَّبَّةِ الوَاحِدَةِ مِنَ الكَبَائِرِ» وهو خارج عن السبع والثلاث: علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر، فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع؟ وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ الناس في طلبها، نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق. وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب، ونعرف أيضًا أكبر الكبائر، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته. وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعًا أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات :٥٦] أي ليكونوا عبيدًا لي. ولا يكون العبد عبدًا ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بدّ أن يعرف نفسه وربه، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا، وهو المعنيُّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ» (٣)، فصار حفظ الدنيا أيضًا مقصودًا تابعًا للدين لأنه وسيلة إليه. والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال، فكل ما يسدّ باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه ما يسدّ باب حياة النفوس ويليه باب ما يسدّ المعايش التي بها حياة الناس، فهذه ثلاث مراتب، فحفظ المعرفة على القلوب، والحياة على الأبدان، والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يتصوّر أن تختلف فيها الملل، فلا يجوز أنّ الله تعالى يبعث نبيًا يريد ببعثه إصلاح الخلق في

---

(١) **صحيح**: حديث «ثلاثة من الكبائر». أخرجه الشيخان من حديث أبي بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر – ثلاث –... الحديث» وقد تقدم.

(٢) حديث «سبع من الكبائر». رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد «الكبائر سبع» [انظر صحيح الترغيب: ١٨٤٨ وقال الألباني: حسن لغيره] وقد تقدم وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر «من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر... الحديث» [انظر صحيح الترغيب: ١٣٤٠، وحسنه الألباني] ثم عدهن سبعا. وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة «اجتنبوا السبع الموبقات" [سبق تخريجه].

(٣) **ضعيف**: حديث «الدنيا مزرعة الآخرة». لم أجده بهذا اللفظ مرفوعا وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم «نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته.. الحديث»، وإسناده ضعيف. [انظر السلسلة الضعيفة: ٤٦٦٦].

دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله؛ أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال، فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب:

الأولى : ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر، إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل، والوسيلة المقرّبة له إليه هو العلم والمعرفة، وقربه بقدر معرفته، وبعده بقدر جهله، ويتلو الجهل الذي يسمى كفرًا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته، فإن هذا أيضًا عين الجهل، فمن عرف الله لم يتصوّر أن يكون آمنًا ولا أن يكون آيسًا، ويتلو هذه الرتبة: البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشدّ من بعض، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه، ومراتب ذلك لا تنحصر، وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن، وإلى ما يعلم أنه لا يدخل؛ وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع.

المرتبة الثانية : النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر، لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود، إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضي إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض، ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود.

وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوّش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها، بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنى ولا ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنى مباحًا في أصل شرع قصد به الإصلاح، وينبغي أن يكون الزنى في الرتبة دون القتل، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرّك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل وينبغي أن يكون أشدّ من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته.

المرتبة الثالثة : الأموال فإنها معايش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاؤوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما، بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس، إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها، نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر، وذلك بأربع طرق:

أحدها : الخفية، وهي السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالبًا كيف يتدارك.

الثاني : أكل مال اليتيم، وهذا أيضًا من الخفية وأعني به في حق الولي والقيم فإنه مؤتمن

فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف، وبخلاف الخيانة في الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه.

الثالث: تفويتها بشهادة الزور.

الرابع: أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلًا، وبعضها أشدّ من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس. وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها.

وأما أكل الربا فليس إلا أكل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله، وإذا لم يجعل الغصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع، وإن عظم الشرع الرّبا بالزجر عنه فقط عظم أيضًا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة، والمصير إلى أنّ أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر، وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظنّ إلى أنه غير داخل تحت الكبائر، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريًا في الدين، فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين. أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر، وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضًا، لأن العقل محظوظ كما أنّ النفس محظوظة، بل لا خير في النفس دون العقل، فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر، لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس، والقطرة وحدها في محل الشك، وإيجاب الشرع الحدّ به يدل على تعظيم أمره، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع، وليس في قوّة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع، فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع، ولا فللتوقف فيه مجال. وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض، والأعراض دون الأموال في الريبة، ولتناولها مراتب، وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنى، وقد عظم الشرع أمره، وأظن ظنًا غالبًا أن الصحابة كانوا يعدّون كل ما يجب به الحدّ كبيرة، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن، ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرّده لا يدل على كبره وعظمته، بل كان يجوز أن يرد الشرع بأنّ العدل الواحد إذا رأى إنسانًا يزني فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرّد شهادته، فإن لم تقبل شهادته فحدّه ليس ضروريًا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات، فإذن هذا أيضًا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع، فأما من ظن أنّ له أن يشهد وحده، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر.

وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره.

وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضًا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف، وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنى، وضربهم، والظلم لهم بغصب أموالهم، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم، وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر ، إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه ، فالتوقف في هذا أيضًا غير بعيد، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر. فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعني بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات بحكم الشرع. وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعًا وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه، والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والإثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة، وإذن لا مطمع فيه، فطلب رفع الشك فيه محال.

فإن قلت : فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدّها، فكيف يردّ الشرع بما يستحيل معرفة حدّه؟ فاعلم أنّ كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرّق إليه الإبهام، لأن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنى وغيرهما، وإنما حكم الكبيرة أنّ الصلوات الخمس لا تكفرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرؤون على الصغائر اعتمادًا على الصلوات الخمس، وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء :٣١] ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس، فإنّ مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشدّ تأثيرًا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه؛ فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنينًا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادرًا ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلًا، وكل من يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي مقدّماته كسماع الملاهي والأوتار، نعم. من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع، فكل هذه أحكام أخروية، ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حدّ جامع، بل ورد بألفاظ مختلفات، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصَّلاَةُ إِلَى الصَّلاَةِ كَفَّارَةٌ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ إلاّ مِنْ ثَلاثٍ: إِشْرَاكٌ بِاللَّهِ، وَتَرْكُ السُّنَّةِ، وَنَكْثُ

الصَّفْقَةِ»[(١)] ، قيل ما ترك السنة؟ قيل الخروج عن الجماعة. ونكث الصفقة، أن يبايع رجلًا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله، فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حدّ جامع فيبقى لا محالة مبهمًا.

فإن قلت: الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر، والورع عن الصغائر ليس شرطًا في قبول الشهادة، وهذا من أحكام الدنيا فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر، فلا خلاف في أنّ من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته، ولم يذهب أحد إلى أنّ هذه الأمور من الكبائر. وقال الشافعي رضي الله عنه: إذا شرب الحنفي النبيذ حددته ولم أرد شهادته، فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة، فدل على أن الشهادة نفيًا وإثباتًا لا تدور على الصغائر والكبائر، بل كل الذنوب تقدح في العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالبًا بضرورة مجاري العادات. كالغيبة، والتجسس، وسوء الظن، والكذب في بعض الأقوال، وسماع الغيبة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكل الشبهات، وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدًا على المصلحة، وإكرام السلاطين الظلمة، ومصادقة الفجار، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فهذه ذنوب لا يتصوّر أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرّد لأمور الآخرة ويجاهد نفسه مدّة بحيث يبقى على سمعته مع المخالطة بعد ذلك، ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات. وليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل، فإلى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها لا إلى الكبيرة والصغيرة، ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة، وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم، والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أنّ المباح يصير صغيرة بالمواظبة، كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره، فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر.

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا:

اعلم أنّ الدنيا من عالم الملك والشهادة، والآخرة من عالم الغيب والملكوت، وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت، وبالآخرة حالتك بعد الموت، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك، يسمى القريب الداني منها دنيا، والمتأخر آخرة. ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة، فإنا

(١) حديث «الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة». أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الإسناد.

الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت، ولا يتصوّر شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال، ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] وهذا لأنّ عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت، ولذلك قال ﷺ: «النَّاسُ نِيَامٌ فَإذا مَاتُوا انْتَبَهُوا» [(١)]، وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير، فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال، وأعني بكثرة الأمثال ما نعرفه من علم التعبير، ويكفيك منه إن كنت فطنًا ثلاثة أمثلة.

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال: رأيت كأن في يدي خاتمًا أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال: إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر، قال: صدقت. وجاء رجل آخر فقال: رأيت كأني أصب الزيت في الزيتون، فقال: إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سبيت في صغرك، لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل، فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت في صغره. وقال له آخر رأيت كأني أقلد الدرّ في أعناق الخنازير، فقال: إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال، والتعبير من أوّله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال، وإنما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقًا، وإن نظر إلى صورته وجده كاذبًا، فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبًا، فإنه لم يختم به قط، وإن نظر إلى معناه وجده صادقًا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، وقدر عقولهم أنهم في النوم، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل، فإذا ماتوا انتبهوا، وعرفوا أن المثل صادق، ولذلك قال ﷺ: «قَلْبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمنِ» [(٢)]، وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العالمون، فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلًا، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرًا فيثبت لله تعالى يدًا وأصبعًا. تعالى الله عن قوله علوًا كبيرًا. وكذلك في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» [(٣)]، فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك. تعالى الله عن قوله علوًّا كبيرًا. من هاهنا زل من زلّ في صفات إلهية حتى في الكلام وجعلوه صوتًا وحرفًا إلى غير ذلك من الصفات، والقول فيه يطول، وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر

(١) **لا أصل له**: حديث «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا». لم أجده مرفوعا، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب. [الضعيفة: ١٠٢].
(٢) حديث «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن». تقدم.
(٣) حديث «إن الله خلق آدم على صورته». تقدم.

المثال وتناقضه عنده، كقوله ﷺ: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُذْبَحُ» (١) فيثور الملحد الأحمق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول: يا سبحان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسمًا؟ وهل هذا إلا محال، ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامي أنه جيء بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال المعبر: صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط، لأن المذبوح وقع اليأس منه، فإن المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته، وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرّفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له، لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقًا وكان معناه صحيحًا؛ فالرسل أيضًا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفًا بعباده وتيسيرًا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل، فقوله ﷺ: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ» مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها، ولذلك عبر القرآن بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] عن نهاية القدرة، وعبر ﷺ بقوله: «قَلْبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ اصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمنِ» عن سرعة التقليب. وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في «كتاب قواعد العقائد» من ربع العبادات فلنرجع الآن إلى الغرض، فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلتفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته. فنقول: الناس في الآخرة ينقسمون أصنافًا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتًا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلًا ألبتة، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له. وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الأجناس. فنقول: الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين، وفائزين. ومثاله في الدنيا أن يستولي ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون، ويعذب بعضهم مدّة ولا يقتلهم فهم المعذبون، ويخلي بعضهم فهم الناجون، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون، فإن كان الملك عادلًا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق، فلا يقتل إلا جاحدًا لاستحقاق الملك معاندًا له في أصل الدولة، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف

---

(١) صحيح: حديث «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح». متفق عليه من حديث أبي سعيد. [البخاري: ٤٧٣٠، مسلم: ٢٨٤٩].

بملكه وعلوّ درجته، ولا يخلى إلا معترفًا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة، وإهلاك الهالكين إما تحقيقًا بحزّ الرقبة أو تنكيلًا بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاندة، وتعذيب المعذبين في الخفة والشدّة وطول المدّة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم، فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر، فكذلك فافهم أنّ الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون، فمن هالك، ومن معذب مدّة، ومن ناج يحل في دار السلامة، ومن فائز. والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس، والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلًا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر (١)، وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم، وهذه الدركات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي، فلنذكر كيفية توزعها عليها.

الرتبة الأولى: وهي رتبة الهالكين. ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى، إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال، وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجرّدين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه، فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلًا إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق، والجاحدون هم المنكرون، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين، ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥] لا محالة وكل محجوب من محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة فهو لا محالة يكون مخترقًا نار جهنم بنار الفراق، ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وإنما مطالبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره، بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها، وأما النار فقد لا يتقيها. إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد، ولذلك قيل:

وفي فؤاد المحبّ نار جوى ... أحرّ نار الجحيم أبردُها

---

(١) موضوع: حديث «إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة». أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٣٨١].

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا، فقد رئي من غلب عليه الوجد فغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأنّ الغضب نار في القلب، قال رسول الله ﷺ: «الغضب قطعة من النار» (١)، واحتراق الفؤاد أشدّ من احتراق الأجساد، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث إنه يفرّق بين جزأين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشدّ إحكامًا من تأليف الأجسام فهو أشدّ إيلامًا إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب، ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدّة هذا الألم ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم، فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلًا ولم يعدّ ذلك ألمًا وقال: العدو في الميدان مع الصولجان أحب إليّ من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه، بل من تغلبه شهوة البطن لو خيِّر بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبًا. ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذًا، وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب، وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان، فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس، كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان، وليس لكل إنسان قلب؛ ولو كان لما صح قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسًا من القلب. ولست أعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر بل أعني به السر الذي هو من عالم الأمر، واللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته، ولله الخلق والأمر جميعًا، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] هو الأمير والملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبًا، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق، وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد. من عرفها فقد عرف نفسه، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه، وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائح المعنى المطوي تحت قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين في طريق تأويله، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل، لأن الرحمة على

(١) حديث «الغضب قطعة من النار». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه، وقد تقدم.

قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر، فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وهي حكمته يختص بها من يشاء: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطوّلنا النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب، فقد ظهر أنّ رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها.

الرتبة الثانية: رتبة المعذبين. وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه، فإنّ رأس الإيمان هو التوحيد. وهو أن لا يعبد إلا الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة، بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١] وهو أن تذر بالكلية غير الله، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [الأحقاف: ١٣] ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحدّ من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل، وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم، فذلك يقتضي لا محالة نقصانًا في درجات القرب، ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن؛ فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبًا مرتين من وجهين، ولكن شدّة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدّة إنما يكون بسبب أمرين، أحدهما: قوّة الإيمان وضعفه، والثاني: كثرة اتباع الهوى وقلته، وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين. قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧١-٧٢] ولذلك قال الخائفون من السلف: إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي يا حنان يا منان[1] قال الحسن: يا ليتني كنت ذلك الرجل. واعلم أن في الأخبار ما يدل على أنّ آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة، وأن الاختلاف في المدّة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث، وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد وأنّ الاختلاف بالشدّة لا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال

---

(١) ضعيف جداً: حديث «من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي يا حنان يا منان». أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسملي عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن أمية. [أحمد: ١٢٩٩٨، وانظر الضعيفة: ١٢٤٩].

بالمناقشة في الحساب ثم يعفو؛ وقد يضرب بالسياط، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب، ويتطرّق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدّة والشدّة وهو اختلاف الأنواع، إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره؛ فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع؛ وهي بحسب اختلاف قوّة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها. أما شدّة العذاب فبشدّة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرته فبكثرتها، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات؛ وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] وبقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر:١٧] وبقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩] وبقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨] إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه، وجانب العفو والرحمة أرجح؛ إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي» (١)، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠] فإذن هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنًا ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمدّ من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض ، أعني الأركان الخمسة ، ولم يكن منه إلا صغائر متفرّقة لم يصر عليها، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط، فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته، إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمسة والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهنّ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفرًا للصغائر، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرّبين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى، فكذلك يتبع أصناف الإيمان، لأن الإيمان إيمانان: تقليدي كإيمان العوام يصدّقون بما يستمعون ويستمرّون عليه، وإيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه، فيتضح أنّ الكل إلى الله مرجعه ومصيره، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله، فهذا الصنف هم المقرّبون النازلون في الفردوس الأعلى، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى، وهم أيضًا على

---

(١) صحيح: حديث «سبقت رحمتي غضبي». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. [مسلم: ٢٧٥١].

أصناف: فمنهم السابقون ومنهم من دونهم؛ وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى. ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر، إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق. وإنما يغوص فيه الغوّاصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل؛ فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله؛ فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم. وأما المؤمن إيمانًا تقليديًا فمن أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقرّبين، وهم أيضًا على درجات؛ فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته الأدنى من درجات المقرّبين، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها. أعني الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج؛ فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام، فإن تاب توبة نصوحًا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب، لأنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلًا، وإن مات قبل التوبة فهذا أمر محظر عند الموت، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببًا لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليديًا، فإن التقليد وإن كان جزمًا فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال، والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يعفو الله عذابًا يزيد على عذاب المناقشة في الحساب، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار، ومن حيث الشدّة بحسب قبح الكبائر، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات، وعند انقضاء مدّة العذاب ينزل علية البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين: ففي الخبر: «آخِرُ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ يُعْطَى مِثْلَ الدُّنْيَا كُلِّهَا عَشَرَةَ أَضْعَافٍ»(١)، فلا تظن أنّ المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام، كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين؛ فإنّ هذا جهل بطريق ضرب الأمثال، بل هذا كقول القائل: أخذ منه جملًا وأعطاه عشرة أمثاله، وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار؛ فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشر عشيره، بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهيا كلها؛ فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته، فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية، وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال: أعطيته عشرة أمثاله، كان صادقًا، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون؛ فإن روح الجوهرية لا

(١) صحيح: حديث «إن آخر من يخرج من النار يعطي مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف». متفق عليه من حديث ابن مسعود. [البخاري: ٦٥٧١، مسلم: ١٨٦].

تدرك بمجرّد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر، فلذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول: ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال، ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله: إني أعطيته عشرة أمثاله، والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال، فعند ذلك ينكشف له الصدق، والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله ﷺ في هذه الموازنة، إذ يقول ﷺ: «الجَنَّةُ فِي السَّمٰوَاتِ» (١)، كما ورد في الأخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة، وكذلك تفهيم البدوي وكما أن الجوهري مرحوم إذا بلي بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة، فالعارف مرحوم إذا بلي بالبليد الأبله في تفهيم هذه الموازنة، ولذلك قال ﷺ: «ارْحَمُوا ثَلاثَةً: عَالِمًا بَيْنَ الجُهَّالِ، وَغَنِيَّ قَوْمٍ افْتَقَرَ، وَعَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ» (٢)، والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي، وهو المعني بقوله عليه الصلاة والسلام: «البَلاءُ مُوَكَّلٌ بِالأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الأَمْثَلِ فَالأَمْثَلِ» (٣) فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن؛ فإنّ بلاء نوح عليه السلام أيضًا من البلاء العظيم، إذ بلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارًا، ولذلك لما تأذى رسول الله ﷺ بكلام بعض الناس قال: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذا فَصَبَرَ» (٤)، فإذن لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين، ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين، وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة

---

(١) **صحيح**: حديث «كون الجنة في السموات». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن».[البخاري: ٢٧٩٠].

(٢) حديث «ارحموا ثلاثة: عالما بين الجهال». أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس، وعيسى ضعيف، ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال «عالم تلاعب به الصبيان» وفيه أبو البحتري واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين.

(٣) **صحيح**: حديث «البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل». أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ فذكره دون ذكر الأولياء وللطبراني من حديث فاطمة «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون... الحديث».[الترمذي: ٢٣٩٨، وانظر صحيح الجامع: ٩٩٢].

(٤) **صحيح**: حديث «رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر». أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود. [البخاري: ٦٠٥٩].

عند الجاهلين من المبذرين المضيعين، فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّه يُعْطِي آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مَرَّاتٍ» وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حمارًا برجلين، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم؛ فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالإعراض عنها، فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله، إذ ليس ذات الله مدركًا في هذا العالم بالحواس الخمس، وكل من نسي الله أنساه الله – لا محالة – نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقي إلى الأفق الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرًا لأنعمه ومتعرّضًا لنقمته إلا أنه أسوأ حالًا من البهيمة، فإنّ البهيمة تتخلص بالموت. وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضًا راجعة إلى الحضرة، إذ المرجع والمصير للكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[السجدة :١٢] فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه؛ فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال؛ فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطي مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر، ولا يخرج من النار إلا موحد. ولست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الغانمين عن ماله، ومدّة الرقبة والمال مدّة الحياة، فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان، وإنما ينفع الصدق في التوحيد وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله.

وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه، إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل، وهذا التوحيد متفاوت، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال، ومنهم من له مثقال.

ومنهم من له مقدار خردلة وذرّة، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أوّل من يخرج من النار.

وفي الخبر يقال: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينارٍ مِنْ إِيمَانٍ»(١)، وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان، وما بين المثقال والذرّة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة، والموازنة بالمثقال والذرّة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود، وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد، فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك، فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها، ففي الأثر: إن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضي من حسناته حتى لا تبقى له حسنة، فتقول الملائكة يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقي طالبون كثير، فيقول الله تعالى: «ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكًا إلى النار». وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم، إذ ينقل إليه عوضًا عما ظلم به وقد حكي عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال: لا أفعل، ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها. وقال هو وغيره: ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي، فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين، فإنّ ذلك ظنّ يصيب في أكثر الأحوال، ولكن قد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم، إذ ليس في قوّة البشر الوقوف على كنهها، فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام، ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها، فلذلك يجب علينا أن نجوّز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة؛ فإنّ الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى، ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلًا، ولو لم يكن عدلًا لم يصح قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] ولا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ

---

(١) حديث «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان». الحديث تقدم.

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠] وكل ذلك صحيح، فليس للإنسان إلا ما سعى، وسعيه هو الذي يرى، وكل نفس بما كسبت رهينة، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافًا أوضح من المشاهدة بالبصر، إذ البصر يمكن الغلط فيه، إذ قد يرى البعيد قريبًا والكبير صغيرًا. ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها، وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم:١١].

الرتبة الثالثة: رتبة الناجين، وأعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد، وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف، وحلول طائفة من الخلق [1] فيه معلوم يقينًا من الآيات والأخبار ومن أنوار الاعتبار؛ فأما الحكم على العين كالحكم مثلًا بأن الصبيان منهم؛ فهذا مظنون وليس بمستيقن؛ والاطلاع عليه تحقيقًا في عالم النبوة؛ ويبعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء؛ والأخبار في حق الصبيان أيضًا متعارضة. حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة، فأنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال: «وَمَا يُدْرِيك» [2] فإذن

(١) حديث «حلول طائفة من الخلق الأعراف». أخرجه البزار من حديث أبي سعيد الخدري: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال «هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة، وهم على سور بين الجنة والنار... الحديث» وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدني عن أبيه مختصرا، وأبو معشر نجيح السندي ضعيف، ويحيى بن شبل لا يعرف. وللحاكم عن حذيفة قال: «أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة... الحديث» وقال صحيح على شرط الشيخين. وروى الثعلبي عن ابن عباس قال: الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحمزة وعلي وجعفر... الحديث، هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين. [حديث «وهم رجال قتلوا......»، وحديث «أصحاب الأعراف.....»].

(٢) **صحيح**: حديث عائشة أنها قالت لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله وقال «ما يدريك». رواه مسلم. [مسلم: ٢٦٦٢].

قال المصنف: والأخبار في حق الصبيان متعارضة.

قلت: روى البخاري من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبي ﷺ، وفيه «وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة» فقيل يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال وأولاد المشركين». [البخاري: ٧٠٤٧].

وللطبراني من حديثه: سألنا رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال «هم خدمة أهل الجنة» [انظر صحيح الجامع:

الإشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام.

الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين، وهم المقرّبون السابقون؛ فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقرّبون وما يلقى هؤلاء يجاوز حدّ البيان، والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن، فليس بعد بيان الله بيان، والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة :١٧] وقوله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصوّر أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلي والأساور فإنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها، ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها: كيف رغبتك في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار؛ فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه، ويعبر على هذه الحالة بأنه فني عن نفسه، ومعناه أنه صار مستغرقًا بغيره وصارت همومه همًا واحدًا وهو محبوبه، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه

٢٥٨٦] وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة، وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب، وقد ضعفه ابن حبان.

وللنسائي من حديث الأسود بن سريع: كنا في غزاة لنا... الحديث في قتلى الذرية، وفيه «ألا إن خياركم أبناء المشركين» ثم قال «لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة... الحديث» وإسناده صحيح. [أحمد: ١٥١٦٢ وانظر صحيح الجامع: ٥٥٧١].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «كل مولود يولد على الفطرة... الحديث».[البخاري: ١٣٨٥].

وفي رواية لأحمد «ليس مولود يولد إلا على هذه الملة».[أحمد: ٧٣٩٤].

ولأبي داود في آخر الحديث: يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟ فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين».[أبو داود: ٤٧١٢، وصححه الألباني في سنن أبي داود].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين».[البخاري: ٦٥٩٧، مسلم: ٢٦٦٠].

وللطبراني من حديث ثابت بن الحارث الأنصاري: كانت يهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صِدّيق. فقال ﷺ «كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد... الحديث» وفيه عبد الله بن لهيعة.

ولأبي داود من حديث ابن مسعود: «الوائدة والموءودة في النار». [أبو داود: ٤٧١٧، وانظر صحيح الجامع: ٧١٤٢]. وله من حديث عائشة: قلت يا رسول الله ذراري المؤمنين؟ فقال «مع آبائهم» [أبي داود: ٤٧١٢، وانظر المشكاة: ١١١، وصححه الألباني] قلت: بلا عمل؟ قال «الله أعلم بما كانوا عاملين» قلت: فذراري المشركين؟ قال «مع آبائهم» قلت: بلا عمل؟ قال «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وللطبراني من حديث خديجة: قلت يا رسول الله أين أطفالي منك؟ قال «في الجنة» قلت: بلا عمل؟ قال «الله أعلم بما كانوا عاملين» قلت: أطفالي قبلك؟ قال «في النار» قلت: بلا عمل؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين» [انظر كتاب السنة: ٢١٣، وضعفه الألباني] وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحارث وخديجة.

وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين «هم من آبائهم» وفي رواية «هم منهم».[البخاري: ٣٠١٣، ومسلم: ١٧٤٥].

حتى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه، وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرّة عين لا يتصوّر أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر، كما لا يتصوّر أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعًا أنه لم يتصوّر أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق، وبرفعه ينكشف الغطاء، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤] فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات، والله الموفق بلطفه.

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب:

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب:

منها: الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصوّر ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الأَعْمَالِ أَدْوَمُها وَإِنْ قَلَّ» (١)، والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب، إلا أنّ الكبيرة قلما يتصوّر الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصوّرت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره.

منها: أن يستصغر الذنب فإنّ الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدّة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة، وقد جاء في الخبر «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره» (٢)، وقال بعضهم: الذنب الذي لا يغفر قول العبد: ليت كل ذنب عملته مثل هذا،

(١) صحيح: حديث «خير الأعمال أدومها وإن قل». متفق عليه من حديث عائشة بلفظ «أحب» وقد تقدم.

(٢) صحيح: حديث «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه». [البخاري: ٦٣٠٨] أخرجه البخاري. من رواية الحارث ابن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين: أحدهما عن النبي ﷺ، والآخرة عن نفسه، فذكر هذا وحديث

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها، وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين: لا صغيرة، بل كل مخالفة فهي كبيرة، وكذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين: وإنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف.

ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدّة فرحه بمقارفته إياه، كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه، ويقول المناظر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساوئه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه؟ ويقول المعامل في التجارة: أما رأيت كيف روّجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدوّ عليه وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواءه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه.

ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أنه إنما يمهل مقتًا ليزداد بالإمهال إثمًا، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة :٨].

ومنها: أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر، وفي الخبر: «كُلُّ النَّاسِ مُعَافًى إلاَّ

«لله أفرح بتوبة العبد» [هو باقي الحديث السابق] ولم يبين المرفوع من الموقوف، وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا.

المُجَاهِرِينَ يَبِيتُ أَحَدُهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيُصْبِحُ فَيَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ وَيَتَحَدَّثُ بِذَنْبِهِ» (١)، وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر؟ فالإظهار كفران لهذه النعمة. وقال بعضهم: لا تذنب فإن كان ولا بدّ فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة :٦٧] وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهوّنها عليه.

ومنها: أن يكون المذنب عالمًا يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله على السلاطين وتردّده عليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعدّيه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرًا في العالم آمادًا متطاولة، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه. وفي الخبر: «من سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئًا» (٢)، وقال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس :١٢] والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل، وقال ابن عباس: ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق. وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها.

وفي الإسرائيليات: إن عالمًا كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهرًا، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار، فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب، والأخرى إخفاؤه، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا، فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدي به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم، وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك، فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران، وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها.

---

(١) **صحيح**: حديث «كل الناس معافى إلا المجاهرين». متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «كل أمتي» وقد تقدم.

(٢) **صحيح**: حديث «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها». أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم في آداب الكسب.

الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلًا بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شرط فلا بدّ من بيانها: أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي. وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه، وأي عزيز أعز عليه من نفسه وأي عقوبة أشد من النار وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأي مخبر أصدق من الله ورسوله؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبًا: أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه، لطال في الحال حزنه، فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار، فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع، وفي الخبر: «جَالِسُوا التَّوَّابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً» (١)، ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلًا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة.

وفي الإسرائيليات: إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ، وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال ، وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه.

فإن قلت: فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها؟ فأقول: من تناول عسلًا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا؟ **فإن قلت**: لا، فهو جحد للمشاهدة والضرورة، بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضًا لشبهه به، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان. ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون، فلا ترى إلا معرضًا

---

(١) **لا أصل له**: حديث «جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة». [انظر السلسلة الضعيفة: ١٠٣، وقال الألباني: لا أصل له]لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال «جالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب» وقال أيضا «فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب» وقال أيضا «التائب أسرع دمعة وأرق قلبا».

عن الله تعالى متهاونًا بالذنوب مصرًا عليها، فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم إلى الموت وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب. وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال؛ وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال. وله تعلق بالماضي؛ وهو تدارك ما فرط. وبالمستقبل؛ وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت.

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يرد فكره إلى أوّل يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرًا شهرًا ويومًا يومًا ونفسًا نفسًا، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها؟ وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها؟ فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد.

وأما الصوم: فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمدًا أو نسي النية بالليل ولم يقض؛ فيتعرّف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه.

وأما الزكاة: فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أوّل ملكه، لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي، فيؤدي ما علم بغالب الظن أنه في ذمته، فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضي جميع ذلك، فإن ذلك لا يجزيه أصلًا، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء.

وأما الحج: فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيًا قال عليه السلام: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نُصْرَانِيًّا»[1]، والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج. فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها.

وأما المعاصي: فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده

(١) حديث «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا». تقدم في الحج.

ورجله وفرجه وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاهٍ وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذًا من قوله ﷺ «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُما كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا» (١)، بل من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنبًا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، ويكفر مس المصحف محدثًا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله بأن يكتب مصحفًا ويجعله وقفًا، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه، وعدّ جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضًا مؤثرًا في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال ﷺ «مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لا يُكَفِّرُها إلاّ الهُمُومُ» (٢)، وفي لفظ آخر: «إلاَّ الهَمّ بِطَلَبِ المَعِيشَةِ» وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه» (٣)، ويقال: إنّ الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع.

---

(١) حديث «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها». أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبعضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس.

(٢) حديث «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم» وفي لفظ آخر «إلا الهم في طلب المعيشة». أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النكاح.

(٣) حديث «إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم». وتقدم أيضا في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ «ابتلاه الله بالحزن».

فإن قلت: همّ الإنسان غالبًا بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة؟ فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة، فقد روي أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له: كيف تركت الشيخ الكئيب؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال: فما له عند الله؟ قال: أجر مائة شهيد. فإذن الهموم أيضًا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأما مظالم العباد؛ ففيها أيضًا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضًا، فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب، لأن ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة، ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعني به الإيذاء المحض.

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول. وإن كان عمدًا موجبًا للقصاص فبالقصاص، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى. بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين، فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روي أن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني فرده فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم، فكان الناس فيه فريقين: فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»[(١)]،

(١) صحيح: حديث: اعتراف ماعز بالزنا ورده ﷺ حتى اعترف أربعا وقوله «لقد تاب توبة». أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب. [مسلم: ١٦٩٥].

وجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني فردها فلما كان من الغد قالت: يا رسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزًا، فوالله إني لحبلى: فقال ﷺ: «أما الآن فاذهبي حتى تضعي» فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت: هذا قد ولدته قال: «اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ» فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت: يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها، فسمع رسول الله ﷺ سبّه إياها فقال: «مَهْلًا يا خَالِدُ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ» ثُمَّ أَمَرَ بها فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ [(١)].

وأما القصاص وحدّ القذف: فلا بدّ من تحليل صاحبه المستحق فيه، وإن كان المتناول ما لا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حدّ بلوغه بل من أوّل مدّة وجوده، فإنّ ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالمًا مطالبًا به، إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أوّل يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة، وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه، فإن حصل مجموع ما عليه بظنّ غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحدًا واحدًا وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره. فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدّة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف؟ وربما يكون الأجل قريبًا؟ فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشدّ من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات. هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته.

أما أمواله الحاضرة فليردّ إلى المالك ما يعرف له مالكًا معينًا وما لا يعرف له مالكًا فعليه أن يتصدّق به، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدّق بذلك

---

(١) صحيح: حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله ﷺ «لقد تابت توبة». أخرجه مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله. [مسلم: ١٦٩٥].

المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام.

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوءهم أو يعيبهم في الغيبة فيطلب كل من تعرّض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدًا واحدًا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضًا في القيامة، وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعدّيه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته، فإن كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوّفه به فقد انسدّ عليه طريق الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب.

وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها، ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنيّ عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فإن هذا حقه، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال، فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضًا في القيامة بحكم الله به عليه، كمن أتلف في الدنيا مالًا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين.

وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلِكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لا.

فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ قَتَلَ مائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ المَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ العَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّه، وَقَالَتْ مَلاَئِكَةِ العَذَابِ إِنَّه لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ حَكَمًا بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا

كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ»(١)، وفي رواية: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها». وفي رواية: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرّبي وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له»، فبهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرّة فلا بدّ للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي.

وأما العزم المرتبط بالاستقبال؛ فهو أن يعقد مع الله عقدًا مؤكدًا ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلًا فيعزم عزمًا جزمًا أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه، فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصوّر أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائبًا ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصوّر أن يتم ذلك للتائب في أوّل أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه، فإن رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائبًا مع الإصرار عليه ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات؟ وقد قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها. وقال آخر: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين، لم يعد إليه أبدًا. ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالمًا أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة، وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب، كالذي يتوب عن الشرب والزّنا والغصب مثلًا، وليست هذه توبة مطلقة.

وقد قال بعض الناس إنّ هذه التوبة لا تصح، وقال قائلون تصح، ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل، بل نقول لمن قال لا تصح: إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلًا بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته. ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولًا يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضًا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع.

هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح إني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم. وإنما يندم على السرقة مثلًا لكونها معصية لا لكونها سرقة؛ ويستحيل أن يندم عليها دون الزّنا إن كان توجعه لأجل المعصية فإنّ العلة شاملة لهما إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لأنّ توجعه بفوات محبوبه سواء

---

(١) صحيح: حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض». هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد. [البخاري: ٣٤٧٠، ومسلم: ٢٧٦٦].

كان بالسيف أو بالسكين، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزّنى فكيف يتوجع على البعض دون البعض؟ فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوّتة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصوّر أن يكون على بعض المعاصي دون البعض، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم ولا يتصوّر الندم على بعض المتماثلات، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول إن العقد لا يصح أي لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك، وتحقيق هذا أنّ ثمرة مجرّد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمرة الندم تكفير ما سبق، فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصوّر الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي، وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء.

فنقول: التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر، أو عن كبيرة دون كبيرة. أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته، والصغائر أقرب إلى تطرّق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندّم عليه، كالذي يجني على أهل الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خائفًا من الجناية على الأهل مستحقرًا للجناية على الدابة، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدًا عن الله تعالى. وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الأعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصومًا فلا تستدعي التوبة العصمة. والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرًا شديدًا، ويحذره السكر تحذيرًا أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلًا، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعًا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر.

الثاني: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضًا ممكن لاعتقاده أنّ بعض الكبائر أشدّ وأغلظ عند الله، كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه، فهذا أيضًا ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر، لأنّ الكبائر أيضًا متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنى مثلًا، إذ يتضح له أنّ الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركًا في المستقبل وندمًا على الماضي.

الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة، كالذي

يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر، فهو أيضًا ممكن، ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندمًا إما ضعيفًا وإما قويًا، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوّة الشهوة فيكون الندم موجودًا ولكن لا يكون مليًا بتحريك العزم ولا قويًا عليه، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية، وقد تشتدّ ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغًا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك؟ بل يقول هذا الفاسق في نفسه: إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخي العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي، فعساني أغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي. ولو لم يتصوّر هذا لما تصوّر من الفاسق أن يصلي ويصوم، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد، فلا يتصوّر أن تقصد بصلاتك التقرّب إلى الله تعالى ما لم تتقرّب بترك الفسق؛ وهذا محال بأن يقول لله تعالى عليّ أمران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان، وأنا مليء في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي فكيف لا يتصوّر هذا وهو حال كل مسلم؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا، وإذا فهم هذا فهم أنّ غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي ﷺ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ» ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ» ولم يقل التائب من الذنوب كلها، وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل إنّ التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرّض إلى سخط الله تعالى، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط، ويتوب عن الكثير دون القليل لأنّ لكثرة الذنوب تأثيرًا في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى، كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بدّ وأن يكون ما تاب عنه مخالفًا لما بقي عليه إما في شدّة المعصية وإما في غلبة الشهوة، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصوّر اختلاف حاله في الخوف والندم، فيتصوّر اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي.

فإن قلت: هل تصح توبة العنين من الزنى الذي قارفه قبل طريان العنة؟ فأقول: لا، لأنّ التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله، وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه، ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنى الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فإني أرجو أن يكون ذلك مكفرًا لذنبه وماحيًا عنه سيئته، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أنّ ندمه بلغ مبلغًا أوجب صرف قصده عن الزنى لو ظهر قصده، فإذن لا يستحيل أن تبلغ قوّة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهي شيئًا يقدّر نفسه قادرًا على تركه بأدنى خوف، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه، بل الظاهر أنه يقبله.

والحقيقة في هذا كله ترجع إلى ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين، أحدهما: حرقة الندم والآخر: شدة المجاهدة بالترك في المستقبل. وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالًا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلًا.

فإن قلت: إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه، فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني: إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة: ذلك الآخر أفضل لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة. وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة.

والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان:

إحداهما: أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوّة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوّة اليقين وقوّة الدين؛ وأعني بقوّة الدين قوة الإرادة التي تنبعث بإشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين، فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعًا. وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ. وهو كقول القائل: العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة، والصبي أفضل من البالغ لأنه

أسلم، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لا عدوّ له والملك ربما يغلب مرّة وإن غلب مرّات، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الأخطار وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار. بل كقول القائل: الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس، لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدي عليه، وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويًا عالمًا بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد.

الحالة الثانية: أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذا بلغ مبلغًا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها. فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها. وقول القائل: ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد فإن الجهاد ليس مقصودًا لعينه، بل المقصود قطع ضراوة العدوّ حتى لا يستجرّك إلى شهواته وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر. ومثاله كمثال من قهر العدوّ واسترقه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم. ومثاله أيضًا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد، ولقد زل في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق. وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود حتى جرّب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال: هذا محال، فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل في اتباع الشهوات. وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات.

فإن قلت: فما قولك في تائبين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندمًا عليه فأيهما أفضل؟ فاعلم أن هذا أيضًا قد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك. وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالإضافة إلى حالين.

وكلام المتصوّفة أبدًا يكون قاصرًا، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال، وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجدّ حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه أمر غيره، إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله. وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلًا مع الاشتراك في أصل

الهداية؟

فأقول: تصور الذنب وذكره والتفجّع عليه كمال في حق المبتدئ؛ لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق، لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله. فهو بالإضافة إلى الغافل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق.

بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرج على غير السلوك، فإن ظهر له مبادئ الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال. بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل، فلو جلس على شاطىء البحر بعد عبوره يبكي متأسفًا على تخريبه الجسر كان هذا مانعًا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع. نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلًا فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله، فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه، وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك ، وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربع المهلكات ، بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته، ولكن إن كان شابًا فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا كالحور والقصور فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة. بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا. فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركًا للشهوة، فالمبتدئ أيضًا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك. ولا يصدّنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام، فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلًا عن ذروة مقامهم، فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيًا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلًا للأمر على المريد. ولذلك قال ﷺ: «أَمَا إِنِّي لا أَنْسَى وَلَكِنِّي أُنَسَّى لِأُشَرِّعَ»(١) ،

---

(١) حديث «أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشرع». ذكره مالك بلاغا بغير إسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد في الموطأ إلا مرسلا لا إسناد له وكذا قال حمزة الكتاني إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنماطي: وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه للأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا.

وفي لفظ «إنما أسهو لأسنّ» .

ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة. أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال ﷺ للحسن: «كخ كخ» (١)، لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها في فيه؟ وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فإنها حرام، ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته. بل الذي يعلم شاة أو طائرًا يصوّت به رغاء أو صفيرًا تشبهًا بالبهيمة والطائر تلطفًا في تعليمه. فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزلة أقدام العارفين فضلًا عن الغافلين. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان أقسام العباد في دوام التوبة:

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات :

الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوّة، فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة: التوبة النصوح. واسم هذه النفس الساكنة: النفس المطمئنة، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ: «سَبَقَ المُفْرَدُونَ المُسْتَهتِرُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَضَعَ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا القِيَامَةَ خِفَافًا» (٢). فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم. وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات. فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه مليء بمجاهدتها وردها، ثم تتفاوت درجات النزاع أيضًا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع. وكذلك يختلفون من حيث طول العمر، فمن مختطف يموت قريبًا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة. ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته. وحال هذا أعلى وأفضل إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء: إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفًا من الله تعالى، واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض. ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم

---

(١) حديث أنه قال للحسن «كخ كخ». لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها في فيه. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام.

(٢) حديث «سبق المفردون المستهترون بذكر الله». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم.

يطمع في الانكفاف، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته. بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه، ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فبه تسلم توبته في الابتداء.

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرّضه لها. وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد، وهذه أيضًا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فإما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد. وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢] فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٥] فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه. وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ فيما رواه عنه علي كرم الله وجهه: «خِيَارُكُمْ كُلُّ مُفَتَّنٍ تَوَّابٍ»[(١)]، وفي خبر آخر: «المُؤْمِنَ كَالسُّنْبُلَةِ يَفِيءَ أَحْيانًا وَيمِيلُ أحيانًا»[(٢)]، وفي الخبر: «لا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ ذَنْبٍ يَأْتِيهِ الفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ»[(٣)]، أي الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين. ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارّة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار، وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة. وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه. بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات

---

(١) ضعيف: حديث علي «خياركم كل مفتن تواب». أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف. [انظر ضعيف الجامع: ٢٨٧٣].

(٢) صحيح: حديث «المؤمن كالسنبلة تفيء أحيانا وتميل أحيانا». أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلا وكلها ضعيفة وقالوا «تقوم» بدل «تفيء» وفي الأمثال للرامهرمزي إسناد جيد لحديث أنس. [انظر صحيح الجامع: ٥٨٤٥].

(٣) صحيح: حديث «لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة». أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة. [انظر صحيح الجامع: ٥٧٣٥].

المختطفات قال النبي ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاؤُونَ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ المُسْتَغْفِرُونَ»[1]، وقال أيضًا «المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعة» أي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [القصص :٥٤] فما وصفهم بعدم السيئة أصلًا.

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمرّ على الاستقامة مدّة، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها، هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسوّل نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويومًا بعد يوم. فهذه النفس هي التي تسمى: النفس المسوّلة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة :١٠٢] فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجوّ فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلًا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين. فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس، فكما لا يصلح لمنصب الرئاسة والقضاء والتقدّم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرًا بطول التزكية والتطهير. هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس :٧-١٠] فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقدًا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان. قال ﷺ: «إنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً حَتَّى

(١) حسن: حديث «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون». أخرجه الترمذي واستغربه والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال «التوابون» بدل «المستغفرون» قلت فيه علي بن مسعدة ضعفه البخاري. [الترمذي: ٢٤٩٩، وانظر صحيح الجامع الصغير: ٤٥١٥].

يَقُولَ النَّاسَ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِها وَلا يَبْقى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إلاَّ شِبْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها»(١)، فإذن الخوف من الخاتمة قبل التوبة. وكل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلًا به، فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أنّ يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين، وهذه النفس هي: النفس الأمارة بالسوء، الفرارة من الخير؛ ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره في مشيئة الله، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خرابًا ليجد كنزًا فيتفق أن يجده، وأن يجلس في البيت ليجعله الله عالمًا بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم. فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرّد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة، وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له، فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم. وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعًا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزًا يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعدّ عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعدّ عند أرباب القلوب من المعتوهين.

والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول: إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل

---

(١) حديث «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة». [البخاري: ٢٨٩٨، ومسلم: ١١٢ عن سهل بن سعد] متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله «سبعين سنة» ولمسلم من حديث أبي هريرة «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة... الحديث» [مسلم: ٢٦٥١] ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة» [ابن ماجه: ٢٧٠٤، وأحمد: ٧٦٨٤، وانظر ضعيف الترغيب: ٢٠٣٨] وشهر مختلف فيه.

هذا الكلام ويستهزىء به ويقول: ما هذا الهوس؟ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب، هكذا قدّره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله، ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأنّ سنته لا تبديل لها فيهما جميعًا، وأنه قد أخبر إذ قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩] فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا؟ وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم، وأنّ ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدّة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا؟ وينسى قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلًا تحت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة:١٢] أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩] فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب.

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق:

اعلم أنّ الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها.

فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو، ويتذلل تذلل العبد الآبق، ويكون ذلك بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد، وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات.

وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول: رب ظلمت نفسي وعملت سوءًا فاغفر لي ذنوبي، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار، كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار.

وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات. وفي الآثار ما يدل على أنّ الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوًّا؛ أربعة من أعمال القلوب وهي: التوبة أو العزم على التوبة، وحب الإقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له. وأربعة من أعمال الجوارح وهي: أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة

وتقول: سبحان الله العظيم وبحمده، مائة مرة ثم تتصدّق بصدقة ثم تصوم يومًا، وفي بعض الآثار: تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين (١)، وفي بعض الأخبار: تصلي أربع ركعات (٢)، وفي الخبر: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها، السر بالسر والعلانية بالعلانية» (٣)، ولذلك قيل: صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار. وفي الخبر الصحيح: أن رجلًا قال لرسول الله ﷺ: إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض عليَّ بحكم الله تعالى فقال ﷺ: «أَوَمَا صَلَّيْتَ مَعَنَا صَلاةَ الغَدَاةِ؟» قال: بلى، فقال ﷺ: «إن الحسنات يذهبن السيئات» (٤)، وهذا يدل على أنّ ما دون الزنى من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله ﷺ: «الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر»، فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات.

فإن قلت: فكيف يكون الاستغفار نافعًا من غير حل عقدة الإصرار، وفي الخبر: «المُسْتَغْفِرُ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ كَالمُسْتَهْزِئِ بِآيَاتِ اللَّهِ» (٥)، وكان بعضهم يقول:

---

(١) صحيح: أثر «إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين». أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه «ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له» – لفظ أبي داود –، وهو في الكبرى للنسائي مرفوعا وموقوفا فلعل المصنف عبر بالأثر لإرادة الموقوف، فذكرته احتياطا وإلا، فالآثار ليست من شرط كتابي. [أبو داود: ١٥٢١، والترمذي: ٣٠٠٦، وابن ماجه: ١٣٩٥، وانظر صحيح الترغيب: ١٦٢١].

(٢) صحيح: حديث: التفكير بصلاة أربع ركعات. أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يهوى امرأة... الحديث وفيه: فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة فقام نادما فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال له النبي ﷺ «صل أربع ركعات» فأنزل الله عز وجل ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود:١١٤] الآية وإسناده جيد. [أبو داود: ٤٤٦٨ بنحوه عن ابن مسعود، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٦٣].

(٣) حسن: حديث «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية». [صحيح الجامع: ١٠٤٠، وحسنه الألباني] أخرجه البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ «وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر... الحديث» [انظر صحيح الترغيب: ٣١٤٤، وقال الألباني: حسن لغيره].

(٤) صحيح: حديث: أن رجلا قال يا رسول الله إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض علي بحكم الله تعالى فقال ﷺ «أَوَمَا صليت معنا صلاة الغداة» قال: بلى، فقال ﷺ «إن الحسنات يذهبن السيئات». متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله «أو ما أصليت معنا صلاة الغداة» ورواه مسلم من حديث أنس وفيه «هل حضرت معنا الصلاة» قال: نعم، ومن حديث أبي أمامة وفيه «ثم شهدت الصلاة معنا» قال: نعم... الحديث. [البخاري: ٥٢٦، ومسلم: ٢٧٦٣ عن أنس، ومسلم: ٢٧٦٥ عن أبي أمامة، وهو عند أبي داود: ٤٤٦٨ عن ابن مسعود واللفظ له، وانظر صحيح أبي داود، وقال الألباني: حسن صحيح].

(٥) ضعيف: حديث «المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله». أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ «كالمستهزئ بربه» وسنده ضعيف. [انظر ضعيف الجامع: ٢٤٩٨].

أستغفر الله من قولي أستغفر الله، وقيل: الاستغفار باللسان توبة الكذابين. وقالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ، ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات ، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال :٣٣] فكان بعض الصحابة يقول: كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا [١] فنقول: الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرّد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله، وكما يقول إذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه، وهذا يرجع إلى مجرّد حركة اللسان ولا جدوى له، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال ﷺ: «ما أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً» [٢]، وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب. وللتوبة والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها ولذلك قال سهل: لا بدّ للعبد في كل حال من مولاه، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء فإن عصى قال يا رب استر عليَّ، فإذا فرغ من المعصية قال يا رب تب عليَّ، فإذا تاب قال يا رب ارزقني العصمة، وإذا عمل قال يا رب تقبل مني. وسئل أيضًا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال: أوّل الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة، ولا يستقرّ هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه، ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش. وسئل أيضًا عن قوله ﷺ: «التَّائِبُ حَبِيبُ اللَّهِ» فقال: إنما يكون حبيبًا إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة :١١٢] الآية. وقال: الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه.

(١) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال :٣٣] الآية «كان لنا أمانان ذهب أحدهما». [أحمد: ١٩٠١٢] أخرجه أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه «أنزل الله عليّ أمانين... الحديث» [الترمذي: ٣٠٨٢، وانظر السلسلة الضعيفة: ١٦٩٠] وضعفه، وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس.

(٢) ضعيف: حديث «ما أصر من استغفر». تقدم في الدعوات. [أبو داود: ١٥١٤، والترمذي: ٣٥٥٩ عن أبي بكر، انظر السلسلة الضعيفة: ٤٤٧٤].

والمقصود أن للتوبة ثمرتين:

إحداهما: تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له.

والثانية: نيل الدرجات حتى يصير حبيبًا. وللتكفير أيضًا درجات: فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات ، وإن خلا عن حل عقدة الإصرار. من أوائل الدرجات ، فليس يخلو عن الفائدة أصلًا، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها. بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧] صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرّات وذلك بالضرورة محال، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللًا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول: أي غنى يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب؟ ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطًا خيطًا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة. فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلًا. بل أقول: الاستغفار باللسان أيضًا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانًا بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي: إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل. فقال: أشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوّده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول. وما ذكره حق فإن تعوّد الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي. فمن تعوّد لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبًا؛ سبق لسانه إلى ما تعوّد فقال: أستغفر الله. ومن تعوّد الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحمقك وما أقبح كذبك ومن تعوّد الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادىء الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان: نعوذ بالله، وإذا تعوّد الفضول قال: لعنه الله، فيعصي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠] ومعاني قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠] فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان، حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول، هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات، وتضعيف الآخرة ﴿أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤١] فإياك وأن

تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات، فإن هذه مكيدة روّجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر، فأي خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب؟ فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات.

أما السابق فقال: صدقت يا ملعون ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلًا. فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب، فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه.

وأما الظالم المغرور: فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل: وافق شنّ طبقه وافقه فاعتنقه.

وأما المقتصد: فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب، ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير.

فكان السابق كالحائك الذي ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتبًا، والظالم المتخلف كالذي ترك الحياكة أصلًا، وأصبح كناسًا، والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال: لا أنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة.

ولذلك قالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير. فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله، بل تذم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضًا احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فإن هذه أمور تثبت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة، بل ينبغي أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي. ولذلك قال جعفر الصادق: إن الله تعالى خبأ ثلاثًا في ثلاث؛ رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئًا فلعل رضاه فيه، وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئًا فلعل غضبه فيه، وخبأ ولايته في عباده فلا تحقروا منهم أحدًا فلعله ولي الله تعالى.

وزاد: وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه.

* * *

الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان: شاب لا صبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «تعجب ربك من شاب ليست له صبوة»(١)، وهذا عزيز نادر.

والقسم الثاني: هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب، ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين، وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه. فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله. ولا يبطل الشيء إلا بضدّه. ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة، والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝﴾ [النحل: ١٠٨-١٠٩] فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار. فإذن لهذا الدواء أصلان: أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانهما.

فإن قلت: أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص؟ فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار. فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم فنقول: يحتاج المريض إلى التصديق بأمور:

الأول: أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابًا يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب، وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإنّ من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك. وهذا وزانه مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أنّ للسعادة في الآخرة سببًا هو الطاعة وللشقاوة سببًا هو المعصية وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع، وهذا لا بدّ من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان.

الثاني: أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما

---

(١) ضعيف: حديث «تعجب ربك من الشاب ليست له صبوة». أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة. [أحمد: ١٦٩٢٠، وانظر ضعيف الجامع: ١٦٥٨].

يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب، فإنّ إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان. ووزانه مما نحن فيه: العلم بصدق الرسول ﷺ والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف.

الثالث: أنه لا بد أن يصغي إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدّة الخوف باعثة له على الاحتماء. ووزانه من الدين: الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج.

الرابع: أن يصغي إلى الطبيب فما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرّفه أوّلًا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص. ووزانه من الدين: أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة؟ وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها.

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذي هم ورثة الأنبياء، فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم، وإن كان لا يدري أنّ ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرّفه ذلك، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم، ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه، بل ينبغي أن يتصدّى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدًا واحدًا فيرشدونهم، فإنّ مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم، كما أنّ الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره، وهذا فرض عين على العلماء كافة. وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيهًا متدينًا يعلم الناس دينهم فإنّ الخلق لا يولدون إلا جهالًا فلا بدّ من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع. والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم. ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان.

والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العلم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه

الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس.

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

إحداها: أنّ المريض به لا يدري أنه مريض.

والثانية: أنّ عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن فإنّ عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه، وما بعد الموت غير مشاهد. وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال.

والثالثة: وهو الداء العضال؛ فقد الطبيب، فإنّ الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضًا شديدًا عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضًا، لأنّ الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافًا من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا وإذ لم يصلحوا لم يفسدوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألذ في الأسماع وأخف على الطباع، فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله.

ومهما كان الطبيب جاهلًا أو خائنًا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه. فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادي العلة. أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية: فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال. وكذلك المصر على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظامًا لذنوبه التي سبقت: يعالج أيضًا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب. فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلبًا للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء.

فإذن فساد الأطباء هي المعضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلًا.

فإن قلت: فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق؟ فاعلم أنّ ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه. نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع:

الأوّل: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين، وكذلك ما ورد

من الأخبار والآثار مثل قوله : «ما مِنْ يَوْمٍ طَلَعَ فَجْرُهُ وَلا لَيْلَةٍ غَابَ شَفَقُها إلاَّ وَمَلَكَانِ يَتَجَاوَبَانِ بِأَرْبَعَةِ أَصْوَاتٍ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: يا لَيْتَ هَذا الخَلْقَ لَمْ يُخْلَقُوا وَيَقُولُ الآخَرُ: يا لَيْتَهُمْ إذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا فَيَقُولُ الآخَرُ: يا لَيْتَهُمْ إذْ لَمْ يَعْلَمُوا لِمَاذا خُلِقُوا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا» (١) ، وفي بعض الروايات: «ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ويقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا» وقال بعض السلف: إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها.

وقال بعض السلف: ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفًا؛ فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه، ولعله يتوب إليّ فأغفر له ولعله يستبدل صالحًا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١] وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها» (٢) ، وفي حديث مجاهد: «القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبًا انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسدّ على القلب فذلك هو الطبع» (٣) ، وقال الحسن: إنّ بين العبد وبين الله حدًّا من المعاصي معلومًا إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير.

والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله ﷺ ، فإنه ما خلف دينارًا ولا درهمًا إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه (٤).

---

(١) حديث «ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا! ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا! فيقول الآخر: يا ليتهم إذ علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا». غريب لم أجده هكذا. وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف «إن لله ملكا ينادي في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده... الحديث» وفيه «ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا... الحديث».

(٢) موضوع : حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه «الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات». أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر. [انظر السلسلة الضعيفة : ١٢٧٠].

(٣) حديث مجاهد «القلب مثل الكف المفتوحة». قلت هكذا قال المصنف: وفي حديث مجاهد، وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد رويناه في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة.

(٤) صحيح : حديث: أنه ﷺ ما خلف دينارا ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة. أخرجه البخاري من حديث عمرو بن الحارث قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة. ولمسلم من حديث عائشة ما ترك دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا. وفي حديث أبي الدرداء: إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما

النوع الثاني: حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق، مثل أحوال آدم في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة، حتى روي أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه، ونودي من فوق العرش: اهبطا من جواري فإنه لا يجاورني من عصاني. قال: فالتفت آدم إلى حوّاء باكيًا وقال: هذا أوّل شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب.

وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يومًا، وقيل: لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل، وقيل: بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه فسلب ملكه أربعين يومًا فهرب تائهًا على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطعموني فإني سليمان بن داود شج وطرد وضرب. وحكي أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه. وفي رواية: أخرجت عجوز جرّة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين، أيام العقوبة، قال: فجاءت الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال: لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم في عذركم الآن إنّ هذا أمر كان من السماء ولا بدّ منه.

وروي في الإسرائيليات: أنّ رجلًا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها، فجاهدها واستعصم، قال: فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبيًا في بني إسرائيل. وفي قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام: بم أطلعك الله على علم الغيب؟ قال: بتركي المعاصي لأجل الله تعالى. وروي أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديدًا فكأنه أعجبه قال: فوضعته الريح، فقال: لم فعلت هذا ولم آمرك؟ قالت: إنما نطيعك إذا أطعت الله. وروي أنّ الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدري لم فرّقت بينك وبين ولدك يوسف؟ قال: لا، قال: لقولك لإخوته: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف:١٣] لم خفت عليه الذئب ولم ترجني؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له؟ وتدري لم رددته عليك؟ قال: لا، قال: لأنك رجوتني وقلت: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف:٨٣] وبما قلت: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟﴾ [يوسف:٨٧] وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك:

إنما ورثوا العلم... الحديث وقد تقدم في العلم. [البخاري: ٢٧٣٩ عن عمرو بن الحارث، ومسلم: ١٦٣٥ عن عائشة، وحديث أبي الدرداء عند الترمذي: ٢٦٨٢، وانظر صحيح الترمذي، ولم أره عند مسلم].

﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف :٤٢] قال الله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف :٤٢].

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسمار، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أنّ الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار؟ نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثمًا ولأن عذاب الآخرة أشدّ وأكبر. فهذا أيضًا مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرّر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوف به فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر، كما حكي في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه، قال ﷺ: «إنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ» (١)، وقال ابن مسعود: إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه؛ وهو معنى قوله عليه السلام: «مَنْ قَارَفَ ذَنْبًا فَارَقَهُ عَقْلٌ لا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا» (٢)، وقال بعض السلف: ليست اللعنة سوادًا في الوجه ونقصًا في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه، وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون.

وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي في الوحل جامعًا ثيابه محترزًا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط، فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول: هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين فعندها يخوض في الذنوب خوضًا. وهو إشارة إلى أنّ الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر، ولذلك قال الفضيل: ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورّثتك ذلك. وقال بعضهم: إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري.

وقال آخر: أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي. وقال بعض صوفية الشام: نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه فوقفت أنظر إليه فمرّ بي ابن الجلاء الدمشقي فأخذ بيدي فاستحييت

---

(١) ضعيف: حديث «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظ له إلا أنه قال «الرجل» بدل «العبد» من حديث ثوبان. [ابن ماجه: ٤٠٢٢، وانظر ضعيف الترغيب: ١٤٧٣].

(٢) حديث «من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا». تقدم. وقال العراقي لم أجد له اصلا.

منه فقلت: يا أبا عبد الله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار فغمز يدي وقال: لتجدنَّ عقوبتها بعد حين، قال: فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة وقال أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة. وقال: لا يفوت أحدًا صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه.

وفي الخبر: «ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم» (١)، وفي الخبر: «يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي» (٢)، وحكي عن أبي عمرو بن علوان، في قصة يطول ذكرها، قال فيها: كنت قائمًا ذات يوم أصلي فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال، فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام، وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سوادًا حتى انكشف بعد ثلاث، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إليَّ فأشخصني من الرقة، فلما أتيته قال لي: أما استحييت من الله تعالى كنت قائمًا بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون، قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة؟.

واعلم أنه لا يذنب العبد ذنبًا إلا ويسود وجه قلبه فإن كان سعيدًا أظهر السواد على ظاهره لينزجر، وإن كان شقيًا أخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار.

والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره. بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته، فإن ابتلي بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يضاعف شقاؤه، وإن أصابته نعمة كانت استدراجًا له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه. وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته.

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنى والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد، وكل ذلك مما لا يمكن حصره، وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولًا بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرّض لما وقف عليه اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له واحد أوصني يا

---

(١) حديث «ما أنكرتم من زمانكم فبما أنكرتم من أعمالكم». أخرجه البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبد الله ابن هانئ. قلت: هو متهم بالكذب، قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل.

(٢) حديث «يقول الله إني أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذة مناجاتي». غريب لم أجده.

رسول الله ولا تكثر عليّ قال: «لا تَغْضَبْ» (١)، وقال له آخر أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام: «عَلَيْكَ بِاليَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الغِنَى، وإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الفَقْرُ الحَاضِرُ، وَصَلِّ صَلاَةَ مُوَدِّعٍ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ» (٢)، وقال رجل لمحمد بن واسع: أوصني، فقال: أوصيك أن تكون ملكًا في الدنيا والآخرة قال: وكيف لي بذلك؟ قال: الزم الزهد في الدنيا.

فكأنه ﷺ توسم في السائل الأوّل مخائل الغضب فنهاه عنه، وفي السائل الآخر مخائل الطمع في الناس وطول الأمل. وتخيل محمد بن واسع في السائل مخائل الحرص على الدنيا. وقال رجل لمعاذ: أوصني، فقال: كن رحيمًا أكن لك بالجنة زعيمًا. فكأنه تفرّس فيه آثار الفظاظة والغلظة. وقال رجل لإبراهيم بن أدهم، أوصني فقال: إياك والناس وعليك بالناس ولا بدّ من الناس فإنّ الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي النسناس وما أراهم بالناس بل غمسوا في ماء اليأس. فكأنه تفرّس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته، وكان الغالب أذاه بالناس.

والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل. وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتابًا يوصيني فيه ولا تكثري، فكتبت إليه: من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ سَخَطَ اللَّهِ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ» (٣)، والسلام عليك. فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة بصددها؟ وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم. وكتبت إليه مرة أخرى. أما بعد، فاتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس. وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئًا والسلام.

فإذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان.

فإن قلت: فإن كان الواعظ يتكلم في جمع أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل؟ فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب

(١) **صحيح**: حديث: قال رجل أوصني ولا تكثر علي قال «لا تغضب». تقدم. [الترمذي: ٢٠٢٠، وانظر السلسلة الصحيحة: ١٣٢٧].

(٢) **حسن**: حديث قال له آخر: أوصني قال «عليك باليأس». أخرجه ابن ماجه والحاكم وقد تقدم. [ابن ماجه: ٤١٧١، وانظر صحيح ابن ماجه].

(٣) **صحيح**: حديث عائشة «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس». أخرجه الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسم. [الترمذي: ٢٤١٤، وانظر صحيح الترغيب: ٢٢٥٠].

العلل.

ومثاله ما روي أن رجلًا قال لأبي سعيد الخدري: أوصني، قال: عليك بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان وقال رجل للحسن: أوصني، فقال: أعز أمر الله يعزك الله.

وقال لقمان لابنه: يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك، وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالًا وعلى أعناق الرجال كلًّا، وصم صومًا يكسر شهوتك ولا تصم صومًا يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين. وقال أيضًا لابنه: يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت، يا بني إن من يرحم يُرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم. وقال رجل لأبي حازم: أوصني، فقال: كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه. وقال موسى للخضر عليهما السلام: أوصني، فقال: كن بسامًا ولا تكن غضابًا وكن نفاعًا ولا تكن ضرارًا وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران. وقال رجل لمحمد بن كرام: أوصني، فقال: اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف: أوصني فقال: اجعل لدينك غلافًا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات، قال: وما غلاف الدين؟ قال: ترك طلب الدنيا إلا ما لا بدّ منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بدّ منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بدّ منه.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى أما بعد، فخف مما خوّفك الله واحذر مما حذّرك الله وخذ مما في يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه فكتب إليه: أما بعد؛ فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ولا بدّ لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك. وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أما بعد، فإن الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه يصبر على شدّة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء. وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدي بن

أرطأة: أما بعد، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فغمتهم وأما أعداؤه فغرتهم. وكتب أيضًا إلى بعض عماله. أما بعد، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئًا إلا كان زائلًا عنهم باقيًا عليك، واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام.

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته، فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها. ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي واستشرى الفساد، وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعًا وينشدون أبياتًا ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرًا من القلب ليصل إلى القلب، بل القائل متصلف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف.

فإذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى، وطلب العلماء أول علاج العاصين. فهذا أحد أركان العلاج وأصوله.

الأصل الثاني الصبر: ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وإنما يتناول ذلك: إما لغفلته عن مضرته، وإما لشدة غلبة شهوته؛ فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة. فيبقى علاج الشهوة ، وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس ، وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوّة الخوف على الألم الذي يناله في تركه، فلا بدّ على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي، كالشاب مثلًا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقري المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فإذا اشتدّ خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته. ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر إليه، وعلاجه الهرب والعزلة. ومن داخل: تناول لذائذ الأطعمة، وعلاجه الجوع والصوم الدائم. وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم، وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعث الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك. فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره للعسرى فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى. وما

على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإنما لله الآخرة والأولى.

فإن قلت: فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف، والخوف لا يكون إلا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان؛ فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن؟ فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة. ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور:

أحدها: أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر.

الثاني: أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق وقد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف، والعادة طبيعة خامسة، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١] وقال عز وجل: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦] وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»(١)، وقوله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إلَيْها، فَنَظَرَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا فَحَفَّها بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لا يَبْقَى أَحَدٌ إلاَّ دَخَلَهَا. وَخَلَقَ الجَنَّةَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَنَظَرَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إلاَّ دَخَلَهَا فَحَفَّهَا بِالمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ»(٢)، فإذًا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرًا إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدّة عطشه مكذبًا بأصل الطب ولا مكذبًا بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الألم المنتظر.

الثالث: أنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات، وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير، فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان.

---

(١) صحيح: حديث «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات». متفق عليه من حديث أبي هريرة. [البخاري: ٦٤٨٧، ومسلم: ٢٨٢٣].

(٢) حسن: حديث «إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها». أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة.[أبو داود: ٤٧٤٤، والترمذي: ٢٥٦٠، وانظر صحيح الترغيب: ٣٦٦٩].

الرابع: أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجابًا لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالًا على فضل الله تعالى. فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان.

نعم. قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكًا في صدق الرسل وهذا هو الكفر، كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر.

فإن قلت: فما علاج الأسباب الخمسة؟ فأقول: هو الفكر، وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب، أن كل ما هو آت آت وأن غدًا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب، والمتأخر إذا وقع صار ناجزًا، ويذكر نفسه أنه أبدًا في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال، إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح الذي يظنّ أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف ما بعده، ومفارقته للدنيا لا بدّ منها، فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلًا وأبدًا؟ فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبه فيقول: كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعي الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق؟ وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا؟ وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول: إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد؟ وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة؟ وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، لأن المسوّف يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وإن بقي فلا يقدر على الترك غدًا كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غدًا بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها. وعن هذا هلك المسوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدًا شاق. وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوي

الضعيف.

وأما المعنى الرابع: وهو انتظار عفو الله تعالى، فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرًا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان، وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل، وقال: أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة وقد حكي في الأسمار أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله. فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل، إذ قد لا يمكن ولا يكون.

وأما الخامس: وهو شك فهذا كفر، وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول. ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحدّ عقله، فيقال له: ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة؟ فإن قال: أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء. وإن قال: أنا شاك فيه، فيقال: لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألذ الأطعمة؟ فيقول: أتركه لا محالة لأني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام، والصبر عنه وإن كان شديدًا فهو قريب، وإن صدق فتفوتني الحياة، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد. فيقال له: يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء، ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوي الألباب، عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضًا فيما يقول؟ فليس في العقلاء إلا من صدّق باليوم الآخر وأثبت ثوابًا وعقابًا وإن اختلفوا في كيفيته، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدّرة. فلا يبقى له توقف إن كان عاقلًا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدّة العمر إلى أبد الآباد، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائرًا يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبدًا الآباد شيئًا، فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلًا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد؟ ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعرّي:

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تبعث الأموات قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر ... أو صحّ قولي فالخسار عليكما

ولذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكًا: إن

صح ما قلت فقد تخلصنا جميعًا وإلا فقد تخلصت وهلكت أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال.

فإن قلت: هذه الأمور جلية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته؟ وما علاج القلوب لردّها إلى الفكر لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله؟ فاعلم أنّ المانع من الفكر أمران:

أحدهما: أنّ الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرّج والاستراحة.

والثاني: أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخرًا لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك.

وأما علاج هذين المانعين: فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألمًا بذكره مع استحقار ألم مواقعته، فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به؟ وأما الثاني وهو كون الفكر مفوتًا للذات الدنيا؛ فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها، ولذات الدنيا سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر. وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأنس به؟ ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيًا، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة؟ نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنًا كما كان الشر ديدنًا، فالنفس قابلة ، ما عوّدتها تتعوّد والخير عادة والشر لجاجة.

فإذن هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات، ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر، فيصير الفكر موافقًا للطبع فيميل القلب إليه.

ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق، إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة.

وقد روي في حديث طويل: أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني؟ فقال علي رضي الله عنه: بني على أربع دعائم: على الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت

العلماء، ومن عمي نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، ومن شك غرّته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب. فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر في التوبة كاف. وإذا كان الصبر ركنًا من أركان دوام التوبة فلا بدّ من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى.

* * *

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء، المنفرد برداء الكبرياء، المتوحد بصفات المجد والعلاء، المؤيد صفوة الأولياء بقوّة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء، والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء.

أما بعد: فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر (١) كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار. وهما أيضًا وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبورًا وشكورًا، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان؟ والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان، فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان. ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى.

الشطر الأول: في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر، وبيان حده وحقيقته، وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوّة والضعف، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه. فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى.

بيان فضيلة الصبر:

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعًا، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة:٢٤] وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف:١٣٧] وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٦] وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾

---

(١) حديث «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف.

[القصص:٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠] فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به» فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦] وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥] وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين. واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول.

وأما الأخبار فقد قال ﷺ: «الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ»[(١)] على ما سيأتي وجه كونه نصفًا وقال ﷺ: «مِنْ أَقَلِّ ما أُوتِيتُمْ اليَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّه مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ بِمَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، وَلأَن تَصْبِرُوا عَلَىَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُوَافِيَنِي كُلُّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ جَمِيعِكُمْ وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُم الدُّنْيَا بَعْدِي فَيُنْكِرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَيُنْكِرَكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ظَفِرَ بِكَمَالِ ثَوَابِهِ ثم قرأ قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم﴾ [النحل:٩٦]»[(٢)]، الآية. وروى جابر أنه سأل ﷺ عن الإيمان فقال: «الصَّبْرُ والسَّمَاحَةُ»[(٣)]، وقال أيضًا: «الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ»[(٤)]، وسئل مرة: «ما الإيمان؟ فقال: الصبر»[(٥)] وهذا يشبه قوله ﷺ: «الحَجُّ عَرَفَةُ»[(٦)] معناه معظم الحج عرفة وقال أيضًا ﷺ: «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ ما أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ»[(٧)] وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: تخلق بأخلاقي وإن من أخلاقي أني أنا الصبور. وفي حديث عطاء

---

(١) حديث «الصبر نصف الإيمان». أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم. [انظر صحيح الترغيب: ٣٣٩٧، وقال الألباني: صحيح موقوف عن علقمة، وضعيف الجامع: ٣٥٣٦، وضعف رفعه عن ابن مسعود].

(٢) حديث «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر». بطوله تقدم في العلم مختصرا ولم أجده هكذا بطوله.

(٣) صحيح: حديث جابر: سئل عن الإيمان فقال «الصبر والسماحة». أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده. [انظر السلسلة الصحيحة: ٥٥٤].

(٤) حديث «الصبر كنز من كنوز الجنة». غريب لم أجده.

(٥) ضعيف جداً: حديث: سئل مرة عن الإيمان فقال «الصبر». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعا «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» ويزيد ضعيف. [انظر ضعيف الجامع: ٣٥٣٥].

(٦) صحيح: حديث «الحج عرفة». تقدم في الحج. [الترمذي: ٨٨٩، والنسائي: ٣٠١٦، وانظر المشكاة: ٢٧١٤].

(٧) حديث «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس». لا أصل له مرفوعا وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس.

عن ابن عباس: لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: «أمؤمنون أنتم» ؟ فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله. قال: «وما علامة إيمانكم» ؟ قالوا: نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء، فقال ﷺ: «مؤمنون ورب الكعبة» (١)، وقال ﷺ: «فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ» (٢)، وقال المسيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون.

وقال رسول الله ﷺ: «لو كان الصبر رجلًا لكان كريمًا والله يحب الصابرين» (٣)، والأخبار في هذا لا تحصى.

وأما الآثار: فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر. الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر.

وقال علي كرم الله وجهه: بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل. وقال أيضًا: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له. وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين؛ يعني بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى. والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير، وأشار به إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة :١٥٧] وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص:٤٤] بكى وقال: واعجباه أعطى وأثنى أي هو المعطي للصبر وهو المثني. وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر. هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل، وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف، فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق.

بيان حقيقة الصبر ومعناه:

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال. فالمعارف هي الأصول وهي تورث

(١) حديث عطاء عن ابن عباس: دخل على الأنصار فقال «أمؤمنون أنتم؟» فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله». أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء.

(٢) صحيح: حديث «في الصبر على ما تكره خير كثير». أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم. [الترمذي: ٢٥٠٧ عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ يرى شعبة أنه ابن عمر، وانظر صحيح الترمذي].

(٣) ضعيف: حديث «لو كان الصبر رجلا لكان كريما». أخرجه الطبراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي. [انظر ضعيف الجامع: ٤٨٣٢].

الأحوال والأحوال تثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار، والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار. وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى.

واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل ــ كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في قواعد العقائد ــ وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة. فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم. فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة. أما في البهائم فلنقصانها. وأما في الملائكة فلكمالها.

وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوّة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوّة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرًا.

وأما الملائكة عليهم السلام؛ فإنهم جرّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف.

وأما الإنسان؛ فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصًا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، على الترتيب، وليس له قوّة الصبر البتة؛ إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم، ولكنّ الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين؛ أحدهما يهديه، والآخر يقويه، فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين: إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف. فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط، فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ. وأما الدواء النافع مع كونه مضرًا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلًا ولكن لا قدرة له على دفعه؟ فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه، فوكل الله تعالى به ملكًا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد، كما أن نور الهداية أيضًا يختلف في الخلق اختلافًا لا ينحصر.

فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها: باعثًا دينيًا،

ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها: باعث الهوى. وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد.

ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى. فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة. فإن ثبت حتى قهره واستمرّ على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين.

فإذن ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى: الصبر، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة.

وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة.

فإذا قوي يقينه ـ أعني المعرفة التي تسمى إيمانًا وهو اليقين بكون الشهوة عدوًا قاطعًا لطريق الله تعالى ـ قوي ثبات باعث الدين، وإذا قوي ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوّة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة.

وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها. وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين. وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوّي لم يخف عليك أنّ جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست، الذي ينبغي أن يكون مسلمًا له. فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال.

وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة. فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه فيكتب إعراضه سيئة، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة.

وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسيء إليه فيثبت عليه سيئة، وبالمجاهدة مستمدّ من جنوده فيثبت له به حسنة.

وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما فلذلك سميا كرامًا كاتبين. أما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما ولأن الملائكة كلهم كرام بررة، وأما الكاتبون فلإثباتهما الحسنات والسيئات، وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة، وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين: مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى، وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت، إذ قال ﷺ: «من مات فقد

قامت قيامته»(١) ، وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الأنعام:٩٤] وفيها يقال: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء:١٤] أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق، وفيها يساق المتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرًا لا آحادًا. والهول الأول هو هول القيامة الصغرى. ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلاً فإن أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها، بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره، فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان. واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط، فأما بدن غيرك فليس بحظك، والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه، وإلا فالهواء أبدًا متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط، فهي أرضك وترابك الخاص بك، وعظامك جبال أرضك، ورأسك سماء أرضك، وقلبك شمس أرضك، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك، وشعورك نبات أرضك، وأطرافك أشجار أرضك، وهكذا إلى جميع أجزائك، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها، فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفًا، فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كوّرت الشمس تكويرًا، فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكدارًا، فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقًا، فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرًا، فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلاً، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدّت حتى ألقت ما فيها وتخلت، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرّد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك. فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب، والأعمى يستوي عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة، وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره، ومن انشق رأسه فقد انشقت

---

(١) ضعيف: حديث من مات فقد قامت قيامته». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف. [انظر السلسلة الضعيفة: ١١٦٦].

سماؤه إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره؟ فهذه هي القيامة الصغرى. والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال.

واعلم أن هذه الصغرى وإن طوّلنا في وصفها فإنا لم نذكر عشير أوصافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى؛ فإن للإنسان ولادتين:

إحداهما: الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم، وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم. فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم، ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضًا إلى الرحم، بل أوسع وأعظم. فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة.

وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] فالمقرّ بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت. والمقرّ بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدجال.

فما أعظم غفلتك يا مسكين - وكلنا ذلك المسكين - وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى؟ أو ما سمعت قول سيد الأنبياء: «كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا» (١) أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال ﷺ: «اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ المَوْتِ» (٢)، أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون؟ فيأتيهم المرض نذيرًا من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولًا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون، أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون؟ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا

---

(١) ضعيف جداً: حديث «كفى بالموت واعظا». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٠٢].

(٢) ضعيف: حديث «اللهم هون على محمد سكرات الموت». أخرجه الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ «اللهم أعني على سكرات الموت». [انظر الترمذي: ٩٧٨، وابن ماجه: ١٦٢٣، وانظر ضعيف الترمذي].

يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٣١] أم يحسبون أنّ الموتى سافـروا من عندهم فهم معدومون كلا ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يـس:٣٢] ولـكـن ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦] وذلك لأنا ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:٩-١٠].

ولنرجع إلى الغرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول: قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئًا على الصبيان والمجانين، إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الإعراض عنهما، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصوّر منهما إقبال وإعراض، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض.

ولعمري إنه قد تظهر مبادىء إشراق نور الهداية عند سنّ التمييز وتنمو على التدريج إلى سنّ البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضارّ الآخرة بل إلى مضارّ الدنيا، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزًا ولا يعاقب على تركها في الآخرة، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة، بل على القيم العدل والولي البر الشفيق - إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار - أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب.

فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي.

فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقرّبين والصدّيقين، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ كَهاتَيْنِ فِي الجَنَّةِ» (١)، وأشار إلى أصبعيه الكريمتين ﷺ.

بيان كون الصبر نصف الإيمان:

اعلم أنّ الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعًا، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفًا وسبعين بابًا.

واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات.

ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين:

---

(١) صحيح: حديث «أنا وكافل اليتيم كهاتين». أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم. [البخاري: ٥٣٠٤].

أحدهما: أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعًا.

فيكون للإيمان ركنان: أحدهما: اليقين.

والآخر: الصبر. والمراد باليقين. المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين.

والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارّة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل.

فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار. ولهذا جمع رسول الله ﷺ بينهما فقال: «مِنْ أَقَلِّ ما أُوتِيتُمْ اليَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ...» الحديث إلى آخره.

الاعتبار الثاني: أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما، وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر.

فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأوّل.

وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر. وقد يرفع أيضًا إلى رسول الله ﷺ.

ولما كان الصبر صبرًا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين، باعث من جهة الشهوة، وباعث من جهة الغضب؛ فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبرًا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب: قال ﷺ بهذا الاعتبار: «الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ» لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعًا، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان.

فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان: والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة.

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة الى ما عنه الصبر:

اعلم أن الصبر ضربان: أحدهما: ضرب بدني، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها.

وهو إما بالفعل: كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها.

وإما بالاحتمال: كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة. وذلك قد يكون محمودًا إذا وافق الشرع.

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر: وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع

ومقتضيات الهوى. ثم هذا الضرب إن كان صبرًا على شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر.

فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها.

وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس، وتضاده حالة تسمى البطر.

وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن.

وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلمًا ويضاده التذمر.

وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر.

وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتومًا.

وإن كان عن فضول العيش سمي زهدًا ويضاده الحرص.

وإن كان صبرًا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر. ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال: «هو الصبر» لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال: «الحج عرفة»[(١)]، وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرًا فقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي المصيبة. ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي الفقر ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي المحاربة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧] فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها، ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أنّ هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفة، والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعاني أوّلًا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي فإنها وضعت دالة على المعاني.

فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع.

ومن يطلب الأصول من التوابع لا بدّ وأن يزل.

وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢] فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه.

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف:

اعلم أنّ باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

(١) صحيح: حديث «الحج عرفة». أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم في الحج. [الترمذي: ٨٨٩، والنسائي: ٣٠١٦، وابن ماجه: ٣٠١٥، وانظر المشكاة: ٢٧١٤].

أحدها: أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوّة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال من صبر ظفر.

والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصدّيقون المقربون ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين.

وإياهم ينادي المنادي ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله.

واليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم، وقيل لمن قصد إرشادهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠] وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني وهو غاية الحمق كما قال ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ» (١)، وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال: أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت علي فلست أطمع فيها، أو لم يكن مشتاقًا إلى التوبة ولكن قال: إنّ الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي.

وهذا المسكين قد صار عقله رقيقًا لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها، ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلمًا ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرًا عندهم، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر، وسلط ما حقه أن لا يتسلط عليه، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطًا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطًا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه.

فمهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس

---

(١) ضعيف: حديث «الكيس من دان نفسه». تقدم في ذم الغرور. [الترمذي: ٢٤٥٩، وابن ماجه: ٤٢٦٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٩٥٩].

الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلمًا لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته لأن الهوى أبغض إله عبد في الأرض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض.

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] هذا باعتبار القوّة والضعف.

ويتطرّق إليه أيضًا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه: فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات أو لا يغلب شيئًا منها، أو يغلب بعضها دون بعض.

وتنزيل قوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى.

والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقًا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلًا، إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات، وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقًا المدبر يقينًا، ولذلك قيل:

ولم أرَ في عيوب الناس عيبًا ... كنقصِ القادرين على التمامِ

وينقسم الصبر أيضًا باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرًا، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر.

وإذا دامت التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝﴾ [الليل: ٥-٧] ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره، فإنّ الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوّة بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر.

ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين.

فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين. ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا ــ كما سيأتي في كتاب الرضا ــ فالرضا أعلى من الصبر، ولذلك قال ﷺ: «اعْبُدِ اللَّهَ عَلَى الرِّضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَفِي الصَّبْرِ عَلَى ما تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ» (١).

---

(١) حديث «اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير». أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم. [أحمد: ٢٨٠٠ عن ابن عباس، وليس فيه «اعبد الله على الرضا» ولم أقف عليه عند الترمذي].

وقال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاثة مقامات:

أوّلها: ترك الشهوة وهذه درجة التائبين.

وثانيها: الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين.

وثالثها: المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصدّيقين.

وسنبين في كتاب المحبة أنّ مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، كما أنّ مقام الرضا أعلى من مقام الصبر. وكأن هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا.

واعلم أنّ الصبر أيضًا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم. فالصبر عن المحظورات فرض. وعلى المكاره نفل.

والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتًا. وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم. والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر. فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أنّ جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة.

بيان مظان الحاجة الى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال:

اعلم أنّ جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين:

أحدهما: هو الذي يوافق هواه.

والآخر: هو الذي لا يوافقه بل يكرهه. وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما. فهو إذن لا يستغني قط عن الصبر.

النوع الأول: ما يوافق الهوى: وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا.

وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صدّيق.

وقال سهل: الصبر على العافية أشدّ من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال.

والزوج والولد فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٩] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:١٤] وقال ﷺ: «الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ» (١).

ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال: «صَدَقَ اللَّهُ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥] إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ ابْنِي يَتَعَثَّرُ لَم أَمْلِكْ نَفْسِي أَنْ أَخَذْتُه» (٢)، ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار.

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق وفي بدنه ببذل المعونة للخلق وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر ـــ كما سيأتي ـــ وإنما كان الصبر على السراء أشدّ لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك؛ والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء.

النوع الثاني: ما لا يوافق الهوى والطبع، وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب. أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان:

الضرب الأوّل: الطاعة، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] ولكن فرعون وجد له مجالًا وقبولًا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه، وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعًا من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء.

---

(١) صحيح: حديث «الولد مجبنة مبخلة محزنة». أخرجه أبو يعلى الموصلي من حديث أبي سعيد وتقدم. [ابن ماجه: ٣٦٦٦، وانظر صحيح الجامع: ١٩٩٠].

(٢) صحيح: حديث «لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قميصه نزل عن المنبر». أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذي حسن غريب. [أبو داود: ١١٠٩، والترمذي: ٣٧٧٤، وابن ماجه: ٣٦٠٠، والنسائي: ١٤١٣، وانظر صحيح أبي داود].

فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقًا.

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة.

ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة. ومنها ما يكره بسببهما جميعًا كالحج والجهاد. فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

الأولى: قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء.

وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكائد النفس. وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى» (١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود:١١].

الحالة الثانية: حالة العمل، كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضًا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩] أي صبروا إلى تمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٣] وكما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤] فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعًا وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠] فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم. وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

الضرب الثاني: المعاصي فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل:٩٠] وقال: «المُهَاجِرَ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ، وَالمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ» (٢). والمعاصي مقتضى باعث الهوى.

---

(١) صحيح: حديث «إنما الأعمال بالنيات». متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم. [البخاري: ١، ومسلم: ١٩٠٧].

(٢) صحيح: حديث «المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه». أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول والنسائي في الكبرى بالشطر الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيد الله بإسنادين جيدين وقد تقدما. [انظر

وأشد أنواع الصبر: الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضًا وتصريحًا.

وأنواع المزح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس.

فللنفس فيه شهوتان: إحداهما نفي الغير، والأخرى إثبات نفسه. وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه، وهي ضدّ ما أمر به من العبودية. ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادًا في المحاورات يعسر الصبر عنها، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها، فترى الإنسان يلبس حريرًا مثلًا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر من أن الغيبة أشد من الزِّنى (١) ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة.

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوّتها وضعفها.

وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلًا إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبح وهمومه هم واحد، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه.

القسم الثاني: ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه، كما لو أو ذي بفعل أو قول وجنى عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبًا وتارة يكون فضيلة.

قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كنا نعدّ إيمان الرجل إيمانًا إذا لم يصبر على الأذى. وقال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢] وقسم رسول الله ﷺ مرة مالًا، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله،

السلسلة الضعيفة: ٥٤٩].

(١) ضعيف: حديث «إن الغيبة أشد من الزنا». تقدم في آفات اللسان. [انظر ضعيف الترغيب: ١٦٩٠].

فأخبر به رسول الله ﷺ فاحمرّت وجنتاه ثم قال: «يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هذا فَصَبَرَ» (١)، وقال تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] أي تصبروا عن المكافأة.

ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وقال ﷺ «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ» (٢)، ورأيت في الإنجيل: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحوّل إليه الخدّ الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلًا فسر معه ميلين.

وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى. فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعًا.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوّله وآخره؛ كالمصائب: مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء.

وبالجملة سائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة.

وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم.

فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصدّيقين فإنّ ذلك شديد على النفس. ولذلك قال ﷺ «أَسْأَلُكَ مِنَ اليَقِينِ ما تُهَوِّنُ عَلَيَّ بِهِ مَصَائِبَ الدُّنْيَا» (٣)،

---

(١) **صحيح**: حديث: قسم رسول الله ﷺ مرة مالا فقال بعض الأعراب». متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم. [البخاري: ٦٠٥٩، ومسلم: ١٠٦٢].

(٢) **صحيح لغيره**: حديث «صل من قطعك». تقدم. [أحمد: ١٦٨٨٣ عن عقبة بن عامر، وانظر صحيح الترغيب: ٢٥٣٦].

(٣) **حسن**: حديث «أسألك من اليقين ما تهون به علي مصائب الدنيا». أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم

فهذا صبر مستنده حسن اليقين.

وقال أبو سليمان: والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره؟ وقال النبي ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنه أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ أَنْصبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوانًا» [(١)]، وقال ﷺ: «انْتِظَار الفَرَجِ بِالصَّبْرِ عِبَادَةٌ» [(٢)]، وقال ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦] اللَّهُمَّ اؤْجُرْنِي بِمُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْرًا مِنها إلاّ فَعَلَ اللَّه بِهِ ذلِكَ» [(٣)]، وقال أنس: حدّثني رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ يا جِبْرِيلِ ما جَزَاءُ مَنْ سَلَبْتُ كَرِيمَتَيْهِ قَالَ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا قَالَ تَعَالَى: جَزَاؤُهُ الخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي» [(٤)]، وقال ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِبَلاءٍ فَصَبَرَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ فَإِذَا أَبْرَأْتُهُ وَلاَ ذَنْبَ لَهُ وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ فَإِلَى رَحْمَتِي» [(٥)]، وقال داود عليه السلام: يا رب ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدًا.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوّضه منها الصبر إلا كان ما عوّضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم

وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذي وقد تقدم في الدعوات. [الترمذي: ٣٥٠٢، وانظر صحيح الترمذي].

(١) ضعيف: حديث «قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل». أخرجه ابن عدي من حديث أنس بسند ضعيف. [انظر ضعيف الجامع: ٤٠٤٤].

(٢) حديث «انتظار الفرج بالصبر عبادة». [بلفظ «الصبر» انظر السلسلة الضعيفة: ١٥٧٢، وقال الألباني: موضوع، وبدونه انظر السلسلة الضعيفة: ١٥٧٣، وقال الألباني: ضعيف جدا] أخرجه القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله «بالصبر» وكذلك رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذي من حديث ابن مسعود «أفضل العبادة انتظار الفرج» [عند الترمذي: ٣٥٧٧، وانظر ضعيف الترغيب: ١٠١٥، وقال الألباني: ضعيف جداً] وتقدم في الدعوات.

(٣) صحيح: حديث «ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] اللهم أجرني بمصيبتي وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك». أخرجه مسلم من حديث أم سلمة. [مسلم: ٩١٨].

(٤) حديث أنس «إن الله قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه». [انظر ضعيف الترغيب، وقال الألباني: منكر] أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية أبي ظلال القسملي واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخاري بلفظ «إن الله عز وجل قال إذا ابتلت عبدي بحبيبته فصبر عوضته منهما الجنة» [عند البخاري: ٥٦٥٣] رواه ابن عدي وأبو يعلى بلفظ «إذا أخذت كريمتي عبدي لم أرض له ثوابا دون الجنة» قلت يا رسول الله وإن كانت واحدة قال «وإن كانت واحدة» [ولم أقف عليه] وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدي ضعيف.

(٥) موضوع: حديث «يقول الله: إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده، أبدلته لحما خيرا من لحمه». أخرجه مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد التهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقي موقوفا على أبي هريرة. [انظر السلسلة الضعيفة: ٦٩١].

بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]وسئل فضيل عن الصبر فقال: هو الرضا بقضاء الله، قيل: وكيف ذلك؟ قال: الراضي لا يتمنى فوق منزلته. وقيل حبس الشبلي رحمه الله في المارستان فدخل عليه جماعة فقال: من أنتم؟ قالوا: أحباؤك جاؤوك زائرين، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال: لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي.

وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] ويقال إنّ امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إنّ لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه.

وقال داود لسليمان عليهما السلام: يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات.

وقال نبينا ﷺ: «مِنْ إِجْلالِ اللّٰهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لا تَشْكُوَ وَجَعَكَ وَلا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ» (١)، ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يومًا وفي كمه صرة فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كمه فقال: بارك الله له فيها لعله أحوج إليها مني.

وروي عن بعضهم أنه قال: مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له: أسقيك ماء؟ فقال: جرّني قليلًا إلى العدوّ واجعل الماء في الترس فإني صائم فإن عشت إلى الليل شربته.

فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى.

فإن قلت: فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره؟ فهو مضطر شاء أم أبى، فإن كان المراد به أن لا يتكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرًا على عادته، ويعتقد أنّ ذلك كان وديعة فاسترجعت.

كما روي عن الرميصاء أم سليم رحمها الله، أنها قالت: توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ قلت: بأحسن حال بحمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت: ألا

---

(١) حديث «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك». لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال «من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك».

تعجب من جيراننا قال: ما لهم؟ قلت: أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ما صنعوا فقلت: هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه، فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «اللهم بارك لهما في ليلتهما»[(١)]، قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرؤوا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال: «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَإذا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأةِ أَبِي طَلْحَةَ» وقد قيل: الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره، ولا يخرجه عن حدّ الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء، ولأنّ البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت، ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: «إنَّ هَذِهِ رَحْمَةٌ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ» بل ذلك أيضًا لا يخرج عن مقام الرضا، فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه ــ وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ــ وكتب ابن أبي نجيح يعزي بعض الخلفاء: إنّ أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له: واعلم أنّ الماضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك.

واعلم أنّ أجر الصابرين به فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه.

فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين. نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب.

وقد قيل: من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة. فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أنّ وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، فإنّ الذي كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرًا، وعن الصبر وعن وساوس الشيطان باطنًا.

فإن اختلاج الخواطر لا يسكن.

وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لا بدّ وأن يحصل منه. ما هو مقدّر، فهو كيفما كان تضييع زمان. وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسًا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون، هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورًا عليه، ولا يكون ذلك غالبًا، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات، إذ لا يزال ينازع كل من

(١) حديث الرميصاء أم سليم: توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت». أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف. [حديث الرميصاء وهو عند البخاري: ٥٤٧٠، ومسلم: ٢١٤٤ عن أنس].

تحرّك على خلاف غرضه في جميع عمره، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده، ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفته، ولا يزال في شغل دائم، فللشيطان جندان: جند يطير وجند يسير، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار.

وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة، فلا يتصوّر نار مشتعلة لا تتحرّك بل لا تزال تتحرّك بطبعها.

وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجدًا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف :١٢] .

فإذن حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده.

ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه. وانقياده بالإذعان سجود منه ـــ فهو روح السجود ـــ وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح.

ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصوّر ذلك، كما أنّ الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافًا بالعادة، فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمومك هم واحد، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالًا فيك، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين.

ولا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدح فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان، وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف :٣٦]

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبْغِضُ الشَّابَّ الفَارِغَ» [(١)]، وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغًا ولم يبق قلبه فارغًا، بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ، ثم تزدوج أفراخه أيضًا وتبيض مرة أخرى وتفرخ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدًا أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار، وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده، فلا تزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسري شيئًا فشيئًا على الاتصال.

فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة، فإذن إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهي صفة. نفسك، ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج ـــ حين كان يصلب ـــ وقد سئل عن التصرف ما هو؟ فقال: هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك.

فإذن حقيقة الصبر وكماله: الصبر عن كل حركة مذمومة، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك، وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت.

نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه:

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقًا أو ممتنعًا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل.

فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها. واستيفاء ذلك مما يطول ولكنا نعرف الطريق في بعض الأمثلة.

فنقول: إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلًا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة «فنقول» قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر؛ فلزمنا هاهنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة.

فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور:

أحدها: أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة ـــ من حيث نوعها

(١) حديث «إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ». لم أجده.

ومن حيث كثرتها ــ فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة في الحال فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظانّ الشهوة، إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية، قال رسول الله ﷺ: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ» (١)، وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه.

فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه: وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر، فإنّ قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال، ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ» (٢).

فهذه ثلاثة أسباب، فالعلاج الأول وهو قطع الطعام: يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته.

الثاني: يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها.

والثالث: يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب.

وأما تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقين:

أحدهما: إطعامه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة.

وفي الأثر: إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر. ومن أسلم خسيسًا في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال.

وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى، فإن قوي قوّى باعث الدين وهيجه تهييجًا شديدًا وإن ضعف ضعفه. وإنما قوّة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو

---

(١) ضعيف جداً: حديث «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس». تقدم غير مرة. [انظر ضعيف الترغيب: ١١٩٤].

(٢) حديث «عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم». تقدم في النكاح. [الترمذي: ١٠٨١، والنسائي: ٢٢٣٩، وانظر صحيح الترمذي وهو عند البخاري: ٥٠٦٦، ومسلم: ١٤٠٠ بلفظ قريب عن ابن مسعود أيضاً].

المحرك لعزيمة الصبر، وأقل ما أتى الناس اليقين وعزيمة الصبر.

والثاني: أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجًا قليلًا قليلًا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرىء عليها وتقوى منته في مصارعتها، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال، ولذلك تزيد قوّة الحمالين والفلاحين والمقاتلين.

وبالجملة فقوّة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة.

فالعلاج الأوّل: يضاهي أطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء:٤٢].

والثاني: يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجرىء عليه وتقوى فيه منته.

فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت، ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه، وإنما أشدّها كف الباطن عن حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرّغ له بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر، فإنّ الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب.

وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرًا وباطنًا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء، ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به، ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم همًا واحدًا وهو الله تعالى.

ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة: من القراءة والأذكار والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإنّ الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها؛ إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدّد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط، إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة.

فهذا أحد الأنواع الشاغلة.

وأما النوع الثاني: فهو ضروري أشدّ ضرورة من الأوّل وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش، فإن تهيئة ذلك أيضًا تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممن يتولاه.

ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملمة أو واقعة، وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق، والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق.

فقد يقل الجهد ويجل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ، والمعوّل وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فإنها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد. نعم اختيار العبد في أن يتعرّض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين.

وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها، فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله ﷺ: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا» وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وهذا من أعلى أنواع الرزق.

والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق. فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدري متى يقدّر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه يخلي سنة عن مطر، فكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات.

فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرّضه لمهاب رياح الرحمة، كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان، فإن الهمم والأنفاس أسباب.

بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء، وهي لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم في أقطار الجبال والبحار، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابًا بينك وبينها، فلا تحتاج إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب.

وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من الاسترسال إليها من مكان بعيد منخفض

عنها. ولكونه حاضرًا في القلب ومنسيًا بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكرًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر :٩] وقال تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص :٢٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر :١٧] فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدّم على الصبر عن الخواطر.

قال الجنيد رحمه الله : السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدّة الصبر عن شواغل القلب ثم شدّة هجران الخلق.

وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه.

فإنّ لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية؟ والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء :٨٥] وليس القلب مذموم على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر.

فأضله وأغواه، وكيف يكون مذمومًا عليه وهو يطلب سعادة الآخرة؟ فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه.

وعزًا لا ذل فيه وأمنًا لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمالًا لا نقصان فيه؟ وهذه كلها من أوصاف الربوبية.

وليس مذمومًا على طلب ذلك، بل حق كل عبد أن يطلب ملكًا عظيمًا لا آخر له. وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة.

ولكن الملك ملكان: ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل... وقد خلق الإنسان عجولًا راغبًا في العاجلة فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة ـــ التي في طبعه ـــ فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة، وتوسل إليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال : «وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِي» فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه.

ولم يتدل الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة. فعبر عن المخذولين بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [القيامة :٢٠-٢١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان :٢٧] وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن

﴿تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ما تم على الخلق من إهلاك العدوّ وإغوائه، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل له إن سلم ولا دوام له أصلاً فنادوا فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد، والمراد منهم أن يكونوا ملوكًا في الدنيا ملوكًا في الآخرة.

أما ملك الدنيا: فالزهد فيها والقناعة باليسير منها.

وأما ملك الآخرة: فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعزًا لا ذل فيه وقرّة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس.

والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضرتان، ولعلمه بأن الدنيا لا تسلم له أيضًا ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضًا، ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه. ثم مهما تسلم وتتم الأسباب ينقضي العمر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] فضرب الله تعالى لها مثلاً فقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥] والزهد في الدنيا لما أن كان ملكًا حاضرًا حسده الشيطان عليه فصده عنه.

ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرًا.

وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدًا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه، فيكون مسخرًا مثل البهيمة مملوكًا يستجره زمام الشهوة آخذًا بمختنقه إلى حيث يريد ويهوى. فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكًا وينال الربوبية بأن يصير عبدًا ومثل هذا هل يكون إلا منكوسًا في الدنيا منكوسًا في الآخرة؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد: هل من حاجة؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك؟ فقال كيف؟ قال: من أنت عبده فهو عبد لي فقال كيف ذلك؟ قال: أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لي. فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة. فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعًا، والذين وفقوا للاشتداد

على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعًا.

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته؛ إذ تصير بتركه ملكًا في الحال وترجو به ملكًا في الآخرة.

ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف؛ بل لا بدّ وأن يضيف إليه العمل.

وعمله في ثلاثة أمور:

أحدها: أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء:٩٧] .

الثاني: أن يكلف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده، فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة بزي التواضع، وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه، فينبغي أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده. فلا معنى للمعالجة إلا المضادة.

الثالث: أن يراعي في ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل، فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج، فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض، إلى أن يقنع بالبقية. وهكذا يفعل شيئًا فشيئًا إلى أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه. وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله ﷺ: «إِنَّ هذا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ وَلا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ فَإِنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ وَلا ظَهْرًا أَبْقَى» (١)، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «لا تُشَادُّوا هَذَا الدِّينَ فَإِنَّ مَنْ يُشَادَّهُ يَغْلِبهُ» (٢).

فإذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات، فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل، فإن تفصيل الآحاد يطول. ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه، فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوبًا عنده ممقوتًا وما كان مكروهًا عنده مشربًا هنيئًا لا يصبر عنه. وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات، فإن الصبي يحمل على التعلم

(١) حسن: حديث «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق». أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد. [أحمد: ٢٧٣١٨، وانظر صحيح الجامع: ٢٢٤٦].

(٢) صحيح: حديث «لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه». تقدم فيه. [انظر السلسلة الصحيحة: ١١٦١].

في الابتداء قهرًا. فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب. وإلى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد؟ فقال: الصبر في الله تعالى، فقال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، فقال: فأيش؟ قال: الصبر عن الله؛ فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف. وقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله. وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء. وقد قيل في معناه:

والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمودُ

وقيل أيضًا:

الصبرُ يجمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يجملُ

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره.

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلاثة أركان:

الأول: في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه.

الثاني: في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة.

الثالث: في بيان الأفضل من الشكر والصبر.

الركن الأول في نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر:

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فقال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ [النساء: ١٤٧] وقال تعالى: ﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقال عز وجل إخبارًا عن إبليس اللعين: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] قيل هو طريق الشكر، ولعلوّ رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [ابراهيم: ٧] واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾ [التوبة: ٢٨] وقال: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن

شَآءُ﴾ [الأنعام:٤١] وقال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة:٢١٢] وقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] وقال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة:١٥] وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن:١٧] وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر:٧٤] وقال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

وأما الأخبار: فقد قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعِمَ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ»(١)، وروي عن عطاء أنه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجبًا؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي - أو قالت في لحافي - حتى مس جلدي جلده ثم قال «يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي» قالت: قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك فأذنت له، فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفعَ رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى علي ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩٠] الآية(٢)».

وهذا يدل على أنّ البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدًا.

وإلى هذا السر يشير ما روي أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغيرة يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال: منذ سمعت قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] فأنا أبكي من خوفه، فسأله أن يجيره من النار فأجاره، ثم رآه بعد مدّة على مثل ذلك فقال: لم تبكي الآن؟ فقال: ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشدّ قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعًا.

وروي عنه ﷺ أنه قال: «ينادى يَوْمَ القِيَامَةِ لِيَقُم الحَمَّادُون فَتَقُومُ زُمْرَةٌ فَيُنْصَبُ لَهُمْ لِوَاءٌ فَيَدْخلُونَ الجَنَّةَ» قيل: ومن الحمادون؟ قال: «الذين يشكرون الله تعالى على كل

---

(١) صحيح: حديث «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر». علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف. [ذكره البخاري تعليقاً عقب حديث: ٥٤٦٠، وهو عند الترمذي: ٢٤٨٦، وابن ماجه: ١٧٦٤ عن أبي هريرة، وابن ماجه: ١٧٦٥ عن سنان بن الأسلمي، وانظر صحيح الترمذي].

(٢) حديث عطاء: دخلت على عائشة فقلت لها: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجبا؟». [مسلم: ٢٨٢٠ عن عائشة] أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ ومن طريقه ابن الجوزي في الوفا وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حية ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها: وأي أمره لم يكن عجبا. وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على آخر الحديث. [الحديث انظر صحيح الترغيب: ١٤٦٨، وحسنه الألباني، وأخره دون ذكر «ولم لا أفعل...» عند مسلم: ٢٨٢٠].

حال» (١)، وفي لفظ أخر: «الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَاءِ» وقال ﷺ: «الحَمْدُ رِدَاءُ الرَّحْمنِ» (٢)، وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي - في كلام طويل - وأوحى الله تعالى أيضًا في صفة الصابرين: أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم، وبالنظر إلي أزيدهم.

ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه: أي المال نتخذ؟ فقال عليه السلام: «لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا» (٣)، فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلًا من المال. وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان.

بيان حد الشكر وحقيقته:

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضًا ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه.

ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد منْ بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه.

فالأصل الأول: العلم: وهو علم بثلاثة أمور: بعين النعمة، ووجه كونها نعمة في حقه، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه.

فإنه لا بد من: نعمة، ومنعم، ومنعم عليه، تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة، فهذه الأمور لا بد من معرفتها. هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم، والوسائط مسخرون من جهته.

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها.

بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان: التقديس. ثم إذا عرف ذاتًا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس: وهو التوحيد. ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط، فالكل نعمة منه، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة، إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد: كمال القدرة والانفراد بالفعل.

---

(١) ضعيف: حديث «ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون». أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ «أول من يدعى إلى الجنة الحمادون... الحديث» وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور. [انظر السلسلة الضعيفة: ٦٣٢].

(٢) حديث «الحمد رداء الرحمن». لم أجد له أصلا وفي الصحيح من حديث أبي هريرة «الكبر رداؤه... الحديث» وتقدم في العلم. [الحديثان عند مسلم: ٢٦٢٠].

(٣) صحيح: حديث عمر «ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا». تقدم في النكاح. [ابن ماجه: ١٨٥٦، وانظر صحيح ابن ماجه].

وعن هذا عبر رسول الله حيث قال: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ قَالَ لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ فَلَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً، وَمَنْ قَالَ الحَمْدُ لِلَّهِ فَلَهُ ثَلاثُونَ حَسَنَةً» (١)، وقال: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ لِلَّهِ» (٢)، وقال: «لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الأَذْكَارِ يُضَاعَفُ ما يُضَاعَفُ الحَمْدُ لِلَّهِ» (٣)، ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب «فسبحان الله» كلمة تدل على التقديس و «لا إله إلا الله» كلمة تدل على التوحيد و «الحمد لله» كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق. فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين.

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلًا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه، بل منه بوجه ومن غيره بوجه، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدًا في حق الملك.

نعم لا يغض من توحيده في حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغذ الذي كتبه عليه، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغذ ولا يشكرهما، لأنه لا يثبت لهما دخلًا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك.

وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضًا مضطران من جهة الملك في الإيصال، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئًا، فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد، فلا يورث ذلك شركًا في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك.

وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالعلم مثلًا في يد الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها، فإن الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل ــ شاءت أم أبت ــ كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلًا إلى مخالفة الملك ولو خلي ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده.

فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج

---

(١) صحيح: حديث «من قال سبحان الله فله عشر حسنات». تقدم في الدعوات. [أحمد: ٨٠٣٢ بنحوه، وانظر صحيح الترغيب: ١٥٥٤ عن أبي مسعود وأبي هريرة].

(٢) حسن: حديث «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله». أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر. [الترمذي: ٣٣٨٣، وابن ماجه: ٣٨٠٠، وانظر صحيح الترغيب: ١٥٢٦].

(٣) حديث «ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله». لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النخعي. يقال إن الحمد أكثر الكلام تضعيفا.

عليه الدواعي وألقى في نفسه أنّ خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك، وأن غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به.

وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلًا إلى تركه، فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعمًا عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها.

وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطرًا إلى الإيصال إليك. فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله، وكنت موحدًا وقدرت على شكره، بل كنت بهذه المعرفة بمجرّدها شاكرًا.

ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك؟ فقال الله عز وجل: علم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرًا.

فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجك ريب في هذا لم تكن عارفًا لا بالنعمة ولا بالمنعم، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك: فهذا بيان هذا الأصل.

الأصل الثاني: الحال المستمدة من أصل المعرفة: وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع، وهو أيضًا في نفسه شكر على تجرّده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرًا إذا كان حاويًا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلًا فنقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفره فأنعم بفرس على إنسان يتصوّر أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس، وهذا فرح من لا حظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح.

الوجه الثاني: أن يفرح به لا من حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه، حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلًا لاستغنائه عن الفرس أصلًا أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك.

الوجه الثالث: أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه، وربما يرتقي إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرسًا ويعتني به هذا القدر من العناية، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة بل يريد مشاهدة

الملك والقرب منه، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب، فهذه ثلاث درجات، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلًا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر، والثانية داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفًا من عقابه ورجاء لثوابه، وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذا هو الرتبة العليا، وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدّه عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي رحمه الله: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة.

وقال الخوّاص رحمه الله: شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب. وشكر الخاصة على واردات القلوب، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب، فإنّ القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرّة كما قيل:

ومَنْ يكُ ذا فمٍ مرّ مريض ... يجد مرًّا به الماء الزلالا

فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى، فإن لم تكن إبل فمعزى، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية، أما الأولى فخارجة عن كل حساب، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه.

الأصل الثالث: العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم.

وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه، وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى إن شكر العينين: أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين: أن تستر كل عيب تسمعه فيه، فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان: لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به؛ فقد قال ﷺ لرجل: «كَيْفَ أَصْبَحْتُ؟» قال بخير، فأعاد ﷺ السؤال حتى قال

في الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال ﷺ: «هذا الَّذِي أَرَدْتُ مِنْكَ» (١)، وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعًا والمستنطق له به مطيعًا وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء؛ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المبلي والقادر على إزالة البلاء.

وذل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل؛ وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدًا مثله ذل قبيح.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ [العنكبوت:١٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف:١٩٤] فالشكر باللسان من جملة الشكر. وقد روي أن وفدًا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فقام شاب ليتكلم، فقال عمر: الكبر الكبر فقال: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك فقال: تكلم، فقال: لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك، وإنما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف. فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته.

فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب. وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرّد عمل اللسان.

وقول القائل: إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة: جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان. وقول حمدون القصار شكر النعمة: أن ترى نفسك في الشكر طفيليًا، إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيد الشكر: أن لا ترى نفسك أهلًا للنعمة: إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق، ثم قد يختلف جواب

(١) صحيح: حديث قال ﷺ لرجل «كيف أصبحت؟» فقال: بخير، فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال «هذا الذي أردت منك». أخرجه الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه، قال في الثالثة: أحمد الله. وهذا معضل، ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال: أحمد الله إليك، وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه، ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر بإسناد صحيح. [انظر السلسلة الصحيحة: ٢٩٥٢].

كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالًا بما يهمهم عما لا يهمهم، أو يتكلمون بما يرونه لائقًا بحال السائل، اقتصارًا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه، وإعراضًا عما لا يحتاج إليه؛ فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها، بل لا يظن ذلك بعاقل أصلًا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني، أم يتناول بعضها مقصودًا وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه؟ ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء، والله الموفق برحمته.

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى:

لعلك يخطر ببالك أنّ الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر، فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم، وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم، فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك، وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض، مقدّس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعًا سجدًا؛ فشكرنا إياه بما لاحظ فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نسجد أو نركع، إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لا علم له، ولاحظ لله تعالى في أفعالنا كلها.

الوجه الثاني: أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة، ولو أعطانا الملك مركوبًا فأخذنا مركوبًا آخر له وركبناه، أو أعطانا الملك مركوبًا آخر لم يكن الثاني شكر للأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأوّل، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالًا في حق الله تعالى من هذين الوجهين.

ولسنا نشك في الأمرين جميعًا، والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام، وكذلك لموسى عليه السلام فقال: يا رب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ وفي لفظ آخر: وشكري لك نعمة أخرى منك توجب عليَّ الشكر لك؟ فأوحى الله تعالى إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتني.

وفي خبر آخر: إذا عرفت أنّ النعمة مني رضيت منك بذلك شكرًا.

فإن قلت: فقد فهمت السؤال وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحي إليهم؛ فإني أعلم

استحالة الشكر لله تعالى، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرًا فلا أفهمه، فإنّ هذا العلم أيضًا نعمة منه فكيف صار شكرًا؟ وكأنّ الحاصل يرجع إلى أنّ من لم يشكر فقد شكر، وأنّ قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى، والفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه.

فاعلم أنّ هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم المعاملة، ولكنا نشير منها إلى ملامح ونقول: هاهنا نظران: نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرّفك قطعًا أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلًا وأبدًا، لأن الغير هو الذي يتصوّر أن يكون له بنفسه قوام، ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد، إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه، وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره؛ فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة، وإنما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجودًا فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم، ولا قيوم إلا واحد، ولا يتصوّرأن يكون غير ذلك؛ فإذن ليس في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد؛ فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه، فهو الشاكر وهو المشكور، وهو المحب وهو المحبوب، ومن هاهنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] فقال واعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى، فهو المثني وهو المثنى عليه، ومن هاهنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرىء بين يديه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] فقال: لعمري يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حدّ عقلك، فلا يخفى عليك أنّ المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه، وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعته؛ فإن أحبه فما أحب إلا نفسه، وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب؛ وهذا كله نظر بعين التوحيد، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول: كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل في كل يوم أرطالًا من الخبز، فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعاني كلامهم، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [المطففين:٢٩-٣٣] ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم، إذ قال تعالى:

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٥] وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:٣٨] فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم في كلتا العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقًا وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به، ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم، ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم، وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا، وفرق بين الموجود وبين الموجد، وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد، فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو، والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان، وإذا كان كل من عليها فان، فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

الفريق الثاني: ليس بهم عمى ولكن بهم عور، لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه، والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق، فأثبت موجودًا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقًا كما أنّ الذي قبله جاحد تحقيقًا: فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتًا بين الموجودين، فأثبت عبدًا وربًا، فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد، ثم إن كحل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى؛ فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان إلى المحو، فينمحي عن رؤية ما سوى الله فلا يرى إلا الله، ليكون قد بلغ كمال التوحيد، وحيث أدرك نقصًا في وجود ما سوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد، وبينهما درجات لا تحصى، فبهذا تتفاوت درجات الموحدين، وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار، والأنبياء هم الكحالون، وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض، وترجمته قول «لا إله إلا الله» ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون، والجاحدون والمشركون أيضًا قليلون، وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد، إذ عبدة الأوثان قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولًا ضعيفًا، والمتوسطون هم الأكثرون، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانًا ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز.

لكل إلى شأو العلا حركاتُ ... ولكن عزيز في الرجال ثباتُ

ولما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بطلب القرب فقيل له: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩] قال في

سجوده: «أَعوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» (١)؛ فقوله ﷺ: «أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله، فاستعاذ بفعله من فعله «ثم اقترب ففني عن مشاهدة الأفعال، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال: أعوذ برضاك من سخطك» وهما صفتان، ثم رأى ذلك نقصانًا في التوحيد فاقترب ورقي من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ» وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة، ولكنه رأى نفسه فارًّا منه إليه ومستعيذًا ومثنيًا، ففني عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانًا واقترب فقال: «لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» فقوله ﷺ: «لا أُحْصِي» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها، وقوله: «أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» بيان أنه المثني والمثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن كل شيء هالك إلا وجهه؛ فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله، فيستعيذ بفعل من فعل: فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق، ولقد كان لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدًا بالإضافة إلى الثانية، فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصًا في سلوكه وتقصيرًا في مقامه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً» (٢)، فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقامًا بعضها فوق البعض: أولها وإن كان مجاوزًا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانًا بالإضافة إلى آخرها، فكان استغفاره لذلك.

ولما قالت عائشة رضي الله عنها: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا» (٣)، معناه، أفلا أكون طالبًا للمزيد في المقامات. فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وإذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان، ولنرجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة: فنقول الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه، ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة، وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة

---

(١) صحيح: حديث قال في سجوده «أعوذ بالله بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك». أخرجه مسلم من حديث عائشة: أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك... الحديث. [مسلم: ٤٨٦].

(٢) صحيح: حديث «إنه ليغان على قلبي». تقدم في التوبة، وقبله في الدعوات. [مسلم: ٢٧٠٢].

(٣) صحيح: حديث عائشة لما قالت له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء». رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث، وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبة. [البخاري: ٤٨٣٧، ومسلم: ٢٨٢٠ عن عروة عن عائشة، والبخاري: ٦٤٧١، ومسلم: ٢٨١٩ عن المغيرة].

وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور، ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول: يمكنك أن تفهم أن ملكًا من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوبًا وملبوسًا ونقدًا لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك، ثم يكون له حالتان:

إحداهما: أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته.

والثانية: أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه، بل حضوره لا يزيد في ملكه لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء، وغيبته لا تنقص من ملكه، فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه، فمنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى فإن الأولى محال على الله تعالى، والثانية غير محال.

ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرًا في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته ما لم يقم بخدمته التي أرادها الملك منه.

وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلًا، ومع ذلك يتصوّر أن يكون شاكرًا وكافرًا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه إليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه، وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه، فمهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذ استعمل نعمته في محبته: أي فيما أحبه لعبده لا لنفسه، وإن ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته: أي استعملهما فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه، وإن جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضًا نعمته إذ أهملها وعطلها، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته، وإنما سعادتهم في القرب منه فأعدّ لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [التين: ٤-٦] الآية، فإذن نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب، والله تعالى غني عنه قرب أم بعد، والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية، وإن عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضًا كفران للنعمة بالتضييع، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به

إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى؛ فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى؛ فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة، بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه.

ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه، وقد انحل بهذا الإشكال الأوّل: وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر؛ وبهذا أيضًا ينحل الثاني؛ فإنا لم نَعْنِ بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد، وفعلك عطاء من الله تعالى، ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك؛ فهو الذي أعطى وهو الذي أثنى وصار أحد فعليه سببًا لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته، فله الشكر على كل حال، وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده، ولكن بمعنى أنك محل له، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك؛ فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئية لك وأنت شيء، إذ جعلك خالق الأشياء شيئًا وإنما أنت لا شيء إذا كنت أنت ظانًا لنفسك شيئًا من ذاتك؛ فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئًا فأنت شيء إذ جعلك شيئًا؛ فإن قطع النظر عن جعله كنت لا شيء تحقيقًا، وإلى هذا أشار ﷺ حيث قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (١)، لما قيل له: يا رسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل؟ فتبين أن الخلق مجاري قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضًا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض.

وقوله: «اعملوا» وإن كان جاريًا على لسان الرسول فهو فعل من أفعاله، وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع، وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى، والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة، وانبعاث الداعية أيضًا من أفعال الله تعالى، وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضًا من أفعال الله تعالى، ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أي الأوّل شرط للثاني كما كان خلق الجسم سببًا لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله، وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبغض: أي هو شرط، ومعنى كونه شرطًا أنه لا يستعدّ لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعدّ لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم، فيكون بعض أفعاله سببًا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أنّ بعض أفعاله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره، وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذي ذكرناه.

---

(١) **صحيح**: حديث «اعملوا فكل ميسر لما خلق له». من حديث علي وعمران بن حصين. [البخاري: ٤٩٤٩، ومسلم: ٢٧٤٧ عن علي، أحمد: ٩٣٦٨ عن عمران بن حصين].

فإن قلت: فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان، وما إلينا شيء فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى؟ فاعلم أنّ هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها، فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة، ويعبر عن مثله بأن كلًّا ميسر لما خلق له، ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ وكلام العلماء؛ فإذا لم يسمع لم يعلم «وإذا لم يعلم لم يخف»، وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي في حزب الشيطان، وإن جهنم لموعدهم أجمعين؛ فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل؛ فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب، وهو تسليط العلم والخوف عليه.

وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرًا، والمجرمون يقادون إلى النار قهرًا، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار، ولا قادر إلا الملك الجبار، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص، ولكنّ الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف؛ فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك.

بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه:

اعلم أنّ فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه، إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه. ولتمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان:

أحدهما: السمع، ومستنده الآيات والأخبار.

والثاني: بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير، وهو لأجل ذلك عزيز. فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق، ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلًا.

وأما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه، إذ ما خلق شيئًا في العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية.

أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار، فيكون النهار معاشًا والليل لباسًا فتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعمًا للخلق ومرعى للأنعام، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه، إذ قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾ [عبس:٢٥-٢٨]الآية.

وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق، والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها، وأشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦]فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرّة من ذرّاته عن حكم كثيرة من حكمه واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف، وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمتها كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش، واليد للبطش لا للمشي، والرجل للمشي لا للشم، فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرًا يسيرًا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥] فإذن كل من استعمل شيئًا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس، إذ الإبصار يتم بهما، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما، فقد استعملها في غير ما أريدتا به، وهذا لأنّ المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا، ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرًا وباطنًا، فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، فلذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧]الآية، فكل من استعمل شيئًا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بدّ منها لإقدامه

على تلك المعصية.

ولنذكر مثالاً واحدًا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول: من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته، وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغني عنه.

كما يملك الزعفران مثلاً وهو محتاج إلى جمل يركبه، ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج إلى الزعفران، فلا بد بينهما من معاوضة ولا بدّ في مقدار العوض من تقدير، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة.

وكذا من يشتري دارًا بثياب أو عبدًا بخف أو دقيقًا بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها، فلا يدري أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جدًّا، فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقرّرت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدّر الأموال بهما، فيقال: هذا الجمل يسوى مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان، وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحًا ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر، فإذن خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأحوال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء، لا كمن ملك ثوبًا فإنه لم يملك إلا الثوبَ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً فاحتيج إلى شيء وهو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء، والشيء إنما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها، كالمرآة لا لون لها، وتحكي كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض، وكالحرف لا معنى له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره، فهذه هي الحكمة الثانية، وفيهما أيضًا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما، فإذن من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه؛ لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل

الغرض المقصود به، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للآحاد في أعيانهما فإنهما حجران، وإنما خلقا لتتداولهما الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقوّمة للمراتب، فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة في صفحات الموجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة - أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله ﷺ حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعني الذي عجزوا عن إدراكه، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤] وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فلقد كفر النعمة وكان أسوأ حالاً ممن كنز لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والمكس والأعمال التي يقوم بها أخساء الناس، والحبس أهون منه، وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدّد، وإنما الأواني لحفظ المائعات، ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له: من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم [(١)]، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض في عينهما، فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصودًا على خلاف وضع الحكمة، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعامًا ودابة، إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب، فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فإنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانهما، وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام، كما قال النحويون: إنّ الحرف هو الذي جاء لمعنى في غيره، وكموقع المرآة من الألوان؛ فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدًا عنده وينزل منزلة المكنوز، وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم، كما أن حبسه ظلم، فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودًا للادخار وهو ظلم.

فإن قلت: فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر، ولم جاز بيع الدرهم بمثله؟ فاعلم أن أحد النقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق في الحاجات قليلًا قليلًا، ففي المنع منه ما يشوّش المقصود الخاص به؛ وهو تيسر التوصل به إلى غيره: وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه

(١) صحيح: حديث «من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم». متفق عليه من حديث أم سلمة، ولم يصرح المصنف بكونه حديثا. [البخاري: ٥٦٣٤، ومسلم: ٢٠٦٥].

عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فإنه عبث يجري مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه، ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه، فلا نمنع مما لا تتشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر، وذلك أيضًا لا يتصور جريانه؛ إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد؛ وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء؛ لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه، وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته، وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحقها أن لا تقصد.

وأما إذا باع درهمًا بدرهم مثله نسيئة فإنما لم يجز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر.

والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر، فهو أيضًا ظلم لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها في معرض المعارضة، وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف على جهتها فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له، فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها؛ إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجًا ولم يجعله بضاعة تجارة، وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجًا إليه، فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضًا مستغن عنه، ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب؛ نعم بائع البر بالتمر معذور، إذ أحدهما لا يسدّ مسدّ الآخر في الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة؛ ومقابلة الجيد بمثلها من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد.

وأما جيد برديئين فقد يقصد، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام، فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فإنه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافيات، وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصص بالأطعمة دون المكيلات، إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول؛ ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصصه بالأوقات، ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد وتحديد هذا كان ممكنًا بالقوت وكان ممكنًا بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ما هو

ضرورة البقاء؛ وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم؛ ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحدّ لتحير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص.

فعين المعنى بكمال قوّته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحدّ ضروريًّا، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق :١]ولأنّ أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد، كما يحدّ شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر، وقد حدّه شرعنا بكونه من جنس المسكر؛ لأنّ قليله يدعو إلى كثيره، والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية، فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين، فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين، بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ولذلك قال ﷺ «لَوْلاَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ» (١)، وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك، وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصوّر أن ينفك عنهما، وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر، فأقول مثلًا: لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين، إذ خلق الله لك اليدين وجعل إحداهما أقوى من الأخرى، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل، وتفضيل الناقص عدول عن العدل، والله لا يأمر بالعدل، ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال: بعضها شريف كأخذ المصحف، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل، وكذلك إذا بصقت مثلًا في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متسعك في حركتك وقسم الجهات إلى ما لم يشرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتًا أضافه إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك، وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البصاق، فإذا رميت بصاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي

(١) حديث «لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء». تقدم في الصوم.

بوضعها كمال عبادتك، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت؛ لأن الخف وقاية للرجل، فللرجل فيه حظ، والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل، وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروهًا، حتى إن بعضهم كان قد جمع أكرارًا من الحنطة وكان يتصدّق بها، فسئل عن سببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوًا فأريد أن أكفره بالصدقة، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الانعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها، فقبيح أن يقال: الذي شرب الخمر وأخذ القدح بيساره قد تعدّى من وجهين:

أحدهما: الشرب والآخر الأخذ باليسار، ومن باع خمرًا في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال خان من وجهين: أحدهما: بيع الخمر، والآخر البيع في وقت النداء.

ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه، فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض، فينمحق بعضها في جنب البعض، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه، ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية في نفسه، فكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة، وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب، نعم بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقرّ الشياطين، وكذلك من كسر غصنًا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد أما اليد فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة.

وأما الشجر فإنما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوّة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه، فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل، فإن كان له غرض صحيح فله ذلك، إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان، فإنهما جميعًا فانيان هالكان، فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدّة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعًا وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية :١٣] نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضًا وإن كان محتاجًا، لأنّ كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة، ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلمًا، فصاحب الاختصاص

هو الذي حصل البذر ووضعه في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك، فإن نبت ذلك في موات الأرض لا بسعي آدمي اختص بمغرسه أو بغرسه، فلا بدّ من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه، فللسابق خاصية السبق، فالعدل هو أن يكون أولى به وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك، وهو مجاز محض، إذ لا ملك إلا لملك الملوك الذي له ما في السموات والأرض، وكيف يكون العبد مالكًا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم، كالملك ينصب مائدة لعبيده، فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لا لأن اللقمة صارت ملكًا له بالأخذ باليد ــ فإن اليد وصاحب اليد أيضًا مملوك ــ ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص، والأخذ اختصاص ينفرد به العبد فمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته، فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عباده، ولذلك نقول: من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم، وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم، نعم لا يدخل هذا في حدّ فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة، وأواخر الأعمار غير معلومة، فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم، وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق، فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن إليه، إذ قال تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾ [محمد:٣٧].

بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدو وخارج عن مقصود الحكمة، وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تفي إلا بالقليل، وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]وفرح إبليس لعنه الله بقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧]فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورًا أخر وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء

مباديها؛ فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير.

فإن قلت: فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن لله تعالى حكمة في كل شيء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سببًا لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعًا من تمام الحكمة، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران، وهذا كله مفهوم، ولكن الإشكال باق: وهو أنّ فعل العبد المنقسم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضًا من فعل الله تعالى، فأين العبد في البين حتى يكون شاكرًا مرة وكافرًا أخرى؟ فاعلم أنّ تمام التحقيق في هذا يستمدّ من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها، ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير ويجحدها من عجز عن الإيضاع في السير فضلًا عن أن يجول في جوّ الملكوت جولان الطير فنقول: إن لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها، فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتدّ طرف فهمهم إلى مبادي إشراقها، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس، لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش، فاضطرّ الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئًا ضعيفًا جدًّا، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق، والاختراع، ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة، فهي توهم منها أمرًا مجملًا عند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية، وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة، واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة، وقيل: إنهما جميعًا داخلان في وصف المشيئة، ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة، منهما أمرًا مجملًا عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات، ثم انقسم عباده الذين هم أيضًا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها، ولكون

ذلك قهرًا في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة، فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب، فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها، فاستعير له الكفران، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال، وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها، فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى، وأعطى النكال ثم قبح وأردى، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه، فإذا تمم زينته قال يا جميل ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثني على الجمال فهو المثني عليه بكل حال، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة، فهكذا كانت الأمور في الأزل، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولم يكن ذلك على اتفاق وبحث بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء، وقيل إنه كلمح بالبصر أو هو أقرب، لفاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادي إلى غير نهاية.

وقيل: إنّ شيئًا من ذلك ليس خارجًا عن القضاء والقدر، فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل، وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل، وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه، فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٣] وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسًا من نور الله تعالى في السموات والأرض، وكان زيتهم أولًا صافيًا يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فمسته نار فاشتعل نورًا على نور، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم: تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا[(١)] فإن للحيطان آذانًا وحواليكم ضعفاء الأبصار، فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من

(١) صحيح: حديث «إذا ذكر القدر فأمسكوا». رواه الطبراني من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في العلم، ولم يصرح المصنف بكونه حديثا. [انظر السلسلة الصحيحة: ٣٤].

منتهى علوّكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة المترددين في كمال نور الشمس، وكونوا كمن قيل فيهم:

شربنا شرابًا طيبًا عند طيب ... كذاك شراب الطيبين يطيبُ
شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة ... وللأرض من كأس الكرام نصيبُ

فهكذا كان أوّل هذا الأمر وآخره، ولا يفهمه إلا إذا كنت أهلًا له، وإذا كنت أهلًا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك، والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حدّ ما،س فإذا ضاق الطريق وصار أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجرّ وراءه أعمى، وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلًا ولم يكن العبور إلا بالسباحة، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجرّ وراءه آخر؛ فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض، والسباحة يمكن أن تتعلم؛ فأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوّة اليقين؛ ولذلك قيل للنبي ﷺ: إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء فقال ﷺ: «لَوْ ازْدَادَ يَقِينًا لَمَشى عَلَى الهَوَاءِ»(١)، فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران، لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها، وقد ضرب الله تعالى مثلًا لذلك تقريبًا إلى أفهام الخلق إذ عرّف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم، ثم إن أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين: ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢] وقال تعالى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:١٥] وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الزمر:٨] والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي غضب عليه، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي أحبه، وعندك في

---

(١) منكر: حديث قيل له: يقال إن عيسى مشى على الماء قال «لو ازداد يقينا لمشى على الهواء». هذا حديث منكر لا يعرف هكذا، والمعروف. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال: فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشي على الماء، فذكر حديثا فيه أن عيسى قال: لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء. [الواضح من صياغة المصنف أنه ليس حديث ولكن قول بكر المزني] وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل «لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال».[حديث «يقال أن عيسى...»، وحديث «لو عرفتم الله...» هما فقرتين من حديث واحد انظر السلسلة الضعيفة: ٤٣٥٧، وقال الألباني: منكر].

العادة له مثال، فالملك إذا كان محتاجًا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوّض حمل الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينبغي أن تقول «هذا فعلي، ولم يكون فعله دون فعلي؟» فإنك أخطأت إذا أضفت ذلك إلى نفسك، بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتمامًا للعدل، فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها، وتارة يتم فيك فإنك أيضًا من أفعاله، فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الذي رتبه بالعدل ترتيبًا تصدر منه الأفعال المعتدلة، إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أنّ ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت، فلذلك تضيفه إلى نفسك، وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلًا إلى لعب المشعبذ الذي يخرج صورًا من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورءوسها في يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان، فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد.

وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذي الأمر إليه والجاذبة بيده، فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء، ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطًا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة، ثم شاهدوا رءوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة بها، وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسموات، وشاهدوا أيضًا ملائكة السموات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر فقيل: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢] وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلوم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] فقال: لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتموني، وفي لفظ آخر: لقلتم إنه كافر.

ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه، فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول: إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملًا في إتمام حكمة الله تعالى، فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضًا ترتيب، وما منهم إلا وله مقام معلوم، وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام، وإنما علوا درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام، وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض، ويلي درجتهم درجة الأنبياء فإنهم في أنفسهم أخيار، وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته، وأعلاهم رتبة نبينا وعليهم، إذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين، ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فإنهم في أنفسهم صالحون، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره، ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم، ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد ﷺ كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء، ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم، ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع.

واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحقر وإن كان ظالمًا فاسقًا.

قال عمرو بن العاص رحمه الله: إمام غشوم خير من فتنة تدوم.

وقال النبي ﷺ: «سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ، وَيُفْسِدُونَ وَمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِمْ أَكْثَرَ، فَإِنْ أَحْسَنُوا فَلَهُمُ الأَجْرُ وَعَلَيْكُمُ الشُّكْرُ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَعَلَيْهِمُ الوِزْرُ وَعَلَيْكُمُ الصَّبْرُ» (١)، وقال سهل: من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل. وسئل: أي الناس خير؟ فقال: السلطان، فقيل: كنا نرى أن شر الناس السلطان فقال مهلًا، إن الله تعالى له كل يوم نظرتين: نظرة إلى سلامة أموال

---

(١) حديث «سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون، ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر». أخرجه مسلم من حديث أم سلمة «يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون» [مسلم: ١٨٥٤] ورواه الترمذي بلفظ «سيكون عليكم أئمة» [عند الترمذي: ٢٢٦٥، وتنظر صحيح الجامع: ٢٣٩٥] وقال حسن صحيح، وللبزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر» [انظر ضعيف الترغيب: ١٣٢٤، وقال الألباني: موضوع، ولفظ «وما يصل الله بهم أكثر» انظر السلسلة الضعيفة: ١٣٥٢، وقال الألباني: ضعيف جداً] وأما قوله «وما يصلح الله بهم أكثر» فلم أجده بهذا اللفظ، إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله: اصبروا فإن جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول - فذكر حديثا فيه «والإمارة الفاجرة خير من الهرج» رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به.

المسلمين، ونظرة إلى سلامة أبدانهم، فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه، وكان يقول: الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاص يقصون.

الركن الثاني من أركان الشكر، ما عليه الشكر

وهو النعمة، فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم :٣٤] فنقدم أمورًا كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم، ثم نشتغل بذكر الآحاد، والله الموفق للصواب.

بيان حقيقة النعمة وأقسامها:

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقًا ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية.

والأسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات:

القسمة الأولى: أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعًا: كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيهما جميعًا كالجهل وسوء الخلق، وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل: كالتلذذ باتباع الشهوات، وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل: كقمع الشهوات ومخالفة النفس، فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقًا كالعلم وحسن الخلق والضارّ فيهما هو البلاء تحقيقًا وهو ضدهما والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوي البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلًا فيه سم فإنه يعدّه نعمة إن كان جاهلًا، وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه.

والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الألباب بلاء عند الجهال: ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة، فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعدّه نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ويقربه منه ويهيىء له أسبابه، فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والأب يدعوه إليها، فإن الأب لكمال عقله يلمح العاقبة، والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال، والصبي لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوًا له؛ ولو عقل لعلم أن الأم عدوًا باطنًا في

صورة صديق؛ لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشدّ من الحجامة، ولكن الصديق الجاهل شر من العدوّ العاقل، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل، فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدوّ.

قسمة ثانية: اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها، فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب، ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب، وإلى ما ضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع، وإلى ما يكافيء ضرور نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص؛ فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات، فهو مع هذا التوفيق نعمة في حقه، ورب إنسان يستضر بالقليل أيضًا إذ لا يزال مستصغرًا له شاكيًا من ربه طالبًا للزيادة عليه، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه.

قسمة ثالثة: اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره، وإلى مؤثر لغيره، وإلى مؤثر لذاته ولغيره.

فالأوّل: ما يؤثر لذاته لا لغيره: كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا انقضاء لها فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها، بل تطلب لذاتها.

الثاني: ما يقصد لغيره ولا غرض أصلًا في ذاته: كالدراهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة، ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصًا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولًا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده، وهو غاية الجهل والضلال.

الثالث: ما يقصد لذاته ولغيره: كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا، وتقصد أيضًا لذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضًا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة، فإذن المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقًا، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضًا فهو نعمة ولكن دون الأوّل، فأما ما لا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمرًا ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته، استوى عنده الذهب والمدر، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان

نعمة.

قسمة رابعة: اعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل، فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال، والنافع هو الذي يفيد في المآل، والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال: والشرور أيضًا تنقسم إلى ضارّ وقبيح ومؤلم، وكل واحد من القسمين ضربان: مطلق ومقيد، فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضارّ وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل، وذلك بأن يرى غيره عالمًا ويرى نفسه جاهلًا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة، ثم قد يمنعه الحسد، والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادّان فيعظم ألمه، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم، ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة. والضرب الثاني: المقيد، وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتآكلة والسلعة الخارجة من البدن، ورب نافع قبيح كالحمق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع، فقد قيل: استراح من لا عقل له فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه، ورب نافع من وجه ضارّ من وجه: كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق، فإنه ضارّ للمال نافع للنفس في نجاتها. والنافع قسمان: ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما، وإلى ما لا يكون ضروريًا كالسكنجبين مثلًا في تسكين الصفراء؛ فإنه قد يمكن تسكينها أيضًا بما يقوم مقامه.

قسمة خامسة: اعلم أنّ النعمة يعبر بها عن كل لذيذ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع: عقلية، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات.

أما العقلية فكلذة العلم والحكمة، إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج، وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل، وهذه أقل اللذات وجودًا وهي أشرفها، أما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم، وما أقل أهل العلم والحكمة، وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم.

وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبدًا لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودائمة لا تمل، فالطعام يشبع منه فيمل، وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل، والعلم والحكمة قط لا يتصوّر أن تمل وتستثقل، ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد إذا رضي بالخسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه: أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال، إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزيد بالإنفاق والمال

ينقص بالإنفاق، والمال يسرق والولاية يعزل عنها، والعلم لا تمتدّ إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل، فيكون صاحبه في روح الأمن أبدًا، وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبدًا ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال أبدًا، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة، ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سماه خيرًا في مواضع.

وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم. فإما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق، إذ الشوق تبع الذوق، وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرًا، وإما لقصور فطنتهم، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن، وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء، فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة، إما من لم يحيى باطنه كالطفل، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات: وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:١٠] إشارة إلى مرض العقول.

وقوله عز وجل: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٧٠] إشارة إلى من لم يحيى حياة باطنة، وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان الثانية: لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء، وذلك موجود في الأسد والنمر وبعض الحيوانات.

الثالثة: ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج، وهذه أكثرها وجودًا وهي أخسها، ولذلك اشترك فيها كل ما دبّ ودرج حتى الديدان والحشرات، ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة، وهو أشدّها التصاقًا بالمتغافلين، فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة، لا سيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله، وهذه رتبة الصدّيقين، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرئاسة من القلب، وآخر ما يخرج من رءوس الصدّيقين حب الرياسة. وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها إلا الصدّيقون: فأما قمعها بالكلية، حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجًا عن مقدور البشر. نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرئاسة والغلبة، ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل، وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه، وقلب لا

يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإنما لذته بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية، وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية.

وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة. أما الأول فإن كان ممكنًا في الوجود فهو في غاية البعد. وأما الثاني فالدنيا طافحة به. وأما الثالث والرابع فموجودان ولكن على غاية الندور، ولا يتصوّر أن يكون ذلك نادرًا شاذًا، وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام، فلا يزال يزداد العهد طولًا وتزداد مثل هذه القلوب قلة، إلى أن تقرب الساعة ويقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وإنما وجب أن يكون هذا نادرًا لأنه مبادي ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرون، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرًا وأكثر الناس من دونهم، فكذا في ملك الآخرة، فإنّ الدنيا مرآة الآخرة، فإنها عبارة عن عالم الشهادة، والآخرة عبارة عن عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب، كما أنّ الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك، فإنك لا ترى نفسك، وترى صورتك في المرآة أولًا فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيًا على سبيل المحاكاة، فالقلب التابع في الوجود متبوعًا في حق المعرفة والقلب المتأخر متقدّمًا، وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم، فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت، فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة، وقد أمر الحق به فقال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستنفتح إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء نارًا من شأنها أن تطلع على الأفئدة، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجابًا، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك، وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين، وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين، فلذلك قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٥-٦] أي في الدنيا ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧] أي في الآخرة، فإذا قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عزيزًا كالشخص الصالح لملك الدنيا.

قسمة سادسة: حاوية لمجامع النعم: اعلم أنّ النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية؛ أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور:

بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل فيه، وغنى لا فقر بعده، وهي النعمة الحقيقية، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ» (١)، وقال ذلك مرّة في الشدة تسلية للنفس، وذلك في وقت حفر الخندق في شدّة الضر؛ وقال ذلك مرة في السرور منعًا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا؛ وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع (٢).

وقال رجل: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال النبي ﷺ: «وَهَلْ تَعْلَمُ مَا تَمَامُ النِّعْمَةِ» ؟ قال: لا. قال «تَمَام النِّعْمَةِ دُخُولُ الجَنَّةِ» (٣).

وأما الوسائل فتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس: وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني، وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة؛ وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية، فهي إذن أربعة أنواع:

النوع الأول: وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق، وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله، وإلى علوم المعاملة.

وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين: ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلًا ولا يقدم كيف شاء، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله ، إذ قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن :٨-٩] فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح، أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبارة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان.

ومن انهمك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان، وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان، فإذن الفضائل الخاصة بالنفس المقرّبة إلى الله تعالى أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفة، وعدالة، ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية وهي أربعة: الصحة، والقوّة، والجمال، وطول العمر ولا تتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهي أربعة:

---

(١) صحيح: حديث قوله عند حفر الخندق «لا عيش إلا عيش الآخرة». متفق عليه من حديث أنس. [البخاري: ٢٩٦١، ومسلم: ١٨٠٥].

(٢) حديث قوله في حجة الوداع «لا عيش إلا عيش الآخرة». رواه الشافعي مرسلا، والحاكم متصلا وصححه، وتقدم في الحج.

(٣) ضعيف: حديث قال رجل: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال النبي ﷺ «وهل تعلم ما تمام النعمة؟ قال: لا. قال «تمام النعمة دخول الجنة». أخرجه الترمذي من حديث معاذ بسند حسن. [الترمذي: ٣٥٢٧، وانظر السلسلة الضعيفة: ٣٤١٦].

المال والأهل، والجاه، وكرم العشيرة، ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة: هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأييده، فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة، وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بهما، فليس للإنسان إلا ما سعى وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزوّد من الدنيا، فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضروري.

وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل، فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة.

فإن قلت: فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشيرة؟ فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود.

أما المال فالفقير في طلب العلم والكمال وليس له كفاية:

كساع إلى الهيجا بغير سلاح، وكبازي يروم الصيد بلا جناح

ولذلك قال ﷺ: «نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ» (١)، وقال ﷺ: «نِعْمَ العَوْنُ عَلى تَقْوَى اللَّهِ المَالُ» (٢)، وكيف لا ومن عُدِمَ المال صار مستغرق الأوقات في طلب الأقوات وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة، ثم يتعرّض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات.

وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعيم؟ فقال: الغنى فإني رأيت الفقير لا عيش له.

قيل: زدنا قال: الأمن، فإني رأيت الخائف لا عيش له. قيل: زدنا قال: العافية، فإني رأيت المريض لا عيش له.

قيل: زدنا قال: الشباب، فإني رأيت الهرم لا عيش له.

وكأنّ ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة، ولذلك قال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ

(١) **صحيح**: حديث «نعم المال الصالح للرجل الصالح». رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد. [أحمد: ١٧٣٤٦، وانظر المشكاة: ٣٧٥٦].

(٢) **ضعيف**: حديث «نعم العون على تقوى الله: المال». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر. ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلا: ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب هكذا مرسلا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٠٤٢].

الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»(١)، وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما، إذ قال ﷺ: «نِعْمَ العَوْنُ عَلَى الدِّينِ المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»(٢)، وقال ﷺ في الولد: «إِذَا مَاتَ العَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثٍ: وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ...» الحديث(٣) وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح.

وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدي فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ما لو انفرد به لطال شغله، وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين، فهو إذن نعمة.

وأما العز والجاه، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم، ولا يستغني عنه مسلم فإنه لا ينفك عن عدوّ يؤذيه وظالم يشوّش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه، وقلبه رأس ماله، وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه، ولذلك قيل: الدين والسلطان توأمان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١] ولا معنى للجاه إلى ملك القلوب، كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم، ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر، وجبة تدفع عنه البرد، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته، فيحتاج أيضًا إلى من يدفع الشر به عن نفسه، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه، وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنهم والاستئثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم، ولا تظنن أن نعمة الله تعالى على رسول الله ﷺ حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذي ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة(٤).

---

(١) **حسن لغيره**: حديث «من أصبح معافى في بدنه آمنا في سربه». أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري، وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٤٦، وابن ماجه: ٤١٤١، وانظر صحيح الترغيب: ٨٣٣].

(٢) حديث «نعم العون على الدين المرأة الصالحة». [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٠٤١، وقال الألباني: لا أصل له] لم أجد له إسنادا، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة"[مسلم: ١٤٦٧].

(٣) **صحيح**: حديث «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وتقدم في النكاح.[مسلم: ١٦٣١].

(٤) حديث: ما ناله ﷺ من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الهرب والهجرة. رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال «لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل... الحديث» [البخاري: ٣٢٣١، ومسلم: ١٧٩٥]. وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أنس «لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد ولقد أتى علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال» [الترمذي: ٢٤٧٢، وابن ماجه: ١٥١، وانظر صحيح الترغيب: ٣٢٨١] قال الترمذي: معنى هذا حين خرج النبي ﷺ هاربا من مكة

فإن قلت: كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول: نعم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ» (١)، ولذلك كان من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام (٢) وقال ﷺ: «تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ الأَكْفَاءَ» (٣)، وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ» فقيل: وما خضراء الدمن؟ قال: «المَرْأَةُ الحَسْنَاءُ فِي المَنْبِتِ السُّوءِ» (٤)، فهذا أيضًا من النعم ولست أعني به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله ﷺ وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل.

فإن قلت: فما معنى الفضائل البدنية؟ فأقول: لا خفاء بشدّة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما، ولذلك قال: «أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ العُمُرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى» (٥)، وإنما يستحقر من جملته أمر الجمال، فيقال يكفي أن يكون البدن سليمًا من الأمراض الشاغلة عن تحرّي الخيرات، ولعمري الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضًا: أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها، وأما في الآخرة فمن وجهين:

أحدهما: أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه، إذ هو نوع قدرة، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها.

ومعه بلال. وللبخاري عن عروة قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فجاء أبو بكر فدفعه عنه... الحديث[البخاري: ٣٦٧٨]. وللبزار وأبي يعلى من حديث أنس قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله. وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(١) **صحيح**: حديث «الأئمة من قريش». رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح. [أحمد: ١١٨٩٨، وانظر صحيح الترغيب: ٢١٨٨].

(٢) حديث: كان ﷺ من أكرم الناس أرومة في نسب آدم. الأرومة الأصل، هذا معلوم، فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم: ٢٢٧٦] وفي رواية الترمذي «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل» [الترمذي: ٣٦٠٥، وانظر صحيح الترمذي] وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب بن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم» [الترمذي: ٣٦٠٧، وانظر السلسلة الضعيفة: ٣٠٧٣] وفي حديث ابن عباس «ما بال أقوام يتبذلون أصلي، فوالله لأنا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعًا». [وحديث «ما بال القوم......»].

(٣) **حسن**: حديث «تخيروا لنطفكم». أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة، وتقدم في النكاح. [ابن ماجه: ١٩٦٨، وانظر صحيح ابن ماجه].

(٤) **ضعيف جدًا**: حديث «إياكم وخضراء الدمن». تقدم فيه أيضا. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٤].

(٥) **صحيح**: حديث «أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله». غريب بهذا اللفظ، وللترمذي من حديث أبي بكرة أن رجلا قال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال «من طال عمره وحسن عمله» وقال حسن صحيح. [الترمذي: ٢٣٣٠، وانظر صحيح الترغيب: ٣٣٦٣].

والثاني : أنّ الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس؛ لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن، فالمنظر والمخبر كثيرًا ما يتلازمان، ولذلك عوّل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن فقالوا: الوجه والعين مرآة الباطن.

ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم، ولذلك قيل: طلاقة الوجه عنوان ما في النفس.

وقيل : ما في الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن ما فيه. واستعرض المأمون جيشًا فعرض عليه رجل قبيح، فاستنطقه فإذا هو ألكن، فأسقط اسمه من الديوان وقال: الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة، أو على الباطن ففصاحة، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن، وقد قال ﷺ: «اطْلُبُوا الخَيْرَ عِنْدَ صِبَاحِ الوُجُوهِ» (١)، وقال عمر رضي الله عنه: إذا بعثتم رسولًا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم.

وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجهًا أولاهم بالإمامة، وقال تعالى ممتنًا بذلك: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة:٢٤٧] ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة فإن ذلك أنوثة، وإنما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبوا الطباع عن النظر إليه.

فإن قلت : فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم، وقد ذم الله تعالى المال والجاه، وكذا رسول الله ﷺ (٢) وكذا العلماء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن:١٤] وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن:١٥] وقال علي كرّم الله وجهه في ذم النسب: الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرىء ما يحسنه. وقيل: المرء بنفسه لا بأبيه. فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعًا؟ فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤوّلة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى؛ فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدها، إلا أنّ فيها فتنًا ومخاوف؛ فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم ناقع، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة، وإن أصابها السوادي الغر فهي عليه بلاء

---

(١) **موضوع :** حديث «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه». أخرجه أبو يعلى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة، وخيرة وأمها لا أعرف حالهما. ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر، وله طرق كلها ضعيفة. [انظر ضعيف الجامع : ٩٠٣].

(٢) **صحيح :** حديث «ذم المال والجاه». أخرجه الترمذي من حديث كعب بن مالك «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه» وقد تقدم في ذم المال والبخل. [الترمذي : ٢٣٧٦، وانظر صحيح الترغيب : ١٧١٠].

وهلاك، وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللآليء، فمن ظفر بالبحر فإن كان عالمًا بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه، وإن خاضه جاهلًا بذلك فقد هلك، فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرًا، ومدحه رسول الله ﷺ وقال: «نِعْمَ العَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى المَالُ» وكذلك مدح الجاه والعز، إذ منّ الله تعالى على رسوله ﷺ بأن أظهره على الدين كله وحببه في قلوب الخلق، وهو المعني بالجاه، ولكن المنقول في مدحهما قليل، والمنقول في ذم المال والجاه كثير، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب.

ومعنى الجاه ملك القلوب، وإنما كثر هذا وقل ذاك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص في بحر الجاه، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره، ولو كانا في أعيانهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوّة الملك كما كان لرسولنا ، ولا أن ينضاف إليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام: فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزمون، فقد يضر الصبي ما لا يضر المعزم، نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك، فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررًا كثيرًا، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويعرّفه أنّ فيها سمًّا قاتلًا لا ينجو منه أحد ولا يحدّثه أصلًا بما فيها من نفع الترياق، فإنّ ذلك ربما يغرّه فيقدم عليه من غير تمام المعرفة.

وكذلك الغوّاص إذا علم أنه لو غاص في البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك. فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر. فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل.

فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه. فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان والأغبياء.

ولذلك قال ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» (١)، وقال ﷺ: «إنكم تَتَهَافَتُونَ عَلَى النَّارِ تَهَافُتَ الفَرَاشِ وَأَنَا آخُذ بِحُجَزِكُمْ» (٢)، وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك، فإنهم

---

(١) **حسن**: حديث «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله «لولده» وقد تقدم. [النسائي: ٤٠، وابن ماجه: ٣١٣، والمشكاة: ٣٤٧ عن أبي هريرة، وحسنه الألباني، ولم أقف عليه عند مسلم].

(٢) **صحيح**: حديث «إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم». [البخاري: ٦٤٨٣،

لم يبعثوا إلا لذلك، وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه، فإن الإنفاق فيه الترياق، وفي الإمساك السم، ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا إلى سم الإمساك ورغبوا عن ترياق الإنفاق، فلذلك قبحت الأموال، والمعنى به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذاتها؛ فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل إلى الخيرات فليس بمذموم، وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله؛ فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «لِيَكُنْ بَلاَغُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ» (١)، معناه لأنفسكم خاصة وإلا فقد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة.

ولما ذكر رسول الله ﷺ أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدّة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه، فأذن له فنزل جبريل عليه السلام، وقال: «مره بأن يطعم المسكين ويكسو العاري ويقري الضيف...» الحديث (٢) فإذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوّها بمخوفها ونفعها بضرها؛ فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيًا داءها ومستخرجًا دواءها ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظانّ الأخطار، فلا تعدل بالسلامة شيئًا في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه.

فإن قلت: فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد؟ فاعلم أن التوفيق لا يستغني عنه أحد: وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره، وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره، كما أن الإلحاد عبارة عن

ومسلم: ٢٢٨٤ عن أبي هريرة] متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «مثلي ومثل الناس» وقال مسلم «ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه» ولمسلم من حديث جابر «وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي».[مسلم: ٢٢٨٥ عن جابر].

(١) **صحيح**: حديث «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب». أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال «بلغة» وقال «مثل زاد الراكب» وقال صحيح الإسناد قلت: هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه «عهد إلى أن يكفى أحدكم مثل زاد الراكب».[ابن ماجه: ٤١٠٤، وانظر صحيح الجامع: ٥٤٦٥].

(٢) حديث استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه، فأذن له فنزل جبريل عليه السلام، وقال: مره بأن يطعم المسكين». أخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الإسناد، قلت. كلا، فيه خالد بن أبي مالك ضعيف جدا.

الميل فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق، وكذا الارتداد، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها؛ لأنّ داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحًا فمن أين ينفعه مجرّد الإرادة؟ فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية، ولذلك قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١] وقال ﷺ: «ما مِنْ أحَدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلاّ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى» أي بهدايته، فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا»[1]، وللهداية ثلاث منازل.

الأولى: معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] فأسباب الهدى هي الكتب والرسل وبصائر العقول، وهي مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا، والأسباب التي تعمي القلوب وإن كانت لا تعمي الأبصار، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ومن جملة المعميات: الإلف والعادة وحب استصحابهما، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] الآية.

وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤] فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء.

والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة، وهي التي يمدّ الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال، وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

والهداية الثالثة وراء الثانية، وهو النور الذي يشرق في عالم النبوّة والولاية بعد كمال المجاهدة، فيهتدي بها إلى ما لا يهتدي إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم

---

(١) صحيح: حديث «ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله». متفق عليه من حديث أبي هريرة «لن يدخل أحدكم عمله الجنة» [البخاري: ٥٦٧٣، ومسلم: ٢٨١٦ عن أبي هريرة، والبخاري: ٦٤٦٧، ومسلم: ٢٨١٨ عن عائشة، ومسلم: ٢٨١٧ عن جابر] قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» وفي رواية لمسلم «ما من أحد يدخله عمله الجنة... الحديث» [مسلم: ٢٨١٦] واتفقا عليه من حديث عائشة، وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم.

العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدّمات، وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٢٠]وهو المسمى حياة في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]والمعني بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢]وأما الرشد فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١] فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها، فالصبي إذا بلغ خبيرًا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيدًا لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطي الهداية وميز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطي الرشد، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرّد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة.

وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتدّ في صوب الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجرّدها لا تكفي، بل لا بد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي، بل لا بدّ من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرّك، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد، وأما التأييد فكأنه جامع للكل، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج، وهو المراد بقوله عز وجل: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة:١١٠] وتقرب منه العصمة، وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس، وإياه عنى بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤] فهذه هي مجامع النعم، ولن تتثبت إلا بما يخوّله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع المراعي والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء، ويستدعي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابًا، وتستدعي تلك الأسباب أسبابًا إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب، وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجًا ليعلم به معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [ابراهيم:٣٤] وبالله التوفيق.

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء:

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربًا، وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة، وكل حركة لا بدّ لها من جسم متحرك هو آلتها، ولا بدّ لها من قدرة على الحركة، ولا بد من إرادة للحركة، ولا بدّ من علم بالمراد وإدراك له، ولا بدّ للأكل من مأكول، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل، ولا بدّ له من صانع يصلحه، فلنذكر أسباب الإدراك، ثم أسباب الإرادات، ثم أسباب القدرة، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء.

الطرف الأول: في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك:

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودًا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمى ولا تغذى؛ فإنّ النبات خلق فيه قوّة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض، وهي له آلات، فبها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة، ثم تغلظ أصولها، ثم تتشعب، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر، إلا أنّ النبات مع هذا الكمال ناقص، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويماس أصله جف وييس ولم يمكنه طلب الغذاء من وضع آخر، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك، فأوّلها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب، منه، وهذا أوّل حس يخلق للحيوان، ولا يتصوّر حيوان إلا ويكون له هذا الحس؛ لأنه إذا لم يحس أصلًا فليس بحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحسن بما لا يلاصقه ويماسه، فإن الإحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا محالة، وهذا الحس موجود لكل حيوان، حتى الدودة التي في الطين فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب، لا كالنبات فإنّ النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع، إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصًا كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك، فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية، فتحتاج إلى أن تطوف كثيرًا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء التي شممت ريحه، وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك

وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصًا، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوًا لا حجاب بينك وبينه؛ وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدوّ فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات؛ لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئًا حاضرًا، وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع، فاشتدّت إليه حاجتك فخلق لك ذلك، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات، وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حسن الذوق، إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك، كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدّمة دماغك إدراك آخر يسمى حسًا مشتركًا تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه، ولولاه لطال الأمر عليك، فإنك إذا أكلت شيئًا أصفر مثلاً فوجدته مرًا مخالفًا لك فتركته، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانيًا لولا الحس المشترك إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلا بدّ من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعًا، حتى إذا أردت الصفرة حكم بأنه مر فيمتنع عن تناوله ثانيًا، وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات، إذ للشاة هذه الحواس كلها، فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصًا؛ فإنّ البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيدت، وقد تلقي نفسها في بئر ولا تدري أن ذلك يهلكها، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر، فأما إدراك العواقب فلا، فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى وهي أشرف من الكل وهو العقل، فبه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل، وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عالمه، وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس في حقك، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي المملكة، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختصّ به، فواحدة منها بأخبار الألوان، والأخرى بأخبار الأصوات، والأخرى بأخبار الروائح، والأخرى بأخبار الطعوم، والأخرى بأخبار الحرّ والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها، وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك، والحس المشترك قاعد في مقدّمة الدماغ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة ويسلمها، إذ

ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها؛ فأما معرفة حقائق ما فيها فلا، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم الإنهاءات إليه مختومة، فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرّك الجنود وهي الأعضاء: مرة في الطلب ومرة في الهرب ومرة في إتمام التدبيرات التي تعنّ له، فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات، ولا تظنن أنا استوفيناها؛ فإنّ الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات، والبصر واحد من جملة الحواس، والعين آلة واحدة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية، وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد، ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب، لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم، فهذا في حس واحد، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس؛ بل لا يمكن أن تستوفي في حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة، مع أنّ جملته لا تزيد على جوزة صغيرة؛ فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات.

الطرف الثاني : في أصناف النعم في خلق الإرادات:

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلًا، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله، فيبقى البصر والإدراك معطلًا في حقه، فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة؛ فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضي الذي يضطرك إلى التناول حتى تتناول وتغتذي فتبقى بالغذاء، وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات.

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك، فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، لا كالزرع فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمي يقدّر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى، وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق دم الحيض، وتأليف الجنين من المني ودم الحيض، وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع في

بعضها فتتشكل بشكل الإناث، وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظمًا ولحمًا ودمًا، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء: لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب، فضلًا عما تراه الآن، ولكنا لسنا نريد أن نتعرّض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام؛ فإذن شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات، وذلك لا يكفيك، فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب، فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك، لبقيت عرضة للآفات ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء، فإن كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك، ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال، وأما في المآل فلا تكفي فيه هذه الإرادة، فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعرّوف للعواقب، كما خلق الشهوات والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل، إذ كان مجرّد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلًا تضرك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة، وهذه الإرادة أفردت بها عن البهائم إكرامًا لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب، وقد سمينا هذه الإرادة باعثًا دينيًا، وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلًا أوفى من هذا.

الطرف الثالث: في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة:

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب، فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج وخدر فيهما، فلا بدّ من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبًا وبمقتضى الكراهية هربًا، فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها، فمنها ما هو للطلب والهرب كالرجل للإنسان والجناح للطير والقوائم للدواب، ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان، وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافًا كثيرًا، فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة، ومنها ما خلق له أربع قوائم، ومنها ما له رجلان، ومنها ما يدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول: رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفي ما لم تتمكن من أن تأخذه، فافتقرت إلى آلة باطشة، فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدّتان إلى الأشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتدّ وتنثني إليك فلا تكون كخشبة منصوبة؛ ثم جعل رأس اليد عريضًا بخلق الكف؛ ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع وجعلها في صفين بحيث يكون

الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية، ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعًا إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن صممتها كانت لك مغرفة، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض، ثم خلق لها أظفارًا وأسند إليها رؤوس الأصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفارك، ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن، فلا بد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه، فجعل الفم منفذًا إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذًا للطعام إلى المعدة، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام، فخلق لك اللحيين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنًا، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك، فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس، وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب، ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلًا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى، ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلًا، وبذلك لا يتم الطحن.

فجعل اللحي الأسفل متحرّكًا حركة دورية، واللحي الأعلى ثابتًا لا يتحرّك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذي صنعه الله تعالى، إذ يدور منه الأسفل على الأعلى، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف يتحرّك الطعام إلى ما تحت الأسنان، أو كيف تستجرّه الأسنان إلى نفسها، أو كيف يتصرف باليد في داخل الفم؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرحى، هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوّة النطق والحكم التي لسنا نطنب بذكرها، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينًا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام، فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فإنك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك، ثم هذا الطعام المطحون المنعجن من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد في المعدة حتى تمتدّ فتجذب الطعام، فانظر كيف هيأ الله تعالى المريء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوي إلى المعدة في دهليز المريء، فإذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن

يصير لحمًا وعظمًا ودمًا على هذه الهيئة بل لا بد وأن يطبخ طبخًا تامًّا حتى تتشابه أجزاؤه، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، فلا يزال لابثًا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة، إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال، ومن قدّام الترائب، ومن خلف لحم الصلب فتتعدّى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعًا متشابهًا يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته، وهو بعد لا يصلح للتغذية، فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهي إلى الكبد، والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولي عليه قوّة الكبد فتصبغه بلون الدم، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء، إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ: إحداهما شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط السوداوي، والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء، ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء، فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقًا ممدودًا إلى الكبد داخلًا في تجويفه، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوي، فيبقى الدم صافيًا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية، ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية، ولأخرج منها متصاعدًا إلى الأعضاء، فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقًا طويلًا إلى الكبد.

ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلًا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد، إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيًا من الفضلات الثلاث نقيًا من كل ما يفسد الغذاء، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقًا، ثم قسمها بعد الطلوع أقسامًا، وشعب كل قسم بشعب، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرًا وباطنًا، فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار بحيث لا تدرك بالأبصار، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء، ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة، وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوي حدثت الأمراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها، وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره.

ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث

الخسيسة: أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزلقة ويحدث في الأمعاء لذع يحركها للدفع، فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفرته لذلك.

وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض، ثم يرسل منها كل يوم شيئًا إلى فم المعدة فيحرّك الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل، وأما الكلية فإنها تغتذي بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل.

ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء، ثم كيفية تركب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها ــ لطال الكلام، وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواه، بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرّك أو تحرك عرق ساكن، لهلكت يا مسكين، فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولًا لتقوى بعدها على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والحمار أيضًا يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك؟ وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط، فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرًا من التطويل، وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر، إلا أن من علم شيئًا من هذا أدرك شمة من معاني قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨] ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة ومستقره القلب، ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها، كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه، ولكنه جعل السراج سببًا له بحكمته؛ وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح؛ ومحله القلب، ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة، والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفتيلة،

والغذاء له كالزيت، والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضًا ينطفيء مهما انقطع غذاؤه، وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادًا بحيث لا تقبل الزيت فينطفيء السرج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفيء مع وجود الغذاء، فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولًا تتشبث النار به؛ وكما أن السراج تارة ينطفيء بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفيء بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل، وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدّرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر؛ فكذلك انطفاء الروح، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب، فكذلك انطفاء الروح؛ وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقته أنواره التي كان يستفيدها من الروح وهي أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة، فهذا أيضًا رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف :١٠٩] عز وجل: فتعسًا لمن كفر بالله تعسًا؛ وسحقًا لمن كفر نعمته سحقًا.

فإن قلت: فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥][1]، فلم يصفه لهم على هذا الوجه.

فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح، فإنّ الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطوّل بذكرها ونحن إنما وصفنا من جملتها جسمًا لطيفًا تسميه الأطباء روحًا، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به، حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدّة في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدّة فيها ويعالجونها بما يفتح السدّة فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقي إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل.

وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال: هو أمر رباني كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء :٨٥] والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تتحير فيها

---

(١) صحيح: حديث: أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال «الروح من أمر ربي». متفق عليه من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في شرح عجائب القلب. [البخاري: ٧٤٦٢، ومسلم: ٢٧٩٤].

عقول أكثر الخلق، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات، وتتزلزل في ذكر مبادىء وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة في مضيقها، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوّة والولاية، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال، وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارًا، فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد، فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها؛ لأن ذلك طور لم يبلغه بعد، وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية، فبها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد، ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب، وعلى أوّل الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني، فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل الميدان، فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية، ولذلك قيل: من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه.

وأنى يصادف هذا خزانة الأطباء؟ ومن أين للطبيب أن يلاحظه؟ بل المعنى المسمى روحًا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظنّ أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحرّكها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك، ولا يشك في أنّ خطأه فاحش، وهذا الخطأ أفحش منه جدًّا، ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولاً قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله ﷺ أن يتحدّث عنه، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم، ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئًا، ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته، أما نسبته ففي قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾[الفجر:٢٧-٣٠] ولنرجع الآن إلى الغرض، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل.

الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته:

اعلم أن الأطعمة كثيرة، ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تتناهى، وذكر ذلك في كل طعام مما يطول، فإن الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية، فلنأخذ الأغذية فإنها الأصل، ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الأغذية فنقول: إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعًا، فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفي بتمام حاجتك فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما

يغتذي به كما خلق فيك، فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاغتذاء لأنه يغتذي بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذي أنت وتجتذب، ولسنا نطنب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه، ولكن نشير إلى غذائه فنقول: كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص، فكذلك الحبة لا تغتذي بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص، بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء، ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها، ولو تركتها في الماء لم تزد، ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد، بل لا بدّ من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينًا، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ...﴾ [عبس: ٢٤-٢٩]الآية؛ ثم لا يكفي الماء والتراب، إذ لو تركت في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر :٢٢]وإنما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض، ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات، فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف؛ فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة، فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد، إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي، فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى منها الأنهار، ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب ثقال حوامل بالماء، ثم انظر كيف يرسله مدرارًا على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة، وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجًا، فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي، ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها، وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان، فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد، والحر عند الحاجة إلى الحر فهذه إحدى حكم الشمس ـــ والحكم فيها أكثر من أن تحصى، ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة، حتى أن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة، وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام

فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضًا، ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه، بل نقول: كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب، فلا يخلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها، ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثًا وباطلًا ولم يصح قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران :١٩١] وقوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء :١٦] وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة، والعالم كله كشخص واحد، وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك، وشرح ذلك يطول، ولا ينبغي أن تظن أنّ الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابًا لها بحكم الحكمة ــ مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم [(١)] بل المنهي عنه في النجوم أمران:

أحدهما: أن تصدّق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها: وهذا كفر.

والثاني: تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها؛ لأنهم يقولون ذلك عن جهل، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطإ؛ فاعتقاد كون الكواكب أسبابًا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحًا في الدين بل هو حق، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك: أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمي النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمي الهواء على طلوع الشمس، وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال: قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك، وقس بهذا سائر الآثار، إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول.

فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر؛ فإذن الكواكب

---

(١) صحيح: حديث النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم. أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس «من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» [أبي داود: ٣٩٠٥، وابن ماجه: ٣٧٢٦، وانظر صحيح الترغيب: ٣٠٥١] وللطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان «إذا ذكرت النجوم فأمسكوا» [انظر صحيح الجامع: ٥٤٥] وإسنادهما ضعيف، وقد تقدم في العلم. ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت يا رسول الله، أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي الكهان! قال «فلا تأتوا الكهان... الحديث"[مسلم: ٥٣٧].

ما خلقت عبثًا، بل فيها حكم كثيرة لا تحصى، ولهذا نظر رسول الله ﷺ إلى السماء وقرأ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ثم قال ﷺ: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هٰذِهِ الآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ»(١)، ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضًا، فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته، فلله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى، فإن من أحب عالمًا فلا يزال مشغولًا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبًا له، فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى، فإن العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده، فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فإنها خرق محركة لا متحركة، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار؛ فإذن المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها، وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيهًا بما ذكرناه على ما أهملناه، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات.

الطرف الخامس: في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك:

اعلم أنّ هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض، والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري؛ فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع أنهم لا يغنيهم في غالب الأمر شيء، بل يجمعون فإما أن تغرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشدّ أعدائهم لو عرفوا، فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ويركبوا الأخطار ويغرّروا بالأرواح في ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الله الحيوانات

(١) حديث قرأ قوله تعالى ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ثم قال «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته» أي ترك تأملها. أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس بلفظ «ولم يتفكر فيها» وفيه أبو جناب يحيى بن أبي حبة ضعيف.

وسخرها للركوب والحمل في البراري، وانظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة، وإلى الحمار كيف جعل صبورًا على التعب، وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوي المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش، وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما تحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حدّ الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن، ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبًا للإيجاز.

الطرف السادس: في إصلاح الأطعمة:

اعلم أنّ الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل، وهو كذلك، بل لا بدّ في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور أخر لا تحصى، واستقصاء ذلك في كل طعام يطول، فلنعين رغيفًا واحدًا، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض، فأوّل ما يحتاج إليه الحارث ليزرع ويصلح الأرض، ثم الثور الذي يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه، ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدّة، ثم تنقية الأرض من الحشيش، ثم الحصاد، ثم الفرك والتنقية، ثم الطحن، ثم العجين ثم الخبز؛ فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره، وعدد الأشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار، وحدّاد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحدّاد إلى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن وكيف جعل الأرض قطعًا متجاورات مختلفة فإن فتشت علمت أنّ رغيفًا واحدًا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يا مسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع، فابتدىء من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تنتهي النوبة إلى عمل الإنسان فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات، حتى أن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبري خمسًا وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملًا، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلًا بعد نباته لنفذ عمرك وعجزت عنه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة فانظر إلى المقراض مثلًا وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معًا ويقطعانه بسرعة، ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه

لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتي أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلًا عن غيرها، فسبحان من ألحق ذوي الأبصار بالعميان وسبحان من منع النبيين مع هذا البيان، فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلًا، أو عن الحدّاد، أو عن الحجام الذي هو أخس العمال، أو عن الحائك، أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضًا فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء.

الطرف السابع: في إصلاح المصلحين:

اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبدّدوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمحبة عليهم ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣] فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها، ففي جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة، وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر، فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدّهم بالقوة والعدّة والأسباب وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعًا وكرهًا، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض، فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق، واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحدّاد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحدّاد، وصار الحجام ينتفع بالحراث، والحرّاث بالحجام، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض.

وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرّفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلًا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرّب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز

يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحرّاث يصلحه بالحصاد، والحدّاد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحدّاد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة، والسلطان يصلح الصناع، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم، والعلماء يصلحون السلاطين، والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف، وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت :٦٩] لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء، ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [ابراهيم :٣٤] فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا، وإن سكتنا فبقهره انقبضنا؛ إذ لا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى، لأنا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر :١٦] فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار.

الطرف الثامن: في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام:

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي إليهم، ولا تظنن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية والسماوية وحملة العرش، فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما.

واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يغتذي إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف، وذلك الغذاء يصير دمًا في آخر الأمر، ثم يصير لحمًا وعظمًا، وإذا صار لحمًا وعظمًا تم اغتذاؤك، والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار، فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها، ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحينًا ثم عجينًا ثم خبزًا مستديرًا مخبوزًا إلا بصناع، فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحمًا وعظمًا وعروقًا وعصبًا إلا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد، وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة، فأقول: لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم، ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم، ولا بد من خامس يدفع الفضل

الفاضل عن حاجة الغذاء، ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلًا، ولا بد من سابع يرعى المقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته، فإنه لو جمع مثلًا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها وإلى الحدقة مع صفائها وإلى الأفخاذ مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع، بل لو لم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيط فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجلين مثلًا لبقيت تلك الرجل كما كانت في حدّ الصغر وكبر جميع البدن، فكنت ترى شخصًا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه ألبتة فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوّضة إلى ملك من الملائكة، ولا تظنن أنّ الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فإنّ محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول؛ فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك، تركنا تفضيل ذلك للإيجاز، والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام، والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجرّ من جانب إلى جانب [1] أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به.

---

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب... ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الإسراء قال جبريل [البخاري: ٣٣٤٢، ومسلم: ١٦٣] لخازن السماء الدنيا: افتح، وفيه: أتى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح،... الحديث، ولهما من حديث أبي هريرة «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام» [النسائي: ١٢٨٢ عن ابن مسعود، ولم أجده في الصحيحين، ولا عن أبي هريرة كما ذكر المصنف -رحمه الله-، وانظر صحيح الترغيب: ١٦٦٤] وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد ياليل « [البخاري: ٣٢٣١، ومسلم: ١٧٩٥] فناداني ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين... الحديث» ولهما من حديث أنس «إن الله وكل بالرحم ملكا...» الحديث [البخاري: ٣١٨، ومسلم: ٢٦٤٦] وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي «ما من نبت ينبت إلا وتحته ملك موكل حتى يحصد... الحديث» وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكراوي واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف. وللطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف «إن لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة في

فإن قلت: فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم أفتقر إلى سبعة أملاك، والحنطة أيضًا تحتاج إلى من يطحن أولًا ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيًا، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثًا، ثم إلى من يعجن رابعًا، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسًا، ثم إلى من يرقها رغفانًا عريضة سادسًا، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعًا، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنًا كأعمال الإنس ظاهرًا؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس، وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس، فإنّ البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولا هما يتنازعان الشم؛ وليس كاليد والرجل فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشًا ضعيفًا فتزاحم به اليد، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز، فإن هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل، ولذلك نرى الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته، وذلك غير ممكن في طباع الملائكة، بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقهم، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، والراكع منهم راكع أبدًا، والساجد منهم ساجد أبدًا، والقائم قائم أبدًا لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه، وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك، فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى، بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلًا بإشارتك، فهذا يشبهه من وجه ولكن يخالفه من وجه، إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحًا وإطباقًا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون؛ فإذن هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسماوية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها؛ فإنا لم نطول بذكرها؛ فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها، فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع

عنقها جرس» [انظر ضعيف الجامع: ١٩٥٥] وللترمذي وحسنه من حديث ابن عباس: قالت اليهود يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال «ملك من الملائكة موكل بالسحاب» [الترمذي: ٣١١٧، وانظر السلسلة الصحيحة: ١٨٧٢] ولمسلم من حديث أبي هريرة «بينما رجل بفلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماء في حرة... الحديث».[مسلم: ٢٩٨٤].

الطبقات، فإذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة، ثم قال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠] فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة وإضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة، وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة بل أقول: كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلًا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما، فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضًا به فإن لله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود، ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين، إذ البياض يفرّق الضوء والسواد يجمعه، ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفًّا واحدًا أن يكون مانعًا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ومتشبثًا للأقذاء التي تتناثر في الهواء، وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبها، وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل: وهو أنّ غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر، فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب فينظر من وراء شباك الشعر، فيكون شباك الشعر مانعًا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل، ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الاقذاء إلى زوايا العين والأجفان، والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين، فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب، ولعلنا نستأنف له كتابًا مقصودًا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى، فلنرجع إلى غرضنا فنقول: من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بعين، ولا العين إلا برأس ولا الرأس إلا بجميع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات، ولا السموات إلا بالملائكة، فإنّ الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض، فإذن قد كفر كل نعمة في الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد إلا ويلعنه، ولذا ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم(١)، وكذلك

(١) حديث «إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم». لم أجد له أصلا.

ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر (١) وأن الملائكة يلعنون العصاة (٢) في ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها، وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع ما في الملك والملكوت، وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها، فيتبدل اللعن بالاستغفار، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه.

وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: «يا أيوب ما من عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملكان، فإذا شكرني على نعمائي قال الملكان: اللهم زده نعمًا على نعم، فإنك أهل الحمد والشكر، فكن من الشاكرين قريبًا فكفى بالشاكرين علوّ رتبة، وعندي أني أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكي عليهم».

وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعمًا كثيرة، فاعلم أن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدّ متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك، بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات، فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك، بل في كل جزء من أجزاء العالم، فانظر هل يتصوّر إحصاء ذلك أم لا؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قال: إلهي كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت أصلها، وأن طمست رأسها؟ وكذا ورد في الأثر: أن من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه.

وجميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعتبر ما سواه من النعم به، فإنّ البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه، فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع في غير مطمع.

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر:

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله.

ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء

---

(١) حسن: حديث «إن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر». تقدم في العلم. [الترمذي: ٢٦٨٥ بنحوه، وانظر صحيح الترغيب: ٨١].

(٢) صحيح: حديث «إن الملائكة يلعنون العصاة». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه. [مسلم: ٢٦١٦].

الشيطان.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصًا به فلا يعدّه نعمة، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حارّ أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غمًّا؛ فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدّر ذلك نعمة وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفًا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها؛ فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينه، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعدّه نعمة، ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعدّه الجاهل نعمة، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائمًا، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرّق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم، كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدّة اغتمامه به فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا فقال: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال لا: فقال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفًا؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفًا

وحكي أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعًا، فرأى في المنام كأنّ قائلًا يقول له: تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار؟ قال: لا، قال: فسورة هود؟ قال: لا، قال: فسورة يوسف؟ قال: لا، فعدّد عليه سورًا ثم قال: فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو، فأصبح وقد سري عنه.

ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه، فقال له: عظني فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه؟ قال: نعم، فقال: لو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه؟ قال: نعم. قال: فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء.

فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة – وقد ذكرنا النعم العامة– فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول: ما من عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله

رأى من الله نعمة أو نعمًا كثيرةً تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور: في العقل، والخلق، والعلم.

أما العقل: فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس، وقل من يسأل الله العقل، وإنّ من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره؛ لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه، فمن وضع كنزًا تحت الأرض فهو يفرح به ويشكره عليه، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنه في حقه كالباقي.

وأما الخلق: فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبًا يكرهها وأخلاقًا يذمها، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئًا عنها، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيىء.

وأما العلم: فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة فإذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله، فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد، فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقًا.

وإما في بعض الأمور فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلًا، فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أمورًا لو سلب ذلك منه وأعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن جعله مؤمنًا لا كافرًا وحيًا لا جمادًا وإنسانًا لا بهيمة وذكرًا لا أنثى وصحيحًا لا مريضًا وسليمًا لا معيبًا؛ فإنّ كل هذه خصائص، وإن كان فيها عموم أيضًا فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها، بل له أمور لا يبدّلها بأحوال الآدميين أيضًا، وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الأكثر، فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذن حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضي لنفسه حالة بدلًا عن حال نفسه إما على الجملة وإما في أمر خاص؛ فإذن لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه، فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه، وما باله

لا يسوي دنياه بدينه، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر إليها بأن في الفساق كثرة فينظر أبدًا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه، فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خير منه، وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق، فكيف لا يلزمه الشكر وإذا قال ﷺ: «مَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَنَظَرَ فِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ كَتَبَهُ اللَّهُ صَابِرًا وَشَاكِرًا. وَمَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ وَفِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ صَابِرًا وَلا شَاكِرًا»(١) فإذن كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعمًا كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك، ولذلك قيل:

من شاء عيشًا رحيبًا يستطيل به ... في دينه ثمَّ في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه ورعًا ... ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِآيَاتِ اللَّهِ فَلاَ أَغْنَاهُ اللَّهُ»(٢)، وهذا إشارة إلى نعمة العلم. وقال عليه السلام: «إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الغِنَى الَّذِي لا غِنَى بَعْدَهُ وَلا فَقْرَ مَعَهُ»(٣)، وقال عليه السلام: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فظن أَنَّ أَحَدًا أَغْنَى مِنْهُ فَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِآيَاتِ اللَّهِ»(٤)، وقال ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»(٥)، وقال عليه السلام: «كَفَى بِاليَقِينِ غِنًى»(٦)، وقال بعض السلف: يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة: «إن عبدًا أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتي: عن سلطان يأتيه، وطبيب يداويه، وعما في يد أخيه» وعبر الشاعر عن هذا فقال:

إذا ما القوتُ يأتيك ... كذا الصحة والأمنُ
وأصبحت أخا حزنٍ ... فلا فارقك الحزنُ

---

(١) ضعيف: حديث «من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا». أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب، وفيه المثنى بن الصباح ضعيف. [الترمذي: ٢٥١٢، وانظر السلسلة الضعيفة: ١٩٢٤].

(٢) حديث «من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله». لم أجده بهذا اللفظ.

(٣) ضعيف: حديث «إن القرآن هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه». أخرجه أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ «إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه» قال الدارقطني رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلا، وهو أشبه بالصواب. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٥٥٨].

(٤) ضعيف جدًا: حديث «من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله». أخرجه البخاري في التاريخ من حديث رجاء الغنوي بلفظ «من آتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد صغر أعظم النعم» وقد تقدم في فضل القرآن، ورجاء مختلف في صحبته. وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٨١١].

(٥) صحيح: حديث «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». تقدم في آداب التلاوة. [البخاري: ٧٥٢٧].

(٦) ضعيف جداً: حديث «كفى باليقين غنى». رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر، ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفا عليه، وقد تقدم. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٥١].

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر عن هذا المعنى فقال: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ: فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»(١)، ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث؛ مع أنها وبال عليهم لا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصولهم إلى النعيم المقيم والملك العظيم، بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضًا عن علمك بل عن عشر عشير علمك: لم يأخذه، وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة، بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكماله، فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلًا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به، فكان لا يأخذه، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها، ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدّرة مشوشة لا يفي مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها، هكذا كانت إلى الآن، وهكذا تكون ما بقي من الزمان إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت، كالمرأة الجميل ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغني، حتى إذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره، فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها، ولا ينبغي أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها، فإنّ المقبل عليها أيضًا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها، وتألم المعرض يفضي إلى لذة في الآخرة وتألم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة، فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤] فإذن إنما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة.

فإن قلت: فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر؟ فأقول: أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة.

وأما القلوب البليدة التي لا تعدّ النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها، فسبيله أن ينظر أبدًا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية، إذ كان يحضر كل يوم دار

---

(١) حسن لغيره: حديث «من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه: فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها». تقدم غير مرة. [الترمذي: ٢٣٤٦، وابن ماجه: ٤١٤١، وانظر صحيح الترغيب: ٨٣٣].

المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود، فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن، ويحضر المقابر فيعلم أنّ أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يومًا واحدًا، أما من عصى الله تعالى فليتدارك، وأما من أطاع فليزد في طاعته، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول: كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبني إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات، وأما العاصي فغبنه ظاهر، فإذا شاهد المقابر وعلم أنّ أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له، فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر، بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر.

وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيدًا للمعرفة، فكان قد حفر في داره قبرًا فكان يضع غلًا في عنقه وينام في لحده ثم يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] ثم يقوم ويقول: يا ربيع وقد أعطيت ما سألت، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر: أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

وقال بعض السلف: النعم وحشية فقيدوها بالشكر. وفي الخبر: «مَا عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَبْدٍ إلاّ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ فَمَنْ تَهَاوَنَ بِهِمْ عرَّضَ تِلْكَ النِّعْمَةَ لِلزَّوَالِ»(١)، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] فهذا تمام هذا الركن.

* * *

(١) ضعيف: حديث «ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه». أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ «إلا عظمت مؤونة الناس عليه، فمن لم يحتمل تلك المؤونة... الحديث» رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال: إنه موضوع على حجاج الأعور. [انظر ضعيف الترغيب: ١٥٧٢].

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد:

لعلك تقول: ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلًا فما معنى الصبر إذن. وإن كان البلاء موجودًا فما معنى الشكر على البلاء.

وقد ادعى مدّعون أنا نشكر على البلاء فضلًا عن الشكر على النعمة، فكيف يتصوّر الشكر على البلاء، وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألمًا والشكر يستدعي فرحًا وهما يتضادان، وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده؟ فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان: ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه: أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه: كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه، فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد: أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدّة وإما أبدًا.

وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق. وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة.

وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه؛ لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية، بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي، نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه، والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية، بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصوّر أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر: فإن الغنى مثلًا يجوز أن يكون سببًا لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده، والصحة أيضًا كذلك؛ فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه، فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله؛ فرب عبد تكون الخيرة

له في الفقر والمرض، ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى :٢٧] وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق :٦-٧] وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ»(١) وكذلك الزوجة والولد والقريب، وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فإنها يتصوّر أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعمًا في حقهم، إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فإنها صفة من صفات الله تعالى، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون فقدها نعمة، مثاله: جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه، إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه، إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام؛ وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالاً عليه في الدنيا والآخرة، بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فإنه ربما يكون وليًا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته، ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لا محالة أعظم، فليس من آذى نبيًا أو وليًا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف.

ومنها: إبهام الله تعالى أمر القيامة، وإبهامه ليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، وإبهامه بعض الكبائر، فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم.

وحيث قلنا: إن لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق، وذلك مطرد في حق كل أحد، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس، وهي أيضًا قد تكون نعمة في حق المتألم بها، فإن لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فإنه يتألم به وهو عاص به، وألم الكفار في النار فهو أيضًا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد. ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار.

أما ترى أهل الدنيا ليس يشتدّ فرحهم بنور الشمس مع شدّة حاجتهم إليه من حيث إنها عامة مبذولة، ولا يشتدّ فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها،

---

(١) صحيح لغيره: حديث «إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه». أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه، وقد تقدم. [الترمذي: ٢٠٣٦، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٨٠].

فإذن قد صح ما ذكرناه من أنّ الله تعالى لم يخلق شيئًا إلا وفيه حكمة، ولا خلق شيئًا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم، فإذن في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضًا إما على المبتلى أو على غير المبتلى، فإذن كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة، فيجتمع فيها على العبد وظيفتان: الصبر والشكر جميعًا.

فإن قلت: فهما متضادان فكيف يجتمعان؟ إذ لا صبر إلا على غم، ولا شكر إلا على فرح؟ فاعلم أن الشيء الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام، والشكر من حيث الفرح.

وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها.

أحدها: أن كل مصيبة ومرض فيتصوّر أن يكون أكبر منها، إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزها، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا.

الثاني: أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه: قال رجل لسهل رضي الله تعالى عنه: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال: اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى علي فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه.

وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه، فقال له: اشكر الله فضربه؛ فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه، فقال: اشكر الله، فجيء بمجوسي فحبس عنده وكان مبطونًا فقيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسي، فأرسل إليه فقال: اشكر الله، فكان المجوسي يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضي حاجته، فكتب إليه بذلك، فقال اشكر الله، فقال: إلى متى هذا، وأي بلاء أعظم من هذا؟ فقال: لو جعل الزنار الذي في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع؟ فإذن ما من إنسان أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهرًا وباطنًا في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلًا وآجلًا ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر، ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداهما فهو مستحق للشكر.

ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد، فسجد لله تعالى

سجدة الشكر، فقيل له: ما هذه السجدة؟ فقال: كنت أنتظر أن تصب علي النار، فالاقتصار على الرماد نعمة، وقيل لبعضهم: ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار فقال: أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطيء الحجر.

فإن قلت: كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار؟ فاعلم أن الكافر قد خبيء له ما هو أكثر، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عمران :١٧٨] وأما العاصي فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه، ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنى وسائر المعاصي بالجوارح، ولذلك قال تعالى في مثله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور :١٥] فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك، ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك.

وهذا هو الوجه الثالث في الشكر، وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصوّر أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها، ومصيبة الآخرة تدوم، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي، إذ أسباب التسلي مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذبين، ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيًا، إذ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ إذا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَأَصابَتْهُ شِدَةٌ أَوْ بَلاَءٌ فِي الدُّنْيَا فَالله أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُ ثَانِيًا»(١).

الرابع: أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بدّ من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها، فهذه نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين:

أحدهما: الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي، فإنه لو خلي واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب، فكان يخسر جميع عمره، فكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سببًا لهلاك الإنسان في بعض الأحوال، بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سببًا لهلاكه، فالملحدة غدًا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانًا ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصوّر أن يكون له فيه خيرة

---

(١) ضعيف: حديث «إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا». أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث علي «من أصاب في الدنيا ذنبا عوقب به فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده... الحديث» لفظ ابن ماجه. وقال الترمذي «من أصاب حدا فعجل عقوبته في الدنيا...» [البخاري: ١٨، ومسلم: ١٧٠٩] وقال حسن. وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت «ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له... الحديث».[الترمذي: ٢٦٢٦، وابن ماجه: ٢٦٠٤، وانظر ضعيف ابن ماجه].

دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدّر فيه الخيرة ويشكره عليه، فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد، وغدًا يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا، كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه، إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب، والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد، فقد روي أنّ رجلًا قال لرسول الله ﷺ: أوصني قال: «لا تَتَّهِمِ اللَّهَ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ عَلَيْكَ»[١]. ونظر إلى السماء فضحك، فسئل فقال: «عَجِبْتُ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ: إنْ قَضَى لَهُ بِالسَّرَّاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ قَضَى لَهُ بِالضَّرَّاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[٢].

الوجه الثاني: أنّ رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة في حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجنًا عليه، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن، ولذلك قال ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ»[٣]، والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضي بها واطمأنّ إليها، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين إلى الخروج منها، والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي، وبقدر حب الدنيا في القلب يسري فيه الشرك الخفي، بل الموحد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق، فإذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به، وأما التألم فهو ضروري، وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانًا، أو يسقيك دواء نافعًا بشعًا مجانًا، فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح، فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل، بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منه لا محالة، فرأى وجهًا حسنًا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالًا وبلاء عليه لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه، والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم

---

(١) حسن لغيره: حديث: قال له رجل أوصني قال «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك». رواه أحمد والطبراني من حديث عبادة بزيادة في أوله، وفي إسناده ابن لهيعة. [أحمد: ٢٢٢١٠، وانظر صحيح الترغيب: ١٣٠٧].

(٢) حديث: نظر إلى السماء فضحك، فسئل فقال «عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن». أخرجه مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء، وضحكه «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابه ضراء صبر فكان خيرا له» [مسلم: ٢٩٩٩] وللنسائي في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص «عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابته خير حمد ربه وشكر... الحديث».

(٣) صحيح: حديث «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [مسلم: ٢٩٥٦].

خارجون عنها من باب اللحد، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة؛ فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلايا، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصوّر منه الشكر؛ لأنّ الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة، ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصوّر منه الشكر على المصيبة. وحكي أن أعرابيًا عزى ابن عباس على أبيه فقال:

اصبرْ نكن بك صابرين فإنما — صبرُ الرعية بعد صَبْرِ الراسِ
خير من العباس أجرك بعده — والله خير منك للعباسِ

فقال ابن عباس: ما عزاني أحد أحسن من تعزيته.

والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»[(١)]، وقال ﷺ قال الله تعالى: «إذا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذلِكَ بِصَبْرٍ جَميلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَنْ أَنْصُبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا» وقال عليه السلام: «ما مِنْ عَبْدٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ اللَّهُمَّ أجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْرًا مِنْهَا إلاَّ فَعَلَ اللَّهُ ذلِكَ بِهِ»، وقال ﷺ قال الله تعالى: «مَنْ سَلَبْت كَرِيمَتَيْهِ فَجَزَاؤُهُ الخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي».

وروي أن رجلًا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال ﷺ: «لا خَيْرَ فِي عَبْدٍ لا يَذْهَبُ مَالُهُ وَلاَ يَسْقَمُ جِسْمُهُ، إنَّ اللَّهَ إذا أحَبَّ عَبْدًا ابْتَلاهُ وَإِذَا ابْتَلاهُ صَبَّرَهُ»[(٢)]، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ الدَّرَجَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لا يَبْلُغُها بِعَمَلٍ حَتَّى يُبْتَلَى بِبَلاءٍ فِي جِسْمِهِ فَيَبْلُغُها بِذَلِكَ»[(٣)]، وعن خباب بن الأرت قال: أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا: يا رسول الله، ألا تدعو الله تستنصره لنا؟ فجلس محمرًا لونه ثم قال: «إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ حَفِيرَةٌ

---

(١) صحيح: حديث «من يرد الله به خير يصب منه». رواه البخاري من حديث أبي هريرة. [البخاري: ٥٦٤٥].

(٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسده، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين.

(٣) صحيح لغيره: حديث «إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك». رواه أبو داود في رواية ابن داسه، وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده، وليس في رواية اللؤلؤي. ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه، ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو المليح الحسن بن عمر الرقي، وكذلك لم يرو عن خالد إلا ابنه محمد، وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمي جده اللجلاج بن سليم، فالله أعلم. وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج العامري ذاك مشهور روى عنه جماعة. ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي إياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده. ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فالله أعلم. [أبو داود: ٣٠٩٠ وانظر صحيح الترغيب: ٣٤٠٩].

وَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ ما يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ» (١)، وعن علي كرّم الله وجهه قال: أيما رجل حبسه السلطان ظلمًا فمات فهو شهيد، وإن ضربه فمات فهو شهيد، وقال عليه السلام: «مِنْ إِجْلالِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لا تَشْكُو وَجَعَكَ وَلا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ».

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على ما يفنى وتذرون ما يبقى، ألا حبذا المكروهات الثلاث: الفقر والمرض والموت.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذا أَرادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا وَأَرادَ أَنْ يُصَافِيَهُ صَبَّ عَلَيْهِ البَلاءَ صَبًّا وَثَجَّهُ عَلَيْهِ ثَجًّا، فَإِذا دَعَاهُ قَالَتِ المَلائِكَةُ: صَوْتٌ مَعْرُوفٌ وَإِنْ دَعَاهُ ثَانِيًا فَقَالَ يا رَبِّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَبَّيْكَ عَبْدِي وَسَعْدَيْكَ لا تَسْأَلُنِي شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَيْتُكَ أَوْ دَفَعْتُ عَنْكَ ما هُوَ خَيْرٌ وَادخَرتُ لَكَ عِنْدِي ما هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ جِيءَ بِأَهْلِ الأَعْمَالِ فَوُفُّوا أَعْمَالَهُمْ بِالمِيزَانِ: أَهْلُ الصَّلاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالحَجِّ، ثُمَّ يُؤْتَى بِأَهْلِ البَلاءِ فَلاَ يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلاَ يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوانٌ، يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الأَجْرُ صَبًّا كَمَا كان يُصَبُّ عَلَيْهِمُ البَلاءُ صَبًّا فَيَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا لَوْ أَنَّهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ أَجْسَادُهُمْ بِالمَقَارِيضِ لِمَا يَرَوْنَ ما يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ البَلاءِ مِنَ الثَّوابِ» (٢)، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: شكا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال: يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا؛ فأوحى الله تعالى إليه: «إنّ العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي، فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه، حتى يلقاني فأجزيه بحسناته.

ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا، حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته.

وروي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ الأَذَى؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ فَهذَا مِمَّا تُجْزَوْنَ بِهِ» (٣)، يعني أن جميع

---

(١) صحيح: حديث خباب بن الأرت: أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا إليه». تقدم. [البخاري: ٣٦١٢].

(٢) ضعيف: حديث أنس «إذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله «فإذا كان يوم القيامة... إلى آخره» وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان. ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف. [انظر ضعيف الرتغيب: ١٩٨٦].

(٣) صحيح: حديث لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: كيف الفرح بعد هذه الآية! فقال رسول الله ﷺ «غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟».

ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك.

وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُعْطِيهِ اللَّهُ ما يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذلِكَ اسْتِدْرَاجٌ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤]» (١) يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام:٤٤] أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة.

وعن الحسن البصري رحمه الله: أن رجلًا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية، فكلمها ثم تركها، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي فأخبره، فقال: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا» (٢)، وقال علي كرم الله وجهه: ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن؟ قالوا: بلى، فقرأ عليهم: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيًا، وإن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ قَطُّ جُرْعَتَيْنِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ رَدَّهَا بِحِلْمٍ، وَجُرْعَةِ مُصِيبَةٍ يَصْبِرُ الرَّجُلُ لَهَا.

وَلا قَطَرَتْ قَطْرَةٌ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَةِ دَمٍ أُهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ قَطْرَةِ دَمْعٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَلا يَرَاهُ إِلاَّ اللَّهُ. وَمَا خَطَا عَبْدٌ خُطْوَتَيْنِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خُطْوَةٍ إِلَى صَلاَةِ الفَرِيضَةِ، وَخُطْوَةٍ إِلَى صِلَةِ الرَّحِمِ» (٣).

من رواية من لم يسم عن أبي بكر ورواه الترمذي من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه. قال: وليس له إسناد صحيح. وقال الدارقطني: وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير، قال: وليس فيها شيء يثبت.[الترمذي: ٣٠٣٩، وانظر صحيح الترغيب: ٣٤٣٠].

(١) صحيح: حديث عقبة بن عامر «إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج، ثم قرأ قوله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤]». رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن. [أحمد: ١٦٨٦٠، وانظر السلسلة الصحيحة: ٤١٣].

(٢) صحيح: حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط. أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا. ووصله الطبراني أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر، ورواه أيضا من حديث ابن عباس، وقد روى الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي. [أحمد: ١٦٣٤٦، وانظر السلسلة الصحيحة: ١٢٢٠].

(٣) حديث أنس «ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها». أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين، وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي(١) منكر الحديث. وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد جيد: «ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله». [ابن ماجه: ٤١٨٩، وانظر صحيح الترغيب: ٢٧٥٢، وقال الألباني: صحيح لغيره] وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة «ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله، أو قطرة دمع في سواد الليل... الحديث» وفيه محمد بن صدقة، وهو الفدكي: منكر الحديث.

وعن أبي الدرداء قال: توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدًا شديدًا فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زي الخصوم، فقال أحدهما: بذرت بذرًا فلما استحصد مرَّ به هذا فأفسده، فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يمينًا وشمالًا فإذا الطريق عليه. فقال سليمان عليه السلام: ولم بذرت على الطريق، أما علمت أن لا بدّ للناس من الطريق؟ قال: فلم تحزن على ولدك، أما علمت أن الموت سبيل الآخرة؟ فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك.

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض، فقال: يا بني، لأن تكون في ميزاني أحب إليَّ من أن أكون في ميزانك، فقال يا أبت، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعي إليه ابنة له، فاسترجع وقال: عورة سترها الله تعالى، ومؤنة كفاها الله، وأجر قد ساقه الله، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله تعالى قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥] .

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن، فعزاه مجوسي يعرفه؛ فقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال ابن المبارك: اكتبوا عنه هذه.

وقال بعض العلماء: إن الله ليبتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشي على الأرض وما له ذنب.

وقال الفضيل: إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير.

وقال حاتم الأصم: إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان، وعلى الفقراء بالمسيح، وعلى العبيد بيوسف، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم.

وروي أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك، فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا، فأنَّ منه أنة؛ فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لئن صعدت منك أنَّة ثانية لأمحونك من ديوان النبوّة، فعض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين.

وقال أبو السعود البلخي: من أصيب بمصيبة فمزق ثوبًا أو ضرب صدرًا فكأنما أخذ رمحًا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل.

وقال لقمان رحمه الله لابنه: يا بني إن الذهب يجرّب بالنار والعبد الصالح يجرّب بالبلاء، فإذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

وقال الأحنف بن قيس: أصبحت يومًا أشتكي ضرسي، فقلت لعمي: ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثًا، فقال: لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة، وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام: «إذا نزلت بك

بلية فلا تشكني إلى خلقي واشك إلي كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت مساويك وفضائحك» نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة.

بيان فضل النعمة على البلاء:

لعلك تقول: هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم، فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟ فأقول: لا وجه لذلك لما روي عن رسول الله ﷺ: أنه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة(١) وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام: «رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَة»(٢)، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها(٣).

وقال علي كرّم الله وجهه: اللهم إني أسألك الصبر، فقال ﷺ: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ البَلاءَ فَاسْأَلْهُ العَافِيَةَ»(٤).

وروى الصدّيق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ، فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْ العَافِيَةِ إلاَّ اليَقِينِ»(٥)، وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك، فعافية القلب أعلى من عافية البدن.

وقال الحسن رحمه الله: الخير الذي لا شر فيه: العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر.

وقال مطرّف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر، أحب إليّ من أن أبتلي فأصبر.

---

(١) ضعيف: حديث: أنه ﷺ كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة. رواه أحمد من حديث بشر بن أبي أرطاة بلفظ «أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» [أحمد: ١٧١٧٦، وانظر السلسلة الضعيفة: ٢٩٠٧] وإسناده جيد. ولأبي داود من حديث عائشة «اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة» [أبي داود: ٥٠٨٥، وانظر المشكاة: ١٢١٦، وقال الألباني: ضعيف] وفيه بقية وهو مدلس، ورواه بالعنعنة.

(٢) حديث: كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس: كان أكثر دعوة يدعو بها النبي ﷺ يقول: «اللهم آتنا في الدنيا...» الحديث [البخاري: ٦٣٨٩، ومسلم: ٢٦٩٠] ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ما بين الركنين «ربنا آتنا...» [أبي داود: ١٨٩٢ وانظر صحيح أبي داود، وحسنه الألباني] الحديث.

(٣) صحيح: حديث: كان يستعيذ من شماتة الأعداء. [البخاري: ٦٣٤٧، ومسلم: ٢٧٠٧ عن أبي هريرة]. تقدم في الدعوات.

(٤) ضعيف: حديث قال علي رضي الله عنه: اللهم إني أسألك الصبر، فقال ﷺ «قد سألت الله البلاء فسله العافية» [الترمذي: ٣٥٢٧، وانظر ضعيف الترمذي]. رواه الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه، ولم يسم عليا وإنما قال: سمع رجلا. وله وللنسائي في اليوم والليلة من حديث علي: كنت ساكنا فمر بي رسول الله ﷺ وأنا أقول... الحديث. وفيه: «فإن كان بلاء فصبرني» [الترمذي: ٣٥٦٤، وانظر ضعيف الترمذي]، فضربه برجله وقال «اللهم عافه واشفه» وقال حسن صحيح.

(٥) حسن صحيح: حديث أبي بكر الصديق «سلوا الله العافية». أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد جيد، وقد تقدم. [الترمذي: ٣٥٥٨، وانظر صحيح الترغيب: ٣٣٨٧، ولم أره عند ابن ماجه].

وقال ﷺ في دعائه: «وَعَافِيَتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ» (١).

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين: أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب؛ فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء، ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه على الصبر.

فإن قلت: فقد قال بعضهم: أود أن أكون جسرًا على النار يعبر علي الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار. وقال سمنون رحمه الله تعالى:

ليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاختبرني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء فاعلم أنه حكي عن سمنون المحب رحمه الله أنه بلي بعد هذا البيت بعلة الحصر، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب، وأما محبة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظنّ المحب بنفسه حبًا لمثل ذلك، فمن شرب كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها، فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعوّل عليه، كما حكي أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه، فقال: ما الذي يمنعك عني، ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرًا لبطن لفعلته لأجلك؟ فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال: يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى، وهو كما قال، وقال الشاعر:

أريد وصاله ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضًا محال، ومعناه أني أريد ما لا يريد، لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر، فكيف أراد الهجر الذي لم يرده، بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين.

أحدهما: أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به إلى مراد الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة، فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهمًا في درهمين فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال.

الثاني: أن يصير رضاه عنده مطلوبًا من حيث إنه رضاه فقط، ويكون له لذة في استشعاره

---

(١) **ضعيف**: حديث «وعافيتك أحب إلي». ذكره ابن إسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى الطائف بلفظ «وعافيتك أوسع لي» وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل. [انظر ضعيف الجامع: ١١٨٢].

رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته، فعند ذلك يتصوّر أن يريد ما فيه الرضا، فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا، فهؤلاء إذا قدروا رضاه في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية، وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت، وإن ثبتت مثلًا فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال؟ هذا فيه نظر، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه، وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المانّ بفضله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين.

بيان الأفضل من الصبر والشكر:

اعلم أنّ الناس اختلفوا في ذلك، فقال قائلون: الصمت أفضل من الشكر.

وقال آخرون: الشكر أفضل. وقال آخرون: هما سيان. وقال آخرون: يختلف ذلك باختلاف الأحوال، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل، فلا معنى للتطويل بالنقل، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى. فنقول: في بيان ذلك مقامان.

المقام الأوّل: البيان على سبيل التساهل: وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة، وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمده الوعاظ، إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم، والظئر المشفقة لا ينبغي أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات، بل باللبن اللطيف، وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملًا لها بقوّته، ويفارق الضعف الذي هو عليه في بنيته فنقول: هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع، وذلك يقتضي تفضيل الصبر، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله فإذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر، بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل كقوله ﷺ: «مِنْ أَفْضَلِ ما أُوتِيتُمُ اليَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ» (١)، وفي الخبر: «يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له: «أما ترضى أن يجزيك كما جزينا هذا الشاكر، فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كلا، أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت، لأضعفن لك الأجر عليه، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين» (٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وأما قوله ﷺ: «الطَّاعِمُ

---

(١) حديث «من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر». تقدم.

(٢) حديث: يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين، ويؤتى بأصبر أهل الأرض». لم أجد له أصلا.

الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ»(١)، فهو دليل على أنّ الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر، فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر، وهو كقوله ﷺ: «الجُمُعَةُ حَجُّ المَسَاكِينِ وَجِهَادُ المَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ»(٢)، وكقوله ﷺ: «شَارِبُ الخَمْرِ كَعَابِدِ الوَثَنِ»(٣)، وأبدا المشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة، فكذلك قوله ﷺ: «الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ» لا يدل على أنّ الشكر مثله، وهو كقوله عليه السلام: «الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ» فإنّ كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفًا وإن كان بينهما تفاوت، كما يقال: الإيمان هو العلم والعمل، فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أنّ العمل يساوي العلم.

وفي الخبر عن النبي ﷺ: «آخِرُ الأَنْبِيَاءِ دُخُولًا الجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ لِمَكَانِ مُلْكِهِ. وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولًا الجَنَّةَ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ لِمَكَانِ غِنَاهُ»(٤)، وفي خبر آخر: «يَدْخُلُ سُلَيْمَانُ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا»(٥)، وفي الخبر: «أَبْوَابُ الجَنَّةِ كُلُّهَا مِصْرَاعَانِ إلاّ بَابُ الصَّبْرِ فَإِنَّهُ مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهُ أَهْلُ البَلاءِ أَمَامَهُمْ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلامُ»(٦).

---

(١) صحيح: حديث «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر». أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [الترمذي: ٢٤٨٦، وابن ماجه: ١٧٦٤، وانظر السلسلة الصحيحة: ٦٥٥].

(٢) ضعيف: حديث «الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل». أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف، [انظر ضعيف الجامع: ٢٦٥٩]، والطبراني بالشطر الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضا أن امرأة قالت: كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة؟ قال: طاعة أزواجهن. وفي رواية: ما جزاء غزوة المرأة؟ قال طاعة الزوج... الحديث» وفيه القاسم بن فياض، وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات، [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٣٤٠].

(٣) صحيح: حديث «شارب الخمر كعابد الوثن». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ «مدمن الخمر» ورواه بلفظ «شارب» الحارث بن أبي أسامة من حديث عبد الله بن عمر، وكلاهما ضعيف وقال ابن عدي: إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهاني، [ابن ماجه: ٣٣٧٥، وانظر صحيح الجامع: ٥٨٦١].

(٤) حديث «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه، وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل «يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاما» وقال: لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفي ثقة. وروى البزار من حديث أنس «أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمن بن عوف» وفيه أغلب بن تميم ضعيف.

(٥) حديث «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا». تقدم حديث معاذ قبله. ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك، ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس والحديث منكر.

(٦) حديث «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد». لم أجد له أصلا ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة، فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة «والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وبصرى»، [البخاري: ٤٧١٢، ومسلم: ١٩٤، من حديث أبي هريرة، ولم أقف عليه من حديث أنس] وفي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان: ولقد ذكرنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام، [مسلم: ٢٩٦٧، ولم أقف عليه عند مسلم].

وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر؛ لأنّ الصبر حال الفقير، والشكر حال الغني، فهذا هو المقام الذي يقنع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم.

المقام الثاني : هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والإيضاح فنقول فيه: كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما، وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان.

والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول: قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة: علوم، وأحوال، وأعمال، والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك، وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال، والأحوال تراد للأعمال، والأعمال هي الأفضل: وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك، فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم، فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال؛ لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه.

وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد المعارف، وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة، بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد للمعاملة؛ ففائدتها إصلاح العمل، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل؛ وإلا فالعلم القاصر بالعلم ليس بأفضل من العمل القاصر؛ فنقول: فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته، وأفعاله، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه، وهي الغاية التي تطلب لذاتها، فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة، ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرّة التي لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها.

وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها، فإنها إنما تراد لأجلها.

ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى: فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة، فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل.

وأما الأحوال فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق، حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق، فإذن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في

إصلاح القلب وتطهيره، وإعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة، وكما أن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض، فكذلك أحوال القلب، فالحالة القريبة أو المقرّبة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود، وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه، وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا، وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه.

واسم الأول المعصية، واسم الثاني الطاعة، والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة، وأنّ الحج أفضل من الصدقة، وأنّ قيام الليل أفضل من غيره، ولكن التحقيق فيه أنّ الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فإخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام، لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها، أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع، فأما هذا المدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره، وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به، بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه، والشح المطاع من جملة المهلكات، ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة، بل لا يزيله إلا إخراج المال؛ فعليه أن يتصدّق بما معه، وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع إليه؛ فإذن باعتبار هذه الأحوال يختلف، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ، إذ لو قال لنا قائل: الخبز أفضل أم الماء؟ لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب؛ فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، فإن تساويا فهما متساويان، وكذا إذا قيل: السكنجبين أفضل أم شراب اللينوفر؟ لم يصح الجواب عنه مطلقًا أصلًا، نعم لو قيل لنا: السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء؟ فنقول: عدم الصفراء، لأن السكنجبين مراد له، وما يراد لغيره فلذلك الغير أفضل منه لا محالة، فإذن في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب، ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه، فالأفضل المعرفة، ودونها الحال، ودونها العمل.

فإن قلت: فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقال تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾

[التوبة :١٠٤]فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل؟ فاعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبًا فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه، فإنه لا يشعر به، ولو ذكر له لا يصدق به.

والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلًا إن كان ماء الورد يزيل البرص، حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه، فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه.

ولنضرب مثلًا أقرب من هذا فنقول: من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظًا لقال إنه محفوظ ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة، لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدًا، وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم، فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم، فيشكل عليه الأمر فيقول: ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به، وأعلم أنه لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلًا عن عدم علمهم بالقرآن، فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادًا على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرًا محرومًا من حيث لا يدري، وقد انخدع بمثل هذا الخياط طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا: إن الله تعالى غني عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا، فأي معنى لقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة :٢٤٥] ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم، كما قال تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس :٤٧] وقالوا أيضًا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام :١٤٨] فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة :٢٦] فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو لأجل الله تعالى، ثم قالوا لا حظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا: هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفًا به في استجراره إلى ما فيه سعادته، فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق، فإذن هذا المسكين الآخذ لمالك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك، فإنه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك

ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك، فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام.

ولا يخرج الحجام عن كونه خادمًا بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئًا بالدم، ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله ﷺ مَنْ أخذها وانتهى عنها (١)، كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها (٢)، والمقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات، والقلب بحسب تأثيرها مستعدّ لقبول الهداية ونور المعرفة، فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف، ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول: في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل، فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال، أو العمل في الآخر، بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب، وبعد التناسب يظهر الفضل، ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة، إذ معرفة الشاكر: أن يرى نعمة العينين مثلًا من الله تعالى.

ومعرفة الصابر: أن يرى العمى من الله، وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن اعتبرتا في البلاء والمصائب.

وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية، وفيهما يتحد الصبر والشكر لأنّ الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرًا بالإضافة إلى باعث الهوى، ويسمى شكرًا بالإضافة إلى باعث الدين، إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة: وهو أن يصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة، فهما عبارتان عن معنى واحد، فكيف يفضل الشيء على نفسه؟ فإذن مجاري الصبر ثلاثة: الطاعة، والمعصية، والبلاء وقد ظهر حكمها في الطاعة والمعصية، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة، والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلًا، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال، أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي، وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين: أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية، والآخر أن يستعملهما في الطاعة، وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر؛ فإن الأعمى كفي الصبر عن

---

(١) حديث النهي عن كسب الحجام، تقدم، [مسلم: ١٥٦٨].

(٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها. أخرجه مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة «إن هذه الصدقة لا تحل لنا إنما هي أوساخ القوم وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد» وفي رواية له «أوساخ الناس»، [مسلم: ١٠٧٢].

الصور الجميلة لأنه لا يراها، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرًا لنعمة العينين؛ وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين؛ فقد دخل الصبر في شكره، وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضًا فيه من صبر على الطاعة، ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر، ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلًا وقد كان ضريرًا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء، لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلًا، ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جدًّا؛ لأنّ كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين، وشكرها باستعمالها فيما هي آلة فيه من الدين، وذلك لا يكون إلا بصبر، وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه، ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر، ووجود الزيادة نعمة، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات، أو أن لا تستعمل في المعصية، فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضًا، وفيه فرح بنعمة الله تعالى، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح، وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض، وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعم المباح فالصبر هاهنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات، لأنّ الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى، وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوّة، والغني أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح، والمباح فيه مندوحة عن الحرام، ولكن لا بدّ من قوّة في الصبر عن الحرام أيضًا، إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوّة التي يصدر عنها الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوّة التي يدل العمل عليها، فإنّ الأعمال لا تراد إلا لأحوال القلوب، وتلك القوّة حالة للقلب تختلف بحسب قوّة اليقين والإيمان، فما دل على زيادة قوّة في الإيمان فهو أفضل لا محالة، وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال والغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية، لا أن يصرفها إلى الطاعة، فإذن الصبر أفضل من الشكر، أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة، وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر: أيهما أفضل؟ فقال: ليس مدح الغني بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم، وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما، فشرط الغنى

يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها، فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي آلم صفته وأزعجها أتم حالاً ممن متع صفته ونعمها.

والأمر على ما قاله، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه، وهو لم يرد سواه.

ويقال : كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال: الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة، فكان يقول: دعوة الجنيد أصابتني، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر.

ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أنّ لكل واحد من القولين وجهًا في بعض الأحوال، فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير، إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه، على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة، بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده، فهذا أفضل من الفقير الصابر.

فإن قلت : فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر؛ لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر؛ فإن كان متألمًا بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق؟.

فاعلم أنّ الذي نراه أنّ من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهرًا.

وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة، فإيلام النفس ليس مطلوبًا لعينه بل لتأديبها، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد، والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرًا على الضرب، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليهما في النهاية، بل النهاية أن يصير ما كان مؤلمًا في حقه لذيذًا عنده، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذة.

وقد كان مؤلمًا له أوّلاً، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية - بل قبل البداية بكثير - كالصبيان، أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق، فإذًا إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام؛ فإذا أردت التحقيق ففصل، فإنّ للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية، ووراءها الرضا وهو مقام وراء

الصبر، ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا؛ إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به، وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها، ويدخل في جملتها أمور دونها؛ فإنّ حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر، والاعتراض بأنّ النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر، والعلم بأنّ الشكر أيضًا نعمة من نعم الله موهبة منه شكر، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر؛ إذ قال عليه السلام: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[1]، وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة، وقلة الاعتراف وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر.

وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها؛ وهي درجات مختلفة؛ فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار.

وقد روي عن بعضهم أنه قال: رأيت في بعض الأسفار شيخًا كبيرًا قد طعن في السن فسألته عن حاله فقال: إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني؛ فاتفق أنها زوّجت مني، فليلة زفافها قلت: تعالي حتى نحيي هذه الليلة شكرًا لله تعالى على ما جمعنا، فصلينا تلك الليلة ولم يتفرّغ أحدنا إلى صاحبه؛ فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك، فصلينا طول الليل، فمنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة، أليس كذلك يا فلانة؟ قالت العجوز: هو كما يقول الشيخ؛ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما، وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه، فلا يخفى عليك أنّ هذا الشكر أفضل؛ فإذن لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفضيل كما سبق. والله أعلم.

* * *

(١) حسن صحيح: حديث «من لم يشكر الناس لم يشكر الله». تقدم في الزكاة، [الترمذي: ١٩٥٥، وانظر صحيح الترغيب: ٩٧٦].

كتاب الخوف والرجاء

الحمد لله المرجوّ لطفه وثوابه، المخوف مكره وعقابه، الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه، والعدول عن دار بلائه التي هي مستقرّ أعدائه.

وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته، وصدّهم عن التعرّض لأئمته والتهدّف لسخطه ونقمته، قودًا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف إلى جنته. والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خليفته وعلى آله وأصحابه وعترته.

أما بعد: فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفًا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء - إلا أزمة الرجاء. ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم - مع كون محفوفًا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف، فلا بدّ إذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما. ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشتمل على شطرين: الشطر الأوّل في الرجاء، والشطر الثاني في الخوف.

أما الشطر الأوّل: فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء، وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء، والطريق الذي يجتلب به الرجاء.

بيان حقيقة الرجاء:

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يسمى الوصف مقامًا إذا ثبت وأقام، وإنما يسمى حالًا إذا كان عارضًا سريع الزوال، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى حالًا لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب، وغرضنا الآن حقيقة الرجاء، فالرجاء أيضًا يتم من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر الحال.

والحال يقتضي العمل، وكان الرجاء اسمًا من جملة الثلاثة، وبيانه: أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في الاستقبال، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذِكْرًا وتذكرًا، وإن كان ما خطر بقلبك موجودًا في الحال سمي وجدًا وذوقًا وإدراكًا، وإنما سمي وجدًا لأنها حالة تجدها من نفسك،

وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظارًا وتوقعًا، فإن كان المنتظر مكروهًا حصل منه ألم في القلب سمي خوفًا وإشفاقًا، وإن كان محبوبًا حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاء، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بدّ وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظارًا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب.

وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، أما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب؛ لأنّ ذلك مقطوع به، نعم يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه. وقد علم أرباب القلوب أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضًا طيبة وألقى فيها بذرًا جيدًا غير عفن ولا مسوّس، ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظرًا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته: سمي انتظاره رجاء. وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلًا، ثم انتظر الحصاد منه: سمي انتظاره حمقًا وغرورًا لا رجاء. وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا يمتنع أيضًا: سمي انتظاره تمنيًا لا رجاء؛ فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات؛ فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، وكان انتظاره رجاء حقيقيًا محمودًا في نفسه باعثًا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، أو ترك القلب مشحونًا برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور، قال ﷺ:

«الأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الجَنَّةَ»[1]، وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩] وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩] وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا ۝﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦] فإذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة. وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة. وأما قبول التوبة إذا كان كارهًا للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق إليها، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة؛ لأنّ كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:٢١٨] معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضًا قد يرجو؛ ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع، فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقي ولا تنقية. قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب من رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلًا إلى وقت الحصاد، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس، واليأس يمنع من التعهد، فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت: فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب في تعهدها، والرجاء محمود لأنه باعث، واليأس مذموم وهو ضدّه لأنه صارف عن العمل، والخوف ليس بضدّه للرجاء بل هو

---

(١) ضعيف: حديث «الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة». تقدم غير مرة، [الترمذي: ٢٤٥٦، وابن ماجه: ٤٢٦٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٩٥٩].

رفيق له كما سيأتي بيانه، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة، فإذن حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لا بدّ وأن تظهر على كل من يرجو ملكًا من الملوك أو شخصًا من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمني فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل، ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل، إذ قال لرسول الله ﷺ: جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد؟ فقال: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟» قال: أصبحت أحب الخير وأهله، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه، وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه. فقال: «هَذِهِ عَلامَةُ اللَّهِ فِيمن يُرِيدُ وَلَوْ أَرَادَكَ لِلأُخرَى هَيأَكَ لَهَا ثُمَّ لا يُبَالِي فِي أَيِّ أَوْدِيَتِها هَلَكْتَ» فقد ذكر علامة من أريد به الخير، فمن ارتجى أن يكون مرادًا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور (1).

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه:

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف؛ لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له، والحب يغلب الرجاء، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفًا من عقابه والآخر رجاء لثوابه، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن وغائب لا سيما في وقت الموت: قال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر :٥٣] فحرم أصل اليأس، وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه: أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجني؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له. وقال ﷺ: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وَهُوَ يُحْسِنَ الظَّنَّ باللَّهِ تَعَالَى» (2)، وقال ﷺ: يقول الله عز وجل: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي ما شَاءَ» (3)، ودخل على رجل وهو في النزع فقال ﷺ: «كَيفَ تَجِدُكَ؟» فقال: أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي. فقال ﷺ:

---

(1) ضعيف : حديث: قال زيد الخير جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد؟». أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف، وفيه أنه قال «أنت زيد الخير» وكذا قال ابن أبي حاتم سماه النبي ﷺ زيد الخير يروي عنه حديث، وذكره في حديث يروي: «فقام زيد الخير فقال: يا رسول الله... الحديث« سمعت أبي يقول ذلك، [انظر كتاب السنة: ٤١٥، وضعفه الألباني].

(2) صحيح : حديث «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله». أخرجه مسلم من حديث جابر، [مسلم: ٢٨٧٧].

(3) صحيح : حديث أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء». أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله «فليظن بي ما شاء»، [انظر صحيح الجامع: ٤٣١٦، وهو عند البخاري: ٧٤٠٥، ومسلم: ٢٦٧٥، مختصرا من حديث أبي هريرة].

«ما اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ في هذا المَوْطِنِ إلاّ أَعْطَاهُ اللَّهُ ما رَجَا وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ» (١)، وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك. وقال سفيان: من أذنب ذنبًا فعلم أن الله تعالى قدّره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه، قال: لأن الله عز وجل عيَّر قومًا فقال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فصلت :٢٣] وقال تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح :١٢] وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ: ما مَنَعكَ إذْ رَأَيْتَ المُنْكَرِ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فإِنْ لَقَّنَهُ اللَّهُ حُجَّتَهُ قَالَ: يا رَبِّ رَجَوْتُكَ وَخِفْتُ النَّاسَ. قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: قَدْ غَفَرْتُهُ لَكَ» (٢)، وفي الخبر الصحيح: «أن رجلًا كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيرًا قط، فقال الله عز وجل: من أحق بذلك منا» (٣)، فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر :٢٩] ولما قال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَلْدِمُونَ صُدُورَكُمْ وَتَجْأَرُونَ إِلَى رَبِّكُمْ» فهبط جبريل عليه السلام فقال: إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوّقهم (٤).

وفي الخبر: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي. فقال: يا رب، كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل (٥).

---

(١) حسن صحيح: حديث: دخل ﷺ على رجل وهو في النزع فقال «كيف تجدك؟». رواه الترمذي وقال غريب، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي: إسناده جيد، [الترمذي: ٩٨٣، وابن ماجه: ٤٢٦١، وانظر صحيح الترغيب: ٣٣٨٣].

(٢) صحيح: حديث «إن الله يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد، وقد تقدم في الأمر بالمعروف، [ابن ماجه: ٤٠١٧، وانظر صحيح الجامع: ١٨١٨].

(٣) صحيح: حديث: أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر». أخرجه مسلم من حديث أبي مسعود «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل: نحن أحق بذلك، تجاوزوا عنه»، [مسلم: ١٥٦١، من حديث أبي مسعود]. واتفقا عليه من حديث حذيفة، [البخاري: ٢٣٩١، ومسلم: ١٥٦٠] وأبي هريرة بنحوه، [البخاري: ٢٠٧٨، ومسلم: ١٥٦٢].

(٤) حديث «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فهبط جبريل عليه السلام». أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة، فأوله متفق عليه من حديث أنس، [البخاري: ٤٦٢١، ومسلم: ٢٣٥٩]، ورواه بزيادة «ولخرجتم إلى الصعدات» أخرجه أحمد والحاكم، وقد تقدم، [الترمذي: ٢٣١٢، وحسنه الألباني، والحديث كاملا كره الألباني في السلسلة الضعيفة: ٩١٠، وقال الألباني: موضوع].

(٥) حديث «إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام أحبني وأحب من يحبني». لم أجد له أصلا، وكأنه من الإسرائيليات كالذي قبله.

ورئي أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال: أوقفني الله تعالى بين يديه فقال: ما الذي حملك على ذلك؟ فقلت: أردت أن أحببك إلى خلقك، فقال: قد غفرت لك. ورئي يحيى بن أكثم بعد موته في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني الله بين يديه وقال: يا شيخ السوء، فعلت وفعلت، قال: فأخذني من الرعب ما يعلم الله، ثم قلت: يا رب ما هكذا حدثت عنك، فقال: وما حدثت عني؟ فقلت: حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك ﷺ عن جبريل عليه السلام أنك قلت: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء، وكنت أظن بك أن لا تعذبني، فقال الله عز وجل: صدق جبريل وصدق نبيي، وصدق أنس، وصدق الزهري، وصدق معمر، وصدق عبد الرزاق وصدقت قال: فألبست ومشى بين يدي الولدان إلى الجنة، فقلت: يا لها من فرحة. وفي الخبر: «أنّ رجلًا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدّد عليهم، قال: فيقول الله تعالى يوم القيامة: اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها» (١) ، وقال ﷺ: «إنَّ رَجُلًا يَدْخُلُ النَّارَ فَيَمْكُثُ فِيها أَلْفَ سَنَةٍ يُنَادِي: يا حَنَّانُ يا مَنَّانُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَائْتِنِي بِعَبْدِي. قَالَ فَيَجِيءُ بِهِ فَيُوقِفُهُ عَلَى رَبِّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَيْفَ وَجَدْتَ مَكَانَكَ؟ فَيَقُولُ: شَرَّ مَكَانٍ. قَالَ فَيَقُولُ رُدُّوهُ إِلَى مَكَانِهِ. قَالَ: فَيَمْشِي وَيَلْتَفِتُ إِلَى وَرَائِهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَلْتَفِتُ فَيَقُولُ: لَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ لا تُعِيدَنِي إِلَيْهَا بَعْدَ إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الجَنَّةِ» (٢)، فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب:

اعلم أنّ هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين: إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال: فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سمومًا مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفًا ناظرًا إلى مواقع العلل معالجًا لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها، فإنّ المطلوب هو العدل والقصد في

(١) حديث: أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم». رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم، فذكره مقطوعا.

(٢) حديث «إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي: يا حنان يا منان». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله، والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث أنس.

الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها؛ فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف أيضًا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادًا وازداد المنهمكون في طغيانهم تماديًا. قال علي كرّم الله وجهه: إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله.

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعًا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الأخرق الذي يظن أنّ كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان. وحال الرجاء يغلب بشيئين، أحدهما: الاعتبار، والآخر: استقراء الآيات والأخبار والآثار.

أما الاعتبار: فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعدّ له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود؛ وإنما كان يفوّت به مزية جمال، فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد، بل إذا نظر الإنسان نظرًا شافيًا علم أنّ أكثر الخلق قد هيىء له أسباب السعادة في الدنيا، حتى أنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدًا مثلًا أو لا يحشر أصلًا فليست كراهتهم للعدم إلا لأنّ أسباب النعم أغلب لا محالة، وإنما الذي يتمنى الموت نادر، ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة، فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلًا، فالغالب أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم، فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوي به أسباب الرجاء، ومن الاعتبار أيضًا النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها، حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء.

فقيل له: وما فيها من الرجاء؟ فقال: الدنيا كلها قليل، ورزق الإنسان منها قليل، والدين قليل عن رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه؟

الفن الثاني: استقراء الآيات والأخبار، فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر، أما الآيات فقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣] وفي قراءة رسول الله ﷺ: (وَلا يبالي إنه هو الغفور الرحيم) [١] وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ [الشورى:٥] وأخبر تعالى أنّ النار أعدّها لأعدائه، وإنما خوّف بها أولياءه فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ [الزمر:١٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾ [الليل:١٤-١٦] وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ [الرعد:٦] [٢] ويقال: إن النبي ﷺ لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له: أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] قال: «لا يَرْضَى مُحمَّدٌ وَوَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِهِ فِي النَّارِ» وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول: أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر:٥٣] الآية، ونحن أهل البيت نقول: أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥].

وأما الأخبار: فقد روى أبو موسى عنه أنه ﷺ قال: «أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لا عَذَابَ عَلَيْهَا فِي الآخِرَةِ عَجَّلَ اللَّهُ عِقَابَهَا فِي الدُّنْيَا: الزَّلازِل وَالفِتَن، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ فَقِيلَ: هذا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ» [٣].

---

(١) ضعيف: حديث: قرأ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وفي قراءة رسول الله ﷺ «ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم» أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب، [الترمذي: ٣٢٣٧، وانظر ضعيف الترمذي].

(٢) حديث إن النبي ﷺ لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له: أما ترضى وقد أنزل عليك ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ [الرعد:٦] لم أجده بهذا اللفظ. وروى ابن أبي حاتم والثعلبي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدا العيش... الحديث».

(٣) صحيح: حديث أبي موسى «أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب فقيل: هذا فداؤك من النار». أخرجه أبو

وفي لفظ آخر: يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول: «هَذَا فدَائِي مِنَ النَّارِ فَيُلْقَى فِيها» (١)، وقال ﷺ: «الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ وَهِيَ حَظُّ المُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ» (٢)، وروي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ [التحريم:٨] أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام: إني أجعل حساب أمتك إليك. قال: «لا يَا رَبِّ أَنْتَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنِّي».

فقال: «إِذَنْ لا نُخْزِيكَ فِيهِمْ» (٣).

وروي عن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ سأل ربه في ذنوب أمته فقال: «يا رَبِّ اجْعَلْ حِسَابَهُمْ إِلَيَّ لئلاَّ يَطَّلِعَ عَلَى مَسَاوِيهِمْ غَيْرِي» فأوحى الله تعالى إليه: هم أمتك وهم عبادي، وأنا أرحم بهم منك، لا أجعل حسابهم إلى غيري لئلا تنظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك (٤). وقال ﷺ: «حَيَاتِي خَيْرٌ لكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لكُمْ، أَمَّا حَيَاتِي فَأَسُنُّ لكُم السُّنَنَ وَأُشَرِّعُ لكُم الشَّرَائِعَ. وَأَمَّا مَوْتِي فَإِنَ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا حَسَنًا حَمِدْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا سَيِّئًا اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى لَكُمْ» (٥)، وقال ﷺ يومًا: «يا كريم العفو» فقال جبريل عليه السلام: أتدري ما تفسير: يا كريم العفو؟ هو إن عفا عن السيئات برحمة بدّلها حسنات بكرمه (٦).

وسمع النبي ﷺ رجلًا يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة.

داود دون قوله «فإذا كان يوم القيامة... إلخ» فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف، وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه، [أبو داود: ٤٢٧٨، وابن ماجه: ٤٢٩٢، وانظر صحيح الجامع: ٢٢٦١].

(١) صحيح: حديث «يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم». أخرجه مسلم من حديث أبي موسى «إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول: هذا فداؤك من النار» وفي رواية له «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا» [مسلم: ٢٧٦٧].

(٢) صحيح: حديث «الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار». أخرجه أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة، وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه، [أحمد: ٢١٦٦١، وانظر السلسلة الصحيحة: ١٨٢٢].

(٣) حديث «إن الله أوحى إلى نبيه ﷺ إني أجعل حساب أمتك إليك. فقال «لا يا رب أنت أرحم بهم». الحديث في تفسير قوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التحريم :٨] أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله.

(٤) حديث أنس أنه ﷺ سأل ربه في ذنوب أمته فقال «يا رب اجعل حسابهم إلي». لم أقف له على أصل.

(٥) حديث قال ﷺ «حياتي خير لكم وموتي خير لكم». أخرجه البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي داود وإن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون، ورواه الحارث ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه بإسناد ضعيف.

(٦) حديث قال ﷺ يوما «يا كريم العفو» فقال جبريل: أتدري ما تفسير: يا كريم العفو؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه. لم أجده عن النبي ﷺ، والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل، هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد. ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال: حدثني بعض الزهاد... فذكره.

فقال: «هَلْ تَدْرِي ما تَمَامُ النِّعْمَةِ؟» قال: لا. قال: «دُخُولُ الجَنَّةِ» (١)، قال العلماء: قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة :٣].

وفي الخبر : «إِذَا أَذْنَبَ العَبْدُ ذَنْبًا فَاسْتَغْفَرَ الله يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتَ لَهُ» (٢)، وفي الخبر: «لَوْ أَذْنَبَ العَبْدُ حَتَّى تَبْلُغَ ذُنُوبُهُ عَنَانَ السَّمَاءِ غَفَرْتُهَا لَهُ ما اسْتَغْفَرَنِي وَرَجَانِي» (٣)، وفي الخبر: «لَوْ لَقِيَنِي عَبْدِي بِقرابِ الأَرْضِ ذُنُوبًا لَقِيتُهُ بِقِرابِ الأَرْضِ مَغْفِرَةً» (٤)، وفي الحديث: «إِنَّ المَلَكَ لَيرفَعُ القَلَمَ عَنِ العَبْدِ إذا أَذْنَبَ سِتَّ سَاعَاتٍ، فَإِنْ تَابَ واسْتَغْفَرَ لَمْ يَكْتُبْهُ عَلَيْهِ وَإِلاَّ كَتَبَها سَيئَةً» (٥)، وفي لفظ آخر: «فَإِذَا كَتَبَهَا عَلَيْهِ وَعَمِلَ حَسَنَةً قَالَ صَاحِبُ اليَمِينِ لِصَاحِبِ الشِّمَالِ وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَيْهِ: أَلْقِ هذِهِ السَّيِّئَةَ حَتَّى أُلْقِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ وَاحِدَةً تَضْعِيفَ العَشْرِ وَأَرْفَعُ لَهُ تِسْعَ حَسَنَاتٍ، فَتُلْقَى عَنْهُ السَّيِّئَةُ» . وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِذَا أَذْنَبَ العَبْدُ ذَنْبًا كُتِبَ عَلَيْهِ» فقال أعرابي: وإن تاب عنه؟ قال: «مُحِيَ عَنْهُ» قال: فإن عاد؟ قال النبي ﷺ: «يُكْتَبُ عَلَيْهِ» قال الأعرابي: فإن تاب؟ قال: «مُحِيَ مِنْ صَحِيفَتِهِ» قال: إلى متى؟ قال: «إِلَى أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ مِنَ المَغْفِرَةِ حَتَّى يَمَلَّ العَبْدُ مِنَ الاسْتِغْفَارِ؛ فَإِذَا هَمَّ العَبْدُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَهَا صَاحِب اليَمِينِ حَسَنَةً قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ثُمَّ يُضَاعِفُها اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ، وَإِذا هَمَّ

(١) ضعيف : حديث سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة». تقدم، [الترمذي: ٣٥٢٧، وانظر ضعيف الترمذي].

(٢) ضعيف : حديث «إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنوب». متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «إن عبدا أصاب ذنبا فقال: أي رب أذنبت ذنبًا فاغفر لي... الحديث» وفي رواية « أذنب عبد ذنبا فقال... الحديث» ، [البخاري: ٧٥٠٧، مسلم: ٢٧٥٨].

(٣) حسن لغيره : حديث «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء». أخرجه الترمذي من حديث أنس »يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك« وقال: حسن، [الترمذي: ٣٥٤٠، زانظر صحيح الترغيب: ١٦١٦].

(٤) صحيح : حديث «لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقرابها مغفرة». أخرجه مسلم من حديث أبي ذر »ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة«، [مسلم: ٢٦٨٧]، وللترمذي من حديث أنس الذي قبله »يا ابن آدم لو لقيتني... الحديث«، [الترمذي: ٣٥٤٠، وانظر صحيح الترمذي].

(٥) ضعيف جدًا : حديث «إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبها سيئة« قال: وفي لفظ آخر « فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه: ألق هذه السيئة حتى ألقي من حسناته واحدة من تضعيف العشر». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضا أطول منه وفيه «إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال« وليس فيه: أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقي من حسناته واحدة، ولم أجد لذلك أصلا، [الحديث بدون «ألق هذه السيئة. . .» انظر صحيح الترمذي].

بِخَطِيئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ فَإِذا عَمِلَهَا كُتِبَتْ خَطِيئَةً وَاحِدَةً وَوَرَاءَها حُسْنُ عَفْوِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(١) .

وجاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله، إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها، وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوّع: أين أنا إذا مت؟ فتبسم رسول الله وقال: «نَعَمْ مَعِي، إذا حَفِظْتَ قَلْبَكَ مِنِ اثْنَتَيْنِ: الغِلِّ، وَالحَسَدِ؛ وَلِسَانَكَ مِنِ اثْنَتَيْنِ: الغِيْبَةِ، وَالكَذِبِ؛ وَعَيْنَيْكَ مِنِ اثْنَتَيْنِ: النَّظَرِ إلَى ما حَرَّمَ اللَّهُ، وَأَنْ تَزْدَرِيَ بِهِمَا مُسْلِمًا. دَخَلْتَ مَعِي الجَنَّةَ عَلَى رَاحَتَيَّ هَاتَيْنِ»(٢) .

وفي الحديث الطويل لأنس: أنّ الأعرابي قال: يا رسول الله، من يلي حساب الخلق؟ فقال: «الله تبارك وتعالى» قال: هو بنفسه؟ قال: «نعم» فتبسم الأعرابي؛ فقال: «مِمَّ ضَحِكْتَ يا أَعْرَابِيُّ؟» فقال: إنّ الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ الأَعْرَابِيُّ، ألا لا كَرِيمَ أَكْرَمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، هُوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ» ثم قال: «فَقُهَ الأَعْرَابِيُّ»(٣)، وفيه أيضًا: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَّفَ الكَعْبَةَ وَعَظَّمَها وَلَوْ أَنَّ عَبْدًا هَدَمَها حَجَرًا حَجَرًا ثُمَّ أَحْرَقَها ما بَلَغَ جُرْمَ مَنِ اسْتَخَفَّ بِوَلِيٍّ مِنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى» .

قال الأعرابي: ومن أولياء الله تعالى؟ قال: «المُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] .

وفي بعض الأخبار: «المُؤْمِنُ أَفْضَلُ مِنَ الكَعْبَةِ»(٤) .

---

(١) حديث أنس «إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه» فقال أعرابي: فإن تاب عنه؟ قال «محي عنه» قال: فإن عاد؟».وفيه «إن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار». أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ: فقال يا رسول الله إني أذنبت ذنبا. قال «استغفر ربك» قال: فأستغفر ثم أعود. قال «فإذا عدت فاستغفر ربك» ثلاث مرات أو أربعا. قال: فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسور» وفيه أبو بدر بن يسار بن الحكم المصري منكر الحديث. وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر: أحدنا يذنب؟ قال «يكتب عليه» قال: ثم يستغفر ويتوب؟ قال «يغفر له ويتاب عليه» قال: فيعود... الحديث. وفيه «لا يمل الله حتى تملوا» وليس في الحديثين قوله في آخره «فإذا هم العبد بحسنة... إلخ» وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه «فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» [البخاري: ٦٤٩١، مسلم: ١٣١، عن ابن عباس، والبخاري: ٧٥٠١، مسلم: ١٢٨ عن أبي هريرة بنحوه] زاد مسلم في رواية «أو محاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك» ولهما نحوه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: جاء رجل فقال: يا رسول الله إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها، وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع». تقدم.

(٣) حديث أنس الطويل: قال أعرابي: يا رسول الله من يلي حساب الخلق؟ فقال «الله تبارك وتعالى» قال: هو بنفسه؟ قال «نعم» فتبسم الأعرابي». لم أجد له أصلا.

(٤) ضعيف: حديث «المؤمن أفضل من الكعبة». أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ «ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفسي بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا» وشيخه نصر ابن محمد بن سليمان الحمصي ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان، وقد تقدم [انظر ضعيف الجامع: ٥٠٢٦].

و: «المُؤمِنُ طَيِّبٌ طَاهِرٌ»(١)، و: «المُؤمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ المَلائِكَةِ»(٢).

وفي الخبر: «خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى جَهَنَّمَ مِنْ فَضْلِ رحْمَتِهِ سَوْطًا يَسُوقُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَى الجَنَّةِ»(٣)، وفي خبر آخر: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّمَا خَلَقْتُ الخَلْقَ لِيَرْبَحُوا عَلَيَّ وَلَمْ أَخْلُقْهُمْ لأَرْبَحَ عَلَيْهِمْ»(٤)، وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «ما خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئًا إلاَّ جَعَلَ لَهُ ما يَغْلِبُه وَجعَلَ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ»(٥)، وفي الخبر المشهور: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»(٦)، وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه ﷺ قال: «مَنْ قَالَ لا إله إلا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»(٧) و: «مَنْ كان آخِرُ كَلاَمِهِ لا إله إلا اللَّهُ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ»(٨)، و: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا حَرُمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ»(٩)، و: «لا يَدْخُلُها مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»(١٠).

---

(١) حديث «المؤمن طيب طاهر». لم أجده بهذا اللفظ، وفي الصحيحين من حديث حذيفة «المؤمن لا ينجس» [حديث حذيفة عند البخاري: ٢٨٥، مسلم: ٣٧١].

(٢) ضعيف: حديث «المؤمن أكرم على الله من الملائكة». أخرجه ابن ماجه من رواية أبي المهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ «المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة» وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف [ابن ماجه: ٣٩٤٧، انظر ضعيف ابن ماجه].

(٣) حديث «خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده إلى الجنة». لم أجده هكذا، ويغني عنه ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة «عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة في السلاسل» [حديث أبي هريرة عند البخاري: ٣٠١٠].

(٤) حديث «قال الله إنما خلقت الخلق ليربحوا علي ولم أخلقهم لأربح عليهم». لم أقف له على أصل.

(٥) منكر: حديث أبي سعيد «ما خلق الله شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه». أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب، وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم، وقال صاحب الميزان: ليس بواه ولا بمجهول [انظر السلسلة الضعيفة: ٤٤٣٨].

(٦) صحيح: حديث «إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي تغلب غضبي». متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم [البخاري: ٣١٩٤، مسلم: ٢٧٥١].

(٧) حسن: حديث معاذ وأنس «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة». أخرجه الطبراني في الدعاء بلفظ «من مات يشهد.» وتقدم من حديث معاذ، وهو في اليوم والليلة للنسائي بلفظ «من مات يشهد...» وقد تقدم من حديث معاذ، ومن حديث أنس أيضا، وتقدم في الأذكار [أحمد: ٢١٤٩٨ عن أنس عن معاذ، وانظر السلسلة الصحيحة: ٢٢٧٨].

(٨) صحيح: حديث «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار». أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ «دخل الجنة» [أبو داود: ٣١١٦، وانظر صحيح أبي داود].

(٩) حديث «من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار» [البخاري: ١٢٨، مسلم: ٣٢]. أخرجه الشيخان من حديث أنس أنه ﷺ قال لمعاذ «ما من عبد يشهد أن إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار» وزاد البخاري «صادقا من قلبه» ولي رواية له «من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة» [البخاري: ١٢٩، وأحمد: ٢٣٠١٢] ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ «جعله الله في الجنة» وللنسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عبد يؤمن بهما إلا حجب عن النار يوم القيامة».

(١٠) حديث «لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان». أخرجه أحمد من حديث سهل بن بيضاء «من شهد أن

وفي خبر آخر: «لَوْ عَلِمَ الكَافِرُ سَعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ ما أَيِسَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ» (١)، ولما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج :١] قال: «أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هذا؟ هذا يَوْمَ يُقَالُ لآدَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: قُمْ فَابْعَثْ بعث النَّارِ مِنْ ذُرِّيتك، فَيَقُولُ: كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْف تِسْعُمائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الجَنَّةِ» قال: فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال: «ما لَكُمْ لا تَعْمَلُونَ» فقالوا: ومن يشتغل بعمل بعدما حدثتنا بهذا؟ فقال: «كَمْ أَنْتُمْ فِي الأُمَمِ؟ أَيْنَ تَاوِيلُ وَثَارِيث وَمَنْسَكُ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أُمَمٌ لا يُحْصِيها إلاّ اللَّهُ تَعَالَى، إِنَّما أَنْتُمْ فِي سَائِرِ الأُمَمِ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثورِ الأَسْوَدِ، وَكَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ» (٢) فانظر كيف كان الخوف يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى، إذ ساقهم بسياط الخوف أوّلًا، فلما خرج ذلك بهم عن حدّ الاعتدال إلى إفراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال، والقصد والآخر لم يكن مناقضًا للأوّل ولكن ذكر في الأوّل ما رآه سببًا للشفاء واقتصر عليه، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر، فعلى الواعظ أن يقتدي بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة، وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه.

وفي الخبر: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ فَيَغْفِر لَهُمْ» (٣)، وفي لفظ آخر: «لَذَهَبَ بِكُمْ وَجَاءَ بِخَلْقٍ آخَرَ يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ».

وفي الخبر: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ ما هُوَ شَرٌّ مِنَ الذُّنُوبَ» قيل: وما هو؟ قال:

لا إله إلا الله حرمه الله على النار» [أحمد: ١٥١٣١١، وانظر صحيح الجامع: ٧٩٦٧] وفيه انقطاع، وله من حديث عثمان بن عفان «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار» [أحمد: ٤٤٩، وانظر صحيح الترغيب: ١٥٢٨] قال عمر بن الخطاب: هي كلمة الإخلاص، وإسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من الموحدين النار وإخراجهم بالشفاعة، نعم لا يبقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد، وفيه «فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه» [البخاري: ٢٢، مسلم: ١٨٣] وقال مسلم «من خير» بدل «من إيمان».

(١) صحيح: حديث «لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيسَ من جنته أحد». متفق عليه من حديث أبي هريرة [البخاري: ٦٤٦٩، مسلم: ٢٧٥٥].

(٢) صحيح: حديث: لما تلا ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج :١] قال «أتدرون أي يوم هذا؟». أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين وقال: حسن صحيح. قلت: هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد [حديث عمران عند الترمذي: ٣١٦٩، وهو عند البخاري: ٣٣٤٨، مسلم: ٢٢٢ عن أبي سعيد].

(٣) صحيح: حديث «لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم» وفي لفظ «لذهب بكم وجاء بخلق يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم». أخرجه مسلم من حديث أبي أيوب، واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريبا منه [مسلم: ٢٧٤٨ عن أبي أيوب، ٢٧٤٩ عن أبي هريرة].

«العُجْبُ»(١)، وقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَده للَّه أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنَ الوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا»(٢)، وفي الخبر: «لَيَغْفِرَنَّ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْفِرَةً ما خَطَرَتْ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ، حَتَّى إِنَّ إِبْلِيسَ لَيَتَطَاوَلَ لَهَا رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُ»(٣)، وفي الخبر: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مائَةَ رَحْمَةٍ ادَّخَرَ مِنْهَا عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَظْهَرَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِيهَا يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، فَتَحِنُّ الوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِها وَتَعْطِفُ البَهِيمَةُ عَلَى وَلَدِها.

فإِذَا كانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ضَمَّ هذِهِ الرَّحْمَةَ إِلَى التِّسْعِ وَالتِّسْعِينَ ثُمَّ بَسَطَهَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ وَكُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طِبَاقُ السَّمَواتِ والأَرْضِ قَالَ: فَلاَ يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ هَالِكٌ»(٤).

وفي الخبر: «ما مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ وَلا يُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلا أَنَا إِلاَّ أَنَّ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»(٥)، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا لَنْ يُنْجِيَهُ عَمَلُهُ»(٦)، وقال: «إِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَتِي أَتَرَوْنَهَا لِلْمُطِيعِينَ المُتَّقِينَ بَلْ هِيَ لِلْمُتَلَوِّثِينَ المُخَلِّطِينَ»(٧)، وقال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ»(٨)، وقال وعلى كل عبد مصطفى «أُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ

---

(١) حسن: حديث «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب» قيل ما هو؟ قال «العجب». أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث أنس، وتقدم في ذم الكبر والعجب [انظر صحيح الترغيب: ٢٩٢١].

(٢) صحيح: حديث «والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها». متفق عليه من حديث عمر بنحوه [البخاري: ٥٩٩٩، مسلم: ٢٧٥٤].

(٣) حديث «ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف.

(٤) صحيح: حديث «إن لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعا وتسعين رحمة». متفق عليه من حديث أبي هريرة [البخاري: ٦٤٦٩، مسلم: ٢٧٥٢].

(٥) صحيح: حديث «ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة». متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم [البخاري: ٥٦٧٣، مسلم: ٢٨١٦].

(٦) صحيح: حديث «اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله». تقدم أيضا [الترمذي: ٣١٦٩، وانظر صحيح الترمذي].

(٧) صحيح: حديث «إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة «لكل نبي دعوة وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي» [البخاري: ٦٣٠٤، مسلم: ١٩٨ عن أبي هريرة، مسلم: ٢٠٠ عن أنس]. ورواه مسلم من حديث أنس، وللترمذي من حديثه وصححه، وابن ماجه من حديث جابر «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» [الترمذي: ٢٤٣٦، ابن ماجه: ٤٣١٠، وانظر صحيح الترمذي] ولابن ماجه من حديث أبي موسى، ولأحمد من حديث ابن عمر «خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين...» الحديث [أحمد: ٥٤٢٩، وانظر ضعيف الترغيب: ٢١١٩] وفيه من لم يسم.

(٨) صحيح: حديث «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة» [أحمد: ٢١٧٨٨، وانظر السلسلة الصحيحة: ٢٩٢٤]. أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله «السهلة» وله وللطبراني من حديث بن عباس «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» [انظر السلسلة الصحيحة: ٨٨١] وفيه محمد بن اسحق رواه بالعنعنة.

أَهْلُ الكِتَابَيْنِ أَنَّ في دِينِنَا سَمَاحَةً»[(١)]، ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ [البقرة:٢٨٦] وقال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧] وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥] قال: «يا جبريل، وما الصفح الجميل؟» قال عليه السلام: «إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه» فقال: «يا جبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه» فبكى جبريل وبكى النبي ﷺ، فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال: إن ربكما يقرئكما السلام ويقول: كيف أعاتب من عفوت عنه، هذا ما لا يشبه كرمي[(٢)].

والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى.

وأما الآثار: فقد قال علي كرّم الله وجهه: من أذنب ذنبًا فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنبًا فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة. وقال الثوري: ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما.

وقال بعض السلف: المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه.

وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه: إن العبد إذا كان مسرفًا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول: يا رب حجبت الملائكة صوته، وكذا الثانية والثالثة، حتى إذا قال الرابعة: يا ربي، قال الله تعالى: حتى متى تحجبون عني صوت عبدي، قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر له الذنوب غيري، أشهدكم أني قد غفرت له، وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه: خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت: يا ربي اعصمني حتى لا أعصيك أبدًا، فهتف بي هاتف من البيت: يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل؟ ولمن أغفر؟ وكان الحسن يقول: لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السماوات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب. وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين. ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له: إلى كم تحدث الناس بالرخص؟ فقال: يا أبا

---

(١) صحيح: حديث «أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سماحة». رواه أبو عبيد في غريب الحديث، وأحمد [أحمد: ٢٤٣٣٤ عن عائشة، وانظر السلسلة الصحيحة: ١٨٢٩].

(٢) حديث محمد ابن الحنفية عن علي: لما نزل قوله تعالى ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥] قال: يا جبريل وما الصفح الجميل؟ « قال عليه السلام: إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه». أخرجه ابن مردويه في تفسيره موقوفا على علي مختصرا، قال: الرضا بغير عتاب، ولم يذكر بقية الحديث، وفي إسناده نظر.

يحيى، إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح. وفي حديث ربعي بن حراش عن أخيه ــ وكان من خيار التابعين، وهو ممن تكلم بعد الموت ــ قال: لما مات أخي سجي بثوبه وألقيناه على نعشه، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدًا، وقال: إني لقيت ربي عز وجل فحياني بروح وريحان وربي غير غضبان، وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفتروا، وأن محمدًا ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم. قال: ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت، فحملناه ودفناه.

وفي الحديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى، فكان أحدهما يسرف على نفسه، وكان الآخر عابدًا وكان يعظه ويزجره، فكان يقول: دعني وربي، أبعثت عليَّ رقيبًا، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال: لا يغفر الله لك. قال: فيقول الله تعالى يوم القيامة: أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي، اذهب أنت فقد غفرت لك، ثم يقول للعابد: وأنت فقد أوجبت لك النار. قال: فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته [١].

وروي أيضًا أن لصًا كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة، فمرّ عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين، فقال اللص في نفسه: هذا نبي الله يمرّ وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثًا، قال: فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيمًا للحواري ويقول في نفسه: مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد.

قال: وأحس الحواري به، فقال في نفسه: هذا يمشي إلى جانبي، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فمشى بجنبه فبقي اللص خلفه، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما؛ أما الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه، فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حوارييه.

وروي عن مسروق أن نبيًّا من الأنبياء كان ساجدًا فوطىء عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجبهته، قال: فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبًا فقال: «اذْهَبْ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ» ، فأوحى الله تعالى إليه: تتألى عليَّ في عبادي، إني قد غفرت له.

ويقرب من هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته، فنزل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران :١٢٨] الآية، فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام [٢].

(١) **صحيح**: حديث «إن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه». رواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد.[أبو داود: ٤٩٠١، وانظر صحيح أبي داود].

(٢) حديث ابن عباس: كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته، فنزل عليه قوله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ

وروي في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة، قال: فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه، فيقول: يا رب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته عليَّ في عليين، فيقول الله سبحانه: إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار، فأعطيت كل عبد سؤله.

وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل؛ لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف، فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه. ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن، ولذلك قال ﷺ: «سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريمًا»[1]، وقال ﷺ: «إذا سَأَلْتُم اللَّهَ فَأَعْظِمُوا الرَّغْبَةَ وَاسْأَلُوا الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى؛ فَإِنَّ اللَّهَ تعَالَى لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ»[2].

وقال بكر بن سليم الصوّاف: دخلنا على مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها فقلنا: يا أبا عبد الله، كيف تجدك؟ قال: لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب، ثم ما برحنا حتى أغمضناه.

وقال يحيى بن معاذ في مناجاته: يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إياك مع الأعمال؛ لأني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف.

وقيل إن مجوسيًّا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال: إن أسلمت أضفتك، فمرّ المجوسي، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك، فمر إبراهيم يسعى خلف المجوسي

ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران :١٢٨] فترك الدعاء عليهم. أخرجه البخاري من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول «اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا» بعد ما يقول «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» [البخاري: ٤٠٧٠] فأنزل الله عز وجل ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾[آل عمران :١٢٨] إلى قوله ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران :١٢٨] ورواه الترمذي وسماهم أبا سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد «فتاب عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم» [الترمذي: ٣٠٠٤، وانظر صحيح الترمذي، وبلفظ «أربعة نفر» عند الترمذي: ٣٠٠٥، وانظر صحيح الترمذي، وقال الألباني: حسن صحيح] وقال حسن غريب. وفي رواية له «أربعة نفر» ولم يسمهم وقال «فهداهم الله للإسلام» وقال حسن غريب صحيح.

(١) حديث «سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريما». لم أجده بهذا اللفظ. وللترمذي من حديث ابن مسعود «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل» [الترمذي: ٣٥٧١، وانظر ضعيف الترمذي] وقال: هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ.

(٢) صحيح: حديث «إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاظمه شيء». [مسلم: ٢٦٧٩] أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة «إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم وليعظم الرغبة، فإن الله عز وجل لا يتعاظمه شيء أعطاه» والبخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة» [البخاري: ٧٤٢٣، والترمذي: ٢٥٢٩ عن معاذ، ٢٥٣٠ عن عبادة] ورواه الترمذي من حديث معاذ وعبادة بن الصامت.

فرده وأضافه، فقال له المجوسي: ما السبب فيما بدا لك؟ فذكر له، فقال له المجوسي: أهكذا يعاملني ثم قال: اعرض علي الإسلام فأسلم.

ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكي أبا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الأبد، فقال له: كيف حالك؟ فقال: وجدنا الأمر أهون مما توهمنا.

ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف، فقال له: يا أستاذ، بم نلت هذا؟ فقال: بحسن ظني بربي.

وحكي أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه كأن القيامة قد قامت، وإذا الجبار سبحانه يقول: أين العلماء؟ قال: فجاءوا، ثم قال: ماذا عملتم فيما علمتم؟ قال: فقلنا يا رب قصرنا وأسأنا: قال: فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابًا غيره، فقلت: أما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تغفر ما دونه، فقال: اذهبوا به فقد غفرت لكم، ومات بعد ذلك بثلاث ليال.

وقيل: كان رجل شريب جمع قومًا من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئًا من الفواكه للمجلس، فمرّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئًا ويقول: من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات، قال: فدفع الغلام إليه الدراهم، فقال منصور: ما الذي تريد أن أدعو لك؟ فقال: لي سيد أريد أن أتخلص منه، فدعا منصور وقال: الأخرى.

قال: أن يخلف الله علي دراهمي، فدعا، ثم قال: الأخرى. قال: أن يتوب الله على سيدي، فدعا، ثم قال: الأخرى، فقال: أن يغفر الله لي ولسيدي ولك وللقوم، فدعا منصور، فرجع الغلام فقال له سيده: لم أبطأت؟ فقص عليه القصة. قال: وبم دعا، فقال: سألت لنفسي العتق.

فقال له: اذهب فأنت حرّ. قال: وأيش الثاني؟ قال: أن يخلف الله علي الدراهم، قال: لك أربعة آلاف درهم، وأيش الثالث؟ قال: أن يتوب الله عليك. قال تبت إلى الله تعالى. قال: وأيش الرابع؟ قال: أن يغفر الله لي ولك وللقوم، قال: هذا الواحد ليس إلي، فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قائلًا يقول له: أنت فعلت ما كان إليك، أفترى أني لا أفعل ما إلي، قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين.

وروي عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي قال: رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة، قال: فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت، فقلت للمرأة: من كان هذا الميت منك؟ قالت: ابني. قلت: ولم يكن لكم جيران؟ قالت: بلى ولكن صغروا أمره. قلت: وأيش كان هذا؟ قالت: مخنثًا، قال: فرحمتها وذهبت بها إلى منزلي وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابًا، قال: فرأيت تلك الليلة كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب

بيض فجعل يتشكرني، فقلت من أنت؟ فقال: المخنث الذي دفنتموني اليوم رحمني ربي باحتقار الناس إياي.

وقال إبراهيم الأطروش: كنا قعودًا ببغداد مع معروف الكرخي على دجلة، إذ مرّ أحداث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون، فقالوا لمعروف: أما تراهم يعصون الله مجاهرين، ادع الله عليهم، فرفع يديه وقال إلهي كما فرّحتهم في الدنيا ففرّحهم في الآخرة، فقال القوم: إنما سألناك أن تدعو عليهم فقال: إذا فرّحهم في الآخرة تاب عليهم، وكان بعض السلف يقول في دعائه: يا رب وأي أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارًا سبحانك ما أحلمك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدرّ الرزق حتى كأنك يا ربنا لا تغضب.

فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغي أن يسمعوا شيئًا من ذلك، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف فإنّ أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف، كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام. وأما ضدّ ذلك فيسدّ عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا.

وفيه بيان حقيقة الخوف، وبيان درجاته، وبيان أقسام المخاوف، وبيان فضيلة الخوف، وبيان بيان حقيقة الخوف:

اعلم أنّ الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء، ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدًا لجمال الحق على الدوام: لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمانان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال: الخوف حجاب بين الله وبين العبد. وقال أيضًا: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف؛ وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصًا في الشهود، وإنما دوام الشهود غاية المقامات، ولكنا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول: حال الخوف ينتظم أيضًا من علم وحال وعمل.

أما العلم: فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلًا ويجوّز العفو والإفلات، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوّة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقودًا غضوبًا منتقمًا وكونه محفوفًا بمن يحثه على الانتقام خاليًا عمن يتشفع إليه في حقه، وكان هذا الخائف عاطلًا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك، فالعلم بتظاهر هذه

الأسباب سبب لقوّة الخوف وشدّة تألم القلب، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالبًا وإن كان افتراسه بالاختيار، وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه، كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإنّ الماء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق، وكذا النار على الإحراق؛ فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه، وذلك الإحراق هو الخوف، فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعًا. وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فتكون قوّة خوفه؛ فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه؛ ولذلك قال ﷺ: «أنا أخوفكم لله»[(١)]، وكذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات. أما في البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء، وقد تنشق به المرارة فيفضي إلى الموت، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل، أو يقوى فيورث القنوط واليأس. وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيًا لما فرط واستعدادًا للمستقبل، ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه. وقال أبو القاسم الحكيم: من خاف شيئًا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه. وقيل لذي النون: متى يكون العبد خائفًا؟ قال: إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام. وأما في الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهًا عند من يشتهيه إذا عرف أنّ فيه سمًّا، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرّغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره. هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه، وهكذا كان حال جماعة من

---

(١) صحيح: حديث «أنا أخوفكم لله». أخرجه البخاري من حديث أنس «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له» [البخاري: ٥٠٦٣] وللشيخين من حديث عائشة «والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية». [البخاري: ٦١٠١، ومسلم: ٢٣٥٦].

الصحابة والتابعين وقوّة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوّة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه، وقوّة الخوف بحسب قوّة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال: أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعًا، فإن زادت قوّته كف عما يتطرّق إليه إمكان التحريم فيكف أيضًا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى، إذ التقوى: أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرّد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسًا من أنفاسه فهو الصدق، وصاحبه جدير بأن يسمى صدّيقًا، ويدخل في الصدق التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة؛ فإذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدّد له بسبب الكف اسم العفة، وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعًا، ووراءه اسم الصديق والمقرّب، وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم؛ فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل، كما أنك تقول: الإنسان إما عربي وإما عجمي، والعربي إما قرشي أو غيره، والقرشي إما هاشمي أو غيره، والهاشمي إما علوي أو غيره، والعلوي إما حسني أو حسيني، فإذا ذكرت أنه حسني مثلًا فقد وصفته بالجميع، وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه، فكذلك إذا قلت صدّيق فقد قلت: إنه تقي وورع وعفيف، فلا ينبغي أن تظنّ أنّ كثرة هذه الأسامي تدل على معان كثيرة متباينة، فيختلط عليك كما اختلط على من طلب المعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ المعاني، فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفًا وإقدامًا.

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف:

اعلم أن الخوف محمود، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط، بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى، والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي، ولكن ذلك لا يدل على أنّ المبالغة في الضرب محمودة، وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال. والمحمود هو الاعتدال والوسط.

فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب

الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألمًا مبرحًا فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء، ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عنّ الخوف، بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله، وذلك مما قد عز وجوده الآن؛ ولذلك قال الفضيل بن عياض: إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت، فإنك إن قلت: «لا» كفرت، وإن قلت: «نعم» كذبت، وأشار به إلى أنّ الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفًا.

وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حدّ الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مذموم أيضًا لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج الخوف أيضًا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل؛ فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل، ولولاه لما كان الخوف كمالاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأه الجهل والعجز. أما الجهل فإنه ليس يدري عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفًا لأنّ المخوف هو الذي يتردد فيه.

وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه؛ فإذن هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمي، وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس بكمال في ذاته، وإنما يصير محمودًا بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه، كما يكون احتمال ألم الدواء محمودًا لأنه أهون من ألم المرض والموت، فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم، وقد يخرج الخوف أيضًا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل، وقد يخرج إلى الموت، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوًا من أعضائها، وإنما ذكر رسول الله ﷺ أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور، فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم، وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل، فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم.

فإن قلت: من خاف فمات من خوفه فهو شهيد، فكيف يكون حاله مذمومًا فاعلم أنّ معنى كونه شهيدًا أنّ له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف، فهو بالإضافة إليه فضيلة، فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبله فليس بفضيلة، بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه، وهو محال، فلا ينبغي

أن يظن هذا، بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى؛ فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخر كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصدّيقين، فإذن الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه، مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة، وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره، فإن لم يحصل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة، فإذا أثمر الورع فهو أعلى، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصدّيقين: وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع؛ فهذا أقصى ما يحمد منه، وذلك مع بقاء الصحة والعقل؛ فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه، ولو كان محمودًا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول، ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أيامًا كثيرة: احفظوا عقولكم فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل.

بيان اقسام الخوف بالإضافة الى ما يخاف منه:

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه أما أن يكون مكروهًا في ذاته كالنار، وإما أن يكون مكروهًا لأنه يفضي إلى المكروه، كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة وكما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت، فلا بدّ لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروهًا من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه، ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة، فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروهًا لذاته بل لغيره: كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد، أو خوف ضعف القوّة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى، أو خوف زوال رقة القلب وتبدّلها بالقساوة. أو خوف الميل عن الاستقامة، أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم: أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء، أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا، أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه. أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل. فهذه كلها مخاوف، ولكل واحد خصوص فائدة، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المخوف، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب

على الفطام عن العادة، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس، وهكذا إلى بقية الأقسام.

وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة، فإن الأمر فيه مخطر، وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة؛ لأنّ الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة، فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد، فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عماذا يظهر، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع، فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد؛ وإليه أشار النبي ﷺ حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال: «هذَا كِتَابُ اللهِ كَتَبَ فِيْهِ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ لا يُزَادُ فِيهِمْ وَلا يُنْقَصُ» ثم قبض كفه اليسرى وقال: «هذَا كِتَابُ اللَّهِ كُتِبَ فِيهِ أَهْلُ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ لا يُزَادُ فِيهِمْ وَلا يُنْقَصُ وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ السَّعَادَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ حَتَّى يُقَال كَأَنَّهُمْ منهم بَلْ هُمْ هُمْ، ثُمَّ يَسْتَنْقِذُهُمُ اللَّهُ قَبْلَ المَوْتِ وَلَوْ بِفَوَاقِ نَاقَةٍ. وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ حَتَّى يُقَالَ كَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ، ثُمَّ يَسْتَخْرِجُهُمُ اللَّهُ قَبْلَ المَوْتِ وَلَوْ بِفَوَاقِ نَاقَةٍ، السَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللَّهُ، وَالأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ»(1) وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته، وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لا محالة، فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصدّيقين، وأما الآخر فهو في عرصة الغرور والأمن. إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين، والخوف من الله خوف الموحدين والصدّيقين، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى، وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جناية؛ بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته، ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها، فإن تيسير أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات، فالعاصي قد قضي عليه بالمعصية شاء أم أبى، وكذا المطيع فالذي رفع محمدًا

---

(1) صحيح: حديث «هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم». أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال: حسن صحيح غريب. [الترمذي: ٢١٤١، وانظر السلسلة الصحيحة: ٨٤٨].

إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله، فإنّ من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريًّا، والذي عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريًّا، فليت شعري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه، وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه، وكيف يحال ذلك على العبد؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل، ووراء هذا المعنى سر القدر لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن أن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجرىء على ذكره ذو بصيرة، فقد جاء في الخبر: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمَ: يا دَاوُدُ خَفْنِي كما تَخَافُ السَّبُعَ الضَّارِي»(١). فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فإنّ الوقوف على سببه وقوف على سر القدر، ولا يكشف ذلك إلا لأهله. والحاصل أن السبع يخاف لا لجناية سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي، فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيًا كنت أو ميتًا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحد، إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته، ولله المثل الأعلى، ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله سبحانه «هؤلاء إلى الجنة لا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي» ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة.

الطبقة الثانية من الخائفين: أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه، وذلك مثل سكرات الموت وشدّته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدّته وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين

(١) حديث «إن الله تعالى أوحى إلى داود: يا داود، خفني كما يخاف السبع الضاري». لم أجد له أصلا، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات، فإنه عبر عنه بقوله: جاء في الخبر، وكثيرا ما يعبر بذلك عن الإسرائيليات التي هي غير مرفوعة.

فيها. وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك هو خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين، ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق، وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرًا وتعجب منه في نفسه، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد، وإلا فباطنه لا يصدّق به؛ لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم، فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلًا له، ومن كان أهلًا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره، فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه.

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه:

اعلم أنّ فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار.

أما الاعتبار: فسبيله أنّ فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة، إذ لا مقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة، وفضيلته بقدر غايته، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تقمع بنار الخوف؛ فالخوف هو النار المحرقة للشهوات؛ فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرّب إلى الله زلفى.

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان، وقال الله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]. وصفهم بالعلم لخشيتهم. وقال عز وجل: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٨] وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأنّ الخوف ثمرة العلم، ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام: وأما الخائفون فإنّ لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه،

فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء. ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم، ولذلك لما خير رسول الله ﷺ في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول: «أسألك الرفيق الأعلى» (١)، فإذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما، حتى إنّ العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها، كما صار الحمد مخصوصًا بالله تعالى والصلاة برسول الله ، حتى يقال: الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة على سيدنا محمد وآله أجمعين. وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج :٣٧] وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف ــ كما سبق ــ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات :١٣] ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء :١٣١] وقال عز وجل: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران :١٧٥] فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان، فلذلك لا يتصوّر أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه، وقال رسول الله ﷺ في فضيلة التقوى: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ فَإِذَا هُمْ بِصَوْتٍ يُسْمِعَ أَقْصَاهُمْ كَمَا يُسْمِعُ أَدْنَاهُمْ فَيَقُولُ: أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ نَسَبًا وَجَعَلْتُمْ نَسَبًا، فَوَضَعْتُمْ نَسَبِي وَرَفَعْتُمْ نَسَبَكُمْ، قُلْتُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات :١٣] وَأَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا فُلانُ بْنُ فُلانٍ وَفُلانٌ أَغْنَى مِنْ فُلانٍ، فَالْيَوْمَ أَضَعُ نَسَبَكُمْ وَأَرْفَعُ نَسَبِي، أَيْنَ الْمُتَّقُونَ؟ فَيُرْفَعُ لِلْقَوْمِ لِوَاءٌ فَيَتْبَعُ الْقَوْمُ لِوَاءَهُمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (٢) وقال عليه الصلاة والسلام: «رأس الحكمة مخافة الله» (٣) وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود: «إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي» (٤).

---

(١) صحيح: حديث: لما خير في مرض موته كان يقول «أسألك الرفيق الأعلى». متفق عليه من حديث عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح «إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير» فلما نزل به ورأسه في حجري غشي عليه ثم أفاق فأشخص ببصره إلى سقف البيت ثم قال «اللهم الرفيق الأعلى» فعلمت أنه لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح... الحديث. [البخاري: ٤٤٣٧، ومسلم: ٢٤٤٤].

(٢) ضعيف جدًا: حديث «إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصاهم كما يسمعه أدناهم». أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك بسند ضعيف والثعلبي في التفسير مقتصرا على آخره «إني جعلت نسبا... الحديث» [انظر ضعيف الترغيب: ١٧٦٣] من حديث أبي هريرة.

(٣) ضعيف: حديث «رأس الحكمة مخافة الله». رواه أبو بكر بن بلال الفقيه في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب، وضعفه من حديث ابن مسعود، ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح أيضا. [انظر ضعيف الجامع: ٣٠٦٦].

(٤) حديث «إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي». قاله لابن مسعود، لم أقف له على أصل.

وقال الفضيل: من خاف الله دله الخوف على كل خير. وقال الشبلي رحمه الله: ما خفت الله يومًا إلا رأيت له بابًا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط. وقال يحيى بن معاذ: ما من مؤمن يعمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان: خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين أسدين. وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحي منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب.

والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف، فإن خلت عن الخوف لم تسمَّ بهذه الأسامي، وكذلك ما ورد في فضائل الذكر لا يخفى، وقد جعله الله تعالى مخصوصًا بالخائفين فقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقال ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ فَإِنْ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وإِنْ خَافَنِي في الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَومَ القِيَامَةِ» (١)، وقال ﷺ: «مَنْ خَافَ اللَّهَ تَعَالَى خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللَّهِ خَوَّفَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» (٢)، وقال ﷺ: «أَتَمُّكُمْ عَقْلًا أَشَدُّكُمْ خَوْفًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَحْسَنُكُمْ فِيما أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَرًا» (٣)، وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة.

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد حبه وصح له لبه.

وقال ذو النون أيضًا: ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فإذا غلب الرجاء تشوّش القلب.

وكان أبو الحسين الضرير يقول: علامة السعادة خوف الشقاوة؛ لأنّ الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده، فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين. وقيل ليحيى بن معاذ: من آمن الخلق غدًا؟ فقال: أشدهم خوفًا اليوم. وقال سهل رحمه الله: لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال. وقيل للحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنع؟ نجالس أقوامًا يخوّفونا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال: والله إنك إن تخالط أقوامًا يخوّفونك حتى يدركك أمن؛ خير لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى يدركك الخوف. وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب. وقالت عائشة رضي الله عنها: «قلت يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾

---

(١) حسن: حديث «لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين». أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا. [انظر صحيح الجامع: ٤٣٣٢].

(٢) منكر: حديث «من خاف الله تعالى خافه كل شيء». رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا. ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بإسناد ضعيف معضل، وقد تقدم. [انظر السلسلة الضعيفة: ٤٨٥].

(٣) حديث «أتمكم عقلا أشدكم خوفا لله تعالى». لم أقف له على أصل، ولم يصح في فضل العقل شيء.

[المؤمنون: ٦٠] هو الرجل يسرق ويزني؟ قال: «لا، بَل الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُ» (١)، والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر، وكل ذلك ثناء على الخوف؛ لأنّ مذمة الشيء ثناء على ضدّه الذي ينفيه، وضدّ الخوف الأمن، كما أن ضدّ الرجاء اليأس، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول: كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان، فإنّ كل من رجا محبوبًا فلا بدّ وأن يخاف فوته، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذًا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيًا، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف؛ فإذن المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة؛ فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء؛ وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف، والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكًا فيه، نعم أحد طرفي الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنًا، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوي الرجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه، وكذا بالعكس، وعلى كل حال فهما متلازمان، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال عز وجل: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء، فقال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي لا تخافون، وكثيرًا ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه، بل أقول: كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية، فإنّ البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢] وقال تعالى: ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩] وقال عز وجل: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝﴾ [النجم: ٥٩-٦١] وقال ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ تَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دَمْعَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ تُصِيبُ شَيْئًا مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ إلاَّ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ» (٢)، وقال ﷺ: «إذَا اقْشَعَرَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ مِنْ

---

(١) صحيح: حديث عائشة: قلت يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] هو الرجل يسرق ويزني؟». رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد. قلت: بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة. [الترمذي: ٣١٧٥، وابن ماجه: ٤١٩٨، وانظر السلسلة الصحيحة: ١٦٢].

(٢) ضعيف: حديث «ما من عبد مؤمن تخرج من عينه دمعة. أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف. [ابن ماجه: ٤١٩٧، وانظر ضعيف الترغيب: ١٩٣٦].

خَشْيَةِ اللَّهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ مِنَ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا» (١)، وقال ﷺ: «لا يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ» (٢)، وقال عقبة بن عامر: «ما النجاة يا رسول الله؟ قال: أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ» (٣)، وقالت عائشة رضي الله عنها: «قلت يا رسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب؟ قال: نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ ذُنُوبَهُ فَبَكَى» (٤)، وقال ﷺ: «ما مِنْ قَطْرَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَةِ دَمْعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ قَطْرَةِ دَمٍ أُهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى» (٥)، وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي عَيْنَيْنِ هَطَّالَتَيْنِ تَشْفِيَانِ الْقَلْبَ بِذُرُوفِ الدَّمْعِ مَعَ خَشْيَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الدُّمُوعُ دَمًا والأَضْرَاسُ جَمْرًا» (٦)، وقال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ» وَذَكَرَ مِنْهُمْ «رَجُلاً ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» (٧).

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتباك.

وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعًا مسته الدموع.

---

(١) ضعيف: حديث «إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله». أخرجه الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٤٢].

(٢) صحيح لغيره: حديث «لا يلج النار أحد بكي من خشية الله تعالى». أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة. [الترمذي: ١٦٣٣، والنسائي: ٣١٠٨، وانظر صحيح الترهيب: ١٢٦٩].

(٣) صحيح لغيره: حديث قال عقبة بن عامر: ما النجاة يا رسول الله؟ قال «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك». تقدم. [الترمذي: ٢٤٠٦، وانظر صحيح الترغيب: ٢٧٤١].

(٤) حديث عائشة: قلت أيدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب؟ قال «نعم من ذكر ذنوبه فبكى». لم أقف له على أصل.

(٥) حسن: حديث «ما من قطرة أحب إلى الله». أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: حسن غريب، وقد تقدم. [الترمذي: ١٦٦٩، وانظر صحيح الترغيب: ١٣٢٦].

(٦) ضعيف: حديث «اللهم ارزقني عينين هطالتين». أخرجه الطبراني في الكبير في الدعاء وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن، ورواه الحسين المروزي في زياداته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلا دون ذكر «الله» وذكر الدارقطني في العلل أن من قال فيه «عن أبيه» وهم، وإنما هو عن سالم بن عبد الله مرسلا، قال: وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله المحاربي وليس بابن عمر انتهى، وما ذكره من أنه سالم المحاربي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في الكنى وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الحاكم فإن الراوي له عن سالم عبد الله أبو سلمة، وإنما ذكروا له رواية عن سالم المحاربي والله أعلم. نعم حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروى عن سالم المحاربي أو سالم بن عبد الله بن عمر. [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٩٠٥].

(٧) صحيح: حديث «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم «رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه». متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [البخاري: ٦٦٠، ومسلم: ١٠٣١].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلبه.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ما تغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيامة، فإن سالت دموعه أطفأ الله بأوّل قطرة منها بحارًا من النيران، ولو أن رجلاً بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة.

وقال أبو سليمان: البكاء من الخوف، والرجاء والطرب من الشوق.

وقال كعب الأحبار رضي الله عنه: والذي نفسي بيده؛ لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي أحبّ إليّ من أن أتصدق بجبل من ذهب.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إليّ من أن أتصدّق بألف دينار.

وروي عن حنظلة قال: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فدنت مني المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ وأخذنا في الدنيا، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي: قد نافقت حيث تحوّل عني ما كنت فيه من الخوف والرقة، فخرجت وجعلت أنادي: نافق حنظلة، فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: كلا لم ينافق حنظلة، فدخلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول: نافق حنظلة؛ فقال رسول الله ﷺ: «كَلاَّ لَمْ يُنَافِقْ حَنظَلَةُ» فقلت: يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه. فقال ﷺ: «يَا حَنظَلَةُ لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ أَبَدًا عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ لَصَافَحَتْكُم المَلائِكَةُ فِي الطُّرِيقِ وَعَلَى فِرَاشِكُمْ؛ وَلَكِنْ يا حَنظَلَةُ سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ»(١).

فإذن كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهذه دلالة على فضل الخوف؛ لأنّ جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب.

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما:

اعلم أنّ الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما، وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب؛ فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء

---

(١) صحيح: حديث حنظلة: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون». أخرجه مسلم مختصرا. [مسلم: ٢٧٥٠].

أفضل، وإن استويا فهما متساويان، وهذا لأنّ كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواء من يداوي بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل، ويجوز أن يقال مطلقًا: الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع، وبالسكنجبين مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل، فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل؛ لأنّ المعاصي والاغترار على الخلق أغلب، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة، ومستقى الخوف من بحر الغضب، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام. وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء.

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول: أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي. فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. وروي أنّ عليًا كرّم الله وجهه قال لبعض ولده: يا بني خف الله خوفًا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلًا واحدًا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلًا واحدًا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل، وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي؛ فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه؛ فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثني من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلًا على اغتراره.

فإن قلت: مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه، بل ينبغي أن يغلب رجاؤه كما سبق في أول كتاب الرجاء، وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوّة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساويًا لرجائه، فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زَلَلُه، وذلك وإن أوردناه مثلًا فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه؛ لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة، إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاؤها، وصحة البذر وصحة الهواء وقلة

الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها، وإنما مثال مسألتنا بذر لم يجرّب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها، وهي في بلاد ليس يدري أتكثر الصواعق فيها أم لا فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه، والبذر في مسألتنا هو الإيمان - وشروط صحته دقيقة، والأرض القلب - وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة، إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله، والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده، وذلك مما لم يجرّب مثله، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرّب، فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جبانًا في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سيحكى في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه، فأما أن يغلب رجاؤه فلا، ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئًا؟ إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين (١)، فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي؟ وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه؟ وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة؟ وقد قال ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إلاَّ شبر» (٢).

وفي رواية: «إلا قَدْرُ فَوَاقِ نَاقَةٍ فَيَسْبِقَ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ» وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملًا بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء، فكيف يؤمن ذلك؟ فإذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه، وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة، ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] وقال عز وجل: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وأين مثل عمر رضي الله عنه؟ فالخلق الموجودة في

---

(١) صحيح: حديث: أن حذيفة كان خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين. أخرجه مسلم من حديث حذيفة «في أصحابي اثنا عشر منافقا» تمامه «لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط... الحديث». [مسلم: ٢٧٧٩].

(٢) حديث «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر» وفي رواية «إلا قدر فواق ناقة». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار» [مسلم: ٢٦٥١] وللبزار وللطبراني في الأوسط «سبعين سنة» [ابن ماجه: ٢٧٠٤، وانظر ضعيف الترغيب: ٢٠٣٨] وإسناده حسن. وللشيخين في أثناء حديث لابن مسعود «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع... الحديث» [البخاري: ٣٢٠٨، ومسلم: ٢٦٤٣] ليس فيه تقدير زمن للعمل بخمسين سنة ولا ذكر «شبر» ولا « فواق ناقة».

هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط أنّ لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببًا للتكاسل عن العمل وداعيًا إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدّر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود، دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط.

وقد قال يحيى بن معاذ: من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الاذّكار.

وقال مكحول الدمشقي: من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجىء، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد.

فإذن لا بد من الجمع بين هذه الأمور، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن؛ لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته، وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبًا لله تعالى ليكون محبًا للقاء الله تعالى، فإنّ من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب، والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة، فإن المصير إليه والقدوم بالموت عليه، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتدّت محنته وعذابه، فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب: فهذا رجل محابه كلها في الدنيا، فالدنيا جنته، إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه، فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه؛ لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدّر، فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلًا عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر، وفضلًا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنكال، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، ولا مطمع في إجابة

هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن، فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا ﷺ إذ قال: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبكَ وَاْجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ المَاءِ البَارِدِ» (١)، والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب، ولذلك قال: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاّ وَهُوَ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِرِبِّهِ» (٢)، وقال تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء» ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه: يا بني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به.

وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه. وقال أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لابنه عند الموت: اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن حببني إلى عبادي. فقال: بماذا؟ قال: بأن تذكر لهم آلائي ونعمائي، فإذن غاية السعادة أن يموت محبًا لله تعالى، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير، فسأله؟ فقال: الآن أفلت، فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له: إنه مات البارحة.

بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف:

اعلم أن ما ذكرناه في حال الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض؛ لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء؛ لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء؛ والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف، ولذلك قال علي كرم الله وجهه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرّد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام، ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة، ويؤدي كمال المعرفة والأنس إلى

---

(١) ضعيف: حديث «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك». أخرجه الترمذي من حديث معاذ، وتقدم في الأذكار والدعوات. [الترمذي: ٣٤٩٠، وانظر السلسلة الضعيفة: ١١٢٥].

(٢) صحيح: حديث «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه». أخرجه مسلم من حديث جابر، وقد تقدم. [مسلم: ٢٨٧٧].

المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء، ولا بعدهما مقام سوى الصبر، وبه المجاهدة والتجرّد لله ظاهرًا وباطنًا، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل، فإذن فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية، ولكنا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول: الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر، ومثاله: أنّ الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف، وربما مدّ اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها، فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتعد فرائصه ويحتال في الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه في الهرب، فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته. وأما خوف الابن فإيمانه بمجرّد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه، فيعلم أنّ السبع مخوف ولا يعرف وجهه، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه.

والثاني: الخوف منه؛ فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران :٢٨] وقوله عز وجل: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران :١٠٢] . وأما الأوّل؛ فهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزأين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان، وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة، وتزول أيضًا بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم، فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير، وأما الثاني وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف، أعني أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه. قال ذو النون رحمه الله تعالى: خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجيّ، وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر :٢٨] ولعموم المؤمنين أيضًا حظ من هذه الخشية، ولكن هو بمجرد التقليد أيضًا هي خوف الصبي من الحية تقليدًا لأبيه، وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب، حتى إن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليدًا له كما احترز من أخذها تقليدًا لأبيه، والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدّة طويلة على الاستمرار؛ فإذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله

تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلي الخوف، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعًا في مخالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخالبه فلا يحتاج إلى حيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي، ويحكم ما يريد ولا يخاف، قرّب الملائكة من غير وسيلة سابقة، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة، بل صفته ما ترجمه قوله تعالى: هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي. وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء أم أبى، فإنه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعًا بها بالضرورة، فإن كان أبعده لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أوّل لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه في الأزل، وعن هذا المعنى عبرﷺ إذ قال: «احْتَجَّ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عِنْدَ رَبِّهِما، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، قال مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، ثُمَّ أَهْبَطت النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلىَ الأَرْض.

فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيها تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللَّهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا. قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه :١٢١] قال نَعَمْ. قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَعْمَلَهُ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنةً، قالﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» (١)، فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر، ومن سمع هذا فآمن به وصدّق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف؛ فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه، وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق، ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم، ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمي اتفاقًا، وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقًا، والواقع في مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع؛ لأنّ السبع مسخر: إن سلط عليه الجوع افترس، وإن سلط عليه الغفلة خلي وترك، فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته،

---

(١) صحيح: حديث «احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه بألفاظ أخر. [البخاري: ٤٧٣٨، ومسلم: ٢٦٥٢ واللفظ لمسلم].

فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع، بل إذا كشف الغطاء علم أنّ الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى؛ لأنّ المهلك بواسطة السبع هو الله، فاعلم أنّ سباع الآخرة مثل سباع الدنيا، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلًا يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له، فخلق الجنة وخلق لها أهلًا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا، وخلق النار وخلق لها أهلًا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا، فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر، فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء.

وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء.

أما رسولنا ﷺ فهو سيد الأوّلين والآخرين [(١)]، وكان أشدّ الناس خوفًا [(٢)]، حتى روي أنه كان يصلي على طفل: ففي رواية أنه سمع في دعائه يقول: «اللَّهُمَّ قِهِ عَذَابَ القَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ» [(٣)]، وفي رواية ثانية: أنه سمع قائلًا يقول: هنيئًا لك، عصفور من عصافير الجنة، فغضب وقال: «ما يُدْرِيكَ أَنَّه كَذَلِكَ، واللَّهِ إنِّي رسُولُ اللَّه، وَمَا أَدْرِي ما يُصْنَعُ بِي إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا لا يُزَادُ فِيهِمْ وَلا يُنْقَصُ مِنهِمْ» [(٤)]. وروي أنه ﷺ قال ذلك أيضًا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأوّلين لما قالت أم سلمة: هنيئًا لك الجنة، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك: والله لا أزكي أحدًا بعد عثمان [(٥)]، وقال محمد بن خولة الحنفية:

---

(١) صحيح: حديث: كان سيد الأولين والآخرين. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة «أنا سيد ولد آدم ولا فخر... الحديث».[مسلم: ٢٢٧٨].

(٢) صحيح: حديث: كان أشد الناس خوفًا. تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا. قوله «والله إني لأخشاكم لله» [البخاري: ٥٠٦٣] وقوله «والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية». [البخاري: ٦١٠١، مسلم: ٢٣٥٦].

(٣) صحيح: حديث إنه كان يصلي على طفل فسمع في دعائه يقول «اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار». [انظر المشكاة: ١٦٨٩، وصححه الألباني] أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس أن النبي ﷺ صلى على صبي أو صبية وقال «لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي» [انظر صحيح الجامع: ٥٣٠٧] واختلف في إسناده، فرواه في الكبير من حديث أبي أيوب أن صبيًا دفن فقال رسول الله ﷺ «لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي» [انظر السلسلة الصحيحة: ٢١٦٤].

(٤) صحيح: حديث: انه سمع قائلة تقول لطفل مات: هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة. أخرجه مسلم من حديث عائشة قالت: تُوفي صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة... الحديث» وليس فيه فغضب، وقد تقدم. [مسلم: ٢٦٦٢].

(٥) صحيح: حديث: لما توفي عثمان بن مظعون قالت أم سلمة: هنيئا لك الجنة. أخرجه البخاري من حديث أم العلاء الأنصارية وهي القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، قال وما يدريك... الحديث وورد أن التي قالت ذلك أم خارجة بن زيد، ولم أجد فيه ذكر أم سلمة. [البخاري: ٢٦٨٧ عن أم العلاء].

والله لا أزكي أحدًا غير رسول الله ﷺ ولا أبي الذي ولدني، قال: فثارت الشيعة عليه، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه، وروي في حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه: هنيئًا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله ﷺ وقتلت في سبيل الله، فقال ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكِ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لا يَنْفَعُهُ وَيَمْنَعُ ما لا يَضُرُّهُ» (١)، وفي حديث آخر: «أنه ﷺ دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول: هنيئًا لك الجنة، فقال ﷺ: مَنْ هذِهِ المُتَأَلِّيَةُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ فقال المريض: هي أمي يا رسول الله، فقال: وَمَا يُدْرِيكِ، لَعَلَّ فُلانًا كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لا يَعْنِيهِ وَيَبْخَلُ بِمَا لا يُغْنِيهِ» (٢)، وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم، وهو يقول ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها» (٣)، سورة الواقعة وإذا الشمس كوّرت وعم يتساءلون فقال العلماء: لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود :٦٠] ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود :٦٨] ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود :٩٥] مع علمه بأنه لو شاء الله ما أشركوا، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفي سورة الواقعة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة :٢-٣] أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة: إما خافضة قومًا كانوا مرفوعين في الدنيا، وإما رافعة قومًا كانوا مخفوضين في الدنيا.

وفي سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝﴾ [التكوير :١٢-١٤] وفي عم يتساءلون: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ :٤٠] الآية، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ :٣٨] والقرآن من أوّله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه :٨٢] لكان كافيًا، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها، وأشدّ منه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص :٦٧] وقوله تعالى: ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب :٨] قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمٰن :٣١] وقوله عز وجل: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف :٩٩] الآية. وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ

---

(١) حديث: إن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه: «هنيئا لك يا بني الجنة». [انظر صحيح الترغيب: ٢٨٨٣ وحسنه الألباني]. رواه البيهقي في الشعب، إلا أنه قال فقالت أمه: «هنيئا لك الشهادة» [انظر صحيح الترغيب: ١٣٤٩ على لسان بعض الصحابة وليست أمه] وهو عند الترمذي، إلا أنه قال: إن رجلا قال له: «أبشر بالجنة» [الترمذي: ٢٣١٦، وانظر صحيح الترغيب: ٢٨٨٢، وقال الألباني: صحيح لغيره]، وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف.

(٢) صحيح: حديث: دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول: هنيئا لك الجنة. تقدم أيضا. [انظر السلسلة الصحيحة: ٣١٠٣].

(٣) صحيح: حديث «شيبتني هود وأخواتها». أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه من حديث ابن عباس، وهو في الشمائل من حديث أبي جحيفة. وقد تقدم في كتاب السماع. [الترمذي: ٣٢٩٧، وانظر صحيح الجامع: ٣٧٢٣].

ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم:٨٥] الآيتين. وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم:٧١] الآية. وقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت:٤٠] الآية: وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ [الشورى:٢٠] الآية. وقوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧] الآيتين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ﴾ [الفرقان:٢٣] الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر:١-٢] إلى آخر السورة، فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران، وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩] حتى روي أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفًا من الله تعالى، فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمنتكما؟ فقالا: ومن يأمن مكرك؟ (١) وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله: «قد أمنتكما» ابتلاء وامتحانًا لهما ومكرًا بهما، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما كما أنّ إبراهيم ﷺ لما وضع في المنجنيق قال: حسبي الله، وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء، حتى قال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله، فأخبر الله تعالى عنه فقال: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧] أي بموجب قوله: حسبي الله، وبمثل هذا أخبر عن موسى ﷺ حيث قال: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٥-٤٦] ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة؛ إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدّد عليه الأمن وقيل له: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه:٦٨] ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هذِهِ العِصَابَةَ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ يَعْبُدُكَ» (٢)، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك، فكان مقام الصدّيق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله، وكان مقام رسول الله ﷺ مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر؛ وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى، ومن عرفَ

---

(١) حديث: أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل، فأوحى الله إليهما: لم تبكيان. أخرجه ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر، ورويناه في مجلس عن أمالي أبي سعيد النقشاش. بسند ضعيف.

(٢) صحيح: حديث قال يوم بدر «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك». أخرجه البخاري من حديث ابن عباس بلفظ «اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم... الحديث».[البخاري: ٢٩١٥، ومسلم: ١٧٦٣].

حقيقةَ المعرفةِ قصورَ معرِفَته عن الإحاطة بكنه الأمورِ، عظُم خوفه لا محالة، ولذلك قال المسيح لما قيل له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦] وقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المائدة:١١٨] الآية، فوّض الأمر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية من البين، لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطًا يخرج عن حدّ المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسبان فضلًا عن التحقيق والاستيقان، وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين، إذا الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل في الدنيا يعذبهم بأنواع الآلالم والأمراض، ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد، ثم يخبر عنه ويقول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣] وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود:١١٩] الآية، فكيف لا يخاف ما حق من القول في الأزل ولا يطمع في تداركه؟ ولو كان الأمر آنفًا لكانت الأطماع تمتدّ إلى حيلة فيه، ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقراء خفي السابقة من جلي الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح؛ فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة، إذ كل ميسر لما خلق له، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة، والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعًا وبظاهره وباطنه على الله مقبلًا كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقًا به، ولكنّ خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالًا ولا يمكنها من الانطفاء، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشدّ تقلبًا من القدر في غليانها، وقد قال مقلب القلوب عز وجل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج:٢٨] فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف.

فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب.

قال بعض العارفين: لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانةٌ فمات لم أقطع له بالتوحيد؛ لأني لا أدري ما ظهر له من التقلب. وقال بعضهم: لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام؛ لأني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار. وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما

أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه.

وكان سهل يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإنّ عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال: أوعلى ذنوبي أبكي لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا.

وحكي عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال: إذا حضرتني الوفاة فاقعد على رأسي، فإن رأيتني مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزًا وسكرًا وانثره على صبيان أهل البلد، وقل هذا عرس المنفلت، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة. قال: وبم أعلم ذلك؟ فذكر له علامة، فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرّقه.

وكان سهل يقول: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

وكان أبو زيد يقول: إذا توجهت إلى المسجد فكأن في وسطي زنارًا أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار، فهذا لي في كل يوم خمس مرات.

وروي عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال: يا معشر الحواريين، أنتم تخافون المعاصي، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر.

وروي في أخبار الأنبياء أنّ نبيًا شكى إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف، فأوحى الله تعالى إليه: عبدي، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى قد رضيت يا رب فاعصمني من الكفر.

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوّة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء؟

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدّم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة، ولذلك اشتدّ خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن: لو أعلم أني بريء من النفاق كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس.

وما عنوا به النفاق الذي هو ضدّ أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلمًا منافقًا، وله علامات كثيرة: قال ﷺ: «أَرْبَعٌ مِنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّه مُسْلِمٌ، وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَها: مَنْ

إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإذا ائْتُمِنَ خَانَ، وَإذا خَاصَمَ فَجَرَ»(١) ، وفي لفظ آخر: «وَإذَا عَاهَدَ غَدَرَ».

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلا صديق، إذ قال الحسن: إنّ من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج، ومن الذي يخلو عن هذه المعاني بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ونُسي كونها منكر بالكلية، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوّة، فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير بها منافقًا إني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات(٢) . وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر(٣) . وقال بعضهم: علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله، وأن تحب على شيء من الجور، وأن تبغض على شيء من الحق. وقيل: من النفاق، أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك. وقال رجل لابن عمر رحمه الله: إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم؛ فقال: كنا نعدّ هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ(٤) . وروي أنه سمع رجلاً يذم الحجاج ويقع فيه، فقال: أرأيت لو كان الحجاج حاضرًا أكنت تتكلم بما تكلمت به؟ قال: لا. قال: كنا نعدّ هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ(٥) . وأشدّ من ذلك ما روي أنّ نفرًا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه، فقال: تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا؛ فقال: كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ(٦) .

وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق، وكان يقول: إنه يأتي على القلب ساعة يمتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة، ويأتي عليه ساعة يمتلىء بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة، فقد عرفت بهذا أنّ خوف العارفين من سوء

(١) **صحيح**: حديث «أربع من كن فيه فهو منافق خالص». متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم في قواعد العقائد. [البخاري: ٣٤، مسلم: ٥٨].

(٢) حديث حذيفة: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد الرسول ﷺ فيصير بها منافقًا. أخرجه أحمد من حديث حذيفة، وقد تقدم في قواعد العقائد. [أحمد: ٢٢٧٦٧].

(٣) **صحيح**: حديث كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون «إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر». أخرجه البخاري من حديث أنس وأحمد، والبزار من حديث أبي سعيد، وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح إسناده، وتقدم في التوبة. [البخاري: ٦٤٩٢، وأحمد: ١٣٦٢٥].

(٤) **صحيح**: حديث: قال رجل لابن عمر: إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون. رواه أحمد والطبراني، وقد تقدم في قواعد العقائد. [أحمد: ٥٧٩٥، وابن ماجه: ٣٩٧٥، وانظر صحيح ابن ماجه].

(٥) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه. تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج.

(٦) حديث: إن نفر قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه. لم أجد له أصلا.

الخاتمة، وأنّ سببه أمور تتقدّمه: منها البدع، ومنها المعاصي، ومنها النفاق، ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك وإن ظنّ أنه خلا عنه فهو النفاق، إذ قيل: من أمن النفاق فهو منافق.

وقال بعضهم لبعض العارفين: إني أخاف على نفسي النفاق، فقال: لو كنت منافقًا لما خفت النفاق، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفًا منهما. ولذلك قال ﷺ: «العَبْدَ المُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لا يَدْرِي ما اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لا يَدْرِي ما اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ما بَعْدَ المَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، ولا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إلاَّ الجَنَّةَ أَو النَّارَ»(١)، والله المستعان.

بيان معنى سوء الخاتمة:

فإن قلت: إن أكثر هؤلاء يرجع إلى سوء الخاتمة، فما معنى سوء الخاتمة؟

فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين: إحداهما أعظم من الأخرى، فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: إما الشك، وإما الجحود، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابًا بينه وبين الله تعالى أبدًا، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد. والثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسًا رأسه إلى الدنيا وصارفًا وجهه إليها.

ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه، فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار: جز يا مؤمن فإنّ نورك أطفأ لهبي، فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا، فالأمر مخطر؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه، إذ لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال، فلا مطمع في عمل ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك، وعند ذلك تعظم الحسرة، إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت، فإن كان إيمانه في القوة إلى حدّ مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار، ولو لم يكن

---

(١) حديث «العبد المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى». أخرجه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وقد تقدم في ذم الدنيا: ذكره ابن المبارك في كتاب الزهد بلاغا، وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس.

إلا مثقال حبة فلا بدّ وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين.

فإن قلت: فما ذكرته يقتضي أن تسرع النار إليه عقيب موته، فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة؟.

فاعلم أنّ كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان، بل الصحيح عند ذوي الأبصار ما صحت به الأخبار وهو: أنّ القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (١)، وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابًا من الجحيم (٢)، كما وردت به الأخبار، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة، وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر (٣) والتعذيب بعده (٤) ثم المناقشة في الحساب (٥) والافتضاح على ملأ من الأشهاد في القيامة (٦)، ثم بعد ذلك خطر الصراط (٧) وهول الزبانية (٨) ... إلى آخر ما وردت به الأخبار، فلا يزال الشقي مترددًا في جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته، ولا تظنن أن محل الإيمان لا يأكله التراب، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الأجزاء المتفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان، وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية.

---

(١) ضعيف جدًا: حديث «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة». أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب، وتقدم في الأذكار. [الترمذي: ٢٤٦٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٩٤٤، قلت: وعذاب القبر ونعيمه ثابت في أحاديث صحاح منها عند أبي داود: ٤٧٥٣ وانظر صحيح أبي داود].

(٢) حديث «إنه يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم». لم أجد له أصلا.

(٣) صحيح: حديث: سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر. تقدم في قواعد العقائد. [أبو داود: ٤٧٥٣، وانظر صحيح أبي داود].

(٤) صحيح: حديث: عذاب القبر. تقدم فيه. [بنحو الحديث السابق].

(٥) صحيح: حديث: المناقشة في الحساب. تقدم فيه. [بنحو الحديث السابق].

(٦) حديث: الافتضاح على ملأ الأشهاد في القيامة. رواه أحمد والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد جيد «من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا فضحه الله على رؤوس الأشهاد» [أحمد: ٤٧٨٠، وانظر السلسلة الصحيحة: ٣٤٨٠] وفي الصحيحين من حديث ابن عمر «وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم» [البخاري: ٢٤٤١، ومسلم: ٢٧٦٨] والطبراني والعقيلي في الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض «فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة» [انظر ضعيف الجامع: ٣٩٨٦] وهو حديث طويل منكر.

(٧) صحيح: حديث: خطر الصراط. تقدم في قواعد العقائد. [مسلم: ١٨٣ عن أبي سعيد الخدري].

(٨) حديث: هول الزبانية. أخرجه الطبراني من حديث أنس «الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران» [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٥٨٨، وقال الألباني: منكر] قال صاحب الميزان: حديث منكر. وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معضلا في خزنة جهنم: «ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب».

فإن قلت: فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة؟

فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها: أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين:

أحدهما: يتصوّر مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال: كالمبتدع الزاهد فإنّ عاقبته مخطرة جدًّا، وإن كانت أعماله صالحة ولست أعني مذهبًا فأقول إنه بدعة؛ فإنّ بيان ذلك يطول القول فيه، بل أعني بالبدعة: أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه، إما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعوّل وبه يغتر، وإما أخذًا بالتقليد ممن هذا حاله؛ فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلًا، إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادىء سكراته منه، فقد ينكشف به بعض الأمور؛ فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعًا به متيقنًا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص، بل ظن أنّ كل ما اعتقده لا أصل له، إذ لم يكن عنده فرق في إيمانه بالله ورسوله ﷺ وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببًا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها، فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] وبقوله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤] وكما أنه ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت، فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتنكشف له الأمور على ما هي عليه، فيكون مثل هذه الحال سببًا للكشف، ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقدات، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئًا على خلاف ما هو به إما تقليدًا وإما نظرًا بالرأي والمعقول، فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر، بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق، والبله بمعزل عن هذا الخطر، أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانًا مجملًا راسخًا كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالًا ولا صغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة، ولذلك قال ﷺ: «أَكْثَرُ أَهْلِ الجَنَّةِ البُلْهُ»(١).

(١) ضعيف: حديث «أكثر أهل الجنة البله». أخرجه البزار من حديث أنس، وقد تقدم. [انظر ضعيف الجامع: ١٠٩٦].

ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور، وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعًا وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه، ومنعوهم عن الخوض في التأويل؛ لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كئودة ومسالكه وعرة، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض، والقلوب لما ألقي إليها في مبدأ النشأة آلفة وبه متعلقة، والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر، ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة، وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة، فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأي والمعقول مع تفاوت الناس في قرائحهم واختلافهم في طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعي الكمال أو الإحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم، وتأكد ذلك بطول الإلف فيهم، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم، فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرّضوا لما هو خارج عن حدّ طاقتهم، ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظنّ وحسبان، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الإيمان، ويظن أن ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص :٨٨] وينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حَسُنَتْ ... ولم تخفْ سُوءَ ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صَفْوِ الليالي يحدث الكَدرُ

واعلم يقينًا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث، فقد تعرّض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد، والهلاك عليه أغلب.

وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم إما مع الأدلة التي حرّروها في تعصباتهم أو دون الأدلة، فإن كان شاكًا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واثقًا فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص، وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوّة وذلك هو الكبريت الأحمر، وأنى يتيسر، وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة.

وأما السبب الثاني: فهو ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب. ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوي حب الدنيا، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب، فلا يزال يطفيء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعًا ورينًا، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعني حب الله ضعفًا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك.

من حيث إنه من الله، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب، كما أنّ الذي يحب ولده حبًا ضعيفًا إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضًا، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكًا مؤبدًا، والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى؛ فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضًا فهو أبعد عن هذا الخطر، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وهو الداء العضال، وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى، إذ لا يحبه إلا من عرفه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة :24] فإذن كل من فارقته روحه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله وظهور بغض فعل الله بقلبه في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه؟ فيكون موته قدومًا على ما أبغضه وفراقًا لما أحبه، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرًا فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال، وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعًا في لقائه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرّد القدوم فضلًا عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام.

وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار، فلها أيضًا سببان: **أحدهما**: كثرة المعاصي وإن قوي الإيمان، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي، وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته، فإن كان ميله الأكثر إلى

الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت؟ فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبًا عن الله تعالى، فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر، والذي لم يقارف ذنبًا أصلًا فهو بعيد جدًّا عن هذا الخطر، والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جدًّا، ونعرّف هذا بمثال: وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره، حتى إنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهدته في اليقظة، وحتى إن المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة، ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع، ثم لا يخفى أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة، والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه؛ لأنه إنما يظهر في حال النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب، والموت شبيه النوم ولكنه فوقه، ولكن سكرات الموت وما يتقدّمه من الغشية قريب من النوم، فيقتضي ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف، فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضًا مرجح، وكذلك تخالف أيضًا منامات الصالحين منامات الفساق، فتكون غلبة الإلف سبب لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه، فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته، وإن كان أصل الإيمان باقيًا بحيث يرجى له الخلاص منها، وكما أن ما يخطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى، فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها، كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه.

أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلًا آخر، وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحًا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما، وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان، وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبته له، وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين، مثل أن ينتقل من شيء ثان، ومنه إلى شيء ثالث، ثم ينسى الثاني، ولا يكون بين الثالث والأوّل مناسبة، ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأوّل مناسبة، فكذلك لانتقالات الخواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس، وكذلك عند سكرات الموت، فعلى هذا - والعلم عند الله - من كانت الخياطة أكثر أشغاله، فإنك تراه يومىء إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل إصبعه التي لها عادة بالكستبان ويأخذ الإزار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله، ثم يمدّ يده إلى

المقراض، ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر من الشر عدّة وذخيرة لحالة سكرات الموت، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه، ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول: خمسة ستة أربعة، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت.

وقال بعض العارفين من السلف: العرش جوهرة تتلألأ نورًا، فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها، فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش؛ فربما يرى نفسه على صورة معصية، وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف، وما ذكره صحيح، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك، فإن النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوّة، فإذا رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولاً كليًا وإن كان لطول الإلف فيه تأثير، فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة؛ لأنه لو أراد الإنسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة، حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال: حكيت لشيخي أبي القاسم الكرماني منامًا لي وقلت: رأيتك قلت لي كذا. فقلت: لم ذاك؟ قال: فهجرني شهرًا ولم يكلمني وقال: لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال؛ إذ قلما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه؛ فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة، وقد ظهر لك بهذا أنّ الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية؛ فإن كنت تعلم أنّ ذلك محال أو عسير فلا بدّ وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك، وقد عرفت بهذا أنّ أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح، وإن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جدًّا، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول: إني لا

أعجب ممن هلك كيف هلك، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا؟! ولذلك قال حامد اللفاف: إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا: كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا؟! وكان الثوري يومًا يبكي فقيل له: علام تبكي؟ فقال: بكينا على الذنوب زمانًا، فالآن نبكي على الإسلام.

وبالجملة، من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشدّ اضطرابًا من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم التطامًا من أمواج البحر، وإنما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إلاَّ فُوَاقُ نَاقَةٍ فَيُخْتَمُ لَهُ بِمَا سَبَقَ بِهِ الكِتَابُ»(١)، ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاوة، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف. وقال سهل: رأيت كأني أدخلت الجنة، فرأيت ثلاثمائة نبي فسألتهم: ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا؟ قالوا: سوء الخاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطًا عليها، وكانت موت الفجأة مكروهًا، أما الموت فجأة فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة. وأما الشهادة؛ فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب، إذ لا يهجم على صف القتال موطنًا نفسه على الموت إلا حبًا لله وطلبًا لمرضاته وبائعًا دنياه بآخرته وراضيًا بالبيع الذي بايعه الله به، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب؛ ومجرّد حب العوض المطلوب في قلبه، ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة، هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة، فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار(٢).

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها، فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر

(١) حديث «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة». تقدم.

(٢) صحيح: حديث «المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة». متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري «إن رجلا قال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»، وفي رواية: «الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء»، وفي رواية «غضبا». [البخاري: ٢٨١٠، ٧٤٥٨، ومسلم: ١٩٠٤ عن أبي موسى].

فيها قلبك، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك، فإن ذلك أيضًا يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك، وإياك أن تسوّف وتقول: سأستعدّ لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك، هذا ما دمت في يقظتك، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك، لست أقول على لسانك فإنّ حركة اللسان بمجرّدها ضعيفة الأثر.

واعلم قطعًا أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبًا عليه، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالبًا قبل النوم، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة، فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه، وتحقق قطعًا ويقينًا أنّ الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك، وآمن بهذا تصديقًا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلًا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة، وراقب أنفاسك ولحظاتك، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم، فكيف إذا لم تفعل؟ والناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم.

واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك، فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك، إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه؛ فهما ضرورتان في الجبلة، وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك.

واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك، وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوي على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك، فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور: من مأكولك في وقته وقدره وجنسه، أما الوقت فأقله أن يكتفى في اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم، وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن، وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق، فإن قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مئونة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله، فإنّ الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات، وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحرّ والبرد وستر العورة، فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة، وقس بهذا ما تدفع به الحرّ والبرد عن بدنك؛ فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم

تكتف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده.

بل كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب، وكذلك المسكن أن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفًا والأرض مستقرًا؛ فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد، فإن طلبت مسكنًا خاصًا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك، وعمرك هو بضاعتك، ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلًا بينك وبين الأبصار، ومن السقف سوى كونه دافعًا للأمطار، فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورّطت في مهواة يبعد رقيك منها، وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزوّد لآخرتك والاستعداد لخاتمتك، وإن جاوزت حدّ الضرورة إلى أودية الأماني تشعبت همومك ولم يبال الله في أي واد أهلكك؛ فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك.

واعلم أنّ متسع التدبير والتزوّد والاحتياط هذا العمر القصير، فإذا دفعته يومًا بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذا لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فإنا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك، فإنك تتحقق أنّ عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك، فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم: لم اشتدّ بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيًا عليه وبعضهم يخرّ ميتًا إلى الأرض، ولا غرو، إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فإنّ قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشدّ قسوة ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف:

روت عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفًا من عذاب الله (١).

وقرأ آية في سورة الواقعة فصعق (٢)، وقال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] ورأى

(١) صحيح: حديث عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم. متفق عليه من حديث عائشة. [البخاري: ٤٨٢٩، ومسلم: ٨٩٩].

(٢) حديث: قرأ في سورة الحاقة فصعق. المعروف فيما يروى من هذه القصة أنه قرئ عنده ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢-١٣] فصعق، كما رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب مرسلًا، وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم.

رسول الله ﷺ صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق [١]. وروي أنه عليه السلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل [٢]. وقال ﷺ: «ما جَاءَنِي جِبْرِيلَ قَطُّ إلاَّ وَهُوَ يُرْعَدُ فَرَقًا مِنَ الجَبَّارِ» [٣]، وقيل: لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان، فأوحى الله إليهما: مالكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا: يا رب، ما نأمن مكرك؛ فقال الله تعالى: هكذا كونا، لا تأمنا مكري.

وعن محمد بن المنكدر قال: لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق بنو آدم عادت.

وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل: «مَا لِي لا أَرَى مِيكَائِيلَ يَضْحَكُ؟» فقال جبريل: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار [٤].

ويقال: إنّ لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال: «يا ابْنَ عُمَرَ، مَا لَكَ لا تَأْكُلُ؟» فقلت: يا رسول الله لا أشتهيه، فقال: «لكِنِّي أَشْتَهِيهِ وَهذَا صُبْحُ رَابِعَةٍ لَمْ أَذُقْ طَعَامًا وَلَمْ أَجِدْهُ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لأَعْطَانِي مُلْكَ قَيْصَرَ وَكسْرَى فَكَيْفَ بِكَ يا ابْنَ عُمَرَ إذا بقِيتَ فِي قَوْمٍ يَخْبَئُونَ رِزْقَ سَنَتِهِمْ وَيَضْعُفُ اليَقِينُ فِي قُلُوبِهِمْ؟» قال فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠] قال فقال رسول الله

---

(١) حديث: إنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق. أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند جيد: «سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته؟ فقال: ادع ربك»، فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير، فلما رآه فصعق. ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلا بلفظ: فغشي عليه. وفي الصحيحين عن عائشة: «رأى جبريل في صورته مرتين» [البخاري: ٤٨٥٥، ومسلم: ١٧٧] ولهما عن ابن مسعود: «رأى جبريل له ستمائة جناح». [البخاري: ٣٢٣٢، ومسلم: ١٧٤]

(٢) صحيح: حديث: كان إذا دخل في الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل. رواه أبو داود والترمذي في الشمائل، والنسائي من حديث عبد الله بن الشخير، وتقدم في كتاب السماع. [أبو داود: ٩٠٤، والنسائي: ١٢١٤، وانظر صحيح الترغيب: ٥٤٤].

(٣) حديث «ما جاءني جبريل قط إلا وهو ترتعد فرائسه من الجبار». لم أجد هذا اللفظ. وروى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس قال: إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائصه فرقا من عذاب الله... الحديث» وفيه زميل بن سماك الحنفي يحتاج إلى معرفته.

(٤) حسن لغيره: حديث أنس أنه ﷺ قال لجبريل «ما لي لا أرى ميكائيل يضحك» فقال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار. رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد، ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسلا، وورد ذلك أيضا في حق إسرافيل. رواه البيهقي في الشعب، وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين. [أحمد: ١٢٩٣٠، وانظر صحيح الترهيب: ٣٦٦٤، ولم أره في حق إسرافيل وجبريل].

ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْكُمْ بِكَنْزِ الْمَالِ وَلا بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ، مَنْ كَنَزَ دَنَانِيرَ يُرِيدُ بِهَا حَيَاةً فَانِيَةً فَإِنَّ الْحَيَاةَ بِيَدِ اللَّهِ، أَلاَ وَإِنِّي لا أَكْنِزُ دِينارًا وَلا دِرْهَمًا وَلا أَخْبَأُ رِزْقًا لِغَدٍ» (١).

وقال أبو الدرداء: كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفًا من ربه.

وقال مجاهد: بكى داود عليه السلام أربعين يومًا ساجدًا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه، فنودي: يا داود أجائع أنت فتطعم؟ أم ظمآن فتسقى؟ أم عار فتكسى؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حرّ جوفه، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته، قال: وكان يؤتى بالقدح ثلثاه فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه. ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل، وكان يقول في مناجاته: إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتدّت إلي روحي، سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني، فبؤسًا للقانطين من رحمتك.

وقال الفضيل: بلغني أنّ داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخًا واضعًا يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال: ارجعوا لا أريدكم، إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا البكاء، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء. وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول، دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتغال الحشا وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وقال عبد العزيز بن عمر: لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال: إلهي بح صوتي في صفاء أصوات الصديقين. وروي أنه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتدّ غمه، فقال: يا رب أما ترحم بكائي؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، نسيت ذنبك وذكرت بكاءك، فقال: إلهي وسيدي كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلني الطير على رأسي وأنست الوحوش إلى محرابي، إلهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية، يا داود: آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري، وشكا لي الوحدة فزوجته حواء أمتي وأسكنته جنتي، عصاني فطردته عن جواري عريانًا ذليلًا، يا داود اسمع مني والحق

(١) ضعيف جدًا: حديث ابن عمر: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل». أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر، قال البيهقي: هذا إسناد مجهول، والجراح بن منهال ضعيف. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٠١].

أقول: أطعتنا فأطعناك، وسألتنا فأعطيناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك.

وقال يحيى بن أبي كثير: بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعًا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية، فأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقري البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع، فينادي فيها: ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت، قال: فتأتي الوحوش من البراري والآكام وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال وتأتي الطير من الأوكار وتأتي العذارى من خدورهن، وتجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه.

فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس، ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة، فإذا رأى سلمان كثرة الموتى قال: يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام، فيأخذ في الدعاء، فبينا هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل: يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك قال: فيخرّ داود مغشيًا عليه، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر مناديًا ينادي: ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول: يا من قتله ذكر النار، يا من قتله خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول: يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجي ربه، فيأتي سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول: يا أبتاه تقوّ بهذا على ما تريد، فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم.

وقال يزيد الرقاشي: خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوّفهم، فخرج في أربعين ألفًا فمات منهم ثلاثون ألفًا وما رجع إلا في عشرة آلاف، قال: وكان له جاريتان اتخذهما، حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف، ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدّوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس، فهاله ذلك، فرجع إلى أبويه فمرّ بصبيان يلعبون، فقالوا له: يا يحيى، هلم بنا لنلعب فقال: إني لم

أخلق للعب، قال: فأتى أبويه فسألهما أن يدرعاه الشعر ففعلا، فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهارًا ويصبح فيه ليلًا، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة، فخرج ولزم أطواد الأرض وَغِيرانَ الشعاب، فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أنقع رجليه في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول: وعزتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك، فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه، فمدح بالبر، فرده أبواه إلى بيت المقدس، فكان إذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر، ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه، فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خدّيه وبدت أضراسه للناظرين، فقالت له أمه: يا بني لو أذنت لي أن أتخذ لك شيئًا تواري به أضراسك عن الناظرين فأذن لها، فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خدّيه، فكان إذا قام يصلي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه فعصرتهما، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال: اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين، فقال له زكريا يومًا: يا بني إنما سألت ربي أن يهبك لي لتقرّ عيناي بك، فقال يحيى، يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء. فقال زكريا عليه السلام: يا بني فابك.

وقال المسيح عليه السلام: معاشر الحواريين، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا. بحق أقول لكم: إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل.

وقيل: كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلًا في ميل، فيأتيه جبريل فيقول له: ربك يقرئك السلام ويقول: هل رأيت خليلًا يخاف خليله؟ فيقول: يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي، فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقرّبين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف:

روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر: ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشرًا.

وقال أبو ذرّ رضي الله عنه: وددت لو أني شجرة تعضد، وكذلك قال طلحة.

وقال عثمان رضي الله عنه: وددت أني إذا مت لم أبعث.

وقالت عائشة رضي الله عنها: وددت أني كنت نسيًا منسيًا.

وروي أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيًا عليه، فكان يعاد أيامًا. وأخذ يومًا تبنة من الأرض فقال: يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أك شيئًا مذكورًا، يا ليتني كنت نسيًا منسيًا، يا ليتني لم تلدني أمي. وكان في وجه عمر رضي الله عنه

خطان أسودان من الدموع وقال رضي الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. ولما قرأ عمر رضي الله عنه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[التكوير:١] وانتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[التكوير:١٠] خرّ مغشيًا عليه، ومرّ يومًا بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة: ﴿وَٱلطُّورِ﴾[الطور:١] فوقف يستمع، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[الطور:٧-٨] نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زمانًا، ورجع إلى منزله فمرض شهرًا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه.

وقال علي كرّم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده: لقد رأيت أصحاب محمد فلم أر اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثًا صفرًا غبرًا بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدًا وقيامًا يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم، والله فكأني بالقوم باتوا غافلين، ثم قام. فما رئي بعد ذلك ضاحكًا حتى ضربه ابن ملجم.

وقال عمران بن حصين: وددت أن أكون رمادًا تنسفني الرياح في يوم عاصف.

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: وددت أني كبش فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقي.

وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟.

وقال موسى بن مسعود: كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه.

وقرأ مضر القارىء يومًا: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ...﴾[الجاثية: ٢٩] الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه، فلما أفاق قال: وعزتك لاعصيتك جهدي أبدًا، فأعني بتوفيقك على طاعتك.

وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيئًا من القرآن: لشدّة خوفه، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أيامًا، حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[مريم:٨٥-٨٦] فقال أنا من المجرمين ولست من المتقين، أعد علي القول أيها القارىء، فأعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة.

وقرىء عند يحيى البكاء: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[الأنعام:٣٠] فصاح صيحة مكث منها مريضًا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة.

وقال مالك بن دينار: بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة

وهي تقول: يا رب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها يا رب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار؟ وتبكي؛ فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر، قال مالك: فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخًا أقول: ثكلت مالكًا أمه.

وروي أن الفضيل رئي يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأتاه منك وإن غفرت، ثم انقلب مع الناس.

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين؟ فقال: قلوبهم بالخوف فرحة، وأعينهم باكية، يقولون: كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدي الله ربنا وموقفنا.

ومرّ الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس؛ فقال له الحسن: يا فتى، هل مررت بالصراط؟ قال: لا. قال: فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ قال: لا. قال: فما هذا الضحك؟ قال فما رؤي ذلك الفتى بعدها ضاحكًا.

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزًا على قدميه، فيقال له: لو اطمأننت؟ فيقول: تلك جلسة الآمن، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى.

وقال عمر بن عبد العزيز: إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى.

وقال مالك بن دينار: لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده.

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي: ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه.

وقال السري: إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسودّ وجهي. وقال أبو حفص: منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلي نظر السخط وأعمالي تدل على ذلك.

وخرج ابن المبارك يومًا على أصحابه فقال: إني اجترأت البارحة على الله سألته الجنة.

وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها: يا بني إني أعرفك صغيرًا وكبيرًا طيبًا، وكأنك أحدثت حدثًا موبقًا لما أراك تصنع في ليلك ونهارك فقال: يا أماه، ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع علي وأنا على بعض ذنوبي فمقتني وقال: وعزتي وجلالي لا غفرت لك.

وقال الفضيل: إني لا أغبط نبيًا مرسلًا، ولا ملكًا مقربًا ولا عبدًا صالحًا، أليس هؤلاء

يعاينون يوم القيامة، إنما أغبط من لم يخلق.

وروي: أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار، فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت، فجاء النبي ﷺ فدخل عليه واعتنقه فخرّ ميتًا، فقال ﷺ: «جهّزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فتت كبده» (١).

وروي عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول: يا ليت أمي لم تلدني، فقالت له أمه: يا ميسرة، إن الله تعالى قد أحسن إليك. هداك إلى الإسلام، قال: أجل ولكن الله قد بيّن لنا أنا واردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها.

وقيل لفرقد السبخي: أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل فقال: بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح، فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعًا في يوم واحد.

وكان عطاء السلمي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدًا إنما كان يسأل الله العفو. وقيل له في مرضه: ألا تشتهي شيئًا؟ فقال: إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعًا للشهوة: إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة. وأنه رفع رأسه يومًا ففزع فسقط فانفتق في بطنه فتق، وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ. وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال: هذا من أجلي يصيبهم، لو مات عطاء لاستراح الناس. وقال عطاء: خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورّمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رءوسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين، فبينما هم يمشون إذ مرّ أحدهم بمكان فخرّ مغشيًا عليه، فجلس أصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقًا، فجاءوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره؟ فقال: إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان.

وقال صالح المري: قرأت على رجل من المتعبدين: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦] فصعق ثم أفاق فقال: زدني يا صالح فإني أجد غمًّا، فقرأت: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] فخرّ ميتًا.

وروي أن زرارة بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] خرّ مغشيًا عليه، فحمل ميتًا.

---

(١) ضعيف: حديث: أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار». أخرجه ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة، والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٦٦].

ودخل يزيد الرقاشيّ على عمر بن عبد العزيز فقال: عظني يا يزيد: فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لست أوّل خليفة يموت، فبكى ثم قال: زدني، قال: يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت، فبكى ثم قال: زدني يا يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل، فخرّ مغشيًّا عليه.

وقال ميمون بن مهران: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر :٤٣] صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربًا ثلاثة أيام لا يقدرون عليه (١).

ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول: يا ابناه، ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولًا؟ فصعق داود وسقط مكانه.

وقيل: مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال: هذا رجل قطع الخوف كبده، ثم جاء وجس عروقه ثم قال: ما علمت أن في الملة الحنيفية مثله.

وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: سألت الله عز وجل أن يفتح عليّ بابًا من الخوف، ففتح فخفت على عقلي؛ فقلت: يا رب على قدر ما أطيق، فسكن قلبي.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلبه، وكأنه أشار إلى معنى قوله : «لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» (٢).

وقال العنبري: اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوّة وهو يبكي ولحيته ترجف، فقال: عليكم بالقرآن، عليكم بالصلاة، ويحكم ليس هذا زمان حديث، إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق، إنما هذا زمان: احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر.

ورئي الفضيل يومًا وهو يمشي، فقيل له: إلى أين؟ قال: لا أدري، وكان يمشي والهًا من الخوف.

وقال ذرّ بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب، فقال: يا بني ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة. وحكي أنّ قومًا وقفوا بعابد وهو يبكي فقالوا: ما الذي يبكيك يرحمك الله؟ قال: قرحة يجدها الخائفون في قلوبهم قالوا: وما هي؟ قال: روعة النداء بالعرض على الله عز وجل.

وكان الخوّاص يبكي ويقول في مناجاته: قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتقني.

---

(١) حديث ميمون بن مهران: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣] صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدرون عليه. لم أقف له على أصل.

(٢) صحيح : حديث «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا». تقدم في قواعد العقائد. [البخاري: ١٠٤٤، ومسلم: ٩٠١ عن عائشة].

وقال صالح المري: قدم علينا ابن السماك مرة فقال: أرني شيئًا من بعض عجائب عبادكم، فذهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له، فاستأذنا عليه، فإذا رجل يعمل خوصًا، فقرأت عليه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١-٧٢] فشهق الرجل شهقة وخرّ مغشيًّا عليه، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله، وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخرّ مغشيًّا عليه، فذهبنا واستأذنا على ثالث، فقال: ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا، فقرأت: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤] فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط في دمه حتى يبس. فتركناه على حاله وخرجنا فأدرته على ستة أنفس كل تخرج من عنده وتتركه مغشيًّا عليه. ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا، فإذا امرأة من داخل الخص تقول: ادخلوا، فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في مصلاه، فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا، فقلت بصوت عال: ألا إنّ للخلق غدًا مقامًا، فقال الشيخ: بين يدي من ويحك ثم بقي مبهوتًا فاتحًا فاه شاخصًا بصره يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت، فقالت امرأته: اخرجوا فإنكم لا تنتفعون به الساعة، فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم؛ فإذا ثلاثة قد أفاقوا، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى. وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتًا متحيرًا لا يؤدي فرضًا فلما كان بعد ثلاث عقل.

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال، وكان قد حلف أن لا يضحك أبدًا ولا ينام مضطجعًا ولا يأكل سمنًا أبدًا، فما رؤي ضاحكًا ولا مضطجعًا ولا أكل سمنًا حتى مات رحمه الله.

وقال الحجاج لسعيد بن جبير: بلغني أنك لم تضحك قط فقال: كيف أضحك وجهنم قد سعرت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدّت؟!.

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد كيف أصبحت؟ قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألني عن حالي؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة؟ على أي حال يكون؟ قال الرجل: على حال شديدة. قال الحسن: حالي أشدّ من حالهم.

ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها: فرقدت فاستبكت في منامها، ثم انتبهت فقالت: يا أمير المؤمنين، إني والله رأيت عجبًا، قال، وما ذلك؟ قالت: رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جيء بالصراط ووضع على متنها، فقال: هيه، قالت: فجيء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم فقال عمر: هيه، قالت: ثم جيء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم،

فقال عمر: هيه قالت: ثم جيء بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك، فقال عمر: هيه قالت: ثم جيء بك والله يا أمير المؤمنين: فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خرّ مغشيًا عليه، فقامت إليه فجعلت تنادي في أذنه: يا أمير المؤمنين، إني رأيتك والله قد نجوت إني رأيتك والله قد نجوت قال: وهي تنادي وهو يصيح ويفحص برجليه. ويحكى أنّ أويسًا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه، فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقًا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إنّ المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه.

وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلى كما تتقلى الحبة في المقلى، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول: طير ذكر جهنم نوم الخائفين.

وقال الحسن البصري رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، يا ليتني كنت ذاك الرجل، وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة. وروي أنه ما ضحك أربعين سنة؛ قال: وكنت إذا رأيته قاعدًا كأنه أسير قد قدّم لتضرب عنقه، وإذا تكلم كأنه يعاني الآخرة فيخبر عن مشاهدتها، فإذا سكت كأنّ النار تسعر بين عينيه. وعوتب في شدّة حزنه وخوفه فقال: ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع فيّ على بعض ما يكره فمقتني فقال: اذهب فلا غفرت لك؛ فأنا أعمل في غير معتمل.

وعن ابن السماك قال: وعظت يومًا في مجلس، فقام شاب من القوم فقال: يا أبا العباس، لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لا نسمع غيرها. قلت: وما هي رحمك الله؟ قال قولك: لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار. ثم غاب عني ففقدته في المجلس الآخر فلم أره، فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد، فأتيته أعوده فقلت: يا أخي ما الذي أرى بك؟ فقال: يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار.

قال: ثم مات رحمه الله فرأيته في المنام فقلت: يا أخي ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة. قلت: بماذا؟ قال: بالكلمة.

فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين، ونحن أجدر بالخوف منهم، لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإلا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا، بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدّتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا، فلا قرب الرحيل ينبهنا، ولا كثرة الذنوب تحرّكنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوّفنا، ولا خطر الخاتمة يزعجنا، فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا، إن كان تحريك اللسان بمجرّد السؤال دون الاستعداد ينفعنا.

ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا، وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وشهرنا، ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول: اللهم ارزقنا، ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا، والذي إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩] ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦] ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا، فما هذه إلا محنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجيرنا، فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا، بل نسأله أن يشوّق إلى التوبة سرائر قلوبنا، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل، إذا سمعنا الوعظ بكينا، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان أعظم من هذا؛ فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله.

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فإنّ القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغني. ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني ــ وكان من خيار العباد ــ أنه رآه على باب بيت المقدس واقفًا كهيئة المحزون من شدّة الوله ما يكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء، فقال عيسى: لما رأيته هالني منظره، فقلت: أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك، فقال: يا أخي بماذا أوصيك، إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فتفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل، فهو في المخافة ليله وإن أمن المغترون، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون. ثم ولى وتركني فقبلت: لو زدتني شيئًا عسى أن ينفعني؟ فقال الظمآن يجزيه من الماء أيسره، وقد صدق فإنّ القلب الصافي يحرّكه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ، وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع الهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق؛ فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحونًا بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها، وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة، إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها؛ فإذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك وإنما هي في صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها، فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل، وإلا فوطّن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلًا عن ظاهر بشرتك، والسلام.

كتاب الفقر والزهد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تسبح له الرمال، وتسجد له الظلال، وتتدكدك من هيبته الجبال، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدوّ والآصال، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال، ما استقبح دون مبادي إشراقه كل حسن وجمال، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال، وهي متلفلفة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال، وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال، ثم لا تجتزىء معهم بالخلف في مواعيد الوصال، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال، زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل.

أما بعد: فإنّ الدنيا عدوّة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل، وبمكرها زل من زل، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها أم الطاعات وأس القربات. وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات، فلا مطمع في النجاة بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرًا، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدًا، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة. ونحن الآن نذكر حقيقة الفقير والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه، ونبدأ بذكر الفقر فنقول:

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقير مطلقًا، وبيان خصوص فضيلة الفقراء، وبيان فضيلة الفقر على الغني، وبيان أدب الفقير في فقره، وبيان أدبه في قبوله العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغني المحرّم للسؤال، وبيان أحوال السائلين، والله الموفق بلطفه وكرمه.

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه:

اعلم أنّ الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرًا، وإن كان المحتاج إليه موجودًا مقدورًا عليه لم يكن المحتاج فقيرًا، وإذا فهمت هذا لم تشك في أنّ كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وَجُوده، فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغني المطلق، ولا يتصوّر أن يكون مثل الموجود إلا واحدًا، فليس في الوجود إلا غني واحد، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدّوا وجودهم بالدوام، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨] هذا معنى الفقر مطلقًا، ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص، وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر؛ لأنّ حاجاته لا حصر لها. ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط، فنقول: كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيرًا بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجًا إليه في حقه، ثم يتصوّر أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر. ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها:

الحالة الأولى: وهي العليا. أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضًا له ومحترزًا من شره وشغله وهو الزهد، واسم صاحبه الزاهد.

الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيًا.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه صفوًا عفوًا أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعًا، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة.

الرابعة: أن يكون تركه الطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلًا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه، أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص.

الخامسة: أن يكون ما فقده من المال مضطرًا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرًا كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة، فهذه خمسة أحوال: أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصوّر ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه، ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده؛ فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ، وإن فقده فكذلك، بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذ

أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرّقتها من يومها فقالت خادمتها: ما استطعت فيما فرّقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعًا، وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد، فإنّ من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإنما هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقائه، فهو إذن فقير من وجه، وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده أيضًا، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه. وليس فاقدًا له ليحتاج إلى الدخول في يديه فغناه إلى العموم أميل، فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب، وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان، ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنيًا بل مستغنيًا، ليبقى الغني اسمًا لمن له الغنى المطلق عن كل شيء. وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجودًا أو عدمًا فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه، فإنّ القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغني عنه حرّ، والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق، والقلوب متقلبة بين الرق والحرّية في أوقات متقاربة؛ لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن، فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقًا عليه مع هذا الكمال إلا مجازًا.

واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقرّبين، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانًا، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا، كما أن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى يكون البعد حجابًا، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجابًا بينك وبينه، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره، وأنت لا تزال مشغولاً بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوبًا عنه، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى، والمشغول ببغض نفسه أيضًا مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله، مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه، ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه، فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب

لبغضه شرك فيه ونقص، ولكن أحدهما أخف من الآخر، بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضًا وحبًا، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضًا بغض وحب في حالة واحدة؛ فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب، إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود؛ فالكمال له مرتقب؛ لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها، ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها، فهما سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها، وليس محمودًا بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها، فلا ينبغي أن تظنّ أن بغض الدنيا مقصود في عينه، بل الدنيا عائق عن الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة، بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة؛ فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج، فإذن قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني، بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك المال والماء، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر، ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولًا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير، بل تقول: أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد، فهكذا ينبغي أن يكون المال؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما دمت حيًا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء، على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى.

قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: اذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدوّ يوسوس لي أن اللص قد أخذها، قال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية: قد زاده في الدنيا ما غلبه من أخذها، فبين أنّ كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان.

فإن قلت: فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من الماء ونفروا منه كل النفار؟ فأقول: كما

هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ففرّوا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونه مع أنفسهم، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه، لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها (١)، إذ كان يستوي عندهم المال والماء والذهب والحجر، وما نقل عنهم من امتناع فإما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات، وهذا حال الضعفاء، فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال؛ وهذا حكم جميع الخلق؛ لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء، وإما أن ينقل عن قوي بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك؛ إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا، كما يفرّ الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون، والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء، فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص. وأما المضطرّ فيتصوّر في حقه أيضًا الزهد والرضى والقناعة ودرجة تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال، واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة. أما تسمية المستغني فقيرًا فلا وجه لها بهذا المعنى؛ بل إن سمي فقيرًا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجًا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرّ بها؛ فإنه أحق باسم العبد من الغافلين. وإن كان اسم العبد عامًّا للخلق فكذلك اسم الفقير عام، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير، فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين، وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الفَقْرِ» (٢)، وقوله عليه السلام: «كَادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفرًا» (٣)، لا يناقض قوله ﷺ: «أَحْيِنِي

---

(١) صحيح: حديث: إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف. وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تعليقا مجزوما به من حديث أنس: أتى النبي ﷺ بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فقلما كان يرى أحدا إلا أعطاه. ووصله عمر بن محمد البحيري في صحيحه من هذا الوجه. وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف: «قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدومه... الحديث» [البخاري: ٣١٥٨، ومسلم: ٢٩٦١]، ولهما من حديث جابر: «لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا» [البخاري: ٢٢٩٦، ومسلم: ٢٣١٤]، فلم يقدم حتى توفي رسول الله ﷺ، فأمر أبو بكر مناديا فنادى: من كان له على رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنا، فقلت: إن النبي ﷺ وعدني، فحثا لي ثلاثا. [أخرجه البخاري تعليقاً عقب حديث: ٤٢١، ولم أره موصولاً].

(٢) صحيح: حديث «أعوذ بك من الفقر». تقدم في الأذكار والدعوات. [البخاري: ٦٣٦٨، ومسلم: ٥٨٩ عن عائشة].

(٣) ضعيف: حديث «كاد الفقر أن يكون كفرا». تقدم في ذم الحسد. [انظر ضعيف الجامع: ٤١٤٨].

مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مسكِينًا»[(١)]، إذ فقر المضطرّ هو الذي استعاذ منه، والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء.

بيان فضيلة الفقر مطلقًا:

أما من الآيات: فيدل عليه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر :٨]الآية. وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة :٢٧٣]ساق الكلام في معرض المدح، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر.

وأما الأخبار في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى: روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟» فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله من نفسه وماله. فقال: «نعم الرجل هذا وليس به» قالوا: فمن خير الناس يا رسول الله؟ قال: «فَقِيرٌ يُعْطِي جُهْدَهُ»[(٢)]، وقال ﷺ لبلال: «الْقَ اللَّهَ فَقِيرًا وَلا تَلْقَهُ غَنِيًّا»[(٣)] وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الفَقِيرَ المُتَعَفِّفَ أَبَا العِيالِ»[(٤)]، وفي الخبر المشهور: «يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ»[(٥)]، وفي حديث آخر «بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا»[(٦)]، أي أربعين سنة، فيكون المراد به تقدير تقدّم الفقير الحريص على الغني الحريص، والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدّم الفقير الزاهد على الغني الراغب، وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرّفك بالضرورة تفاوتًا بين الفقراء في درجاتهم، وكأن الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة

---

(١) **حسن لغيره**: حديث «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا». رواه الترمذي من حديث أنس وحسنه، وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٥٢، وابن ماجه: ٤١٢٦، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٩٢].

(٢) **موضوع**: حديث ابن عمر أنه ﷺ قال لأصحابه: أي الناس خير؟ فقالوا: موسر من المال. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصرا على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له. [انظر السلسلة الضعيفة: ٣٥٦٨].

(٣) **ضعيف**: حديث: قال لبلال «الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا». أخرجه الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال. ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلفظ «مت فقيرا ولا تمت غنيا» وكلاهما ضعيف. [انظر ضعيف الترغيب: ٥٤٣].

(٤) **ضعيف**: حديث «إن يحب الفقير المتعفف أبا العيال». أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين، وقد تقدم. [ابن ماجه: ٤١٢١، وانظر السلسلة الضعيفة: ٥١].

(٥) **صحيح**: حديث «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام». أخرجه الترمذي من حدث أبي هريرة وقال: حسن صحيح وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٥٤، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٨٩].

(٦) **صحيح**: حديث: دخولهم قبلهم بأربعين خريفا. أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، إلا أنه قال: فقراء المهاجرين، والترمذي من حديث جابر وأنس. [مسلم: ٢٩٧٩، والترمذي: ٢٣٥٥، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٨٦].

من الفقير الزاهد، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة، ولا تظنن أن تقدير رسول الله ﷺ يجري على لسانه جزافًا وبالاتفاق، بل لا يستنطق إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وهذا كقوله ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ» (١)، فإنه تقدير تحقيق لا محالة، لكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين، فأما بالتحقيق فلا، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ﷺ ويفارق به غيره، وهو يختص بأنواع من الخواص:

أحدها: أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة، لا كما يعلمه غيره بل مخالفًا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف.

والثاني: أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعًا من فعل الله تعالى.

والثالث: أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات.

والرابع: أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب. فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين، ويمكننا أيضًا أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءًا واحدًا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندري تحقيقًا أنه الذي أراده رسول الله ﷺ أم لا، وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها، وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير، فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق، فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلًا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به، والغرض التنبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله ﷺ على سبيل الاتفاق، وحاشا منصب النبوّة عن ذلك ولنرجع إلى نقل الأخبار فقد قال ﷺ أيضًا: «خَيْرُ هذِهِ الأُمَّةِ فُقَرَاؤُهَا وَأَسْرَعُها تَضَجُّعًا فِي الجَنَّةِ

---

(١) صحيح: حديث «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة». أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد، ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ «رؤيا المؤمن جزء... الحديث» وقد تقدم. [البخاري: ٦٩٨٩ عن أبي سعيد، والبخاري: ٦٩٨٨، ومسلم: ٢٢٦٣ عن أبي هريرة، والبخاري: ٦٩٨٣، ومسلم: ٢٢٦٤ عن أنس، والبخاري: ٦٩٨٧، ومسلم: ٢٢٦٤ عن عبادة بن الصامت].

ضُعَفَاؤُهَا» (١)، وقال ﷺ: «إنَّ لِي حِرْفَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ فَمَنْ أحبهما فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي: الفَقْرُ وَالجِهَادُ» (٢)، وروي أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد. إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: «أَتُحِبُّ أَنْ أَجْعَلَ هذِهِ الجِبَالَ ذَهَبًا» (٣) وتكون معك أينما كنت، فأطرق رسول الله ﷺ ثم قال: «يَا جِبْرِيلُ، إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَه» فقال له جبريل: يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت.

وروي أن المسيح مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة، فأيقظه وقال: يا نائم قم فاذكر الله تعالى، فقال ما تريد مني؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها، فقال له قم إذن يا حبيبي.

ومر موسى برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة، فقال: يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها.

وعن أبي رافع أنه قال: ورد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال: «قُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ أَسْلِفْنِي أَوْ بِعْنِي دَقِيقًا إِلَى هِلالِ رَجَب» قال فأتيته فقال: لا والله إلا برهن، فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال: «أَمَا واللّهِ إنِّي لأَمِينٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي أَهْلِ الأَرْضِ وَلَوْ بَاعَنِي أَوْ أَسْلَفَنِي لأَدَّيْتُ إِلَيْهِ، اذْهَبْ بِدِرْعِي هذَا إِلَيْهِ فَارْهَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجْتُ نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه :١٣١] (٤)» الآية، وهذه الآية تعزية لرسول الله ﷺ عن الدنيا، وقال ﷺ: «الفَقْرُ أَزْيَنُ بِالمُؤْمِنِ مِنَ العِذَارِ الحَسَنِ عَلَى خَدِّ الفَرَسِ» (٥)، وقال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جِسْمِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قوتُ يَوْمِهِ؛ فَكَأَنَّمَا حيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا» (٦).

---

(١) لا أصل له: حديث «خير الأمة فقراؤها، وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها». لم أجد له أصلا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٦٧].

(٢) لا أصل له: حديث «إن لي حرفتين اثنتين». لم أجد له أصلا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٦٦].

(٣) ضعيف: حديث: أن جبريل نزل فقال: إن الله يقرأ عليك السلام ويقول: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا. هذا ملفق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما» [الترمذي: ٢٣٤٧، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٦٥] الحديث وقال. حسن ولأحمد من حديث عائشة «الدنيا دار من لا دار له... الحديث» [أحمد: ٢٣٨٩٨، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٨٤] وقد تقدم في ذم الدنيا.

(٤) حديث أبي رافع: ورد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر. أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

(٥) ضعيف: حديث «الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس». رواه الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم، رواه ابن عدي في الكامل هكذا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٦٤].

(٦) حسن لغيره: حديث «من أصبح منكم معافى في جسمه». أخرجه الترمذي وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٤٦،

وقال كعب الأحبار: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلًا فقل مرحبًا بشعار الصالحين.

وقال عطاء الخراساني: مر نبي من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتانًا، فقال: بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء، ثم مرَّ بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها. فقال النبي: يا رب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك، فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال: رضيت يا رب.

وقال نبينا ﷺ: «اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الأَغْنِيَاءَ وَالنِّسَاءَ» وفي لفظ آخر: «فَقُلْتَ أَيْنَ الأَغْنِيَاءُ؟ فَقِيلَ حَبَسَهُمُ الجَدّ» وفي حديث آخر: «فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءَ فَقُلْتُ مَا شَأْنُهُنَّ؟ فقيل شَغَلَهُنَّ الأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالزَّعْفَرَانُ» (١)، وقال ﷺ: «تُحْفَةُ المُؤْمِنِ في الدُّنْيَا الفَقْرُ» (٢)، وفي الخبر: «آخِرُ الأَنْبِيَاءِ دُخُولًا الجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِما السَّلامُ لِمَكَانِ مُلْكِهِ وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولًا الجَنَّةَ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ لأَجْلِ غِنَاهُ» (٣)، وفي حديث آخر: «رَأَيْتُهُ يَدْخُلُ الجَنَّةَ زَحْفًا» (٤).

وقال المسيح: بشدة يدخل الغني الجنة.

وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه ﷺ قال: «إذا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلاهُ، فَإِذا أَحَبَّهُ الحُبَّ البَالِغَ اقْتَنَاهُ قيلَ: وَمَا اقْتَنَاهُ؟ قالَ: لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلًا وَلا مَالًا» (٥).

وفي الخبر: «إذا رأيت الفقر مقبلًا فقل مرحبًا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلًا فقل ذنب عجلت عقوبته» (٦).

وانظر صحيح الترغيب: ٨٣٣].

(١) ضعيف جداً: حديث «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء». تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره. [انظر ضعيف الترغيب: ١٢٥٥].

(٢) ضعيف: حديث «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر». رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شرف الفقر، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به، ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٣٣٩٢].

(٣) حديث «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه». تقدم، وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد، وفيه نكارة.

(٤) حديث «رأيته - يعني عبد الرحمن بن عوف - يدخل الجنة زحفا». تقدم وهو ضعيف. [أحمد: ٢٤٣٢١].

(٥) حديث «إذا أحب الله عبدا ابتلاه». أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني.

(٦) حديث «إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال: قال رسول الله ﷺ «أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى... الحديث» فذكره بزيادة في أوله. ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف.

وقال موسى عليه السلام: يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير فقير؛ فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد، ويمكن أن يراد به الشديد الضر.

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه: إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء، وكان أحب الأسامي إليه صلوات الله عليه أن يقال له يا مسكين. ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي ﷺ: اجعل لنا يومًا ولهم يومًا يجيئون إليك ولا نجيء، ونجيء إليك ولا يجيئون، يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذرّ وخباب بن الأرت وعمار ابن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي ﷺ إلى ذلك، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي بروائحتهم وكان لباس القوم الصوف في شدّة الحر؛ فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم، فاشتدّ ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم، فأجابهم رسول الله ﷺ أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد؛ فنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨] يعني الفقراء. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨] يعني الأغنياء ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف:٢٨] يعني الأغنياء إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] الآية (١).

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش، فشق ذلك على النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝﴾ [عبس:١-٤] يعني ابن أم مكتوم. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس:٥-٦] (٢) يعني هذا الشريف.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَعْتَذِرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ كَمَا يَعْتَذِرُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي ما زَوَيْتُ الدُّنْيَا عَنْكَ لِهَوَانِكَ عَلَيَّ وَلَكِنْ لِمَا أَعْدَدْتُ لَكَ مِنَ الكَرَامَةِ وَالفَضِيلَةِ، اخْرُجْ يا عَبْدِي إِلَى هذِهِ الصُّفُوفِ، فَمَنْ أَطْعَمَكَ فِيَّ أَوْ كَسَاكَ فِيَّ بِذَلِكَ يُرِيدُ وَجْهِي فَخُذْ بِيَدِهِ فَهُوَ لَكَ، وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَدْ أَلْجَمَهُم العَرَقُ فَيَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ وَيَنْظُرُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُدْخِلُهُ الجَنَّةَ» (٣).

---

(١) صحيح: حديث: قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي ﷺ: اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا نجيء، ونجيء إليك ولا يجيئون. تقدم من حديث خباب، وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا، وهذه الزيادة من حديث سلمان. [ابن ماجه: ٤١٢٧، وانظر صحيح ابن ماجه].

(٢) صحيح: حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] أخرجه الترمذي من حديث عائشة وقال غريب. قلت: ورجاله رجال الصحيح. [الترمذي: ٣٣٣١، وانظر صحيح الترمذي].

(٣) حديث «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا». أخرجه أبو الشيخ في

وقال عليه السلام: «أَكْثِرُوا مَعْرِفَةَ الفُقَرَاءِ وَاتَّخِذُوا عِنْدَهُمُ الأَيَادِيَ فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً» قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ قِيلَ لَهُم انْظُرُوا مَنْ أَطْعَمَكُمْ كِسْرَةً أَوْ سَقَاكُمْ شَرْبَةً أَوْ كَسَاكُمْ ثَوْبًا فَخُذُوا بِيَدِهِ ثُمَّ امْضُوا بِهِ إِلَى الجَنَّةِ»(١)، وقال ﷺ: «دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ حَرَكَةً أَمَامِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا بِلالٌ، وَنَظَرْتُ فِي أَعْلاهَا فَإِذَا فُقَرَاءُ أُمَّتِي وَأَوْلادُهُمْ، وَنَظَرْتُ فِي أَسْفَلِهَا فَإِذَا فِيهِ مِنَ الأَغْنِيَاءِ وَالنِّسَاءِ قَلِيلٌ؛ فَقُلْتُ: يا رَبِّ ما شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: أَمَّا النِّسَاءُ فَأَضَرَّ بِهِنَّ الأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالحَرِيرُ، وَأَمَّا الأَغْنِيَاءُ فَاشْتَغَلُوا بِطُولِ الحِسَابِ، وَتَفَقَّدْتُ أَصْحَابِي فَلَمْ أَرَ عَبْدَ الرَّحْمنِ بْنَ عَوْفٍ، ثُمَّ جَاءَنِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا خَلَّفَكَ عَنِّي؟ قَالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى لَقِيتُ المُشَيِّبَات وَظَنَنْتُ أَنِّي لا أَرَاكَ، فَقُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كُنْتُ أُحَاسَبُ بِمَالِي»(٢).

فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة(٣)، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «إِلاَّ مَنْ قَالَ بِالمَالِ هكَذَا وَهَكَذَا»(٤)، ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحدّ.

ودخل رسول الله ﷺ على رجل فقير فلم ير له شيئًا فقال: «لَوْ قُسِمَ نُورُ هذا عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَوَسِعَهُمْ»(٥).

وقال ﷺ: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمُلُوكِ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: كُلُّ ضَعِيفٍ

كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعيف «يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا مني أحبائي، فتقول الملائكة: ومن أحباؤك؟ فيقول: فقراء المسلمين، فيدنون منه فيقول: أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم علي ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم، فتمنوا علي ما شئتم اليوم... الحديث» دون آخر الحديث، وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية، وسيأتي في الحديث الذي بعده.

(١) موضوع: حديث «أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة». أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف «اتخذوا عند الفقراء أيادي، فإن لهم دولة يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: سيروا إلى الفقراء، فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى أخيه في الدنيا».[انظر ضعيف الجامع: ٩٤ مختصراً].

(٢) منكر جداً: حديث «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي، فنظرت فإذا بلال، ونظرت إلى أعلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم». أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه، وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر. [الحديث انظر السلسلة الضعيفة: ٥٣٤٦، وأما قصة بلال فعند البخاري: ١١٤٩، ومسلم: ٢٤٥٨ عن أبي هريرة].

(٣) صحيح: حديث: إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة. رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد، قال الترمذي: حسن صحيح. [أبو داود: ٤٦٤٩، والترمذي: ٣٧٤٧، وابن ماجه: ١٣٤، وانظر السلسلة الصحيحة: ٨٧٥].

(٤) صحيح: حديث «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا». متفق عليه من حديث أبي ذر في أثناء حديث تقدم. [البخاري: ٢٣٨٨، ومسلم: ٩٩٠].

(٥) حديث: دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال «لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم». لم أجده.

مُسْتَضْعَفٍ أَغْبَرَ أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ» (١) .

وقال عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال: «يا عِمْرَانُ، إنَّ لَكَ عِنْدَنا مَنْزِلَةً وَجَاهًا، فَهَلْ لَكَ في عِيَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْت رَسُولِ اللَّهِ ؟» قلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة، فقرع الباب وقال: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟» فقالت: ادخل يا رسول الله. قال: «أَنَا وَمَنْ مَعِي؟» قالت: ومن معك يا رسول الله؟ قال: «عِمْرَانُ» فقالت فاطمة: والذي بعثك بالحق نبيًا ما عليَّ إلا عباءة. قال: «اصْنَعِي بِها هكَذَا وَهكَذَا» وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال: «شدّي على رأسك» ثم أذنت له فدخل فقال: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ يا ابْنَتَاهُ، كَيْفَ أَصْبَحْتِ؟» قالت: أصبحت والله وجعة وزادني وجعًا على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بي الجوع، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «لا تَجْزَعِي يا ابْنَتَاهُ فَوَاللَّهِ ما ذُقْتُ طَعَامًا مُنْذُ ثَلاثٍ، وَإِنِّي لأَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْكِ، وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لأَطْعَمَنِي وَلكِن آثَرْتُ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا» ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها: «أَبْشِرِي فَوَاللَّهِ إنَّكِ لَسيدةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ» قالت: فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران؟ قال: «آسِيَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالمها، وَمَرْيَمَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالمها، وَأَنْتِ سَيِّدَةَ نِسَاءِ عَالمكِ، إنَّكُنَّ فِي بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لا أَذَى فِيها وَلا صَخَبَ وَلا نَصَبَ» ثم قال لها: «اقْنَعِي بِابْن عَمِّكِ فَوَاللَّهِ لقد زوجتك سيدًا في الدنيا وسيدًا في الآخرة» (٢) .

وروي عن علي كرم الله وجهه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا أَبْغَضَ النَّاسُ فُقَرَاءَهُمْ وَأَظْهَرُوا عَمَارَةَ الدُّنْيَا وَتَكالَبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ رَمَاهُم اللَّهُ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ: بالْقَحْطِ مِنَ الزَّمَانِ، وَالجَوْرِ مِنَ السُّلْطَانِ، وَالخِيَانَةِ مِنَ وَلاةِ الأَحْكَامِ، وَالشَّوْكَةِ مِنَ الأَعْدَاءِ» (٣) .

وأما الآثار: فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذو الدرهمين أشدّ حبسًا أو قال أشدّ حسابًا من ذي الدرهم.

وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار، فجاء حزينًا كئيبًا فقالت امرأته: أحدث أمر؟ قال: أشدّ من ذلك، ثم قال: أريني درعك الخلق فشقه وجعله صررًا وفرقه، ثم قام

(١) حديث «ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟». [البخاري: ٤٩١٨، ومسلم: ٢٨٥٣] متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقل «ملوك» وقد تقدم، ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ «ألا أخبركم عن ملوك الجنة... الحديث» [ابن ماجه: ٤١١٥، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٦٠] دون قوله «أغبر أشعث».

(٢) حديث عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال «يا عمران، إن لك عندنا منزلة وجاها». تقدم.

(٣) منكر: حديث «إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا». أخرجه أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جهالة، وهو منكر. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٥٢٨ بلفظ«علماءهم» بدلاً من «فقراءهم» ولم أقف عليه بلفظ «فقراءهم»].

يصلي ويبكي إلى الغداة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ، حَتَّى إنَّ الرَّجُلَ مِنَ الأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُ فِي غِمَارِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِيَدِهِ فَيُسْتَخْرَجُ» (١).

وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد.

وقيل: جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له: تخطّ، لو كنت غنيًا لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل: ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله.

وقال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعًا، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعًا، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعًا.

وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر.

وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تحقرنّ أحدًا لخلقان ثيابه فإن ربك وربه واحد.

وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وفي الأخبار عن الكتب السالفة: أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام. احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب الدنيا عليك صبًا.

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرّق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما، وإنّ درعها لمرقوع، وتقول لها الجارية: لو اشتريت لك بدرهم لحمًا تفطرين عليه وكانت صائمة، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، وكان قد أوصاها رسول الله ﷺ وقال: «إنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَعَلَيْكِ بِعَيْشِ الفُقَرَاءِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ، وَلا تَنْزَعِي دِرْعَكِ حَتَّى تُرَقِّعِيه» (٢).

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل،

---

(١) حديث سعيد بن عامر «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام». وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال «تسعين عاما» وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه، وفي رواية له «بأربعين سنة» وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه وقد تقدم. [حديث سعيد بن عامر، وحديث أبي هريرة عند الترمذي: ٢٣٥١، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٨٩].

(٢) ضعيف جداً: حديث: قال لعائشة «إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء». أخرجه الترمذي وقال غريب، والحاكم وصححه نحوا من حديثها، وقد تقدم. [الترمذي: ١٧٨٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٧٨].

فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبدًا. رضي الله عنه.

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين:

قال رسول الله ﷺ: «طُوبى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وقَنِعَ بِهِ» (١) وقال ﷺ: «يا مَعْشَرَ الفُقَرَاءِ أعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وإلاَّ فَلاَ» (٢)، فالأوّل القانع وهذا الراضي، ويكاد يشعر هذا بمفهومه: أنّ الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أنّ له ثوابًا كما سيأتي تحقيقه، فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه، وربّ راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله، فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ لِكُل شَيْءٍ مِفْتَاحًا وَمِفْتَاحُ الجَنَّةِ حُبُّ المَسَاكِينِ وَالفُقَرَاءِ لِصَبْرِهِمْ، هُمْ جُلَسَاءُ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ» (٣).

وروي عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال: «أَحَبُّ العِبَادِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الفَقِيرُ القَانِعُ بِرِزْقِهِ الرَّاضِي عَنِ اللَّهِ تَعَالَى» (٤). وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا» (٥). وقال ﷺ: «ما مِنْ أَحَدٍ غَنِيٍ ولا فقِيرٍ إلاَّ وَدَّ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّه كَانَ أُوتِيَ قُوتًا فِي الدُّنْيَا» (٦)، وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم. قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون. وقال ﷺ: «لاَ أَحَدَ أَفْضَلُ مِنَ الفَقِيرِ إذَا كَانَ رَاضِيًا» (٧)، وقال ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ صَفْوَتِي مِنْ خَلْقِي؟ فَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ: وَمَنْ هُمْ يَا رَبَّنا؟ فَيَقُولُ: فُقَرَاءُ المُسْلِمِينَ القَانِعُونَ بِعَطَائِي الرَّاضُونَ بِقَدَرِي، أَدْخِلُوهُمُ الجَنَّةَ. فَيَدْخُلُونَهَا وَيَأْكُلُونَ

(١) صحيح: حديث «طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به». رواه مسلم، وقد تقدم. [مسلم: ١٠٥٤].

(٢) حديث « يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، وهو ضعيف جدا، فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث.

(٣) موضوع: حديث «إن لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين». رواه الدارقطني في غرائب مالك وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق، وابن عدي في الكامل، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٣٩٤].

(٤) ضعيف: حديث «أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي عن الله». لم أجده بهذا اللفظ، وتقدم عند ابن ماجه حديث «إن الله يحب الفقير المتعفف». [ابن ماجه: ٤١٢١، وانظر السلسلة الضعيفة: ٥١].

(٥) صحيح: حديث «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه بلفظ «قوتا» وقد تقدم. [بلفظ «كفافا» عند مسلم: ١٠٥٥، وبلفظ «قوتا» عند البخاري: ٦٤٦٠، ومسلم: ١٠٥٥].

(٦) ضعيف جداً: حديث «ما من أحد غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا». أخرجه ابن ماجه من حديث أنس، وقد تقدم. [ابن ماجه: ٤١٤٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٨١].

(٧) حديث «لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا». لم أجده بهذا اللفظ.

﴿وَيَشْرَبُونَ وَالنَّاسَ فِي الحِسَابِ يَتَرَدَّدُونَ﴾(١) ، فهذا في القانع والراضي. وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى.

وأما الآثار: في الرضا والقناعة فكثيرة، ولا يخفى أنّ القناعة يضادها الطمع. وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الطمع فقر واليأس غنى، وإنه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم.

وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه: ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش: يا ابن آدم! قليل يكفيك خير من كثير يطغيك.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: ما من أحد إلا وفي عقله نقص، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحًا مسرورًا والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص.

وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك.

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان؟ فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئني به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال: نعم. قال: فشبعت؟ قال: نعم، قال: ثم نمت طيبًا؟ قال: نعم. فقال إبراهيم في نفسه، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر.

ومرّ رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحًا وبقلًا، فقال له: يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى. قال: من رضي بالدنيا عوضًا عن الآخرة.

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزًا يابسًا فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول: من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

وقال الحسن رحمه الله: لعن الله أقوامًا أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدّقوه، ثم قرأ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣].

وكان أبو ذرّ رضي الله عنه يومًا جالسًا في الناس فأتته امرأته فقالت له: أتجلس بين هؤلاء؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة، فقال: يا هذه، إن بين أيدينا عقبة كئودًا لا ينجو منها إلا كل مخف، فرجعت وهي راضية.

وقال ذو النون رحمه الله: أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له.

---

(١) حديث «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

وقيل لبعض الحكماء: ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في أيدي الناس.

وروي أنّ الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة: يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك.

وقد قيل في القناعة:

اضرعْ إلى الله لا تضرع إلى الناس ... واقنعْ بيأسٍ فإن العزَّ في الياسِ
واستغنِ عن كل ذي قربى وذي رحمٍ ... إنَّ الغني من استغنى عن النَّاسِ

وقد قيل في هذا المعنى أيضًا:

يا جامعًا مانعًا والدهر يرمقه ... مقدرًا أي باب منه يغلقُه
مفكرًا كيف تأتيه منيته ... أغاديًا أم بها يسري فتطرقُه
جمعت مالًا فقل لي هل جمعت له ... يا جامعَ المالِ أيامًا تفرّقُه
المال عندك مخزونٌ لوارثهِ ... ما المالُ مالك إلا يوم تنفقُه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة ... أنّ الذي قسم الأرزاق يرزقُه
فالعِرْضُ منه مصون ما يدنسه ... والوجهُ منه جديدٌ ليس يخلقه
إن القناعةَ من يحلل بساحتها ... لم يبقَ في ظلها هَمٌّ يؤرِّقُه

بيان فضيلة الفقر على الغنى:

اعلم أنّ الناس قد اختلفوا في هذا، فذهب الجنيد والخوّاص والأكثرون إلى تفضيل الفقر. وقال ابن عطاء: الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر. ويقال إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذه فأصابته محنة، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبينا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر، ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأنّ ذلك لا يمكن إلا بتفصيل.

فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقًا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر، ولا بدّ فيه من تفصيل فنقول إنما يتصوّر الشك في مقامين.

أحدهما: فقير صابر ليس بحريص على الطلب، بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غني منفق ماله في الخيرات ليس حريصًا على إمساك المال.

والثاني: فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أنّ الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص، أما الأوّل فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير؛ لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال، والغني

متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه، وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه، فأما الغني المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصورّ أن يفضل على الفقير القانع، وقد يشهد له ما روي في الخبر: أنّ الفقراء شكوا إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد، فعلمهم كلمات في التسبيح، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه، فعاد الفقراء إلى رسول الله فأخبروه، فقال عليه السلام: «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» (١) .

وقد استشهد ابن عطاء أيضًا لما سئل عن ذلك فقال: الغني أفضل لأنه وصف الحق، أما دليله الأوّل ففيه نظر؛ لأنّ الخبر قد ورد مفصلًا تفصيلًا يدل على خلاف ذلك: وهو أنّ ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني، وأنّ فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث الفقراء رسولًا إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رسول الفقراء إليك؛ فقال: «مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ قَوْمٌ أُحِبُّهُمْ» قال: قالوا: يا رسول الله إنّ الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم؛ فقال النبي ﷺ: «بَلِّغْ عَنِّي الفُقَرَاءَ أَنَّ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ مِنْكُمْ ثَلاثَ خِصَالٍ لَيْسَتْ لِلأَغْنِيَاءِ. أَما خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ: فَإِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ الأَرْضِ إِلَى نُجُومِ السَّمَاءِ، لا يَدْخُلُها إِلاَّ نَبِيٌّ فَقِيرٌ، أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ، أَوْ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ، وَالثَّانِيَةُ: يَدْخُلُ الفُقَرَاءُ الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالثَّالِثَةُ: إِذَا قَالَ الغَنِيُّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَقَالَ الفَقِيرُ مِثْلَ ذلِكَ لَمْ يَلْحَقِ الغَنِيّ بِالفَقِيرِ وَلَوْ أَنْفَقَ فِيها عَشَرَةَ آلافِ دِرْهَم، وَكَذلِكَ أَعْمَالُ البِرِّ كُلُّها» فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله ، فقالوا: رضينا رضينا (٢) فهذا يدل على أنّ قوله «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم.

وأما قوله : إنّ الغني وصف الحق، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال: أترى أنّ الله تعالى غني بالأسباب والأعراض، فانقطع ولم ينطق، وأجاب آخرون فقالوا: إنّ التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، ثم قالوا: بل هذا يدل على أنّ الفقر أفضل لأن صفات

---

(١) صحيح : حديث: شكى الفقراء إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات». متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه. [البخاري: ٨٤٣، ومسلم: ٥٩٥].

(٢) ضعيف : حديث زيد بن أسلم عن أنس: بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رسول الفقراء إليك، فقال «مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم».لم أجده هكذا بهذا السياق، والمعروف في هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر: اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ما فضل الله به عليهم أغنياءهم، فقال «يا معشر الفقراء ألا أبشركم إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام» وإسناده ضعيف. [ابن ماجه: ٤١٢٤، وانظر ضعيف ابن ماجه].

العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا ﷺ: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ» (١).

وقال سهل: حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى؛ فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها، إذ كما يناقض قول من فضل الغني بأنه صفة الحق بالتكبر، فكذلك يناقض قول من ذم الغني لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى، والجهل والغفلة وصف العبد، وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم، فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر: وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، ولا الفقر مطلوبًا لعينه لكن لأنّ فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه، وكم من غني لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن، والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب، والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله، وربما يكون شغله في الفراق أكثر، وربما يكون شغله في الوصال أكثر، والدنيا معشوقة الغافلين، المحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها؛ فإذن إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده، إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد؛ إذ فتنة السراء أشدّ من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا يقدر، ولذلك قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم: بلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر. وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرًا.

ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر - والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر - زجر الشرع عن الغنى وذمه، وفضل الفقر ومدحه، حتى قال المسيح عليه السلام: لا

(١) صحيح: حديث «قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قصمته». تقدم في العلم وغيره. [مسلم: ٢٦٢٠].

تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم.

وقال بعض العلماء: تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان.

وفي الخبر: «إنّ لكل أمة عجلًا وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم» (١)، وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضًا، واستواء المال والماء، والذهب والحجر إنما يتصوّر للأنبياء عليهم السلام والأولياء؛ ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة، إذ كان النبي ﷺ يقول للدنيا: «إِلَيْكِ عَنِّي» (٢). إذ كانت تتمثل له بزينتها. وكان علي كرم الله وجهه يقول: يا صفراء غرّي غيري، ويا بيضاء غري غيري، وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادىء الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه، وذلك هو الغنى المطلق، إذ قال عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ الغِنَى مِنْ كَثْرَةِ العَرَضِ إنَّما الغِنَى غِنَى النَّفْسِ» (٣)، وإذا كان ذلك بعيدًا فإذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدّقوا به وصرفوه إلى الخيرات، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم، وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة؟ وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنًا بالله انصرف لا محالة إلى الله، إذ لا يتصوّر قلب فارغ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره، فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان، فالمتردد بينهما يقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها، فإذن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما، إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور، فإنّ الغني ربما يظنّ أنه منقطع القلب عن المال، ويكون حبه دفينًا في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقده، فليجرّب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه، فإن وجد لقلبه إليه التفاتًا فليعلم أنه كان مغرورًا، فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه، فتحقق إذن أنه كان

(١) حديث «لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم». رواه أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة.

(٢) ضعيف: حديث: كان يقول للدنيا «إليك عني». رواه الحاكم مع اختلاف. وقد تقدم. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩١٧].

(٣) صحيح: حديث «ليس الغني عن كثرة العرض إنما الغني غني النفس». متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [البخاري: ٦٤٤٦، ومسلم: ١٠٥١].

مغرورًا، وأنّ العشق كان مستكنًا في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء، وإذا كان ذلك محالًا أو بعيدًا فلنطلق القول بأنّ الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل؛ لأنّ علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته، فإنّ حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور، ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول، ولذلك قال بعض السلف: مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى: تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها، أفضل من عبادة غني ألف عام.

وعن الضحاك قال: من دخل السوق فرأى شيئًا يشتهيه فصبر واحتسب، كان خيرًا له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى.

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله: ادع الله لي فقد أضرّ بي العيال فقال: إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت، فإنّ دعاءك أفضل من دعائي. وكان يقول: مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء. وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء. وقد قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: اللهم إني أسألك الذل عند النصف من نفسي، والزهد فيما جاوز الكفاف. وإذا كان مثل الصدّيق رضي الله عنه في كماله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أنّ فقد المال أصلح من وجوده هذا، مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالًا وينفق طيبًا، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره، ومن نوقش الحساب فقد عذب، ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولًا بالحساب كما رآه رسول الله ﷺ، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما أحب أنّ لي حانوتًا على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأربح، كل يوم خمسين دينارًا وأتصدّق بها في سبيل الله تعالى. قيل: وما تكره؟ قال: سوء الحساب، ولذلك قال سفيان رحمه الله: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء.

اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب. وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح، ولكن إذا كان العبد غنيًا عن وجود المال وعدمه جميعًا بأن يستوي عنده كلاهما، فأما إذا كان غنيًا بوجوده ومفتقرًا إلى بقائه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى؛ لأن الله تعالى غني بذاته لا بما يتصوّر زواله والمال يتصوّر زواله بأن يسرق، وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيًا بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غني يريد بقاء المال، وما ذكر من أن صفات الحق لا

تليق بالعبد غير صحيح، بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد، بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، وقد سمعت بعض المشايخ يقول: إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافًا له: أي يكون له من كل واحد نصيب، وأما التكبر فلا يليق بالعبد، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيليق به. نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك، والعبد مأمور به بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر، والمطيع أكبر من العاصي، والعالم أكبر من الجاهل، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات، وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لا شك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفضيلة في حقه، إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فإن ذلك موقوف على الخاتمة، وليس يدري الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر؛ إذ ربما يختم للكافر بالإيمان، وقد يختم له بالكفر، فلم يكن ذلك لائقًا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصوّر أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كمالاً في حقه لأنه في صفات الله تعالى، ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانًا في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره، فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصوّر في العبد من صفات الله تعالى، فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء، فإذن لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة، أما الغني بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلًا، فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغني الشاكر.

ولنفرض هذا في شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده، فله حالة الفقد وحالة الوجود، فأي حالتيه أفضل؟ فنقول: ننظر فإن كان مطلوبه ما لا بدّ منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل، لأنّ الفقر يشغله بالطلب، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل؛ والمكفي هو القادر، ولذلك قال ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَل قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا» وقال ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفرًا» أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بدّ منه، وإن كان المجلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين؛ فحالة الفقر أفضل وأصلح، لأنهما استويا في الحرص وحب المال، واستويا في أنّ كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرّض

لمعصية بسبب الفقر والغنى؛ ولكن افترقا في أنّ الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يبغي الخلاص منه، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشدّ ركونًا إلى الدنيا؛ فحاله أشدّ لا محالة؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا، وقد قال ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ» (١)، وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد، فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى، ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه؛ وكل من فارق محبوبًا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقد أنسه وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وإن كان حريصًا عليها، فإذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين:

أحدهما: غني مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوي عنده الوجود والعدم، فيكون الوجود مزيدًا له؛ إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم.

والثاني: الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفرًا، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقي حياته ثم يستعين بقوّته وحياته على الكفر والمعاصي؛ ولو مات جوعًا لكانت معاصيه أقل؛ فالأصلح له أن يموت جوعًا ولا يجد ما يضطرّ إليه أيضًا، فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر. ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه، وفي غني دونه في الحرص على حفظ المال، ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره، فهذا في محل النظر، والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوّة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده؛ والعلم عند الله تعالى فيه.

بيان آداب الفقير في فقره:

اعلم أنّ للفقير آدابًا في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها.

فأما أدب باطنه: فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني أنه لا يكون كارهًا فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ــ وإن كان كارهًا للفقر ــ كالمحجوم يكون كارهًا للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهًا فعل الحجام ولا كارهًا للحجام، بل ربما يتقلد منه منة، فهذا أقل درجاته وهو واجب، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر، وهو معنى قوله عليه السلام: «يا مَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلاَّ فَلاَ»

(١) حسن لغيره: حديث «إن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارقه تقدم. [انظر صحيح الترغيب: ٦٢٧].

وأرفع من هذا أن لا يكون كارهًا للفقر بل يكون راضيًا به، وأرفع منه أن يكون طالبًا له وفرحًا به لعلمه بغوائل الغنى، ويكون متوكلًا في باطنه على الله تعالى واثقًا به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ويكون كارهًا للزيادة على الكفاف. وقد قال علي كرّم الله وجهه: إنّ لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره، ومن علاماته ـــ إذا كان عقوبة ـــ أن يسوء عليه خلقه ويعصي ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء، وهذا يدل أنّ كل فقير فليس بمحمود، بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بثمرته، إذ قيل: ما أعطى عبد شيئًا من الدنيا إلا قيل له: خذه على ثلاث أثلاث: شغل وهم وطول حساب.

وأما أدب ظاهره: فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففي الحديث: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الفَقِيرَ المُتَعَفِّفَ أَبا العِيالِ» وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣] وقال سفيان: أفضل الأعمال التجمل عند المحنة. وقال بعضهم: ستر الفقر من كنوز البر.

وأما في أعماله فأدبه: أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، بل يتكبر عليه. قال علي كرّم الله وجهه: ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل، فهذه رتبة، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادىء الطمع. قال الثوري رحمه الله: إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص. وقال بعض العارفين: إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته، فإذا سكن إليهم ضل. وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعًا في العطاء.

وأما أدبه في أفعاله: فألاّ يفتر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فإنّ ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى. روى زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «دِرْهَمٌ مِنَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ» . قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «أَخْرَجَ رَجُلٌ مِنْ عَرْضِ مَالِهِ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَم فَتَصَدَّقَ بِهَا، وَأَخْرَجَ رَجُلٌ دِرْهَمًا مِنْ دِرْهَمَيْنِ لا يَمْلِكُ غَيْرَهُمَا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ، فَصَارَ صَاحِبُ الدِّرْهَمِ أَفْضَلَ مِنْ صَاحِبِ المائَةِ أَلف»[١] ، وينبغي ألاّ يدّخر مالًا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات.

---

(١) حسن: حديث زيد بن أسلم «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم». أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة متصلا، وقد تقدم في الزكاة، ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلا. [النسائي: ٢٥٢٧، وانظر صحيح الترغيب: ٨٨٣].

إحداها: أن لا يدّخر إلا ليومه وليلته وهي درجة الصدّيقين.

والثانية: أن يدّخر لأربعين يومًا فإنّ ما زاد عليه داخل في طول الأمل، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يومًا. وهذه درجة المتقين.

والثالثة: أن يدّخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين، ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية، فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته، وغنى الخصوص في أربعين يومًا، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة، وقد قسم النبي ﷺ نساءه على مثل هذه الأقسام. فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل، وبعضهن قوت أربعين يومًا وبعضهن يومًا وليلة وهو قسم عائشة وحفصة.

بيان آداب الفقير في قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال:

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

أما نفس المال، فينبغي أن يكون حلالاً خاليًا عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب.

وأما غرض المعطي؛ فلا يخلو: إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة، والذكر والرياء والسمعة إما على التجرّد، وإما ممزوجًا ببقية الأغراض.

أما الأوّل: وهو الهدية فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ (١) ولكن ينبغي ألاَّ يكون فيها منة، فإن كان فيها منة فالأولى تركها، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض؛ فقد أهدي إلى رسول الله ﷺ سمن وأقط وكبش، فقبل السمن والأقط ورد الكبش (٢)، وكان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٣)، وقال ﷺ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَلاَّ

---

(١) صحيح: حديث: أن قبول الهدية سنة. تقدم أنه ﷺ كان يقبل الهدية. [البخاري: ٢٥٨٥ من عائشة، والبخاري: ٢٥٧٦، ومسلم: ١٠٧٧ عن أبي هريرة].

(٢) حديث: أهدي إلى النبي ﷺ سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش. أخرجه أحمد في أثناء حديث ليعلى بن مرة: وأهدت إليه كبشين وشيئا من سمن وأقط، فقال النبي ﷺ «خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر» وإسناده جيد. وقال وكيع: مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه. [أحمد: ١٧٠٩٨].

(٣) صحيح: حديث: كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض. رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة «وايم الله لا أقبل بعد يومي هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا... الحديث» فيه محمد بن إسحاق ورواه بالعنعنة. [أبو داود: ٣٥٣٧، والترمذي: ٣٩٤٦، وانظر صحيح أبي داود].

أَتَّهِبَ إِلاَّ مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ» (١)، وفعل هذا جماعة من التابعين. وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خمسون درهمًا فقال: حدّثنا عطاء عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَتَاهُ رِزْقٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَرَدَّهُ فَإِنَّما يَرُدُّهُ عَلَى اللَّهِ» (٢)، ثم فتح الصرة فأخذ منها درهمًا ورد سائرها. وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضًا ولكن حمل إليه رجل كيسًا ورزمة من رقيق ثياب خراسان، فرد ذلك وقال: من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق. وهذا يدل على أنّ أمر العالم والواعظ أشدّ في قبول العطاء. وقد كان الحسن يقبل من أصحابه. وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها. وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئًا يقول: اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني حتى آخذه وإلا فلا، وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه في قبول صديقه هديته، فإن علم أنه يمازجه منه فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين.

وقال بشر: ما سألت أحدًا قط شيئًا إلا سريا السقطي لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عونًا له على ما يحب. وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال: أفرّقه على الفقراء، فقال: ما أريد هذا. قال: ومتى أعيش حتى آكل هذا؟ قال: ما أريد أن تنفقه في الخل والبقل بل في الحلاوات والطيبات، فقبل ذلك منه، فقال الخراساني: ما أجد في بغداد أمنَّ علي منك، فقال الجنيد: ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك.

الثاني: أن يكون للثواب المجرّد وذلك صدقة أو زكاة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة. وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارفًا لمعصية في السر يعلم أن المعطي لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرّب إلى الله بالتصديق عليه، فهذا حرام

---

(١) صحيح: حديث «لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: روى من غير وجه عن أبي هريرة، قلت: ورجاله ثقات. [الترمذي: ٣٩٤٥، وانظر صحيح الترمذي].

(٢) حديث عطاء مرسلا «من أتاه رزق من غير مسألة فرده فإنما يرد على الله عز وجل». لم أجده مرسلا هكذا، ولأحمد وأبي يعلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني «من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه» [أحمد: ١٧٤٧٧، وانظر صحيح الترغيب: ٨٤٨] ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة «من آتاه الله من هذا المال شيئًا من غير أن يسأله فليقبله» [أحمد: ٧٨٦١، وانظر صحيح الترغيب: ٨٤٩، وقال الألباني صحيح لغيره] وفي الصحيحين من حديث عمر «ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه... الحديث» [البخاري: ٧١٦٤، ومسلم: ١٠٤٥].

أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن، فإنّ أخذه حرام محض لا شبهة فيه.

الثالث: أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله، إذ يكون معينًا له على غرضه الفاسد. وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول: لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخارًا به لأخذت. وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال: إنما أَرُدُّ صلتهم إشفاقًا عليهم ونصحًا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم.

وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر: أهو محتاج إليه فيما لا بدّ منه أو هو مستغن عنه، فإن كان محتاجًا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ، قال النبي ﷺ: «ما المُعْطِي مِنْ سَعَةٍ بِأَعْظَمَ أَجْرًا مِنَ الآخِذِ إذا كَانَ مُحْتَاجًا» (١)، وقال ﷺ: «مَنْ أَتَاهُ شَيْءٌ مِنْ هذا المَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلا اسْتِشْرَافٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ» (٢)، وفي لفظ آخر: «فلا يرده». وقال بعض العلماء: من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط. وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئًا فرده مرة، فقال له السري: يا أحمد، احذر آفة الرد فإنها أشدّ من آفة الأخذ، فقال له أحمد: أعد عليَّ ما قلت فأعاده، فقال أحمد: ما رددت عليك إلاّ لأنّ عندي قوت شهر، فاحبسه لي عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إليّ، وقد قال بعض العلماء: يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره؛ فأما إذا كان ما أتاه زائدًا على حاجته فلا يخلو: إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولًا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبًا طريق الآخرة، فإنّ ذلك محض اتباع الهوى، وكل عمل ليس لله فهو سبيل الشيطان أو داع إليه، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ثم له مقامان:

أحدهما: أن يأخذ في العلانية ويرد في السر، أو يأخذ في العلانية ويفرّق في السر، وهذا مقام الصديقين؛ وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة.

والثاني: أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه، أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه، فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية؛ وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه؟ في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه. وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمهما الله، فإنما كان لاستغنائه عنه،

---

(١) ضعيف: حديث «ما المعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجا». رواه الطبراني من حديث ابن عمر، وقد تقدم في الزكاة. [انظر ضعيف الترغيب: ٥٠٥].

(٢) حديث «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه» وفي لفظ آخر «فلا يرده». تقدما قبل هذا بحديث. [سبق تخريجه قريباً].

إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره، فإنّ في ذلك آفات وأخطارًا، والورع يكون حذرًا من مظانّ الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه.

وقال بعض المجاورين بمكة: كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله، فسمعت فقيرًا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي: أنا جائع كما ترى عريان كما ترى، فما ترى فيما ترى يا من يَرَى ولا يُرَى، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه، فقلت في نفسي: لا أجد لدراهمي موضعًا أحسن من هذا؛ فحملتها إليه، فنظر إليها ثُم أخذ منها خمسة دراهم وقال: أربعة ثمن مئزرين، ودرهم أنفقه ثلاثًا فلا حاجة بي إلى الباقي فرده. قال: فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان، فهجس في نفسي منه شيء، فالتفت إليَّ فأخذ بيدي، فأطافني معه أسبوعًا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين: منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر، ولم يظهر ذلك للناس، فقال: هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأنّ هذه أثقال وفتنة، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة، والمقصود من هذا: إن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه، وقدر الحاجة يأتيك رفقًا بك، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقد قال ﷺ «لا حَقَّ لابْنِ آدَمَ إلاَّ في ثَلاثٍ: طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَبَيْتٍ يُكِنُّهُ، فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ» (١)، فإذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرّض للحساب، وإن عصيت الله فأنت متعرّض للعقاب.

ومن الاختبار أيضًا: أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقرّبًا إلى الله تعالى وكسرًا لصلة النفس فتأتيك عفوًا صفوًا لتمتحن بها قوّة عقلك، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها، فردّ ذلك مهم وهو الزهد، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد، ولا يقدر عليه إلا الصدّيقون: وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدّخره، فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار، فربما يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك وقد تصدّى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على

---

(١) ضعيف: حديث «لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب». أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال «وجلف الخبز والماء» بدل قوله «طعام يقيم صلبه» وقال صحيح. [الترمذي: ٢٣٤١، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٧٦].

حسن الظنّ بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة، فإن رزقه الله من حلال قضاه، وإن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق :٧] قيل معناه: ليبع أحد ثوبيه. وقيل معناه: فليستقرض بجاهه، فذلك مما آتاه الله. وقال بعضهم: إن لله تعالى عبادًا ينفقون على قدر بضائعهم، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى. ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف: الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء، فقيل: من هؤلاء؟ فقال: أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى، وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظنّ بالله تعالى، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى، فإذن مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطي فليأخذه، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطي؛ لأنّ المعطي واسطة قد سخر للعطاء، وهو مضطرّ إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات. وقد حكي أن بعض الناس دعا شقيقًا في خمسين من أصحابه، فوضع الرجل مائدة حسنة، فلما قعد قال لأصحابه: إن هذا الرجل يقول: من لم يرن صنعت هذا الطعام وقدّمته فطعامي عليه حرام، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابًّا منهم كان دونهم في الدرجة، فقال صاحب المنزل لشقيق: ما قصدت بهذا؟ قال: أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم. وقال موسى عليه السلام: يا رب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يومًا ويعشيني هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي، أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم. فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه.

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة، وآداب الفقير المضطر فيه:

اعلم أنه قد وردت مناهٍ كثيرة في السؤال وتشديدات، وورد فيه أيضًا ما يدل على الرخصة إذ قال ﷺ: «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ» (١)، وفي الحديث: «رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظِلْفٍ مُحَرَّقٍ» (٢)، ولو كان السؤال حرامًا مطلقًا لما جاز إعانة المتعدّي على عدوانه والإعطاء

---

(١) ضعيف: حديث «للسائل حق ولو جاء على فرس». رواه أبو داود من حديث الحسين بن علي، ومن حديث علي وفي الأول يعلى بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان، وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود، وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال: أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها «للسائل حق... الحديث» فإنه لا يصح عن أحمد، فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده. [أبو داود: ١٦٦٥، وأحمد: ١٧٣٢، وانظر السلسلة الضعيفة: ١٣٧٨].

(٢) صحيح: حديث «ردوا السائل ولو بظلف محرق». رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، والنسائي واللفظ له من حديث أم بجيد. وقال ابن عبد البر. حديث مضطرب. [أبو داود: ١٦٦٧، والترمذي: ٦٦٥، والنسائي: ٢٥٦٥، وانظر صحيح الجامع: ٣٥٠٢، والظلف: اسم لقدم البقر أو الغنم].

إعانة، فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بدّ فهو حرام، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة.

الأول: إظهار الشكوى من الله تعالى، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعًا على سيده، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة.

الثاني: أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسئول.

الثالث: أنه لا ينفك عن إيذاء المسئول غالبًا؛ لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله ﷺ: «مَسْأَلَةُ النَّاسِ مِنَ الفَوَاحِشِ ما أُحِلَّ مِنَ الفَوَاحِشِ غَيْرُهَا» (١)، فانظر كيف سماها فاحشة، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره. وقال ﷺ: «مَنْ سَأَلَ عَنْ غِنًى فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ» (٢)، «وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظْمٌ يَتَقَعْقَعُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ لَحْمٌ» وفي لفظ آخر: «كانَتْ مَسْأَلَتُهُ خُدُوشًا وَكُدُوحًا فِي وَجْهِهِ» (٣)، وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد. وبايع رسول الله ﷺ قومًا على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية: «ولا تسألوا الناس شيئًا» (٤)، وكان ﷺ يأمر كثيرًا

---

(١) حديث «مسألة الناس من الفواحش، وما أحل الله من الفواحش غيرها». لم أجد له أصلا.

(٢) حديث «من سأل عن غني فإنما يستكثر من جمر جهنم». [أبي داود: ١٦٢٩، وانظر صحيح الترغيب: ٨٠٥] رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصرا على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة، ولمسلم من حديث أبي هريرة «من يسأل الناس أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا... الحديث» [ملم: ١٠٤١]. وللبراز والطبراني من حديث مسعود بن عمر «ولا يزال العبد يسأل وهو غني يخلق وجهه» [انظر ضعيف الترغيب: ٤٨٨] وفي إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم» [البخاري: ١٤٧٥، وعند مسلم: ١٠٤٠] وإسناده جيد.

(٣) صحيح: حديث «من سأل وله ما يغنيه كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه». رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود، وتقدم في الزكاة. [أبو داود: ١٦٢٦، والترمذي: ٦٥٠، والنسائي: ٢٥٩٢، وابن ماجه: ١٨٤٠، وانظر السلسلة الصحيحة: ٤٩٩].

(٤) صحيح: حديث: بايع قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة». أخرجه مسلم من حديث عوف

بالتعفف عن السؤال ويقول: «مَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاهُ وَمَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْنَا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا»[1]، وقال ﷺ: «اسْتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَمَا قَلَّ مِنَ السُّؤَالِ فَهُوَ خَيْرٌ» قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: «وَمِنِّي»[2]، وسمع عمر رضي الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه: عشِّ الرجل، فعشاه ثم سمعه ثانيًا يسأل فقال: ألم أقل لك عش الرجل؟ قال: قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزًا فقال: لست سائلاً ولكنك تاجر، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرّة، وقال: لا تعد. ولولا أنّ سؤاله كان حرامًا لما ضربه ولا أخذ مخلاته، ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول: أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده؟ أفترى أنه لم يعلم أنّ المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبًا في معصية الله وحاشاه، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله ﷺ وهيهات فإن ذلك أيضًا معصية، بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رآه مستغنيًا عن السؤال، وعلم أن من أعطاه شيئًا فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج، وقد كان كاذبًا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه، إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم، فبقي مالاً لا مالك له، فوجب صرفه إلى المصالح، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح، ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبًا كأخذ العلوي بقوله: إني علوي وهو كاذب. فإنه لا يملك ما يأخذه، كأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطي لما أعطاه ـــ وقد ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه ـــ فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء، وقد قرّرناه في مواضع، ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر.

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة، فاعلم أن الشيء، إما أن يكون مضطرًا إليه، أو محتاجًا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة. أو مستغنى عنه؛ فهذه أربعة أحوال.

أما المضطرّ إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتًا أو مرضًا وسأل العاري وبدنه

ابن مالك الأشجعي. [مسلم: ١٠٤٣].

(١) حديث «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله». أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة، والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه حصن بن هلال لم أر من تكلم فيه، وباقيهم ثقات.

(٢) حديث «استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير» [صحيح الترغيب: ٨١٨] قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال «ومني». أخرجه البزار والطبراني من حديث ابن عباس «استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك، وإسناده صحيح، وله في حديث «فتعففوا ولو بحزم الحطب» وفيه من لم يسم، وليس فيه: وما قل من السؤال... إلخ.

مكشوف ليس معه ما يواريه، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسئول بكونه مباحًا، والمسئول منه بكونه راضيًا في الباطن، وفي السائل بكونه عاجزًا عن الكسب، فإن القادر على الكسب وهو بطال له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة.

وأما المستغني فهو الذي يطلب شيئًا وعنده مثله وأمثاله، فسؤاله حرام قطعًا، وهذان طرفان واضحان.

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف، وكمن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيًا لا ينتهي إلى حدّ الضرورة، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة، فهذا أيضًا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضًا حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروهًا مهما صدق في السؤال وقال: ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني أذى أطيقه ولكن يشق عليّ، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى.

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصًا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز، وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المسئول فهو حرام، لأنّ مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة.

فإن قلت: فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات؟ فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج، ولكن يقول: أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس، فيخرج به عن حدّ الشكوى وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله، أو الرجل السخي الذي قد أعدّ ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك، فإنّ الذل لازم للمنة لا محالة. وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصًا بالسؤال بعينه بل يلقي الكلام عرضًا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة، وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام، فهذا إيذاء، فإنه ربما يبذل كرهًا خوفًا من الملامة، ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة، وأما إذا كان يسأل شخصًا معينًا فينبغي ألاّ يصرح بل يعرض تعريضًا يبقى له سبيلًا إلى التغافل إن أراد فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته

تلك الألوان والأحجار فظهر نتن رائحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها. فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في البحر هربًا منها، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيمًا. مدبرًا. ومن رجع قريبًا ما فاته إلا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح، ومن رجع أوّلًا وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالمًا. فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم. وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغرّه أحجار الأرض وهي الذهب والفضة وهشيم النبت وهي زينة الدنيا، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت بل يصير كلًا ووبالًا عليه وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه. وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله عز وجل.

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم: قال الحسن رحمه الله: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَلَكُوا مَفَازَةً غَبْرَاءَ، حَتَّى إذا لَمْ يَدْرُوا، ما سَلَكُوا مِنْهَا أَكْثَرُ أَمْ ما بقي؟ أَنْفَدُوا الزَّادَ وَحَسِرُوا الظَّهْرَ وَبَقُوا بَيْنَ ظَهْرَانَي الْمَفَازَةِ ولا زَادَ وَلا حَمُولَةَ فَأَيْقَنوا بِالهَلَكَةِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ تَقْطُرُ رَأْسَهُ، فَقَالُوا: هذا قَرِيبُ عَهْدٍ بِرِيفٍ وَمَا جَاءَكُمْ هذا إلاّ مِنْ قَرِيبٍ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ قالَ: يا هؤلاءِ: فَقَالُوا: يا هذا فَقَالَ عَلامَ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: عَلَى ما تَرَى، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ هَدَيْتُكُمْ إِلَى مَاءٍ رَوَاءٍ وَرِيَاضٍ خُضْرٍ ما تَعْمَلُونَ؟ قَالُوا: لا نَعْصِيكَ شَيْئًا، قالَ: عُهُودَكُمْ وَمَوَاثِيقَكُمْ بِالله، فَأَعْطَوْهُ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ بالله لا يَعْصُونَهُ شَيْئًا قالَ: فَأَوْرَدَهُمْ مَاءً رَوَاءً وَرِيَاضًا خُضْرًا فَمَكَثَ فِيهِمْ ما شَاءَ الله ثُمَّ قالَ: يا هؤلاءِ قالُوا: يا هذا قالَ: الرَّحِيلُ قالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قالَ: إِلَى مَاءٍ لَيْسَ كَمَائِكُمْ وَإِلَى رِيَاضٍ لَيْسَتْ كَرِيَاضِكُمْ، فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ: وَالله ما وَجَدْنا هذا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّا لَنْ نَجِدَهُ وَما نَصْنَعُ بِعَيْشٍ خَيْرٍ مِنْ هذا؟ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ ، وَهُمْ أَقَلُّهُمْ ، أَلَمْ تُعْطُوا هذا الرَّجُلَ عُهُودَكُمْ وَمَوَاثِيقَكُمْ بِالله لا تَعْصُوهُ شَيْئًا وَقَدْ صَدَقَكُمْ فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ فَوَالله لَيَصْدُقَنَّكُمْ فِي آخِرِهِ؟ فَرَاحَ فِيمَنْ اتَّبَعَهُ وَتَخَلَّفَ بَقِيَّتُهُمْ فَبَدَرَهُمْ عَدُوٌّ فَأَصْبَحُوا بَيْنَ أَسِيرٍ وَقَتِيلٍ»(١).

مثال آخر لتنعم الناس بالدنيا ثم تفجعهم على فراقها: اعلم أنّ مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيأ دارًا وزينها وهو يدعو إلى داره على الترتيب قومًا، واحدًا بعد واحد، فدخل واحد داره فقدّم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه، لا ليتملكه ويأخذه، فجهل رسمه وظن أنه قد وهب ذلك فتعلق به قلبه لما ظن أنه له، فلما استرجع منه ضجر وتفجع، ومن كان عالمًا برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب وانشراح صدر، وكذلك من

---

(١) حديث الحسن: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء .. الحديث». أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا بطوله، لأحمد والبزار والطبراني من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان. الحديث وفيه «فقال أي أحد الملكين إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى مفازة». فذكر نحوه أخصر منه وإسناده حسن.

عرف سنّة الله في الدنيا علم أنها دار ضيافة سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزوّدوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها. فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه.

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد:

اعلم أنّ معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي؟ وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما الذي لا يجتنب؟ فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي؟ فنقول: دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك، فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت، والمتراخي المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت، فكل ما لك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك إلا أنّ جميع ما لك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام.

القسم الأول: ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيئان: العلم والعمل فقط؛ وأعني بالعلم: العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه، والعلم بشريعة نبيه، وأعني بالعمل. العبادة الخالصة لوجه الله تعالى، وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح في لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظًا عاجلًا في الدنيا. ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلًا بل قلنا إنه في الآخرة، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه، حتى قال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل، وكان آخر يقول: اللهم ارزقني قوّة الصلاة والركوع والسجود في القبر. فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنوّ، ولكنا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك، وقد قال ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاثٌ: النِّسَاءُ والطِّيبُ وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ» (١)، فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا. وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا، والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا فلذلك أضافها إلى الدنيا إلا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة، فنقول هذه ليست من الدنيا.

القسم الثاني: وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلًا، كالتلذذ بالمعاصي كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات،

---

(١) صحيح: حديث «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة». أخرجه النسائي والحاكم من حديث أنس دون قوله «ثلاث» وتقدم في النكاح [النسائي: ٣٩٣٩، انظر صحيح الجامع: ٣١٢٤، صحيح النسائي].

والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث والغلمان والجواري والخيول والمواشي والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة، فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة وفيما يعدّ فضولًا أو في محل الحاجة نظر طويل، إذ روي عن عمر رضي الله عنه أنه استعمل أبا الدرداء على حمص فاتخذ كنيفًا أنفق عليه درهمين، فكتب إليه عمر: من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر، قد كان لك في بناء فارس والروم ما تكتفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها، فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك. فلم يزل بها حتى مات. فهذا رآه فضولًا من الدنيا فتأمل فيه.

القسم الثالث: وهو متوسط بين الطرفين كل حظ في العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن، وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل. وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول، لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه. فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولًا للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا، وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا. ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب؛ أعني طهارته من الأدناس، وأنسه بذكر الله تعالى، وحبه لله عز وجل. وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة. ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت.

أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا؛ فهي من المنجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله، كما ورد في الأخبار: «إِنَّ أَعْمَالَ العَبْدِ تُنَاضِلُ عَنْهُ فَإِذَا جَاءَ العَذَابُ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ جَاءَ قِيامُ اللَّيْلِ يَدْفَعُ عَنْهُ؛ وَإِذا جَاءَ مِنْ جِهَةِ يَدَيْهِ جَاءَتِ الصَّدَقَةُ تَدْفَعُ عَنْهُ» (١)، الحديث.

وأما الأنس والحب؛ فهما من المسعدات وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة، وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة، فيصير القبر روضة من رياض الجنة، وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد؟ وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله، فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسرورًا سليمًا من الموانع آمنًا من العوائق؟ وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبًا ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصب منه وحيل

---

(١) حديث: «إن أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه .. الحديث». أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن المخزومي ضعفه البخاري وأبو حاتم ولأحمد من حديث أسماء بنت أبي بكر «إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمنا أحزبه عمله الصلاة والصيام... الحديث» وإسناده صحيح.

لسنة فسؤاله حرام، فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهمًا في الحديث، فإن خمسة دنانير تكفي المنفرد في السنة إذا اقتصد، أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة، فإن كان قادرًا على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة، وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر.

وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال، لأنّ أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرًا عاجزًا عما يعينه، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفًا وكان ما لأجله السؤال خارجًا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخي المدّة التي فيها يحتاج إلى السؤال، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى، فيستفتي فيه قلبه ويعمل به إن سالكًا طريق الآخرة، وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران :١٧٥] وقال عز وجل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة :٢٦٨] والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة، وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشدّ من حال من ملك مالًا موروثًا، وادخره لحاجة وراء السنة، وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان أحوال السائلين:

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإن أُعطي لا يأخذ، فهذا مع الروحانيين في عليين. وفقير لا يسأل وإن أُعطي أَخذ، فهذا مع المقرّبين في جنات الفردوس. وفقير يسأل عند الحاجة، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين.

فإذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة.

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال: تركتهم إن أُعطوا شكروا، وإن مُنعوا صبروا، وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء، فقال شقيق: هكذا تركت كلاب بلخ عندنا، فقال له إبراهيم: فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق؟ فقال: الفقراء عندنا إن مُنعوا شكروا، وإن أُعطوا آثروا. فقبّل رأسه وقال: صدقت يا أستاذ.

فإذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة، فلا بدّ لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم رد إلى أسفل سافلين، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين، ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعًا، وإنما الشك فيمن عرف ذلك، فإنه ربما لا يقدر عليه، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدًا لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإنّ مثل هذه الأعمال بالنيات، وذلك كما روي أنّ بعضهم رأى أبا إسحاق النوري رحمه الله يمدّ يده ويسأل الناس في بعض المواضع، قال: فاستعظمت ذلك واستقبحته له، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال: لا يعظم هذا عليك، فإنّ النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم، وإنما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به إلى قوله ﷺ: «يَدُ المُعْطِي هِيَ العُلْيَا» (١).

فقال بعضهم: يد المعطي هي يد الآخذ للمال لأنه يعطي الثواب والقدر له لا لما يأخذه، ثم قال الجنيد: هات الميزان، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال: احملها إليه، فقلت في نفسي: إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره، فكيف خلط به مجهولاً وهو رجل حكيم؟ واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرة إلى الثوري فقال: هات الميزان، فوزن مائة درهم وقال: ردها عليه وقل له: أنا لا أقبل منك أنت شيئًا وأخذ ما زاد على المائة قال: فزاد تعجبي، فسألته فقال: الجنيد رجل حكيم، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه: وزن المائة لنفسه طلبًا لثواب الآخرة، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه.

قال: فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال: أخذ ماله ورد مالنا الله المستعان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب، وتناجي الأسرار، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل، كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلاً قبل شربه. ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعلة في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلاً، وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خاليًا عن حظ واف من الجهل، بل البصير أحد رجلين: إما رجل سلك

---

(١) **صحيح**: حديث «يد المعطي هي العليا». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. [مسلم: ١٠٤٢ عن أبي هريرة وليس فيه أنها «يد المعطي»، مسلم: ١٠٣٣ عن ابن عمر وفيه «اليد العليا المنفقة» ولفظ الحديث عند النسائي: ٢٥٣٢، وانظر صحيح النسائي].

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة: يجمعها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران :١٤] ، فقد عرفت أنّ كل ما هو لله فليس من الدنيا، وقدر ضرورة القوت وما لا بدّ منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله، والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله. وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة. ولها طرفان وواسطة: طرف يقرب من حدّ الضرورة فلا يضر فإنّ الاقتصار على حدّ الضرورة غير ممكن، وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه وينبغي أن يحذر منه، وبينهما وسائط متشابهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

والحزم في الحذر والتقوى والتقرّب من حدّ الضرورة ما أمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام؛ إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حدّ الضرورة حتى أن أويسًا القرني كان يظن أهله أنه مجنون لشدة تضييقه على نفسه، فبنوا له بيتًا على باب دارهم فكان يأتي عليهم السنة والسنتان والثلاث لا يرون له وجهًا، وكان يخرج أوّل الأذان ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة، وكان طعامه أن يلتقط النوى، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره وإن لم يصب ما يقوّته من الحشف باع النوى واشترى بثمنه ما يقوّته، وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية فيغسلها في الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ثم يلبسها، فكان ذلك لباسه وكان ربما مرّ الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون، فيقول لهم يا إخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترموني فارموني بأحجار صغار، فإني أخاف أن تدموا عقبي، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء، فهكذا كانت سيرته.

ولقد عظم رسول الله ﷺ أمره فقال: «إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن إشارة إليه رحمه الله» (١)، ولما ولي الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: أيها الناس من كان منكم من العراق فليقم، قال: فقاموا. فقال: اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة، فجلسوا، فقال: اجلسوا إلا من كان من مراد، فجلسوا فقال: اجلسوا إلا من كان من قرن، فجلسوا كلهم إلا رجلًا واحدًا فقال له عمر: أقرني أنت؟ فقال: نعم. فقال: أتعرف أويس بن عامر القرني؟ فوصفه له، فقال: نعم وما ذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين والله ما فينا أحمق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه، فبكى عمر رضي الله تعالى عنه ثم قال: ما قلت ما قلت إلا لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر» (٢)، فقال هرم بن حيان:

(١) صحيح بلفظ: «. . . نفس الرحمن من هنا - يشير إلى اليمين»: حديث «إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن». أشار به إلى أويس القرني تقدم في قواعد العقائد لم أجد له أصلا، [ذكره الألباني في الصحيحة: ٣٣٦٧ بلفظ: «من هنا يشير إلى اليمين»].

(٢) ضعيف: حديث عمر «يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر». يريد أويسًا، [انظر ضعيف الجامع: ٣٣١٢]، ورويناه في جزء ابن السماء من حديث أبي أمامة « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر» وإسناده حسن، وليس فيه ذكر لأويس بل في آخره: فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان [وهو صحيح، انظر صحيح الترغيب: ٣٦٤٧، الصحيحة: ٢١٧٨].

لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لي هم إلا أن أطلب أويسًا القرني وأسأل عنه، حتى سقطت عليه جالسًا على شاطىء الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه، قال: فعرفته بالنعت الذي نعت لي، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة محلوق الرأس كث اللحية متغير جدًا كريه الوجه متهيب المنظر قال: فسلمت عليه فردَّ عليَّ السلام ونظر إليَّ، فقلت: حياك الله من رجل ومددت يدي لأصافحه فأبى أن يصافحني، فقلت: رحمك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحمك الله؟ ثم خنقتني العبرة من حبي إياه ورقتي عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى، فقال: وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان كيف أنت يا أخي ومن دلك عليَّ؟ قال: قلت الله. فقال: لا إله إلا الله سبحان الله ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء :١٠٨] قال: فعجبت حين عرفني ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رآني فقلت: من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم :٣] وعرفت روحي روحك حين كلمت نفسي نفسك، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد، وإنّ المؤمنين ليعرف بعضهم بعضًا ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل، قال: قلت حدّثني رحمك الله عن رسول الله ﷺ بحديث أسمعه منك. قال: إني لم أدرك رسول الله ﷺ ولم تكن لي معه صحبة بأبي وأمي رسول الله، ولكن رأيت رجالًا قد صحبوه وبلغني من حديثه كما بلغك ولست أحب أن أفتح على نفسي هذا الباب أن أكون محدثًا أو مفتيًا أو قاضيًا في نفسي شغل عن الناس يا هرم بن حيان فقلت:

يا أخي اقرأ عليَّ آية من القرآن أسمعها منك وادع لي بدعوات وأوصني بوصية أحفظها عنك، فإني أحبك في الله حبًا شديدًا، قال: فقام وأخذ بيدي على شاطىء الفرات ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم بكى. ثم قال: قال ربي والحق قول ربي وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه، ثم قرأ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان :٣٨-٣٩] حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان :٤٢] فشهق شهقة ظننت أنه قد غشي عليه ثم قال: يا ابن حيان مات أبوك حيان ويوشك أن تموت فإما إلى جنة وإما إلى نار، ومات أبوك آدم، وماتت أمك حوّاء، ومات نوح، ومات إبراهيم خليل الرحمن، ومات موسى نجي الرحمن، ومات داود خليفة الرحمن، ومات محمد ﷺ وعليهم وهو رسول رب العالمين، ومات أبو بكر خليفة المسلمين، ومات عمر بن الخطاب أخي وصفيي، ثم قال: يا عمراه يا عمراه، قال: فقلت رحمك الله إن عمر لم يمت، قال: فقد نعاه إلي ربي ونعى إلي نفسي ثم قال: أنا وأنت في الموتى كأنه قد كان، ثم صلى على النبي ﷺ، ثم دعا بدعوات خفيات، ثم قال: هذه وصيتي إياك يا هرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت إلي نفسي ونفسك، عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للأمة جميعًا، وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل النار يوم القيامة،

إلى هذا القدر، وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا، إما لضعف علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورًا في يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يومًا بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت: وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص:٨٠] فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه، ولما لم يتصوّر الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له النبي ﷺ: «لا تَقُلْ هكَذَا وَلكِنْ قُلْ: أَرِنِي الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ» (١) ، وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير.

والعبد يراها حقيرة في نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلًا؛ لأنه مستغن عن الحشرات أصلًا وليس مستغنيًا عن الفرس، والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله، ويراه متفاوتًا بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره، وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى، فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدّماتها وعلائقها، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب يوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن، فإذا وفى بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به؛ فإن الذي بايعه بهذا البيع وفى بالعهد، فمن سلم حاضرًا في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد، وما دام ممسكًا للدنيا لا يصح زهده أصلًا، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف:٨] وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك، ولا وصفهم أيضًا بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه، بل عند التسليم والبيع، فعلامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج، فإن أخرجت عن اليد بعض

(١) حديث: قال رجل: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له «لا تقل هكذا، ولكن قل: أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك». ذكره صاحب الفردوس مختصرا «اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك» من حديث أبي القصير ولم يخرجه ولده.

الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهدًا مطلقًا، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهدًا مطلقًا، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد؛ لأن ما لا يقدر عليه لا يقوى على تركه، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها، فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله، فإنك إذا لم تجرّب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدّر ولا خوف من الخلق وقع فيها، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات، فإياك أن تثق بوعدها في المباحات، والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها، أن تجرّبها مرة بعد مرة في حال القدرة، فإذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرًا وباطنًا فلا بأس أن تثق بها وثوقًا ما، ولكن تكون من تغيرها أيضًا على حذر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع.

وبالجملة، فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة.

قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة: ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا نفتي في مسألة إلا رد علينا ــ يعني أبا حنيفة ــ فقال ابن شبرمة: لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو؟ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها، وهربت منا فطلبناها، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله ﷺ: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦] (١). قال ابن مسعود رحمه الله: قال لي رسول الله ﷺ: «أنْتَ مِنْهُمْ» - يعني من القليل - قال: وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢] (٢). واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوّة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات، وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة، فأما كل نوع من الترك فإنه يتصوّر ممن لا يؤمن بالآخرة؛ فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق، ولكن لا يكون زهدًا؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنأ من المال، وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعًا في العوض ليس من الزهد، فكذلك تركه طمعًا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة

---

(١) حديث قال المسلمون: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه، حتى نزل قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء :٦٦] الآية: لم أقف له على أصل.

(٢) حديث ابن مسعود: ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران :١٥٢] الآية . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن.

وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم، واتصل بعضها ببعض وتداعت إلى غير نهاية محدودة، فتاهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها.

ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا، وكيفية حدوث الحاجة إليها، وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تتضح لك أشغال الدنيا، كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنستهم عاقبة أمورهم؟ فنقول: الأشغال الدنيوية هي الحرف والصناعات والأعمال التي ترى الخلق منكبين عليها. وسبب كثرة الأشغال هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث: القوت، والمسكن، والملبس. فالقوت: للغذاء والبقاء. والملبس: لدفع الحرّ والبرد. والمسكن: لدفع الحرّ والبرد، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال. ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحًا بحيث يستغني عن صنعة الإنسان فيه.

نعم. خلق ذلك للبهائم، فإن النبات يغذي الحيوان من غير طبخ، والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغني عن البناء ويقنع بالصحراء، ولباسها شعورها وجلودها، فتستغني عن اللباس.

والإنسان ليس كذلك فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات، وأوائل الأشغال الدنيوية، وهي الفلاحة، والرعاية، والاقتناص، والحياكة، والبناء. أما البناء فللمسكن. والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة فللملبس. والفلاحة للمطعم. والرعاية للمواشي والخيل أيضًا للمطعم والمركب. والاقتناص نعني به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب فالفلاح يحصل النبات والراعي يحفظ الحيوانات ويستنتجها، والمقتنص يحصل ما نبت ونتج بنفسه من غير صنع آدمي، وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي، ونعني بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدّة. ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناص، والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب، أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما، أو من جلود الحيوانات. فحدثت الحاجة إلى ثلاث أنواع أخر من الصناعات: النجارة، والحدادة، والخز، وهؤلاء هم عمال الآلات، ونعني بالنجار؛ كل عامل في الخشب كيفما كان. وبالحدّاد، كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والإبري وغيرهما. وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة. وأما الخراز؛ فنعني به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها، فهذه أمهات الصناعات.

ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك لسببين:

أحدهما: حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والانثى وعشرتهما.

والثاني: التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد، فإن الاجتماع يفضي إلى الولد لا محالة، والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت. ثم ليس يكفيه

الاجتماع مع الأهل والولد في المنزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة. فإنّ الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها، وتحتاج الآلة إلى حدّاد ونجار، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز، وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر إلى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة؟ فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماع. ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذوا بالحرّ والبرد والمطر واللصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت بها وبما معه من الآلات والأثاث والمنازل تدفع الحرّ والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها، لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصن وبسور يحيط بجميع المنازل، فحدثت البلاد لهذه الضرورة.

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات، إذ تحدث رياسة وولاية للزوج على الزوجة، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به، ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم، إذ ليس لها قوّة المخاصمة وإن ظلمت. فأما المرأة فتخاصم الزوج، والولد يخاصم الأبوين. هذا في المنزل.

وأما أهل البلد أيضًا فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا، وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعي والأراضي والمياه وهي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لا محالة. ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولو ترك ضائعًا لهلك، ولو وُكِلَ تفقده إلى الجميع لتخاذلوا ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له.

فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى. فمنها صناعة المساحة التي بها تعرف مقادير الأرض لتمكن القسمة بينهم بالعدل. ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم.

ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة، ومنها الحاجة إلى الفقه وهو معرفة القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق، ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى في المعاملات وشروطها. فهذه أمور سياسية لا بدّ منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والهداية، وإذا اشتغلوا بها لم يتفرّغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى المعاش، ويحتاج أهل البلد إليهم إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلًا تعطلت الصناعات، ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستضر الناس، فمست الحاجة إلى أن يصرف إلى معايشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التي لا مالك لها إن كانت، أو تصرف الغنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار، فإن كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح، وإن أرادوا التوسع

قالوا: إنا لنستحيي منه تعالى، فقال: «لَيْسَ كَذلِكَ تَبْنُونَ ما لا تَسْكُنُونَ، وَتَجْمَعُونَ مَا لا تَأْكُلُونَ» (١) ، فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى، ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون.

قال: «وَمَا عَلاَمَةُ إِيمَانِكُمْ؟» فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء، فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنْ كُنْتُمْ كَذلِكَ فَلاَ تَجْمَعُوا مَا لاَ تَأْكُلُونَ وَلاَ تَبْنُوا مَا لاَ تَسْكِنُونَ، وَلاَ تَنَافَسُوا فِيمَا عَنْهُ تَرْحَلُونَ» (٢) ، فجعل الزهد تكملة لإيمانهم. وقال جابر رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ جَاءَ بِلاَ إِله إِلاَّ اللَّهُ لا يَخْلِطَ بِهَا غَيْرَها وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ» ، فقام إليه علي كرّم الله وجهه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها؟ صفه لنا فسره لنا، فقال: «حُبُّ الدُّنْيَا طَلَبًا لَهَا وَاتِّبَاعًا لَهَا، وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الأَنْبِيَاءِ وَيَعْمَلونَ عَملَ الجَبَابِرَةِ، فَمَنْ جَاءَ بِلا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ لَيْسَ فِيها شَيْءٌ مِنْ هذَا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ» (٣) وفي الخبر: «السَّخَاءُ مِنَ اليَقِينِ وَلا يَدْخُلُ النَّارَ مُوقِنٌ، وَالبُخْلُ مِنَ الشَّكِّ وَلا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ شَكَّ» (٤) ، وقال ﷺ أيضًا: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار» (٥) ، والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد. والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة.

وروي عن ابن المسيب عن أبي ذرّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا أَدْخَلَ اللَّهُ الحِكْمَةَ قَلْبَهُ فَأَنْطَقَ بِها لِسَانَهُ وَعَرَّفَهُ دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنْها سَالِمًا إِلى دَارِ السَّلاَمِ» (٦) ، وروي أنه ﷺ مرَّ في أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت

(١) حديث «استحيوا من الله حق الحياة». رواه الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف. [الشطر الأول عند الترمذي: ٢٤٥٨، وانظر صحيح الترغيب: ١٧٢٤، وقال الألباني: حسنٌ لغير، والشطر الثاني «تبنون مالا . . . .» هو جزء من الحديث التالي، وقال الألباني: منكر كما سيأتي، ولم أقف عليه كاملًا، ولم أقف عليه عند الطبراني].

(٢) منكر: حديث: لما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون. قال «وما علامة إيمانكم؟». رواه الخطيب وابن عساكر في تاريخهما بإسناد ضعيف من حديث جابر. [انظر كتاب الإيمان لابن تيمية، وقال الألباني: منكر].

(٣) حديث جابر «من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة». لم أره من حديث جابر، وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف.

(٤) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن». ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٥) ضعيف: حديث «السخي قريب من الله». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [الترمذي: ١٩٦١، وانظر ضعيف الترغيب: ١٥٥٥].

(٦) ضعيف: حديث أبي ذر «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه». لم أر من حديث أبي ذر، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا، ولابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري «من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» وقال

من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾[التكوير:٤] قال: فأعرض عنها رسول اللهﷺ وغض بصره، فقيل له: يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها؟ فقال: «قَدْ نَهَانِي اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾[طه:١٣١] الآية(١) . وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله؛ ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع؟ فقال: «يا عائشة؛ والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهبًا لأجراها حيث شئت من الأرض؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها، يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض لي إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٣٥] ، والله ما لي بد من طاعته وإني والله لأصبرنّ كما صبروا بجهدي ولا قوّة إلا بالله»(٢) .

وروي عن عمر رضي الله عنه: أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها: البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر، فقال عمر: يا حفصة، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟ فقالت: بلى.

قال: ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول اللهﷺ لبث في النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة، وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبيﷺ لبث في النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول اللهﷺ قرّبتم إليه يومًا طعامًا على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول اللهﷺ كان ينام على عباءة مثنية

حديث منكر. وقال الذهبي باطل: ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب «من أخلص لله» وكلها ضعيفة. [انظر ضعيف الجامع: ٥٣٦٩].

(١) حديث مر في أصحابه بعشار من النوق حفل» ثم تلا قوله تعالى ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ [الحجر: ٨٨] الآية». لم أجد له أصلا.

(٢) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله، ألا تستطعم ربك فيطعمك، قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع، فقال يا عائشة». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصرا «يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم، فقال تعالى ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ومجالد مختلف في الاحتجاج به.

والبطالة فلا يعطى شيئًا، فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال وتمهيد العذر لأنفسهم في البطالة، فاحتالوا للتعلل بالعجز إما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون، وإما بالتعامي والتفالج والتجانن والتمارض وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق، ليكون ذلك سبب الرحمة، وجماعة يلتمسون أقوالاً وأفعالاً يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها، فيسخوا برفع اليد عن قليل من المال في حال التعجب، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم.

وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة، وقد يكون بالأشعار الغريبة والكلام المنثور المسجع مع حسن الصوت. والشعر الموزون أشدّ تأثيرًا في النفس لا سيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت، أو الذي يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبالين في الأسواق، وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض كبيع التعويذات، والحشيش الذي يخيل بائعه أنها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين. ويدخل في هذا الجنس الوعاظ والمكدون على رؤوس المنابر إذا لم يكن وراءهم طائل علمي وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية، وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين. وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة. فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم فتاهوا وضلوا، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدّرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدّة أوجه:

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا: المقصود أن نعيش أيامًا في الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب، ثم نكسب حتى نأكل، فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا، وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تنعم في الدنيا ولا قدم في الدين؛ فإنه يتعب نهارًا ليأكل ليلاً ويأكل ليلاً ليتعب نهارًا، وذلك كسير السواني فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت.

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا الأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا؛ بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا وهي شهوة البطن والفرج، فهؤلاء نسبوا أنفسهم وصرفوا هممهم إلى اتباع النسوان وجمع لذائذ الأطعمة يأكلون كما تأكل الأنعام، ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر.

وطائفة ظنوا أنّ السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في الجمع، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار ويترددون في الأعمال الشاقة ويكتسبون، ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحًا وبخلاً عليها أن تنقص، وهذه لذتهم،

وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت؛ فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات؛ فيكون للجامع تعبه ووباله وللآكل لذته. ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون.

وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة؛ فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة، ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال إنه غني وإنه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هو السعادة، فهمتهم في نهارهم وليلهم في تعهد موقع نظر الناس.

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة بطلب الولايات وتقلد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة، وأن ذلك غاية المطلب. وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكر في آخرتهم ومعادهم.

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، وإنما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكفي منها، وانجرّت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتداعى بهم ذلك إلى مهاوٍ لم يمكنهم الرقي منها، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له، وإن تعدّى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية، فتتشعب به الهموم ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا فلا يبالي الله في أي واد أهلكه منها. فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا. وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا فحسدهم الشيطان ولم يتركهم، وأضلهم في الإعراض أيضًا حتى انقسموا إلى طوائف.

فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة، والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يتهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالإحراق، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا.

وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لا بد أولًا من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية، وأنّ السعادة في قطع الشهوة والغضب، ثم أقبلوا على المجاهدة وشدّدوا على

رسول الله ﷺ: «أَمَرَ اللَّهُ القِيَامَةَ أَنْ تَقُومَ؟ قَالَ: لا وَلَكِنْ هَذَا إِسرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ نَزَلَ إِلَيْكَ حِينَ سَمِعَ كَلامَكَ، فَأَتَاهُ إِسْرَافِيلُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَمِعَ ما ذَكَرْتَ فَبَعَثَنِي بِمَفَاتِيحِ الأَرْضِ وَأَمَرَنِي أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أُسَيِّرَ مَعَكَ جِبَالَ تِهَامَةَ زُمُرُّدًا وَيَاقُوتًا وَذَهَبًا وَفِضَّةً فَعَلْتُ، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ أَنْ تَوَاضَعْ لِلَّهِ فَقَالَ: «نَبِيًّا عَبْدًا» ثلاثًا (١).

وقال ﷺ: «إذا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا زَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا وَرَغَّبَهُ فِي الآخِرَةِ وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ» (٢).

وقال ﷺ لرجل: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ» (٣).

وقال صلوات الله عليه: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيهِ اللَّهُ عِلْمًا بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ فَلْيَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا» (٤)، وقال ﷺ: «مَن اشْتَاقَ إِلَى الجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الخَيْرَاتِ، وَمَنْ خَافَ مِنَ النَّارِ لَهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ تَرَقَّبَ المَوْتَ تَرَكَ اللَّذَّاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ المُصِيبَاتُ» (٥).

ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام: «أَرْبَعٌ لا يُدْرَكْنَ إِلاَّ بِتَعَبٍ: الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ العِبَادَةِ، وَالتَّوَاضُعُ، وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ، وَقِلَّةُ الشَّيْءِ» (٦)، وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن، فإنَّ الأنبياء ما بعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان.

وأما الآثار: فقد جاء في الأثر: لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم. وفي لفظ آخر: ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم، لستم بها صادقين.

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر

---

(١) **منكر**: حديث ابن عباس: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا». تقدم مختصرا. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٠٨].

(٢) **ضعيف**: حديث «إذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله «ورغبه في الآخرة» وزاد «فقهه في الدين» وإسناده ضعيف. [انظر ضعيف الجامع: ٣٣٥].

(٣) **حسن لغيره**: حديث «ازهد في الدنيا يحبك الله». تقدم. [ابن ماجه: ٤١٠٢، وانظر صحيح الترغيب: ٣٢١٣].

(٤) حديث «من أراد أن يؤته الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا». لم أجد له أصلا.

(٥) **ضعيف**: حديث «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات». رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب. [انظر السلسلة الضعيفة: ٤٥٥٠].

(٦) **موضوع**: حديث «أربع لا يدركن إلا بتعب: الصمت وهو أول العبادة». رواه الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم. [انظر ضعيف الترغيب: ١٧١١].

الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا.

وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين: أنتم أكثر أعمالاً واجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرًا منكم. قيل: ولم ذلك؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا منكم.

وقال عمر رضي الله عنه: الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد.

وقال بلال بن سعد: كفى به ذنبًا أنّ الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها.

وقال رجل لسفيان: أشتهي أن أرى عالمًا زاهدًا، فقال: ويحك: تلك ضالة لا توجد.

وقال وهب بن منبه: إنّ للجنة ثمانية أبواب، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوّابون يقولون: وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة.

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله: إني لأشتهي من الله ثلاث خصال: أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم، ولا يكون عليّ دين ولا على عظمي لحم فأعطي ذلك كله.

وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها، فقال له بنوه: قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال: أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني، موتوا يا أهلي جوعًا خير لكم من أن تذبحوها فضيلاً.

وقال عبيد بن عميرة كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر، وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدّخر لغد، أينما أدركه المساء نام.

وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم: هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بدّ لنا من الطعام والثياب والحطب فقال لها أبو حازم: من هذا كله بدّ، ولكن لا بدّ لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار.

وقيل للحسن: لم لا تغسل ثيابك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك.

وقال إبراهيم بن أدهم: قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدًا سرمدًا.

وقال بعض السلف: نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا، وكأنه التفت إلى معنى قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ

فصلًا إن شاء الله تعالى وهو: بيان ذم المال، ثم مدحه، ثم تفصيل فوائد المال وآفاته، ثم ذم الحرص والطمع، ثم علاج الحرص والطمع. ثم فضيلة السخاء. ثم حكايات الأسخياء، ثم ذم البخل، ثم حكايات البخلاء. ثم الإيثار وفضله. ثم حد السخاء والبخل. ثم علاج البخل. ثم مجموع الوظائف في المال. ثم ذم الغنى ومدح الفقر؛ إن شاء الله تعالى.

بيان ذم المال وكراهة حبه

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥] فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسرانًا عظيمًا. وقال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود:١٥] الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧] فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١].

وقال رسول الله ﷺ: «حُبُّ المَالِ وَالشَّرَفِ يُنْبِتَان النِّفَاقَ فِي القَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ المَاءُ البَقْلَ» (١)، وقال ﷺ: «ما ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرَ إفْسَادًا فِيها مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالمَالِ وَالجَاهِ فِي دِينِ الرَّجُلِ المُسْلِمِ» (٢)، وقال ﷺ: «هَلَكَ المُكْثِرُونَ إلا مَنْ قالَ بِهِ فِي عِبادِ الله هكَذا وَهكَذا وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» (٣)، وقيل: يا رسول الله أي أمتك شر؟ قال: «الأغنياء» (٤)، وقال

---

٢ كتاب ذم البخل وحب المال

(١) حديث «حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل». لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ «الجاه» بدل «الشرف» [لم أجده بهذا اللفظ، انظر الحديث الآتي].

(٢) صحيح بلفظ: «والشرف في دين ...»: حديث «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم». أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا «جائعان» مكان «ضاريان» ولم يقولا «في زريبة» وقالا «الشرف» بدل «الجاه» قال الترمذي حسن صحيح، [الترمذي: ٢٣٧٦، انظر صحيح الجامع: ٥٦٢٠، وصحيح الترغيب: ١٧١٠]، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد «ما ذئبان ضاريان في زريبة غنم... الحديث» وللبزار من حديث أبي هريرة «ضاريان جائعان» وإسناد الطبراني فيهما ضعيف [انظر صحيح الترغيب: ٣٢٥١، المشكاة: ٥١٨١].

(٣) حسن صحيح دون قوله: «في عباد الله»: حديث «هلك المكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم». أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبزي بلفظ «المكثرون» ولم يقل «في عباد الله»، [انظر صحيح الترغيب: ٣٢٦١]، ورواه أحمد من حديث أبي سعيد بلفظ «المكثرون» وهو متفق عليه من حديث أبي ذر بلفظ «هم الأخسرون» فقال أبو ذر: من هم؟ فقال «هم الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا... الحديث» [البخاري: ٦٦٣٨، مسلم: ٩٩٠].

(٤) حديث: قيل يا رسول الله أي أمتك شر؟ قال «الأغنياء». غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن جعفر «شرار أمتي الذين ولدوا في النعيم وغذوا به يأكلون من الطعام ألوانا» وفيه أصرم بن حوشب ضعيف، [قال الألباني: حسن لغيره. انظر صحيح الترغيب: ٢١٤٩]، ورواه هناد بن السري في الزهد له من رواية عروة بن رويم مرسلا، [ضعفه الألباني، انظر ضعيف الجامع: ٢٨٦٦] وللبزار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف «إن من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم وتنبت عليه أجسامهم» [قال الألباني: حسن لغيره. انظر صحيح الترغيب: ٢١٤٧].

ﷺ: «سَيأْتِي بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلونَ أَطَايِبَ الدُّنْيا وَأَلْوَانَهَا وَيَرْكَبُونَ فُرْهَ الخَيْلِ وَأَلْوَانها وَيَنْكِحُونَ أَجْمَلَ النِّسَاءِ وَأَلْوَانَها وَيَلْبَسُونَ أَجْمَلَ الثِّيَابِ وَأَلْوَانَهَا، لَهُمْ بُطُونٌ مِنَ القَلِيلِ لا تَشْبَعُ وَأَنْفُسٌ بِالكَثِيرِ لا تَقْنَعُ، عَاكِفُونَ عَلَى الدُّنْيَا يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ إِلَيْهَا، اتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ إِلهِهِمْ وَرَبًّا دُونَ رَبِّهِمْ، إِلَى أَمْرِها يَنْتَهُونَ وَلِهَوَاهُمْ يَتْبَعُونَ، فَعَزِيمَةٌ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله لِمَنْ أَدْرَكَهُ ذلِكَ الزَّمَانُ مِنْ عَقِب عَقِبِكُمْ وَخَلَف خَلَفِكُمْ أن لا يُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ وَلا يَعُودَ مَرْضَاهُمْ وَلا يَتْبَعَ جَنَائِزَهُمْ وَلا يُوَقِّرَ كَبِيرَهُمْ، فَمَنْ فَعَلَ ذلِكَ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الإِسْلامِ» (١)، وقال ﷺ: «دَعُوا الدُّنْيَا لأَهْلِها، وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ ما يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لا يَشْعُرُ» (٢)، وقال ﷺ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مالِي مالِي وَهَــلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلاّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟» (٣)، وقال رجل: يا رسول الله مالي لا أحب الموت فقال: «هَلْ مَعَكَ مِنْ مَالٍ؟» قال: نعم يا رسول الله؛ قال: «قَدِّم مَالَكَ فإنَّ قَلْبَ المُؤْمِنِ مَعَ مَالِهِ، إِنْ قَدَّمَهُ أَحَبَّ أَنْ يَلْحَقَهُ وَإِنْ خَلَّفَهُ أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ مَعَهُ» (٤)، وقال ﷺ: «أَخلاَّءُ ابْنِ آدَمَ ثَلاثَةٌ. وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ، وَالثَّانِي إِلَى قَبْرِهِ، وَالثَّالِثُ إِلَى مَحْشَرِهِ. فَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ فَهُوَ مَالُهُ، وَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْرِهِ فَهُوَ أَهْلُهُ، وَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلى مَحْشَرِهِ فَهُوَ عَمَلُهُ» (٥).

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما لك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك؟ فقال لهم؛ ما منزلة الدينار والدرهم عندكم؟ قالوا: حسنة، قال: لكنهما والمدر عندي سواء. وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما: يا أخي إياك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدي شكره، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي أَطَاعَ الله فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُلَّمَا تَكَفَّأَ بِهِ الصِّرَاطُ قالَ لَهُ مَالُهُ امْضِ فَقَدْ أَدَّيْتَ حَقَّ الله فِيَّ، ثُمَّ يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَمْ يُطِعِ الله فِيها وَمَالُهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ كُلَّما تَكَفَّأَ بِهِ الصِّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ وَيْلَكَ أَلاَ أَدَيْتَ حَقَّ

---

(١) حديث «سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ويركبون فره الخيل وألوانها وينكحون أجمل النساء .. الحديث». بطوله أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون في الكلام أولئك شرار أمتي» وسنده ضعيف [حسنه الألباني، انظر صحيح الجامع: ٣٦٦٣، صحيح الترغيب: ٢٠٨٨]، ولم أجد لباقيه أصلا.

(٢) ضعيف: حديث «دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر». أخرجه البزار من حديث أنس وفيه هانئ بن المتوكل ضعفه ابن حبان. [انظر ضعيف الجامع: ٢٩٨٠، الضعيفة: ١٦٩١].

(٣) صحيح: حديث «يقول ابن آدم: مالي! مالي! .. الحديث». أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير وأبي هريرة وقد تقدم [مسلم: ٢٩٥٨، ٢٩٥٩ على الترتيب].

(٤) حديث: قال رجل يا رسول الله ما لي لا أحب الموت .. الحديث». لم أقف عليه.

(٥) حديث «أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره .. الحديث». أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير بإسناد جيد نحوه، ورواه أبو داود الطيالسي وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضا وفي الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد... الحديث» [البخاري: ٦٥١٤، مسلم: ٢٩٦٠].

يحصل بمجرّد العدم.

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها، وهذا زهد الراجين؛ فإنّ هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له.

الدرجة الثالثة: وهي العليا. أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى؛ وهو الذي أصبح وهمومه هم واحد؛ وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى؛ لأن من طلب غير الله فقد عبده، وكل مطلوب معبود؛ وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلب غير الله من الشرك الخفي، وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه، وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار، فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أنّ الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره، ولا تظنن أنّ أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك، وذلك لقصوره، عن إدراك لذة الملك لا لأنّ اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الأقاويل، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أنّ أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل. فنقول: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمل للجمل. أما الإجمال في الدرجة الأولى: فهو كل ما سوى الله، فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضًا، والإجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها. وفي الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس. وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في

أخرجه أحمد من حديث ابن عباس «التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمن غني، ومؤمن فقير... الحديث، وفيه: «إني حبست بعدك محبسا فظيعا كريها ما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لو ورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء» وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد: حديثه مثله. [أحمد: ٢٧٦٦، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٥٢].

العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها، كما أنّ معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠] ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦] ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه. وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أنّ البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى.

فالحاصل أنّ الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء؛ فإنّ من أراد شيئًا أراد دوامه، ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردها، ولذلك لما كتب عليهم القتال: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧] فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا، فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين. أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصًا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة، حتى أنّ خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول: كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعًا في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز، فلما مات عدّ على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات، هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وأما المنافقون، ففرّوا من الزحف خوفًا من الموت فقيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]

سعادة الآخرة التي هي النعيم الدائم والملك المقيم. والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس، إذ قيل لرسول الله ﷺ: من أكرم الناس وأكيسهم؟ فقال: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا» (١).

وهذه السعادة لا تنال إلا بثلاث وسائل في الدنيا وهي الفضائل النفسية، كالعلم وحسن الخلق، والفضائل البدنية: كالصحة والسلامة، والفضائل الخارجة عن البدن: كالمال وسائر الأسباب. وأعلاها النفسية، ثم البدنية، ثم الخارجة.

فالخارجة أخسها والمال من جملة الخارجات، وأدناها الدراهم والدنانير، فإنهما خادمان ولا خادم لهما، ومرادان لغيرهما. ولا يرادان لذاتهما؛ إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء، والمطاعم والملابس تخدم البدن. وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن. ومن المناكح إبقاء النسل، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق. ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس الذي هو خير ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتًا إليها غير ناس لها فقد أحسن وانتفع، وكان ما حصل له الغرض محمودًا في حقه، فإذًا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح، ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة وتسدّ سبيل العلم والعمل. فهو إذًا محمود مذموم، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم. فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر (٢) كما ورد به الخبر.

ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهلًا لها وآلة إليها، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا» (٣)، فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ المَسَاكِينِ» (٤)، واستعاذ

---

(١) حسن: حديث: من أكرم الناس وأكيسهم؟ قال «أكثرهم للموت ذكرا .. الحديث». أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ: أي المؤمنين أكيس؟ ورواه ابن أبي الدنيا في الموت بلفظ المصنف وإسناده جيد [ابن ماجه: ٤٢٥٩، انظر صحيح الجامع: ٣٣٣٥، الصحيحة: ١٣٨٤].

(٢) ضعيف: حديث «من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه». تقدم قبله بتسعة أحاديث وهو بقية «احذروا الدنيا» [انظر ضعيف الجامع: ١٠٦، الضعيفة: ١٦٩١].

(٣) صحيح: حديث «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا». متفق عليه من حديث أبي هريرة [البخاري: ٦٤٦٠، مسلم: ١٠٥٥ بلفظ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا» وفي رواية لمسلم: ١٠٥٥ بلفظ: «كفافًا»].

(٤) صحيح: حديث «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا». أخرجه الترمذي من حديث أنس [الترمذي: ٢٣٥٢]، وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم [ابن ماجه: ٤١٢٦، وانظر صحيح الجامع: ١٢٦١، الصحيحة: ٣٠٨].

إبراهيم فقال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [ابراهيم :٣٥] وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة، إذ رتبة النبوّة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة، إذ قد كفي قبل النبوّة عبادتها مع الصغر، وإنما معنى عبادتهما حبهما والاغترار بهما والركون إليهما قال نبينا ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَتَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ وَلا انْتَعَشَ وَإذا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ»[(١)]، فبين أن محبهما عابد لهما ومن عبد حجرًا فهو عابد صنم. بل كل من كان عبدًا لغير الله فهو عابد صنم، أي قطعه ذلك عن الله تعالى أداء حقه فهو كعابد صنم، وهو شرك إلا أن الشرك شركان: شرك خفي لا يوجب الخلود في النار وقلما ينفك عنه المؤمنون فإنه أخفى من دبيب النمل، وشرك جلي يوجب الخلود في النار نعوذ بالله من الجميع.

بيان تفصيل آفات المال وفوائده:

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق، ففوائده ترياقه، وغوائله سمومه. فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره.

أما الفوائد: فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية: أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق، ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها. وأما الدينية فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع.

النوع الأول: أن ينفقه على نفسه إما في عبادة أو في الاستعانة على عبادة. أما في العبادة: فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال، وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلهما. وأما فيما يقويه على العبادة: فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفًا إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية. ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام: الصدقة، والمروءة، ووقاية العرض، وأجرة الاستخدام.

أما الصدقة: فلا يخفى ثوابها وإنها لتطفيء غضب الرب تعالى، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم.

وأما المروءة: فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة وما يجري مجراها، فإن هذه لا تسمى صدقة، بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج إلا أن هذا من

---

(١) صحيح دون قوله: «ولا انتعش»: حديث « تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم .. الحديث». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل «وانتقش» [البخاري: ٢٨٨٧، وليس فيه: «ولا انتعش . . . إلخ»] وإنما علق آخره بلفظ «تعس وانتكس» ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم [ابن ماجه: ٤١٣٦، وانظر صحيح الجامع: ٢٩٦٢، صحيح الترغيب: ١٢٢٥].

دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلًا بغير الله؛ فإنّ ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه؛ فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضًا عن الحج، ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج، ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب، وعن الحرّ والبرد المهلك باللباس والمسكن، فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى، فذلك لا يناقض الزهد، بل هو شرط الزهد، وإن قلت: فلا بدّ وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع؛ فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ، فإنّ شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش، ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودًا عنده ومطلوبًا بالقصد، فلا يكون القلب منصرفًا إليه؛ فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره، ولقد كان في الخائفين من طلب موضعًا لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله، ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس، ويشرب الماء الحارّ ويقول: من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط، فإنه وإن كان شاقًّا فمدّته قريبة والاحتماء مدّة يسيرة للتنعم على التأبيد، لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة:

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم؛ فالفضول كالخيل المسوّمة مثلًا، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشي والمهم كالأكل والشرب، ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر، وإنما ينحصر المهم الضروري، والمهم أيضًا يتطرّق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته، فلا بدّ من بيان وجه الزهد فيه، والمهمات ستة أمور: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال. والجاه يطلب لأغراض. وهذه الستة من جملتها، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربع المهلكات، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة.

الأول المطعم: ولا بدّ للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد؛ فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر، فإن من يملك

طعام يومه فلا يقنع به، وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله؛ أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّة الجوع وخوف المرض، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدّخر من غذائه لعشائه، وهذه هي الدرجة العليا.

الدرجة الثانية: أن يدّخر لشهر أو أربعين يومًا.

الدرجة الثالثة: أن يدّخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد، ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدًا محال؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدًّا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس، كداود الطائي فإنه ورث عشرين دينارًا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة؛ فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مدّ واحد: وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت، ولو الخبز من النخالة، وأوسطه خبز الشعير والذرة، وأعلاه خبز البر غير منخول، فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلًا عن أوائله.

وأما الأدم: فأقله الملح أو البقل والخل، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان، وأعلاه اللحم أي لحم كان، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين، فإن صار دائمًا أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدًا في البطن أصلًا، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائمًا، وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب، وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام أو أسبوعًا وما زاد عليه، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات، ولينظر إلى أحوال رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم.

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار.

قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر والماء (١).

وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم.

---

(١) حديث عائشة: كان تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار. أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة: «كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته دخان... الحديث» [ابن ماجه: ٤١٤٥، وانظر صحيح ابن ماجه، وقال الألباني: حسن صحيح]. وفي رواية له: ما يوقد فيه بنار. ولأحمد: «كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار» [مسلم: ٢٩٧٢، وأحمد: ٢٤٠٤٠]. وفي رواية له: ثلاثة أهلة.

إلى الكثير أو طول أمله فاته عز القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص، وجرّه الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات، وقد جبل الآدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة. قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيانِ مِنْ ذَهَبٍ لابْتَغَى لَهُمَا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلاَّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ» (١)، وعن أبي واقد الليثي: قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه أتيناه يعلمنا مما أوحي إليه، فجئته ذات يوم فقال: «إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إنَّا أَنْزَلْنَا المَالَ لإقامِ الصَّلاةِ وَإيتاءِ الزَّكاةِ، وَلَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ لأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثانٍ وَلَوْ كَانَ لَهُ الثَّانِي لأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا ثَالِثٌ وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلاّ التُّرَابُ وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ» (٢).

وقال أبو موسى الأشعري: نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها: إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديًا ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب» (٣). وقال ﷺ: «مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومُ العِلْمِ وَمَنْهُومُ المَالِ» (٤)، وقال ﷺ: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشُبُّ مَعَهُ اثْنَتَانِ: الأَمَلُ وَحُبُّ المَالِ» أو كما قال (٥).

ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة وغريزة مهلكة أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة، فقال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلإِسْلامِ وَكانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنِعَ بِهِ» (٦)، وقال ﷺ: «ما مِنْ أَحَدٍ فَقِيرٍ وَلاَ غَنِيٍّ إلاَّ وَدَّ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَهُ كَانَ أُوتِيَ قُوتًا فِي الدُّنْيَا» (٧)، وقال ﷺ: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ

---

(١) صحيح: حديث «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا .. الحديث». متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس [البخاري: ٦٤٣٦، ٦٤٣٩، مسلم: ١٠٤٩، ١٠٤٨ على الترتيب].

(٢) صحيح: حديث أبي واقد الليثي «إن الله عز وجل يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .. الحديث». أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب بسند صحيح، [انظر صحيح الجامع: ١٧٨١، الصحيحة: ١٦٣٩].

(٣) صحيح دون قوله: **إن الله يؤيد هذا ... لهم**»: حديث أبي موسى: نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال .. الحديث». أخرجه مسلم مع اختلاف دون قوله «إن الله يؤيد هذا الدين»[مسلم: ١٠٤٨، من قوله: «لو أن لابن آدم ... إلخ»] ورواه بهذه الزيادة الطبراني وفيه علي ابن زيد متكلم فيه [انظر الصحيحة: ٢٩١٢].

(٤) صحيح: حديث «منهومان لا يشبعان .. الحديث». أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف [انظر صحيح الجامع: ٦٦٢٤، المشكاة: ٢٦٠].

(٥) صحيح: حديث «يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان .. الحديث». متفق عليه من حديث أنس [البخاري: ٦٤٢١، مسلم: ١٠٤٧].

(٦) صحيح: حديث «طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به». أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من حديث فضالة بن عبيد [الترمذي: ٢٣٤٩، انظر صحيح الجامع: ٣٩٣١، صحيح الترغيب: ٨٣٠]، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر «وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنّعه الله بما آتاه» [مسلم: ١٠٥٤].

(٧) ضعيف جدًا: حديث «ما من أحد غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة إنه كان أوتي في الدنيا قوتا». أخرجه ابن ماجه من رواية نفيع بن الحارث عن أنس، ونفيع ضعيف [ابن ماجه: ٤١٤٠، انظر ضعيف الجامع: ٥١٤٧، ضعيف الترغيب: ١٨٨١، الضعيفة: ٤٨٦٩].

العَرَضِ إِنَّمَا الغِنَى غِنَى النَّفْسِ» (١)، ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب فقال: «أَيُّها النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلاَّ ما كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيهِ ما كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ» (٢).

وروي أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال: أي عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم مما أعطيته، قال: فأيهم أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه. وقال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُـوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ» (٣). وقال أبو هريرة: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أَبَا هُرَيْرَةَ إذا اشْتَدَّ بِكَ الجُوعُ فَعَلَيْكَ بِرَغِيفٍ وَكُوزٍ مِنْ مَاءٍ وَعَلَى الدُّنْيَا الدَّمَارُ» وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا» (٤)، ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري: أنَّ أعرابيًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله عظني وأوجز فقال: «إذا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ وَلا تَحَدَّثَنَّ بِحَدِيثٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا، وَأَجْمِعِ اليَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ» (٥)، وقال عوف بن مالك الأشجعي: كنا عند رسول الله ﷺ، تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله» قلنا: أو ليس قد بايعناك يا رسول الله؟ ثم قال: «أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله» فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا: قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك؟ قال: «أَنْ تَعْبُدُوا الله وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَتُصَلُّوا الخَمْسَ، وَأَنْ تَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا» وأسر كلمة خفية «ولا تسألوا الناس شيئًا» (٦)، قال: فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه.

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: إنّ الطمع فقر وإنّ اليأس غنى وإنه من ييأس عما في أيدي

---

(١) صحيح: حديث «ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس». متفق عليه من حديث أبي هريرة [البخاري: ٦٤٤٦، مسلم: ١٠٥١].

(٢) صحيح: حديث «ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له». أخرجه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصحح إسناده، وقد تقدم في آداب الكسب والمعاش [انظر صحيح الجامع: ١٥٧، صحيح الترغيب: ١٦٩٩، الصحيحة: ٨٩٨].

(٣) صحيح: حديث ابن مسعود «إن روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها .. الحديث». أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم مع اختلاف وقد تقدم فيه، [انظر صحيح الجامع: ٢٠٨٥، صحيح الترغيب: ١٧٠٠، الصحيحة: ٢٨٦٦].

(٤) صحيح: حديث أبي هريرة «كن ورعا تكن أعبد الناس .. الحديث». أخرجه ابن ماجه وقد تقدم [ابن ماجه: ٤٢١٧، انظر صحيح الجامع: ٤٥٨٠، صحيح الترغيب: ١٧٤١].

(٥) صحيح: حديث أبي أيوب «إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه وأجمع اليأس مما في أيدي الناس». أخرجه ابن ماجه وتقدم في الصلاة وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح الإسناد [انظر صحيح الجامع: ٧٤٢، الصحيحة: ٤٠١].

(٦) صحيح: حديث عوف بن مالك: كنا عند رسول الله ﷺ - سبعة أو ثمانية أو تسعة - فقال «ألا تبايعون .. الحديث» وفيه «ولا تسألوا الناس». أخرجه مسلم من حديثه ولم يقل: «فقال قائل» ولا قال: «تسمعوا». وقال: سوط أحدهم [مسلم: ١٠٤٣]. وهي عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف [أبو داود: ١٦٤٢، ابن ماجه: ٢٨٦٧، انظر صحيح الترغيب: ٨٠٩].

من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ. وفي الخبر: كان قميص رسول الله ﷺ كأنه قميص زيات (١). ولبس رسول الله ﷺ يومًا واحدًا ثوبًا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم (٢) فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يا رسول الله: أنزل عليك هذا من الجنة تعجبًا، وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية، فأراد أن يكرمه بلبسه، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به، ثم حرم لبس الحرير والديباج. وكأنه إنما لبسه أولًا تأكيدًا للتحريم، كما لبس خاتمًا من ذهب يومًا ثم نزعه (٣)، فحرم لبسه على الرجال، وكما قال لعائشة في شأن بريرة: «اشترطي لأهلها الولاء» (٤)، فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرّمه، وكما أباح المتعة ثلاثًا ثم حرّمها لتأكيد أمر النكاح (٥) وقد صلى رسول الله ﷺ في خميصة لها علم، فلما سلم قال: شغلني النظر إلى هذه، اذهبوا بها إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانيته (٦) يعني كساءه، فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه، فلما سلم قال: «أَعِيدُوا الشِّرَاكَ الخَلَقَ وَانْزِعُوا هذا الجَدِيدَ فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ» ولبس خاتمًا من ذهب ونظر إليه على المنبر نظرة فرمى به فقال: «شَغَلَنِي هذا عَنْكُمْ، نَظْرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ» (٧)، وكان قد احتذى مرة

لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء: رأيته في حلة حمراء [البخاري: ٥٨٤٨، ومسلم: ٢٣٣٧]. ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرورية وعليه أحسن ما يكون من حلل اليمن وقال: «رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل» [أبو داود: ٤٠٣٧، وحسنه الألباني]. وفي الصحيحين من حديث عائشة: «أنه ﷺ قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ مما يصنع باليمن» [البخاري: ٣١٠٨، ومسلم: ٢٠٨٠]، وتقدم في آداب المعيشة. ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رمثة: «وعليه بردان أخضران» [أبي داود: ٤٢٠٦، والترمذي: ٢٨١٢، والنسائي: ١٥٧٢، وانظر صحيح أبي داود]، سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي. وللبزار من حديث قدامة الكلابي: «وعليه حلة حبرة» [قال سفيان - أحد الرواة X نراه حبرة] وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف، قاله الذهبي.

(١) **ضعيف**: حديث: كان قميصه كأنه قميص زيات. أخرجه الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف: كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات. [انظر الشمائل: ٢٦، وضعفه الألباني].

(٢) حديث: لبس يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم أهداه له المقوقس ثم نزعه. [مسلم: ٢٠٧٠ عن جابر، وفيه «أرسل به إلى عمر... وقال: نهاني عنه جبريل..... فباعه عمر بألفي درهم»، ولم أقف على إرساله لرجل من المشركين].

(٣) **صحيح**: حديث: لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزعه. متفق عليه وقد تقدم. [البخاري: ٦٦٥١، ومسلم: ٢٠٩١ عن ابن عمر].

(٤) **صحيح**: حديث قال لعائشة في شأن بريرة «اشترطي لأهلها الولاء». متفق عليه من حديثها. [البخاري: ٢١٦٨، ومسلم: ١٥٠٤].

(٥) **صحيح**: حديث: أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها. أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع. [مسلم: ١٤٠٥].

(٦) **صحيح**: حديث: صلى رسول الله ﷺ في خميصة لها علم. متفق عليه، وقد تقدم في الصلاة. [البخاري: ٣٧٣، ومسلم: ٥٥٦ عن عائشة].

(٧) **صحيح**: حديث: لبس خاتما فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال «شغلني هذا عنكم، نظرة إليه ونظرة إليكم». تقدم. [النسائي: ٥٢٨٩، وانظر السلسلة الصحيحة: ١١٩٢].

نعلين جديدين؛ فأعجبه حسنهما، فخر ساجدًا وقال: «أَعْجَبَنِي حُسْنُهُمَا فَتَوَاضَعْتُ لِرَبِّي خَشْيَةَ أَنْ يَمْقتني» ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه (١).

وعن سنان بن سعد قال: حيكت لرسول الله ﷺ جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال: «انْظُرُوا مَا أَحْسَنَهَا ومَا أَلْيَنَهَا» قال: فقام إليه أعرابي فقال يا رسول الله هبها لي، وكان رسول الله إذا سئل شيئًا لم يبخل به، قال: فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى، فمات وهي في المحاكة (٢).

وعن جابر قال دخل رسول الله ﷺ على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فلما نظر إليها بكى وقال: «يا فَاطِمَةُ؛ تَجَرَّعِي مَرَارَةَ الدُّنْيَا لِنَعِيمِ الأَبد، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]» (٣) وقال ﷺ «إِنَّ مِنْ خِيارَ أُمَّتِي فِيمَا أَنْبَأَنِي المَلأُ الأَعْلَى قَوْمًا يَضْحَكُونَ جَهْرًا مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَبْكُونَ سِرًّا مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ، مُؤْنَتُهُمْ عَلَى النَّاسِ خَفِيفَةٌ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ثَقِيلَةٌ يَلْبَسُونَ الخُلْقَانَ وَيَتْبَعُونَ الرُّهْبَانَ؛ أَجْسَامُهُمْ فِي الأَرْضِ وَأَفْئِدَتُهُمْ عِنْدَ العَرْشِ» (٤)، فهذه كانت سيرة رسول الله ﷺ في الملابس وقد أوصى أمته عامة باتباعه، إذ قال: «مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي» (٥)، وقال ﷺ «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» (٦).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وأوصى رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها خاصة وقال: «إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ وَلا تَنْزَعِي ثَوْبًا حَتَّى تَرْقَعِيهِ» (٧) وعدّ على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم. واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبًا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة

---

(١) حديث: احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه. تقدم.

(٢) حديث سنان بن سعد: حبكت لرسول الله ﷺ جبة صوف من صوف أنمار». رواه أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله: وأمر أن يحاك له أخرى، فهي عند الطبراني فقط، وفيه زمعة بن صالح ضعيف، ويقع في كثير من نسخ الإحياء: سيار بن سعد وهو غلط.

(٣) حديث جابر: دخل ﷺ على فاطمة وهي تطحن بالرحى. أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف.

(٤) حديث إن من خيار أمتي فيما آتاني العلى الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى، ويبكون سرا من خوف عذابه. تقدم، وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه.

(٥) **ضعيف**: حديث «من أحبني فليستن بسنتي». تقدم في النكاح. [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٥٠٩].

(٦) **صحيح**: حديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ». رواه أبو داود والترمذي وصححه، وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية. [أبو داود: ٤٦٠٧، والترمذي: ٢٦٧٦، وابن ماجه: ٤٢، وانظر صحيح الترغيب: ٣٧].

(٧) **ضعيف جداً** حديث قال لعائشة «إن أردت اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء». أخرجه الترمذي وقال غريب، والحاكم وصححه من حديث عائشة، وقد تقدم. [الترمذي: ١٧٨٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٧٨].

الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدّة التمتع وتوقع الزوال. وقال عبد الواحد بن زيد: مررت براهب فقلت له: من أين تأكل؟ قال: من بيدر اللطيف الخبير، الذي خلق الرحا يأتيها بالطحين، وأومأ بيده إلى رحا أضراسه ، فسبحان القدير الخبير.

بيان علاج الحرص والطمع، والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة

اعلم أنّ هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر والعلم والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: وهو العمل؛ الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق، فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يسدّ عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ويردّ نفسه إلا ما لا بدّ منه، فمن كثر خرجه واتسع انفاقه لم تمكنه القناعة، بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن، ويقنع بأي طعام كان؛ ويقلل من الإدام ما أمكنه، ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال فيردّ كل واحد إلى هذا القدر؛ فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد. ويمكن معه الإجمال في الطلب والاقتصاد في المعيشة وهو الأصل في القناعة؛ ونعني به الرفق في الإنفاق وترك الخرق فيه، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» (١)، وقال ﷺ: «ما عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ» (٢)، وقال ﷺ: «ثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ؛ خَشْيَةُ الله فِي السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ، وَالقَصْدُ فِي الغِنَى والفَقْرِ، وَالعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ» (٣)، وروي أن رجلًا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبًا من الأرض وهو يقول: إن من فقهك رفقك في معيشتك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبيّ ﷺ: «الاقْتِصَادُ وَحُسْنُ السَّمْتِ وَالهَدْيُ الصَّالِحُ جُزْءٌ مِنْ بِضْعٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ» (٤).

وفي الخبر: «التَّدْبِيرُ نِصْفُ المَعِيشَةِ» (٥)، وقال ﷺ: «مَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ الله، وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ الله، وَمَنْ ذَكَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَّهُ الله» (٦)، وقال ﷺ: «إذا أَرَدْتَ أَمْرًا فَعَلَيْكَ بِالتُّؤَدَةِ حَتَّى يَجْعَلَ

---

(١) صحيح: حديث «إن الله يحب الرفق في الأمر كله». متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم [البخاري: ٦٠٢٤، مسلم: ٢١٦٥].

(٢) ضعيف: حديث «ما عال من اقتصد». أخرجه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ «مقتصد» [انظر ضعيف الجامع: ٥١٠٠، ٥١٠١، الضعيفة: ٤٤٥٩].

(٣) حسن: حديث «ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب». أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف [انظر صحيح الجامع: ٣٠٣٩، صحيح الترغيب: ٤٥٣، الصحيحة: ١٨٠٢].

(٤) حسن: حديث ابن عباس «الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح». أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال «السمت الصالح» وقال «من خمسة وعشرين» [أبو داود: ٤٧٧٦، انظر صحيح الجامع: ١٩٩٣] ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال «التؤدة» بدل «الهدى الصالح» وقال «من أربعة» [الترمذي: ٢٠١٠، انظر صحيح الجامع: ٣٦٩٢، صحيح الترغيب: ١٦٩٦].

(٥) موضوع: حديث «التدبير نصف المعيشة». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس، وفيه خلاد بن عيسى، جهله العقيلي، ووثقه ابن معين [انظر ضعيف الجامع: ٢٢٨٦، والضعيفة: ١٥٧].

(٦) ضعيف: حديث «من اقتصد أغناه الله .. الحديث». أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله

الله لَكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا» (١)، والتؤدة في الإنفاق من أهم الأمور.

الثاني أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذي قدّر له فلا بدّ وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه، فإن شدّة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغي أن يكون واثقًا بوعد الله تعالى إذ قال عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول: إن لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤال، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفًا من الفقر، ويضحك عليه في احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله لتوهم تعب في ثاني الحال وربما لا يكون.

وفي مثله قيل:

مَنْ ينفقِ السّاعات في جمع مالهِ مخافة فقرٍ فالذي فعل الفقر

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله ﷺ فقال لهما: «لا تَيْأَسا مِنَ الرِّزْقِ ما تَهَزْهَزَتْ رُؤُوسُكُمَا فَإِنَّ الإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ ثُمَّ يَرْزُقُهُ الله تَعَالَى» (٢)، ومرّ رسول الله ﷺ بابن مسعود وهو حزين فقال له: «لا تُكْثِرْ هَمَّكَ ما قُدِّرَ يَكُنْ وَمَا تُرْزَقْ يَأْتِكَ» (٣)، وقال ﷺ «أَلا أَيُّها النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلاّ ما كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَهُ ما كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ» (٤)، ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله، وقال ﷺ «أَبَى الله أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ المُؤْمِنَ إِلاّ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ» (٥)، وقال سفيان: اتق الله فما رأيت تقيًا محتاجًا. أي لا يترك التقي فاقدًا

«ومن ذكر الله أحبه الله» وشيخه فيه عمران بن هارون البصري قال الذهبي: شيخ لا يعرف حاله أتى بخبر منكر أي هذا الحديث، ولأحمد وأبي يعلى في حديث لأبي سعيد «ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله».

(١) ضعيف: حديث «إذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله فيه فرجا ومخرجا». رواه ابن المبارك في البر والصلة وقد تقدم [انظر ضعيف الجامع: ٣٤٨، الضعيفة: ٢٣٠٧].

(٢) ضعيف: حديث «لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما .. الحديث». رواه ابن ماجه من حديث: حَبَّة وسَوَاءٍ ابني خالد، وقد تقدم [ابن ماجه: ٤١٦٥، انظر ضعيف الجامع: ٦٢٨١، ضعيف ابن ماجه].

(٣) ضعيف: حديث «لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك». قاله لابن مسعود أخرجه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف في صحبته ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المغافري مرسلا [انظر ضعيف الجامع: ٦٢٦٤].

(٤) صحيح: حديث «ألا أيها الناس أجملوا في الطلب .. الحديث». تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا [انظر صحيح الجامع: ٢٧٤٢، ١٥٧، صحيح الترغيب: ١٦٩٩].

(٥) ضعيف: حديث «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب». أخرجه ابن حبان في الضعفاء

في المسكن؛ فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر، واختلاف قدره بالسعة والضيق، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكًا أو مستأجرًا أو مستعارًا، والزهد مدخل في جميع ذلك. وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حدّ الضرورة، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته، وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى، وأقل الدرجات فيه معلوم، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدًّا، وقد قيل: أوّل شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله ﷺ التدريز والتشييد، يعني بالتدريز: كف دروز الثياب فإنها كانت تشل شلًا والتشييد: هو البنيان بالجص والآجر، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد(١) .

وقد جاء في الخبر: «يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية» وأمر رسول الله ﷺ العباس أن يهدم علية كان قد علا بها(٢) . ومرَّ عليه السلام بجنبذة معلاة فقال: «لمن هذه؟» قالوا لفلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغيير وجهه فأخبر، فذهب فهدمها؛ فمر رسول الله ﷺ بالموضع فلم يرها. فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير(٣) .

وقال الحسن: مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة(٤) . وقال النبي ﷺ: «إذا أَرَادَ اللَّهِ بِعَبْدٍ شَرًّا أَهْلَكَ مَالَهُ فِي الـمَاءِ وَالطِّينِ(٥) ، وقال عبد الله بن

---

(١) حديث: كانت الثياب تشل شلا، وكانوا يبنون بالسعف والجريد أماشل الثياب من غير كف. فروى الطبراني والحاكم: «أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كف وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ». وأما البناء ففي الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة: «فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة... الحديث» [البخاري: ١٨٦٨، ومسلم: ٥٢٤]، ولهما من حديث أبي سعيد: «كان المسجد على عريش فوكف المسجد» [البخاري: ٢٠٢٧، ومسلم: ١١٦٧، وكف: سال من سقفه المطر].

(٢) ضعيف مرسل: حديث: أمر رسول الله ﷺ العباس أن يهدم علية له كان قد علاها. رواه الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبي ﷺ «اهدمها... الحديث» وهو منقطع. [انظر ضعيف الترغيب: ١١٧٧].

(٣) حسن صحيح: حديث: مر بجنبذة معلاة فقال «لمن هذه؟» قالوا: لفلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه. أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ: فرأى قبة مشرفة الحديث، والجنبذة القبة. [أبو داود: ٥٢٣٧، وانظر صحيح الترغيب: ١٨٧٤]. (بجنبذة معلاة: قبة مرتفعة)

(٤) ضعيف: حديث الحسن: مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة. رواه ابن حبان في الثقات، وأبو نعيم في الحلية هكذا مرسلا. وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة «من سأل عني أو سره أن ينظر إلي فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة... الحديث» وإسناده ضعيف. [انظر ضعيف الترغيب: ١٨٩٦ عن عائشة].

(٥) ضعيف: حديث «إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الماء والطين». رواه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد «خضر له في الطين واللبن حتى يبني». [انظر ضعيف الجامع: ٣٣٦ عن جابر، قلت: ولم أره عند أبي داود ولا عن عائشة].

عمر: مرّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصًّا، فقال: «ما هذا؟» قلنا خص لنا قد وهى فقال: «أَرَى الأَمْرَ أَعْجَلَ مِنْ ذلِكَ» [(١)]، واتخذ نوح عليه السلام بيتًا من قصب، فقيل له: لو بنيت؟ فقال: هذا كثير لمن يموت.

وقال الحسن: دخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه، فقيل له: لو أصلحته؟ فقال: كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ بَنَى فَوْقَ ما يَكْفِيهِ كُلِّفَ أَنْ يَحْمِلَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» [(٢)]، وفي الخبر: «كُلُّ نَفَقَةٍ لِلْعَبْدِ يُؤْجَرُ عَلَيْهَا إلاَّ مَا أَنْفَقَهُ فِي المَاءِ وَالطِّينِ» [(٣)]، وفي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص:٨٣] إنه الرئاسة والتطاول في البنيان.

وقال ﷺ: «كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ القِيامَةِ إلاّ مَا أَكَنَّ مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرْدٍ» [(٤)]، وقال ﷺ للرجل الذي شكا إليه ضيق منزله: «اتَّسِعْ فِي السَّمَاءِ» [(٥)]، أي في الجنة، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وآجر، فكبَّر وقال: ما كنت أظنّ أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون؛ يعني قول فرعون ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص :٣٨] يعني به الآجر، ويقال: إنّ فرعون هو أوّل من بني له بالجص والآجر، وأوّل من عمله هامان، ثم تبعهما الجبابرة، وهذا هو الزخرف، ورأى بعض السلف جامعًا في بعض الأمصار فقال: أدركت هذا المسجد مبنيًا من الجريد والسعف، ثم رأيته مبنيًا من رهص، ثم رأيته الآن مبنيًا باللبن، فكان أصحاب السعف خيرًا من أصحاب الرهص، وكان أصحاب الرهص خيرًا من أصحاب اللبن.

وكان في السلف من يبني داره مرارًا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البنيان، وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه، فإذا رجع أعاده، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن، وكان ارتفاع بناء

---

(١) صحيح: حديث عبد الله بن عمر: مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصا لنا قد وهى». رواه أبو داود والترمذي وصححه ابن ماجه. [أبو داود: ٥٢٣٦، والترمذي: ٢٣٣٥، وابن ماجه: ٤١٦٠، وانظر صحيح أبي داود].

(٢) ضعيف جداً: حديث «من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة أن يحمله». رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد فيه لين وانقطاع. [انظر ضعيف الترغيب: ١١٧٦].

(٣) صحيح: حديث «كل نفقة العبد يؤجر عليهم إلا ما أنفقه في الماء والطين». رواه ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت بإسناد جيد بلفظ: إلا في التراب أو قال في البناء. [ابن ماجه: ٤١٦٣، وانظر صحيح الجامع: ٤٥٦٦].

(٤) حسن صحيح: حديث «كل بناء وبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أو برد». رواه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ «إلا ما لا» يعني ما لا بد منه. [أبو داود: ٥٢٣٧، وانظر صحيح الترغيب: ١٨٧٤].

(٥) حديث قال للرجل الذي شكى إليه ضيق منزله «اتسع في السماء» قال المصنف: أي في الجنة. رواه أبو داود في المراسيل من اليسع بن المغيرة قال: شكى خالد بن الوليد فذكره، وقد وصله الطبراني فقال عن اليسع بن المغيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد، إلا أنه قال: ارفع إلى السماء واسأل الله السعة، وفي إسناده لين.

السقف قامة وبسطة. قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بيدي إلى السقف. وقال عمرو بن دينار: إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك: إلى أين يا أفسق الفاسقين؟ وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال: لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر إليه معين عليه. وقال الفضيل: إني لم أعجب ممن بنى وترك، ولكني أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين، يصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير دينكم.

المهم الرابع: أثاث البيت، وللزهد فيه أيضًا درجات:

أعلاها: حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنسانًا يمشط لحيته بأصابعه، فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز، وهذا حكم كل أثاث، فإنه إنما يراد لمقصود، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة. وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف ولا يبالي بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به.

وأوسطها: أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد، كالذي معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف.

وأعلاها: أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول، ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف (١). وقال الفضيل: ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف (٢).

وروي: أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط، فجلس، فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام، فدمعت عينا عمر، فقال له النبي ﷺ: «مَا الَّذِي أَبْكَاكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟» قال: ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من

---

(١) **صحيح**: حديث عائشة: كان ضِجَاعُ رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف. رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، وابن ماجه. [أبو داود: ٤١٤٧، والترمذي: ٢٤٦٩، وانظر صحيح أبي داود، والضجاع: الوسادة].

(٢) حديث: ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية [انظر السلسلة الصحيحة: ٢٤٨٤ عن عائشة] ووسادة من أدم حشوها ليف [بنحو الحديث السابق]. رواه الترمذي في الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة، وقد تقدم، ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه.

الملك، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط؟ فقال ﷺ: «أَمَا تَرْضَى يا عُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُم الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ» قال: بلى يا رسول الله؟ قال: «فذلك كذلك» [١]، ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر، ما أرى في بيتك متاعًا ولا غير ذلك من الأثاث فقال: إن لنا بيتًا نوجه إليه صالح متاعنا، فقال: إنه لا بدّ لك من متاع ما دمت هاهنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له: ما معك من الدنيا؟ فقال: معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها، ومعي جرابي أحمل فيه طعامي، ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي. ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي، فقال عمر: صدقت رحمك الله، وقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها سترًا وفي يديها قلبين من فضة، فرجع، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع رسول الله ﷺ فسأله أبو رافع فقال: «مِنْ أَجْلِ السِّتْرِ وَالسِّوَارَيْنِ» فأرسلت بهما بلالاً إلى رسول الله ﷺ، وقالت: قد تصدّقت بهما فضعهما حيث ترى، فقال ﷺ: «اذْهَبْ فَبِعْهُ وَادْفَعْهُ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ» فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدّق بهما عليهم، فدخل عليها فقال: «بِأَبِي أَنْتِ قَدْ أَحْسَنْتِ» [٢]، ورأى رسول الله ﷺ على باب عائشة سترًا فهتكه وقال: «كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا أَرْسِلِيهِ إِلَى آلِ فُلانٍ» [٣]، وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشًا جديدًا وقد كان ينام على عباءة مثنية؛ فما زال يتقلب ليلته، فلما أصبح قال لها: «أَعِيدِي العَبَاءَةَ الخَلِقَةَ وَنَحِّي هذا الفِرَاشَ عَنِّي قَدْ أَسْهَرَنِي اللَّيْلَةَ» [٤]، وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلًا فبيتها، فسهر ليلته

---

(١) حسن صحيح: حديث دخل عمر على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام». متفق عليه من حديثه، وقد تقدم. [البخاري: ٢٤٦٨، ومسلم: ١٤٧٩ بنحوه، والأدب المفرد: ١١٦٣ واللفظ له].

(٢) ضعيف: حديث: قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على باب منزلها ستر وفي يديها قلبين من فضة فرجع». لم أره مجموعا ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفينة بإسناد جيد: أنه ﷺ جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع، فقالت فاطمة لعلي: أنظر فأرجعه... [أبي داود: ٣٧٥٥، وابن ماجه: ٣٣٦٠، وانظر صحيح أبي داود، وحسنه الألباني]. الحديث رواه النسائي من حديث ثوبان بإسناد جيد قال: جاءت ابنة هبيرة إلى النبي ﷺ وفي يدها فتخ من ذهب... الحديث. [النسائي: ٥١٤١، وانظر صحيح الترغيب: ٧٧١، قلت: والحديث بلفظ قريب عند أبي داود: ٤٢١٣ عن ثوبان، وانظر ضعيف أبي داود، وقال الألباني: ضعيف الإسناد منكر]. وفيه: أنه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب. وفيه «يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار» وأنه خرج ولم يقعد، فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبدًا فأعتقته، فلما سمع قال «الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار».

(٣) صحيح: حديث: رأى على باب عائشة سترا فهتكه. أخرجه الترمذي وحسنه، والنسائي في الكبرى من حديثها. [الترمذي: ٢٤٦٨، وانظر صحيح الترمذي].

(٤) صحيح: حديث: فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان ﷺ ينام على عباءة مثنية». رواه ابن

حتى أخرجه من آخر الليل. قالت عائشة رضي الله عنها: فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال: «مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهذِهِ عِنْدَهُ»[1] ، وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبًا قط: كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

المهم الخامس: المنكح، وقد قال قائلون: لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته، وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال: قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال: كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية.

والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم، والمرأة قد تكون شاغلًا عن الله.

وكشف الحق فيه: أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح، فيكون ترك النكاح من الزهد، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب، فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازًا عن ميل القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد، فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازًا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلًا، فإنّ الولد مقصود لبقاء نسله، وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات، واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره، إذ لم تكن هي المقصد والمطلب، وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازًا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء؛ لأن في ترك ذلك فوات بدنه، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله، فلا يجوز أن يترك النكاح زهدًا في لذته من غير خوف آفة أخرى، وهذا ما عناه سهل لا محالة، ولأجله نكح رسول الله ﷺ. وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله ﷺ في أنه لا

حبان في كتاب أخلاق النبي ﷺ من حديثها قالت: دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه صوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال «ما هذا... الحديث» وفيه: أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته، وفيه مجالد بن سعيد مختلف فيه، والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل. [انظر السلسلة الصحيحة: ٢٤٨٤].

(١) حديث: أتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها، فسهر ليله وفيه «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده». أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه «يا عائشة، ما فعلت بالذهب» [أحمد: ٢٣٧٠٢، وانظر السلسلة الصحيحة: ٢٦٥٣] فجاءت ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول «ما ظن محمد... الحديث» وزاد «أنفقيها» وفي رواية: سبعة أو تسعة دنانير، وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح: «دخل علي رسول الله ﷺ وهو شاهم الوجه، قالت: فحسبت ذلك من وجع، فقلت: يا نبي الله، ما لك شاهم الوجه؟ فقال «من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس أمسينا وهي في خصم الفراش» [أحمد: ٢٥٩٧٥، ٢٦١٣٢] وفي رواية «أمسينا ولم ننفقها».

يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن [١] فلا معنى لزهده فيهن حذرًا من مجرّد لذة الوقاع والنظر، ولكن أنى يتصوّر ذلك لغير الأنبياء والأولياء، فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك.

قال أبو سليمان: الزهد في النساء: أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة.

وقال الجنيد رحمه الله: أحب للمريد المبتدىء أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب، وطلب الحديث والتزوّج. وقال: أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه؛ فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعًا.

المهم السادس: ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة، وهو المال والجاه: أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه؛ لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته، وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه؛ وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به إلى هاوية لا عمق لها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضر أو لخلاص من ظلم، فأما النفع فيغني عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة، وأما دفع الضر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان، وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب، والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلًا فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار، فكيف بين المسلمين، فأما التوهمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة، إذ من طلب الجاه، أيضًا لم يخل عن أذى في بعض الأحوال فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه فإذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلًا، واليسير منه داع إلى الكثير، وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره.

وأما المال فهو ضروري في المعيشة أعني القليل منه، فإن كان كسوبًا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام، هذا شرط

(١) حديث: كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن. تقدم في النكاح.

الزهد؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعًا، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوّة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكل ما يفضل عن كفاية سنته، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد، فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله، فلا يكون هذا من الزهاد.

وقولنا: إنه خرج من حدّ الزهاد نعني به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة، وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل، وقد قال أبو سليمان: لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء: معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه. كل ذلك في عياله، نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضًا فيما يخرج عن حدّ الاعتدال، وليتعلم من رسول الله ﷺ: إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين؛ لأنّ ذلك من الزينة لا من الحاجة، فإذًا ما يضطرّ الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور، بل الزائد على الحاجة سم قاتل، والمقتصر عن الضرورة دواء نافع، وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمًّا قاتلًا فهو مضر، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعًا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه، والدواء فرض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره، فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم، وهو من الفرق الناجية لا محالة. والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط.

ويدل عليه ما روي أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئًا فلم يقرضه، فرجع مهمومًا، فأوحى الله تعالى إليه: لو سألت خليلك لأعطاك، فقال: يا رب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئًا، فأوحى الله تعالى إليه: ليس الحاجة من الدنيا. فإذن قدر الحاجة من الدين، وما وراء ذلك وبال في الآخرة، وهو في الدنيا أيضًا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه، وربما يكونون أعداء له، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينًا لهم عليها، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حيًّا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصًا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد

وشماتة الأعداء ومراءاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدًا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها، ولو ترك محبوبًا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلًا لنفسه وساعيًا في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة. فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين، والذي ينشر بالمنشار إنما يتنزل المؤلم ببدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره، فما ظنك بألم يتمكن أوّلًا من صميم القلب مخصوصًا به لا بطريق السراية إليه من غيره، فهذا أوّل عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب. قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين:١٥-١٦] فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه؟ فنسأل الله تعالى أن يقرّر في أسماعنا ما نفث في روع رسول الله ﷺ، حيث قيل له: أحبب من أحببت فإنك مفارقه (١) وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر:

كَدُوْدٌ كَدُودِ القز ينسج دائمًا ... ويهلك غما وسط ما هو ناسجُهْ

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه: رفضوا الدنيا بالكلية، حتى قال الحسن: رأيت سبعين بدريًا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم. وفي لفظ آخر: كانوا بالبلاء أشدّ فرحًا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين، ولو رأوا خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا أشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب، وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول: أخاف أن يفسد على قلبي، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾ [يونس:٧] وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] . وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم:٢٩-٣٠] فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام: احملني معك في سياحتك، فقال: أخرج مالك والحقني.

---

(١) **حسن لغيره:** حديث: نفث في روعه أحبب من أحببت فإنك مفارقه. تقدم. [انظر صحيح الترغيب: ٦٢٧].

فقال: لا أستطيع، فقال عيسى عليه السلام: بعجب يدخل الغني الجنة - أو قال بشدة -.

وقال بعضهم: ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات: ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب، يقول أحدهم بالمشرق: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر أقصر، ويقول الآخر: اللهم أعط منفقًا خلفًا وأعط ممسكًا تلفًا. ويقول اللذان بالمغرب، أحدهما: لدوا للموت وابنوا للخراب. ويقول الآخر: كلوا وتمتعوا لطول الحساب.

بيان علامات الزهد:

اعلم أنه قد ظنّ أن تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ فإنّ ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرًا لا باب له، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة، بل لا يعدّ من الزهد في المال والجاه جميعًا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعي جمال الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة، كما قال الخوّاص في وصف المدعين إذ قال: وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموّهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم، لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين، ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم. هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضايق، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالاً لهم، فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى. فهذا كله كلام الخواص رحمه الله؛ فإذن معرفة الزهد أمر مشكل، بل حال الزهد على الزهد مشكل.

وينبغي أن يعوّل في باطنه على ثلاث علامات:

العلامة الأولى: أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] بل ينبغي أن يكون بالضدّ من ذلك: وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده.

العلامة الثانية: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فالأوّل علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه.

العلامة الثالثة: أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره، ولذلك قيل لبعضهم: إلى ماذا أفضى بهم الزهد؟ فقال: إلى الأنس بالله؛ فأما الأنس

بالدنيا وبالله فلا يجتمعان.

وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعًا وعمل لهما، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها، ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللهم إني أسألك إيمانًا يباشر قلبي.

وقال أبو سليمان: من شغل بنفسه شغل عن الناس - وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه - وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بدّ وأن يكون في أحد هذين المقامين، ومقامه الأوّل أن يشغل نفسه بنفسه، وعند ذلك يستوي عنده المدح والذم والوجود والعدم، ولا يستدل بإمساكه قليلًا من المال على فقد زهده أصلًا.

قال ابن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان: أكان داود الطائي زاهدًا؟ قال: نعم. قلت: قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارًا فأنفقها في عشرين سنة، فكيف كان زاهدًا وهو يمسك الدنانير؟ فقال: أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد، وأراد بالحقيقة الغاية، فإنّ الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس. ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئًا مع القدرة عليه خوفًا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه، وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجرًا كما فعله المسيح عليه السلام، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيبًا وإن قلّ، فإن أمثالنا لا يستجرىء على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه. وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتمادًا على الجود المجاوز لكل كمال.

فإذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم، وذلك لغلبة الأنس بالله. ويتفرّع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة: مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها.

وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول: أ بني رباطًا أو أعمر مسجدًا.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد: السخاء بالموجود.

وقال ابن خفيف: علامته وجود الراحة في الخروج من الملك. وقال أيضًا: الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف.

وقال أبو سليمان: الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفًا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم.

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله: علامة الزهد قصر الأمل. وقال سري: لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه. ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه.

وقال النصرآباذي: الزاهد غريب في الدنيا، والعارف غريب في الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد ثلاث: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رئاسة. وقال أيضًا: الزاهد لله يسعطك الخل والخردل، والعارف يشمك المسك والعنبر. وقال

له رجل: متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضًا: الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها. وقال السري: مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإني لم أبلغه ولم أطقه.

وقال الفضيل رحمه الله: جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

* * *

كتاب التوحيد والتوكل

الحمد لله مدبر الملك والملكوت، المنفرد بالعزة والجبروت. الرافع للسماء بغير عماد، المقدر فيها أرزاق العباد. الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب، ورفع هممهم عن الالتفاف إلى ما عداه والاعتماد على مدبر سواه، فلم يعبدوا إلا إياه علمًا بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقًا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغي عندهم الرزق، وأنه ما من ذرّة إلا إلى الله خلقها، وما من دابة إلا على الله رزقها؛ فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

والصلاة على محمد قامع الأباطيل، الهادي إلى سواء السبيل، وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقرّبين وهو في نفسه غامض من حيث العلم، ثم هو شاق من حيث العمل، ووجه غموضه من حيث الفهم أنّ ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابًا تغيير في وجه العقل. وانغماس في غمرة الجهل، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والعسر، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدّة الخفاء إلا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا. ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد في الشطر الأول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني.

بيان فضيلة التوكل:

أما من الآيات: فقد قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣] وقال عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق: ٣] وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩] وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه، ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه، فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم، فإنّ المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر: ٣٦] فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل: هو المكذب لهذه الآية. فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق، كقوله تعالى: ﴿هَل

أَتَى عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٩] أي عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤] بين أنّ كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٧] وقال عز وجل: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس:٣] وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار.

وأما الأخبار: فقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود: «أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملئوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيئاتهم»، فقيل لي: أرضيت؟ قلت: «نعم»، قيل: ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب. قيل: من هم يا رسول الله، قال: «الَّذينَ لا يَكْتَوُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَلا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فقام عكاشة وقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ» فقام آخر فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: «سَبَقَكَ بِها عُكاشَةُ» (١) ، وقال ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» (٢) وقال ﷺ: «مَن انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ مُؤْنَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا» (٣) وقال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ» (٤) ويروى عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال: «قُومُوا إِلَى الصَّلاةِ» ويقول: «بِهذَا أَمَرَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» قال عز وجل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ

---

(١) حسن صحيح: حديث ابن مسعود «أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل». رواه ابن منيع بإسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس. [انظر الأدب المفرد: ٩١١ واللفظ له، وحديث ابن عباس عند البخاري: ٥٧٠٥، ومسلم: ٢٢٠].

(٢) صحيح: حديث «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا». أخرجه الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر، وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٤٤، وابن ماجه: ٤١٦٤، وانظر السلسلة الصحيحة: ٣١٠].

(٣) ضعيف: حديث «من انقطع إلى الله كفاه الله تعالى كل مؤونة». أخرجه الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا، ومن طريقه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه، وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم. [انظر ضعيف الترغيب: ١٠٦١].

(٤) حديث «من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده». رواه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

عَلَيْهَا﴾ [طه :١٣٢](١) الآية. وقال ﷺ: «لَمْ يَتَوَكَّلْ مَنْ اسْتَرْقَى وَاكْتَوى» (٢).

وروي أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمي إلى النار بالمنجنيق: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وفاء بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل، إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم :٣٧] .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجًا.

وأما الآثار: فقد قال سعيد بن جبير: لدغتني عقرب فأقسمت على أمي لتسترقين، فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ.

وقرأ الخوّاص قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان :٥٨] إلى آخرها، فقال: ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى.

وقيل لبعض العلماء في منامه: من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته. وقال بعض العلماء: لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك.

وقال يحيى بن معاذ: في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أنّ الرزق مأمور بطلب العبد.

وقال إبراهيم بن أدهم: سألت بعض الرهبان: من أين تأكل؟ فقال لي: ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني؟.

وقال هرم بن حيان لأويس القرني: أين تأمرني أن أكون؟ فأومأ إلى الشام. قال هرم: كيف المعيشة؟ قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة.

وقال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلًا وجدت إلى كل خير سبيلًا. نسأل الله تعالى حسن الأدب.

---

(١) ضعيف : حديث: كان إذا أصاب أهله خصاصة قال «قوموا إلى الصلاة» ويقول «بهذا أمرني ربي» قال تعالى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه :١٣٢] . رواه الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال: كان النبيﷺ إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية. ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه. [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٧٦٠].

(٢) صحيح : حديث «لم يتوكل من استرقي واكتوى». أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في الكبير والطبراني واللفظ له، إلا أنه قال: أو من حديث المغيرة بن شعبة، وقال الترمذي «من اكتوت أو استرقي فقد برئ من التوكل» وقال النسائي: ما توكل من اكتوى أو استرقي. [الترمذي: ٢٠٥٥، وابن ماجة: ٣٤٨٩، وانظر صحيح الجامع: ٦٠٨١].

بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل:

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل و عمل هو الثمرة و حال هو المراد باسم التوكل.

فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأصل وهو المسمى إيمانًا في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق، وكل تصديق بالقلب فهو علم، وإذا قوي سمي يقينًا، ولكن أبواب اليقين كثيرة، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) والإيمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك: (له الملك) والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك: (وله الحمد) فمن قال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل، أعني أن يصير معنى هذا القول وصفًا لازمًا لقلبه غالبًا عليه، فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول، وهو من علم المكاشفة؛ ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال، ولا يتم علم المعاملة إلا بها، فإذن لا نتعرض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له، فنقول: للتوحيد أربع مراتب، وينقسم إلى لب، وإلى لب اللب، وإلى قشر، وإلى قشر القشر. ولنمثل ذلك تقريبًا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإنّ له قشرتين، وله لب، وللب دهن هو لب اللب.

فالرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه (لا إله إلا الله) وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين.

والثانية: أن يصدّق بمعنى اللفظ قلبه كما صدّق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام.

والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقرّبين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحدًا، وهي مشاهدة الصدّيقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحدًا فلا يرى نفسه أيضًا، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقًا بالتوحيد كان فانيًا عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق؛ فالأوّل موحد بمجرّد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان. والثاني موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقدته، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضًا إحكام هذه العقدة وشدّها على القلب وتسمى كلامًا، والعارف به يسمى متكلمًا، وهو في مقابلة المبتدع

ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام، وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته. والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلًا واحدًا إذا انكشف له الحق كما هو عليه. ولا يرى فاعلًا بالحقيقة إلا واحدًا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه، لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإنّ تلك رتبة العوام والمتكلمين، إذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة. والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد؛ فالأوّل كالقشرة العليا من الجوز، والثاني كالقشرة السفلى، والثالث كاللب، والرابع كالدهن المستخرج من اللب. وكما أنّ القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مرّ المذاق، وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر، وإن اتخذ حطبًا أطفأ النار وأكثر الدخان، وإن ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدّة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرّد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن؛ لكنه ينفع مدّة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت، والقشرة السفلى هي القلب والبدن. وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرّد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبًا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب، وكذلك مجرّد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرّد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه، إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام:١٢٥] وبقوله عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢] وكما أنّ اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفاف إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق.

فإن قلت: كيف يتصوّر أن لا يشاهد إلا واحد وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة: فكيف يكون الكثير واحدًا؟

فاعلم أنّ هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة، نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن. وهو أنّ الشيء قد يكون كثيرًا بنوع مشاهدة واعتبار، ويكون واحدًا بنوع

آخر من المشاهدة والاعتبار، وهذا كما أنّ الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد؛ فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد، وكم من شخص يشاهد إنسانًا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه، والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع، والملتفت إلى الكثرة في تفرقة، فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، وباعتبارات أخر سواه كثير، وبعضها أشدّ كثرة من بعض، ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدًا، ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوّة وإن لم تكن نبيًا كان لك نصيب منه بقدر قوّة إيمانك. وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر، والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخوّاص يدور في الأسفار فقال: فيماذا أنت؟ فقال: أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل وقد كان من المتوكلين؛ فقال الحسين: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فكأنّ الخوّاص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد، فطالبه بالمقام الرابع، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال.

فإن قلت: فلا بدّ لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه

فأقول: أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه، وليس التوكل أيضًا مبنيًا عليه، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأوّل: وهو النفاق فواضح، وأما الثاني: وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في عالم الكلام، وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه. وأما الثالث: فهو الذي يبنى عليه التوكل، إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب.

وحاصله: أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره، بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرّة من ملكوت السموات والأرض، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحًا أتم من المشاهدة بالبصر، وإنما يصدّك الشيطان عن هذا

التوحيد في مقام يبتغي به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين: أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات. والثاني:الالتفات إلى الجمادات، وأما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه، وعلى الغيم في نزول المطر، وعلى البرد في اجتماع الغيم، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها: وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت :٦٥] قيل: معناه أنهم يقولون: لولا استواء الريح لما نجونا. ومن انكشف له أمر العلم كما هو عليه علم أنّ الريح هو الهواء والهواء لا يتحرّك بنفسه ما لم يحرّكه محرّك، وكذلك محرّكه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأوّل الذي لا محرّك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل؛ فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعًا بالعفو عنه وتخليته، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول: لولا القلم لما تخلصت، فيرى نجاته من القلم لا من محرّك القلم وهو غاية الجهل. ومن علم أنّ القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض، وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب، بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أنّ الملك الموقع هو الكاتب التوقيع، والحق أنّ الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال :١٧] .

فإذا انكشف لك أنّ جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبًا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك، فأتاك في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول: كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك؟ وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك، فكيف لا تخافه؟ وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه؟ ويقول له أيضًا نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له، وعند هذا زل أقدام الأكثرين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرًا مضطرًا، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرًا، وعرفوا أنّ غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلًا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسوّد الكاغد، ولم يمتدّ بصرها إلى اليد والأصابع فضلًا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أنّ القلم هو المسوّد للبياض، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض

ومشاهدة كونه قاهرًا وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون، ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات، فإنّ الحمار شريك فيه، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم، وإنما أريد به سمعًا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي.

فإن قلت: فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت، وكيف سبحت وقدّست، وكيف شهدت على نفسها بالعجز؟

فاعلم أنّ لكل ذرّة في السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى، فإنها كلمات تستمدّ من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ [الكهف:١٠٩] الآية، ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت، وإفشاء السر لؤم، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، وهل رأيت قط أمينًا على أسرار ملك قد نوجي بخفاياه فنادى بسره على ملأ من الخلق، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» (١)، بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكوا ولا يضحكوا. ولما نهى عن إفشاء سر القدر (٢) ولما قال ﷺ: «إذا ذُكِرَ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا وَإذا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإذا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا» (٣)، ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار (٤). فإذن عن حكايات مناجاة ذرّات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان:

أحدهما: استحالة إفشاء السر.

والثاني: خروج كلماتها عن الحصر والنهاية، ولكنا في المثال الذي كنا فيه ــ وهي حركة القلم ــ نحكي من مناجاتها قدرًا يسيرًا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه؛ ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن حروفًا وأصواتًا، ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول: قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر: ما

---

(١) صحيح: حديث «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا». تقدم غير مرة. [البخاري: ١٠٤٤، ومسلم: ٩٠١ عن عائشة].

(٢) حديث: النهي عن إفشاء سر القدر. رواه ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر «القدر سر الله فلا تفشوا لله عز وجل سره» [انظر ضعيف الجامع: ٤١٣١] لفظ أبي نعيم، وقال ابن عدي «لا تكلموا في القدر فإنه سر الله... الحديث» [انظر ضعيف الجامع: ٣٧٠٩، وقال الألباني: موضوع] وهو ضعيف، وقد تقدم.

(٣) صحيح: حديث «إذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا». أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء، وتقدم في العلم. [انظر صحيح الجامع: ٥٤٥].

(٤) صحيح: حديث: أنه خص حذيفة ببعض الأسرار. تقدم. [مسلم: ٢٧٧٩].

بال وجهك كان أبيض مشرقًا والآن قد ظهر عليه السواد؟ فلم سودت وجهك؟ وما السبب فيه؟ فقال الكاغد: ما أنصفتني في هذه المقالة فإني ما سوّدت وجهي بنفسي ولكن سل الحبر فإنه كان مجموعًا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلمًا وعدوانًا فقال: صدقت، فسأل الحبر عن ذلك؟ فقال: ما أنصفتني فإني كنت في المحبرة وادعًا ساكنًا عازمًا على أن لا أبرح منها، فاعتدى علي القلم بطمعه الفاسد، واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادي وفرق جمعي وبدّدني كما ترى على ساحة بيضاء، فالسؤال عليه لا عَلَيَّ فقال صدقت، ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراجه الحبر من أوطانه فقال: سل اليد والأصابع فإني كنت قصبًا نابتًا على شط الأنهار متنزهًا بين خضرة الأشجار، فجاءتني اليد بسكين فنحت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أنابيبي، ثم برتني وشقت رأسي؛ ثم غمستني في سواد الحبر ومرارته وهي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي، ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك، فتنح عني وسل من قهرني، فقال: صدقت، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له، فقالت اليد: ما أنا إلا لحم وعظم ودم، وهل رأيت لحمًا يظلم أو جسمًا يتحرّك بنفسه؟ وإنما أنا مركب مسخر ركبني فارس يقال له القدرة والعزة، فهي التي ترددني، وتجول بي في نواحي الأرض، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدّى شيء منها مكانه ولا يتحرّك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر، أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم، ثم لا معاملة بينها وبين القلم، فأنا أيضًا من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم، فسل القدرة عن شأني فإني مركب أزعجني من ركبني، فقال: صدقت.

ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها، فقالت: دع عنك لومي ومعاتبتي، فكم من لائم ملوم، وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمري؟ وكيف ظننت أني ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك، وما كنت أحرّكها ولا استسخرها، بل كنت نائمة ساكنة نومًا ظنّ الظانون بي أني ميتة أو معدومة، لأني ما كنت أتحرّك ولا أحرّك حتى جاءني موكل أزعجني وأرهقني إلى ما تراه مني، فكانت لي قوّة على مساعدته، ولم تكن لي قوّة على مخالفته، وهذا الموكل يسمى الإرادة، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله، إذ أزعجني من غمرة النوم وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي، فقال صدقت، ثم سأل الإرادة ما الذي جرّأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقًا لم تجد عنه مخلصًا ولا مناصًا، فقالت الإرادة: لا تعجل عليَّ فلعل لنا عذرًا وأنت تلوم، فإني ما انتهضت بنفسي ولكن أنهضت وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد عليَّ من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها

باضطرار فإني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل، ولا أدري بأي جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته، لكني أدري أني في دعة وسكون ما لم يرد علي هذا الوارد القاهر، وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفًا وألزمت طاعته إلزامًا، بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة، لعمري ما دام هو في التردد مع نفسه والتحير في حكمه، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه، فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه، فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك، فإني كما قال القائل:

متى ترحلت عن قومٍ وقد قَدِروا أن لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

فقال صدقت، وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبًا لهم ومعاتبًا إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة، فقال العقل: أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن أشعلت، وقال القلب: أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكني بسطت، وقال العلم: أما أنا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي، فكم كان هذا اللوح قبل خاليًا عني، فسل القلم عني لأنّ الخط لا يكون إلا بالقلم، فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب وقال: قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره، ولكني كنت أطيب نفسًا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلامًا مقبولاً في الفؤاد وعذرًا ظاهرًا في دفع السؤال: فأما قولك: إني خط ونقش، وإنما خطني قلم فلست أفهمه فإني لا أعلم قلمًا إلا من القصب، ولا لوحًا إلا من الحديد أو الخشب، ولا خطًّا إلا بالحبر، ولا سراجًا إلا من النار، وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئًا: أسمع جعجعة ولا أرى طحنًا فقال له القلم: إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف، واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة: فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه، فما هذا بعشك، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له، وإن كنت راغبًا في استتمام الطريق إلى المقصد فألق سمعك وأنت شهيد.

واعلم أنّ العوالم في طريقك هذا ثلاثة: عالم الملك والشهادة أوّلها، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة، والثاني عالم الملكوت وهو ورائي؛ فإذا جاوزتني انتهيت إلى منازله وفيه المهامة والفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة، ولا أدري كيف تسلم فيها، والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت، ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والإرادة والعلم، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت؛ لأنّ عالم الملك أسهل منه طريقًا، وعالم الملكوت أوعر منه منهجًا، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه

السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء، فلا هي في حدّ اضطراب الماء، ولا هي في حدّ سكون الأرض وثباتها، وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة؛ فإن جاوزت قوّته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت؛ فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعتع؛ فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي.

وأوّل عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء، أما سمعت قول رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام «لَوْ ازْدَادَ يَقِينًا لمشى عَلَى الهَوَاءِ» [1] ، لما قيل له إنه كان يمشي على الماء، فقال السالك السائل: قد تحيرت في أمري واستشعر قلبي خوفًا مما وصفته من خطر الطريق، ولست أدري أطيق قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا؟ فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم، افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدّقه نحوي فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلًا لهذا الطريق، فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابًا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم، أما ترى أنّ النبي ﷺ في أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق :٣-٥] فقال السالك: لقد فتحت بصري وحدقته، فوالله ما أرى قصبًا ولا خشبًا، ولا أعلم قلمًا إلا كذلك، فقال العلم: لقد أبعدت النجعة، أما سمعت أنّ متاع البيت يشبه رب البيت، أما علمت أنّ الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات، فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلمه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت، فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي، ولا قلمه من قصب، ولا لوحه من خشب، ولا كلامه بصوت وحرف، ولا خطه رقم ورسم، ولا حبره زاج وعفص، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مخنثًا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه، مذبذبًا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها؟ ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه؟ .

فإن كنت قد فهمت من قوله ﷺ: «إِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبهًا مطلقًا، كما يقال: كن يهوديًا صرفًا وإلا فلا تلعب بالتوراة، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكن منزهًا صرفًا ومقدّسًا فحلًا، واطوِ الطريق فإنك بالواد المقدّس طوى، واستمع بسر قلبك لما يوحى، فلعلك تجد على النار هدى،

(١) منكر: حديث: قيل له إن عيسى يمشي على الماء، قال «لو ازداد يقينا لمشى على الهواء». تقدم. [انظر السلسة الضعيفة: ٤٣٥٧].

ولعلك من سرادقات العرش تنادي بما نودي به موسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه :١٢] فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه، فاشتعل قلبه نارًا من حدّة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص، ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فلما نفخ فيه العلم بحدّته اشتعل زيته فأصبح نورًا على نور، فقال له العلم: اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي، فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه: ما هو من خشب ولا قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم، وكأن له في كل قلب رأسًا ولا رأس له، فقضى منه العجب وقال: نعم الرفيق العلم، فجزاه الله تعالى عني خيرًا، إذ الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم؛ فإني أراه قلمًا لا كالأقلام؛ فعند هذا ودع العلم وشكره وقال: قد طال مقامي عندك ومرادتي لك، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه، فسافر إليه وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى إشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات؟ فقال: أو قد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد؟ قال: لم أنس ذلك. قال: فجوابي مثل جوابه.

قال: كيف وأنت لا تشبهه؟ قال القلم: أما سمعت أنّ الله تعالى خلق آدم على صورته؟ قال: نعم. قال: فسل عن شأني الملقب بيمين الملك فإني في قبضته، وهو الذي يرددني وأنا مقهور مسخر؛ فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة. فقال: فمن يمين الملك؟ فقال القلم: أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر :٦٧] ؟ قال: نعم. قال: والأقلام أيضًا في قبضة يمينه هو الذي يرددها، فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه، بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه، والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان، ويد لا كالأيدي، وأصبع لا كالأصابع؛ فرأى القلم محرّكًا في قبضته، فظهر له عذر القلم، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم؟ فقال: جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة، إذ اليد لا حكم لها في نفسها وإنما محرّكها القدرة لا محالة، فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت: إنما أنا صفة فاسأل القادر، إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال، فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء :٢٣] فغشيته هيبة الحضرة، فخر صعقًا يضطرب في غشيته، فلما أفاق قال: سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار

الواحد القهار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك، وما لي إلا أن أسألك وأتضرع إليك وأبتهل بين يديك، فأقول: اشرح لي صدري لأعرفك واحلل عقدة من لساني لأثني عليك؛ فنودي من وراء الحجاب: إياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء، بل ارجع إليه فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه، وما قاله لك فقله؛ فإنه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال: «سُبْحَانَكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» [١] ، فقال: إلهي، إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك، فنودي: إياك أن تتخطى رقاب الصدّيقين، فارجع إلى الصدّيق الأكبر فاقتد به؛ فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم، أما سمعته يقول: العجز عن درك الإدراك إدراك؛ فيكفيك نصيبًا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا؛ فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها: اقبلوا عذري فإني كنت غريبًا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة، فما كان إنكاري عليكم إلا عن قصور وجهل، والآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي أنّ المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته، مرددون في قبضته وهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن؛ فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له: كيف يكون هو الأوّل والآخر وهما وصفان متناقضان؟! وكيف يكون هو الظاهر والباطن؟! فالأول ليس بآخر، والظاهر ليس بباطن، فقال: هو الأوّل بالإضافة إلى الموجودات، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدًا بعد واحد، وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة، فيكون ذلك آخر السفر، فهو آخر في المشاهدة أوّل في الوجود، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت، فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل: أعني من انكشف له أنّ الفاعل واحد.

فإن قلت: قد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتني على الإيمان بعالم الملكوت، فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه؟

فأقول: أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له: إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت، وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس، فإن

(١) صحيح: حديث «سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». تقدم. [مسلم: ٤٨٦].

قال: وأنا منهم فإني لا أهتدي إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئًا سواه، فيقال: إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس، فإنهم قالوا: ما نراه لا نثق به، فلعلنا نراه في المنام. فإن قال: وأنا من جملتهم فإني شاك أيضًا في المحسوسات فيقال: هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه، فيترك أيامًا قلائل، وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء: هذا حكم الجاحد. وأما الذي لا يجحد ولكن لا يفهم، فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت، فإن وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة، فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك ﷺ بخواص أصحابه؛ فإن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرّات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فإنّ في عالم الشهادة أيضًا توحيدًا، إذ يعلم كل أحد أنّ المنزل يفسد بصاحبين، والبلد يفسد بأميرين، فيقال له على حدّ عقله. إله العالم واحد والمدبر واحد، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله، وقد كلف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حدّ عادتهم في المحاورة.

فإن قلت: فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عمادًا للتوكل وأصلًا فيه؟

فأقول: نعم؛ فإن الاعتقاد إذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالبًا، ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده. وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينًا وإن كان يزداد وضوحًا، كما أنّ الذي يرى إنسانًا في وقت الإسفار لا يزداد يقينًا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحًا في تفصيل خلقته، وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري؛ فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام، ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكترثوا بقول فرعون: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: ١٢٤] بل ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢] فإنّ البيان والكشف يمنع التغيير. وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان، فلما نظروا إلى عجل السامري وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] ونسوا أنه

لا يرجع إليهم قولًا ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا: فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل؛ لأنّ كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير. وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد اختلافًا وتضادًا أصلًا.

فإن قلت: ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أنّ الوسائط والأسباب مسخرات، وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الإنسان فإنه يتحرّك إن شاء ويسكن إن شاء، فكيف يكون مسخرًا؟

فاعلم أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء، لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط، ولكن علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه، إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية، وإذا لم تكن المشيئة إليه فمهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحرّكة ضرورة عند انجزام المشيئة. فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب. فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض. وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة، فهو مضطر في الجميع.

فإن قلت: فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار، وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبورًا مختارًا؟

فأقول: لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور، فهو إذن مجبور على الاختيار، فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار، فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحًا وجيزًا يليق بما ذكر متطفلًا وتابعًا فإنّ هذا الكتاب لم نقصد به إلا علم المعاملة، ولكني أقول لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه، إذ يقال: الإنسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الخرق في الماء والتنفس والكتابة، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة، ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات: فنسمي خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلًا طبيعيًا، ونسمي تنفسه فعلًا إراديًا، ونسمي كتابته فعلًا اختياريًا، والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لا محالة وقد يكون الخرق بعد التخطي ضروريًا، والتنفس في معناه فإنّ نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن؛ فمهما كان الثقل موجودًا وجد الانخراق بعده، وليس الثقل إليه، وكذلك الإرادة ليست إليه، ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطرارًا، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أنّ تغميض الأجفان اضطرارًا فعل إرادي، ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة، وحدثت الحركة بها، ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في

كونه ضروريًا. وأما الثالث ــ وهو الاختياري ــ فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق، وهو الذي يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، لأنّ داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس، والقدرة مسخرة للداعية، والحركة مسخرة للقدرة، والكل مقدّر بالضرورة فيه من حيث لا يدري، فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور، فأما أن يكون منه فكلا ولا، فإذن معنى كونه مجبورًا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه، ومعنى كونه مختارًا أنه محل لإرادة حدثت فيه جبرًا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرًا محضًا موافقًا وحدث الحكم أيضًا جبرًا فإذا هو مجبور على الاختيار، ففعل النار في الإحراق مثلًا جبر محض، وفعل الله تعالى اختيار محض، وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة، لأنه لما كان فنًّا ثالثًا وائتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسبًا وليس مناقضًا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه، وفعل الله تعالى يسمى اختيارًا بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد، فإنّ ذلك في حقه محال، وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه.

فإن قلت: فهل تقول إن العلم ولد الإرادة، والإرادة ولدت القدرة، والقدرة ولدت الحركة، وأن كل متأخر حدث من المتقدّم؟ فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى، وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض؟ فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على معنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية، وهو الأصل الذي لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فإنهم وقفوا على كنه معناه، والكافة وقفوا على مجرّد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق، وبيان ذلك يطول، ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة، وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب، ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق وإلا فلا يتقدّم متقدّم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم، وكذلك جميع أفعال الله تعالى، ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثًا يضاهي فعل المجانين ــ تعالى الله عن قول الجاهلين علوًّا كبيرًا ــ وإلى هذا أشار قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات :٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الدخان :٣٨-٣٩] فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث، وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخر إلا لانتظار شرطه، والمشروط قبل الشرط

محال، والمحال لا يوصف بكونه مقدورًا، فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة، ولا تتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم، وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق، ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق، بل ذلك بحكمة وتدبير، وتفهيم ذلك عسير، ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالًا يقرب مبادىء الحق من الأفهام الضعيفة، وذلك بأن نقدّر إنسانًا محدثًا قد انغمس في الماء إلى رقبته، فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرافع وهو ملاق له، فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارًا للشرط وهو غسل الوجه، فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث، فربما يظن الجاهل أنّ الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث عقيبه، إذ يقول: كان الماء ملاقيًا ولم يكن رافعًا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل، بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه، فإذن غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرداة والإرادة بالعلم.

وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها لا بغسل الوجه، والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء، ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة، فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدّرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة، وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات، فلنترك جميع ذلك فإنّ مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل، فإنّ الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد، واستيفاء ذلك في عمر نوح محال، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه، وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله، وما أخف مؤنته على اللسان وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم.

فإن قلت: فكيف الجمع بين التوحيد والشرع: ومعنى التوحيد: أن لا فاعل إلا الله تعالى، ومعنى الشرع: إثبات الأفعال للعباد؛ فإن كان العبد فاعلًا فكيف يكون الله تعالى فاعلًا؟ وإن كان الله تعالى فاعلًا فكيف يكون مرددًا بينهما لم يتناقض، كما يقال: قتل الأمير فلانًا، ويقال: قتله الجلاد، ولكن الأمير قاتل بمعنى، والجلاد قاتل بمعنى آخر؛ فكذلك العبد فاعل بمعنى، والله عز وجل فاعل بمعنى آخر؛ فمعنى كون الله تعالى فاعلًا أنه المخترع الموجد. ومعنى كون العبد فاعلًا أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم، فارتبطت القدرة بالإرادة، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط، وارتبط بقدرة

الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع، وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلًا له كيفما كان الارتباط، كما يسمى الجلاد قاتلًا والأمير قاتلًا؛ لأنّ القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين، فلذلك سمي فعلًا لهما، فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين، ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه، فقال تعالى في الموت: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة :١١] ثم قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر :٤٢] وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة :٦٣] أضاف إلينا ثم قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾ [عبس :٢٥-٢٨].

وقال عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم :١٧] ثم قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء :٩١] وكان النافخ جبريل عليه السلام، وكما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة :١٨] قيل في التفسير: معناه إذا قرأه عليه جبريل. وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة :١٤] فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه، والتعذيب هو عين القتل، بل صرح وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال :١٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال :١٧] وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرًا، ولكن معناه: وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميًا إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميًا، إذ هما معنيان مختلفان.

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق :٤-٥] ثم قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن :١-٢] وقال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن :٤] وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة :١٩] وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة :٥٨-٥٩] ثم قال رسول الله ﷺ في وصف ملك الأرحام: «إِنَّهُ يَدْخُلُ الرَّحِمَ فَيَأْخُذُ النُّطْفَةَ فِي يَدِهِ ثُمَّ يُصَوِّرُها جَسَدًا، فَيَقُولُ: يا رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، أَسَوِيٌّ أَمْ مُعْوَجٌ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مـا شَاءَ وَيَخْلُقُ المَلَكُ» (١) ، وفي لفظ آخر: «وَيُصَوِّرَ المَلَكُ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ بِالسَّعَادَةِ أَوْ بِالشَّقَاوَةِ». وقد قال بعض السلف: إنّ الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحًا يلج في جسم، ولذلك سمي روحًا، وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه

---

(١) حديث: قال ﷺ في وصف ملك الأرحام «إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا». رواه البزار وابن عدي من حديث عائشة «إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول: يا رب ماذا... الحديث» وفي آخره «فما من شيء إلا وهو يخلق معه في الرحم» وفي سنده جهالة. وقال ابن عدي: إنه منكر، وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه. [انظر صحيح الجامع : ٧٩٧ عن حذيفة بن أسيد ولم أقف عليه عن عائشة، وأصله عند البخاري: ٣٢٠٨، ومسلم: ٢٦٤٣].

فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرّد، وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت :٥٣]وقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران :١٨]فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضًا بل طرق الاستدلال مختلفة، فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت :٥٣].

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيـــي والمميت، ثم فوّض الموت والحياة إلى ملكين، ففي الخبر «أنّ ملكي الموت والحياة تناظرا، فقال ملك الموت: أنا أميت الأحياء، وقال ملك الحياة، أنا أحيـــي الموتى، فأوحى الله تعالى إليهما: كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع، وأنا المميت والمحيـــي لا يميت ولا يحيـــى سواي» [(١)]، فإذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت، ولذلك قال ﷺ للذي ناوله التمرة: «خُذْهَا لَوْ لَمْ تَأْتِها لأَتَتْكَ» [(٢)]، أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة، ومعلوم أنّ التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها وكذلك لما قال التائب: أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد، فقال ﷺ «عَرَفَ الحَقَّ لأَهْلِهِ» [(٣)]، فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوّز والمستعير في كلامه وللتجوّز وجه كما أنّ للحقيقة وجهًا، واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع، ولكن ظن أنّ الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلًا بحركته وظن أنه تحقيق، وتوهم أنّ نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاد فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس وقالوا إن الفاعل قد وضعته أيها اللغوي للمخترع فلا فاعل إلا الله، فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز. أي تتجوّز به عما وضعه اللغوي له، ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصدًا أو اتفاقًا صدّقه رسول الله ﷺفقال: «أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرَ قَوْلُ لَبِيدِ: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللَّهَ بَاطِلُ» [(٤)]أي كل ما لا قوام له بنفسه ـــ

---

(١) حديث «إن ملكي الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت: أنا أميت الأحياء». لم أجد له أصلا.

(٢) صحيح : حديث: قال للذي ناوله التمرة «خذها لو لم تأتها لأتتك». أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل، ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح. [انظر صحيح الترغيب: ١٧٠٥].

(٣) ضعيف : حديث إنه قال للذي قال أتوب إلى الله ولا أتـوب إلى محمد «عرف الحق لأهله».تقدم في الزكاة. [انظر السلسلة الضعيفة: ٣٨٦٢].

(٤) صحيح : حديث «أصدق بيت قالته العرب بيت لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «قال الشاعر» وفي رواية لمسلم «أشعر كلمة تكلمت بها العرب».[البخاري: ٣٨٤١، ومسلم: ٢٢٥٦].

وإنما قوامه بغيره ـــ فهو باعتبار نفسه باطل، وإنما حقيته وحقيقته بغيره لا بنفسه، فإذن لا حق بالحقيقة إلى الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء، فإنه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته، فهو الحق وما سواه باطل، ولذلك قال سهل: يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا: كن الآن كما لم تكن فإنه اليوم كما كان.

فإن قلت :فقد ظهر الآن أن الكل جبر، فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا، وكيف غضبه على فعل نفسه؟.

فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلا نطول بإعادته، فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز إليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب، ولا يتم حال التوكل كما سيأتي إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل، وهذا الإيمان أيضًا باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول، فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادًا قاطعًا لا يستريب فيه. وهو أن يصدّق تصديقًا يقينًا لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علمًا وحكمة وعقلًا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرّفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرّة ولا أن يخفض منها ذرّة، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلي به، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض ـــ إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ـــ ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلًا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلًا يناقض الجود وظلمًا يناقض العدل، ولو لم يكن قادرًا لكان عجزًا يناقض الإلهية، بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة، وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح

البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل، وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس، فإنّ الكمال والنقص يظهر بالإضافة، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعًا، وكما أن قطع اليد إذا تآكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص، فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة، فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه، وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون، ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون.

والحاصل أن الخير والشر مقضيّ به، وقد كان ما قضي به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل، ولنرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الشطر الثاني من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل، وبيان ما قاله الشيوخ في حدّ التوكل، وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والمعيل، وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل في دفع المضارّ، وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوي وغيره، والله الموفق لرحمته.

بيان حال التوكل:

قد ذكرنا أنّ مقام التوكل ينتظم من: علم، وحال، وعمل. وذكرنا العلم.

فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه، وإنما العلم أصله والعمل ثمرته، وقد أكثر الخائضون في بيان حدّ التوكل واختلفت عباراتهم، وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه كما جرت عادة أهل التصوّف به، ولا فائدة في النقل والإكثار، فلنكشف الغطاء عنه ونقول:

التوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكَّل أمره إلى فلان أي فوّضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمى الموكول إليه وكيلًا، ويسمى المفوض إليه متكلًا عليه ومتوكلًا عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزًا وقصورًا، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده. ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلًا فنقول: من ادعي عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلًا عليه ولا واثقًا

به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور: منتهى الهداية، ومنتهى القوّة، ومنتهى الفصاحة، ومنتهى الشفقة، أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلًا وأما القدرة والقوّة فليستجري على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن عليه أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به: وأما الفصاحة فهي أيضًا من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار إليه: فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس.

وأما منتهى الشفقة فيكون باعثًا له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود، فإنّ قدرته لا تغني دون العناية به إذا كان لا يهمه أمره ولا يبالي به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك؛ فإن كان شاكًّا في هذه الأربعة أو في واحدة منها أو جوّز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه إلى وكيله، بل بقي منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدّة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوّة اعتقاده لهذه الخصال فيه، والاعتقادات والظنون في القوّة والضعف تتفاوت تفاوتًا لا ينحصر، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين في قوّة الطمأنينة والثقة تفاوتًا لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه، كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به، وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لسانًا وأقدرهم بيانًا وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى، فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوّته، فإنه لا حول ولا قوّة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة، فإنّ الحول عبارة عن الحركة، والقوة عبارة عن القدرة، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين: إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج تبعًا للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين، فإنّ من يتناول عسلًا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله، ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقنًا

بكونه ميتًا وأنه جماد في الحال وأنّ سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادرًا عليه، كما أنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السنور أسدًا وإن كان قادرًا عليه، ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش أو المبيت معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات، وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل، وقد يقوى فيصير مرضًا حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه، فإذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعًا، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته، فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] فالتمس أن يكون مشاهدًا إحياء الميت بعينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة؛ وذلك لا يكون في البداية أصلًا، وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب، فإنّ اليهودي مطمئن القلب إلى تهوّده، وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلًا، وإنما يتبعون الظنّ وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين، إلا أنهم معرضون عنه، فإذن الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل، كما أنّ ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب، وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى؛ وقد قيل: مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته إنسان مثله، وقد قال ﷺ: «من استعز بالعبيد أذله الله تعالى»[1]، وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلًا فاعلم أنّ تلك الحالة لها في القوّة والضعف ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: ما ذكرناه؛ وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل.

الثانية: وهي أقوى. أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه: يا أماه، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فإنها مفزعه، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له، ويظن أنه طبع من حيث إنّ الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلًا في ذهنه، ولكن كل ذلك وراء الإدراك، فمن كان باله إلى الله

(١) ضعيف: حديث «من استعز بالعبيد أذله الله». أخرجه العقيلي في الضعفاء، وأبو نعيم في الحلية من حديث عمر، أورده العقيلي في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي وقال: لا يتابع على حديثه، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال: يخالف في روايته. [انظر السلسلة الضعيفة: ٢١٢٠].

عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلًا حقًا، فإنّ الطفل متوكل على أمه. والفرق بين هذا وبين الأول: أن هذا متوكل وقد فني في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته، بل إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه. وأما الأوّل فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيًا عن توكله لأنّ له التفاتًا إلى توكله وشعورًا به، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده، وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل: ما أدناه؟ قال: ترك الأماني. قيل: وأوسطه؟ قال: ترك الاختيار، وهو إشارة إلى الدرجة الثانية. وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال: لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه.

الثالثة: وهي أعلاها، أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتًا تحرّكه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت، وهو الذي قوي يقينه بأنه مجري للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات، وأن كلًّا يحدث جبرًا فيكون بائنًا عن الانتظار لما يجري عليه، ويفارق الصبي فإنّ الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها، بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه، وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته، وأنه يعطي ابتداء أفضل مما يسأل، فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق، والمقام الثاني لا يقتضي ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضي ترك السؤال من غيره فقط.

فإن قلت: فهذه الأحوال هل يتصور وجودها؟.

فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر، والمقام الثاني والثالث أعزها، والأوّل أقرب إلى الإمكان، ثم إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه، بل يكاد لا يكون المقام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجل، فإنّ انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوّة والأسباب طبع وانقباضه عارض، كما أنّ انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض. والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تنمحي عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة، فإنّ البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم، وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة القول والقوّة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم، وأما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يومًا ويومين، والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول.

فإن قلت: فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال؟.

فاعلم أنّ المقام الثالث ينفي التدبير رأسًا ما دامت الحالة باقية، بل يكون صاحبها كالمبهوت. والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال

كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط.

والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسننه دون صريح إشارته، فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له: لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور، ولا يكون هذا مناقضًا توكله عليه، إذ ليس هو فزعًا منه إلى حول نفسه وقوّته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره، بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له؛ إذ لو لم يكن متوكلًا عليه ولا معتمدًا له في قوله لما حضر؛ فقوله: وأما المعلوم من عادته واطراد سننه: فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحاج الخصم إلا من السجل، فتمام توكله إن كان متوكلًا عليه: أن يكون معولًا على سننه وعادته ووافيًا بمقتضاها: وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاصمته؛ فإذن لا يستغني عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل، ولو ترك شيئًا من ذلك كان نقصًا في توكله فكيف يكون فعله نقصًا فيه، نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظرًا إلى محاجته فقد ينتهي إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوّته إذ لم يبق له حول ولا قوّة.

وقد كان فزعه إلى حوله وقوّته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسننه، وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري، وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأنّ كل تدبير وعمل لا يجوز أيضًا مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتي تفصيله في الأعمال، فإذا فزع المتوكل إلى حوله وقوّته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلًا وتعبًا محضًا بلا جدوى؛ فإذن لا يصير مفيدًا من حيث إنه حوله وقوّته بل من حيث إنّ الوكيل جعله معتمدًا لمحاجته، وعرّفه ذلك بإشارته وسننه، فإذن لا حول ولا قوّة إلا بالوكيل، إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالقًا حوله وقوته، بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله، وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوّة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطًا لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد، فإذن لا حول ولا قوة إلا بالله حقًا وصدقًا، فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوّة إلا بالله [1]، وذلك قد

(١) - أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله. تقدمت في الدعوات. [منها عند البخاري: ٤٢٠٥، ومسلم: ٢٧٠٤ عن أبي موسى].

يستبعد فيقال: كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها؟ وهيهات فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد، ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة (لا إله إلا الله) وثوابها كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى، إذ في هذه الكلمة إضافة شيئين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه.

فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب (لا إله إلا الله) بالإضافة إلى هذا، وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين، فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات، وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبين، وإلى اللبين الإشارة بقوله ﷺ: «مَنْ قالَ لا إله إلاّ اللّهُ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ مُخْلِصًا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ» [(١)]، وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع، والمراد به المقيد بالعمل الصالح، فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضًا حديث ولكنه حديث نفس، وإنما الصدق والإخلاص وراءهما، ولا ينصب سرير الملك إلا للمقرّبين وهم المخلصون، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضًا درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلى الملك، أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة :١٥-١٦] ولما انتهى إلى أصحاب اليمين ما زاد في ذكر الماء والظل والفواكه والأشجار والحور العين، وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح، ويتصور ذلك للبهائم على الدوام، وأين لذات البهائم من لذة الملك؟ والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين؟ ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة، أفترى أنّ أحوال البهائم ــ وهي مسيبة في الرياض متنعمة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد ــ أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوي الكمال مغبوطة ــ من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين، هيهات هيهات ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حمارًا أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس يخفى أنّ شبه كل شيء منجذب إليه، وأنّ النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة، فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب، وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات

(١) **صحيح**: حديث «من قال لا إله إلا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة». رواه الطبراني من حديث زيد بن أرقم، وأبو يعلى من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [انظر صحيح الجامع: ٨٥١].

البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة، وهؤلاء هم الذين يقال فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوّتها طلب درجة الملائكة، فتركها الطلب للعجز. وأما الإنسان ففي قوته ذلك، والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال. وإذا كان هذا كلامًا معترضًا فلنرجع إلى المقصود فقد بيّنّا معنى قوله: (لا إله إلا الله) ومعنى قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) وأن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل.

فإن قلت: ليس في قولك (لا حول ولا قوة إلا بالله) إلا نسبة شيئين إلى الله، فلو قال قائل: السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه؟

فأقول: لا؛ لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز وصفهما بالصغر تجوزًا، فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامي يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة الآدميين بل هما من خلق الله تعالى، فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعي أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بحدّة نظره، فهي مهلكة مخطرة، ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون إذ أثبتوا لأنفسهم أمرًا وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى، فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذي يصدق قول لا حول ولا قوّة إلا بالله، وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان:

إحداهما: النظر إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات.

والثانية: النظر إلى اختيار الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرهما وبقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعني ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها؛ فإذا رجع حال التوكل إلى التبري من الحول والقوّة والتوكل على الواحد الحق، وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى.

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل:

ليتبين أنّ شيئًا منها لا يخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال، فقد قال أبو موسى الديلي: قلت لأبي يزيد: ما التوكل؟ فقال: ما تقول أنت؟ قلت: إن أصحابنا يقولون: لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرّك لذلك سرك. فقال أبو يزيد: نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل، فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل

وهو المقام الثالث، وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذي هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة، وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سر القدر، وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحياة شرطًا في المقام الأوّل من التوّكل؛ فقد احترز أبو بكر رضي الله عنه في الغار إذ سدّ منافذ الحيات [١] إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره، أو يقال: إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله ﷺ لا في حق نفسه، وإنما يزول التوّكل بتحرّك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه، وللنظر في هذا مجال، ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوّكل، فإنّ حركة السر من الحيات هو الخوف، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات، إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله، فإن احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير.

وسئل ذو النون المصري عن التوكل؟ فقال: خلع الأرباب وقطع الأسباب، فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقيل له: زدنا فقال: إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية، وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط.

وسئل حمدون القصار عن التوكل؟ فقال: إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك، وهذا إشارة إلى مجرّد الإيمان بسعة القدرة، وأن في المقدورات أسبابًا خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة.

وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل؟ فقال: التعلق بالله تعالى في كل حال، فقال السائل: زدني فقال: ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك، فالأوّل عام للمقامات الثلاث، والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة، وهو مثل توكل إبراهيم ﷺ إذ قال له جبريل عليه السلام: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، إذ كان سؤاله سببًا يفضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له، فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك، فيكون هو المتولي لذلك، وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره، وهو حال عزيز في نفسه، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز.

وقال أبو سعيد الخراز: التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب، ولعله يشير إلى

---

(١) حديث: إن أبا بكر سد منافذ الحيات في الغار شفقة على النبي ﷺ. تقدم. [انظر المشكاة: ٦٠٢٥، وقال الألباني: لم تتم دراسته].

المقام الثاني، فسكونه بلا اضطراب: إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به، واضطراب بلا سكون: إشارة إلى فزعه إليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها.

وقال أبو علي الدقاق: التوكل ثلاث درجات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده، والمسلم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه، فإنّ العلم هو الأصل، والوعد يتبعه، والحكم يتبع الوعد، ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك، وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه فلا نطول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل، فهذا ما يتعلق بحال التوكل، والله الموفق برحمته ولطفه.

بيان أعمال المتوكلين:

اعلم أن العلم يورث الحال، والحال يثمر الأعمال، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال، فإنّ ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين، بل نكشف الغطاء عنه ونقول إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده، وسعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادّخار، أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع، أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالتداوي من المرض، فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه، أو دفع الضارّ أو قطعه، فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونًا بشواهد الشرع.

الفن الأوّل: في جلب النافع: فنقول فيه: الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات: مقطوع به، ومظنون ظنًّا يوثق به، وموهوم وهمًّا لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه.

الدرجة الأولى: المقطوع به، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطًا مطردًا لا يختلف، كما أنّ الطعام إذا كان موضوعًا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمدّ اليد إليه وتقول أنا متوكل، وشرط التوكل ترك السعي ومدّ اليد إليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله، فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء، فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعًا دون الخبز، أو يخلق في الخبز حركة إليك، أو يسخر ملكًا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك: فقد جهلت سنة الله تعالى، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتًا من غير بذر،

أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام. فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه، فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم. أما العلم: فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوّة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك.

وأما الحال: فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف في الحال وتفلج؟ وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك؟ وكيف تعول على حضور الطعام، وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه أو يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرّق بينك وبين طعامك. وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول، فإذا كان هذا حاله وعلمه فيلمدّ اليد فإنه متوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أنّ المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدًا، كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادرًا ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس شرطًا في التوكل، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأوّلين، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق، ولكن فعل ذلك جائز. وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخوّاص.

فإن قلت: فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة.

فاعلم أنّ ذلك يخرج عن كونه حرامًا بشرطين:

أحدهما: أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسوّاها على الصبر عن الطعام أسبوعًا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوّش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى.

والثاني: أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة؛ فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجتزىء به فيحيا به مجاهدًا نفسه. والمجاهدة عماد التوكل، وعلى هذا كان يعول الخوّاص ونظراؤه من المتوكلين. والدليل عليه أنّ الخواص كان لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة ويقول: هذا لا يقدح في التوكل. وسببه أنه علم أنّ البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض، وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش، والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة؛ فإنّ المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام، وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرّق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة في البوادي غالبًا عند كل صلاة، ولا يقوم

مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي، فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضًا يلتحق بالدرجة الثانية؛ لأنه مظنون ظنًّا ليس مقطوعًا به؛ لأنه يحتمل أن لا يتخرّق الثوب أو يعطيه إنسان ثوبًا أو يجد على رأس البئر من يسقيه، ولا يحتمل أن يتحرّك الطعام ممضوغًا إلى فيه، فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأوّل، ولهذا نقول: لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلًا، فهو آثم به ساع في هلاك نفسه، كما روي أنّ زاهدًا من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعًا وقال: لا أسأل أحدًا شيئًا حتى يأتيني ربي برزقي، فقعد سبعًا فكاد يموت ولم يأته رزق، فقال: يا رب إن أحييتني فائتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك، فأوحى الله جل ذكره إليه. وعزتي لا لأرزقنك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس. فدخل المصر وقعد، فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب، فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه. أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إليّ من أن أرزقه بيد قدرتي، فإذن التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلًا في الوكيل بالخصومة من قبل، ولكنّ الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية، فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب.

فإن قلت: فما قولك في القعود في البلد بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب؟.

فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكًا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكًا نفسه حتى يكون فعله حرامًا، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه، والصبر ممكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام، وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له، ولكن ليس فعله حرامًا إلا أن يشرف على الموت: فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله، فهو أفضل، وهو من مقامات التوكل؛ وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه، فإنّ الرزق يأتيه لا محالة، وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء: وهو أنّ العبد لو هرب من رزقه لطلبه، كما لو هرب من الموت لأدركه، وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصيًا، ولقال له: يا جاهل، كيف أخلقك ولا أرزقك؟ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رازق ولا مميت إلا الله تعالى. وقال ﷺ: «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو

خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا وَلَزَالَتْ بِدُعَائِكُمْ الجِبَالُ» (١)، وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يومًا بيوم؛ فإن قلتم نحن أكبر بطونًا فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الحق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسي: المتوكلون تجري أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون. وقال بعضهم: العبيد كلهم في رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال، وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار، وبعضهم بامتهان كالصناع، وبعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة.

الدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها، وهو الذي فيه الناس كلهم: أعني من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابًا مباحًا لمال مباح، فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب، فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطير والكي بالإضافة إلى إزالة الضارّ، فإن النبي وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئًا، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب، وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها. وقال سهل في التوكل: إنه ترك التدبير وقال: إنّ الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه، وإنما حجابهم بتدبيرهم، ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية، فإذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج، وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل. وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعًا، والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات:

الأوّل: مقام الخواص ونظرائه، وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعًا وما فوقه، أو تيسير حشيش له أو قوت، أو تثبيته على الرضا

---

(١) حديث «لو توكلتم على الله حق توكله». [الترمذي: ٢٣٤٤، وانظر صحيح الترمذي] وقد تقدم قريبا دون هذه الزيادة، فرواها الإمام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل بإسناد فيه لين «لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال» [انظر السلسلة الضعيفة: ٤٣٥٧، وقال الألباني: منكر ضعيف الإسناد] ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب المكي مرسلا دون قوله «لمشيتم على البحور» وقال: هذا منقطع.

بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك، فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعًا، فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده.

المقام الثاني: أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأمصار، وهذا أضعف من الأوّل، ولكنه أيضًا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة، معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية، ولكنه بالقعود في الأمصار متعرّض لأسباب الرزق، فإن ذلك من الأسباب الجالبة، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد، إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم.

المقام الثالث: أن يخرج ويكتسب اكتسابًا على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب، وهذا السعي لا يخرجه أيضًا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوّته وجاهه وبضاعته، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة، بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له، بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع، فلا يكوّن نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرّك؟ وإلى ماذا يميل؟ وبم يحكم؟ ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبًا لعياله أو ليفرّق على المساكين فهو ببدنه مكتسب وبقلبه عنه منقطع؛ فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته، والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصدّيق رضي الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذًا الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادي، حتى كرهه المسلمون وقالوا: كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافه النبوّة؟ فقال: لا تشغلوني عن عيالي فإني إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى، ويستحيل أن يقال: لم يكن الصديق في مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه؟ فدل على أنه كان متوكلًا لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته ولعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره، فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها، ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد. وقال أبو جعفر الحداد ــ وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما وكان من المتوكلين: أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق: كنت أكتسب في كل يوم دينارًا ولا أبيت منه دانقًا ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام، بل أخرجه كله قبل الليل.

وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته وكان يقول: أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي. واعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل، فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف، ولكن يقوى بالحال والعلم، كتوكل المكتسب؛ وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم، لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقًا، فهو كدخول السوق، ولا يكون داخل السوق متوكلًا إلا بشروط كثيرة كما سبق.

فإن قلت: فما الأفضل أن يقعد في بيته، أو يخرج ويكتسب؟.

فاعلم أنه إن كان يتفرّغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئًا بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى، فالقعود له أولى. وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى؛ لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب، وتركه أهم من ترك الكسب، وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم: كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطي بعض الفقراء شيئًا فضلًا عما كان استأجره عليه، فرده، فلما ولّى قال له أحمد: الحقه وأعطه فإنه يقبل، فلحقه وأعطاه فأخذه، فسأل أحمد عن ذلك؟ فقال: كان قد استشرفت نفسه فرد، فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ. وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئًا. وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره: رأيت الخضر ورضي بصحبتي ولكني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصًا في توكلي، فإذن المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلًا.

فإن قلت: فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية؟.

فأقول: علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو تعوّق أمر من أموره كان راضيًا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدًا، فإنّ من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه، وكان بشر يعمل المغازل فتركها، وذلك لأنّ البعادي كاتبه قال: بلغني أنك استعنت على رزقك بالمغازل، أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها. وقيل: تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها. وقيل: فعل ذلك لما مات عياله، كما كان لسفيان خمسون دينارًا يتجر فيها، فلما مات عياله فرّقها.

فإن قلت: فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أنّ الكسب بغير بضاعة لا يمكن؟.

فأقول: بأن يعلم أنّ الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة، وأنّ الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة، وأن يوطن نفسه على أنّ الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه، فإن أهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سببًا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به، وغايته أن يموت جوعًا، فينبغي أن يعتقد أنّ الموت جوعًا خير له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته، فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها، ففي الخبر: «إنَّ العَبْدَ لَيَهُمُّ مِنَ اللَّيْلِ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ التِّجَارَةِ مِمَّا لَوْ فَعَلَهُ لكانَ فِيهِ هَلاكُهُ فينظر اللَّهُ تعالى إِلَيْهِ مِنْ فَوْقِ عرشهِ فيصرفه عنه فيصبح حَزِينًا يَتَطَيَّرُ بجاره وابن عمه: مَنْ سَبَقَنِي؟ مِنْ دَهَانِي؟ وما هِيَ إلاّ رَحْمَةٌ رحمه اللَّهُ بها»[1] ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنيًا أو فقيرًا، فإني لا أدري أيهما خير لي، ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصوّر منه التوكل؛ ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري: لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فإني ما شممت منه رائحة، هذا كلامه مع علوّ قدره، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال: ما أدركته، ولعله أراد إدراك أقصاه، وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدّره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد؛ لم يكمل حال التوكل؛ فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور ــ كما سبق ــ وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبني على أصولها من الإيمان. وبالجملة؛ التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين، ولذلك قال سهل: من طعن على التكسب فقد طعن على السنة، ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد.

فإن قلت: فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظنّ بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية؟.

فأقول: نعم، هو أن تعرف أنّ سوء الظن تلقين الشيطان، وحسن الظن تلقين الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ [البقرة:٢٦٨] فإنّ الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان، ولذلك قيل: الشفيق بسوء الظن مولع، وإذا انضم إليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضًا تبطل التوكل، فقد حكي عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم، فقال له الإمام: لو اكتسبت لكان أفضل لك، فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثًا، فقال في الرابعة: يهودي

(١) حديث «إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة». أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه، إلا أنه قال «إن العبد ليشرف على حاجة من حاجات الدنيا... الحديث» بنحوه.

في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين، فقال: إن كان صادقًا في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك، فقال: يا هذا لو لم تكن إمامًا تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرًا لك إذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق، وقال إمام المسجد لبعض المصلين: من أين تأكل؟ فقال: يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك.

وينفع حسن الظن بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية: أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه، وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعًا، كما روي عن حذيفة المرعشي وقد كان خدم إبراهيم بن أدهم، فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا في طريق مكة أيامًا لم نجد طعامًا، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب، فنظر إليَّ إبراهيم وقال: يا حذيفة، أرى بك الجوع، فقلت: هو ما رأى الشيخ، فقال: عليَّ بدواة وقرطاس، فجئت به إليه فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود إليه بكل حال، والمشار إليه بكلّ معنى، وكتب شعرًا:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ... أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها ... فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إليَّ الرقعة فقال: اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك، فخرجت فأول من لقيني كان رجلًا على بغلة. فناولته الرقعة فأخذها، فلما وقف عليها بكى وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة؟ فقلت: هو في المسجد الفلاني، فدفع إليَّ صرة فيها ستمائة دينار، ثم لقيت رجلًا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال: هذا نصراني، فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال: لا تمسها فإنه يجيء الساعة، فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم.

وقال أبو يعقوب الأقطع البصري: جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفًا، فحدثتني نفسي بالخروج فخرجت إلى الوادي لعلي أجد شيئًا يسكن ضعفي، فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها، فوجدت في قلبي منها وحشة وكأنّ قائلًا يقول لي: جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة، فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت، فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قمطرة وقال: هذه لك، فقلت كيف خصصتني بها؟ قال: اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق، فنذرت إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين، وأنت أول من لقيته، فقلت: افتحها، ففتحها فإذا فيها سميد مصري ولوز مقشور وسكر كعاب، فقبضت قبضة من ذا

وقبضة من ذا وقلت رد الباقي إلى أصحابك هدية مني إليكم، وقد قبلتها، ثم قلت في نفسي: رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي.

وقال ممشاد الدينوري: كان عليَّ دين فاشتغل قلبي بسببه، فرأيت في النوم كأن قائلاً يقول: يا بخيل، أخذت علينا هذا المقدار من الدين، خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء، فما حاسبت بعد ذلك بقالاً ولا قصابًا ولا غيرهما.

وحكي عن بنان الحمال قال: كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعي زاد؛ فجاءتني امرأة وقالت لي: يا بنان، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لا يرزقك، قال: فرميت بزادي ثم أتى عليَّ ثلاث لم آكل، فوجدت خلخالاً في الطريق فقلت في نفسي: أحمله حتى يجيء صاحبه فربما يعطيني شيئًا فأرده عليه، فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لي: أنت تاجر تقول: عسى يجيء صاحبه فآخذ منه شيئًا ثم رمت لي شيئًا من الدراهم وقالت: أنفقها، فاكتفيت بها إلى قريب من مكة.

وحكي أن بنانًا احتاج إلى جارية تخدمه، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا: هو ذا يجيء النفير فنشتري ما يوافق، فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا: إنها تصلح له، فقالوا لصاحبها: بكم هذه؟ فقال: إنها ليست للبيع، فألحوا عليه فقال: إنها لبنان الحمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة.

وقيل: كان في الزمان الأول رجل في سفر ومعه قرص فقال: إن أكلته مت، فوكَّل الله عز وجل به ملكًا وقال: إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره، فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده.

وقال أبو سعيد الخراز: دخلت البادية بغير زاد فأصابتني فاقة، فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت في نفسي أني سكنت واتكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة وواريت جسدي فيها إلى صدري، فسمعت صوتًا في نصف الليل عاليًا: يا أهل المرحلة، إن لله تعالى وليًا حبس نفسه في هذا الرمل فألحقوه، فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية.

وروي أنّ رجلًا لازم باب عمر رضي الله عنه فإذا هو بقائل يقول: يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى؟ اذهب فتعلم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر، فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة، فجاءه عمر فقال له: إني قد اشتقت إليك فما الذي شغلك عني؟ فقال: إني قرأت القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر، فقال عمر: رحمك الله فما الذي وجدت فيه، فقال وجدت فيه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فقلت: رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فبكى عمر وقال: صدقت، فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه.

وقال أبو حمزة الخراساني: حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث، فقلت: لا والله لا أستغيث، فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نسدّ رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد، فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر، فهممت أن أصيح فقلت في نفسي: إلى من أصيح هو أقرب منهما وسكنت، فبينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول: تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك، فتعلقت به فأخرجني، فإذا هو سبع، فمرّ وهتف بي هاتف: يا أبا حمزة أليس هذا أحسن، نجيناك من التلف بالتلف، فمشيت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أن أكشفَ الهوى … وأغنيتني بالفهم منك عن الكشفِ
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي … إلى غائبي واللطف يدرك باللطفِ
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما … تبشرني بالغيب أنك في الكفِ
أراك وبي من هيبتي لك وحشة … فتؤنسني باللطف منك وبالعطفِ
وتحيـي محبًا أنت في الحب حتفه … وذا عجب كون الحياة مع الحتفِ

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر، وإذا قوي الإيمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر، وقوي الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه: تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات، وإلا فلا يتم أصلًا.

بيان توكل المعيل:

اعلم أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد؛ لأنّ المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين:

أحدهما: قدرته على الجوع أسبوعًا من غير استشراف وضيق نفس.

والآخر: أبواب من الإيمان ذكرناها، من جملتها: أن يطيب نفسًا بالموت إن لم يأته رزقه، علمًا بأنّ رزقه الموت والجوع، وهو إن كان نقصًا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة، فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له: وهو رزق الآخرة، وأنّ هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيًا بذلك وأنه كذا قضي وقدّر له، فبهذا يتم التوكل للمنفرد، ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع، ولا يمكن أن يقرّر عندهم الإيمان بالتوحيد وأنّ الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادرًا، وكذا سائر أبواب الإيمان، فإذن لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب وهو المقام الثالث، كتوكل أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه إذ خرج للكسب، فأما دخول البوادي وترك العيال توكلًا في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلًا في حقهم فهذا حرام، وقد يفضي إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذًا بهم، بل التحقيق أنه

لا فرق بينه وبين عياله، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدّة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقًا وغنيمة في الآخرة، فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضًا عيال عنده، ولا يجوز له أن يضيعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدّة، فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوّش عليه عبادته لم يجز له التوكل، ولذلك روي أنّ أبا تراب النخشي نظر إلى صوفي مدّ يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام.

فقال له: لا يصلح لك التصوّف. الزم السوق أي لا تصوّف إلا مع التوكل. ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام، وقال أبو علي الروذباري: إذا قال الفقير بعد خمسة أيام: أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب، فإذن بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله؛ وإنما يفارقهم في شيء واحد: وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله، وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعًا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدّة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرًا وملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه، فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر، والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي، وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدّوا تلك أسبابًا، وذلك لضعف إيمانهم وشدّة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل، ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقًا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرًا لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب. فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه، أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزًا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرارًا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدّر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانًا قواطع وطواحين لأجل المضغ، فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة، فجبنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت، فإنه لم يكن قادرًا على الاكتساب، فالآن قد قدر فزادت قدرته، نعم كان المشفق عليه شخصًا واحدًا وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جدًّا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة أو مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرقة على قلوب المسلمين بل أهل

البلد كافة، حتى أن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعث له داعية إلى إزالة حاجته، فقد كان المشفق عليه واحدًا والآن المشفق عليه ألف وزيادة، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجًا، ولو رأوه يتيمًا لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه، فما رئي إلى الآن في سني الخصب يتيم قد مات جوعًا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحدًا والمشفق الآن ألف، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض، فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالاً هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة، ولقد أحسن الشاعر حيث يقول:

جَرَى قَلَمُ القضاءِ بما يكون ... فسيَّان التحرّك والسكونُ
جنون منك أن تسعى لرزقٍ ... ويرزق في غشاوته الجنينُ

فإن قلت: الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزًا بصباه، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون: هو مثلنا فليجتهد لنفسه؟.

فأقول: إن كان هذا القادر بطالاً فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإنّ التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرّغ لله تعالى؛ فما للبطال والتوكل؛ وإن كان مشتغلًا بالله ملازمًا لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك، بل اشتغاله بالله تعالى يقرّر حبه في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته، وإنما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس، وما رئي إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فمات جوعًا ولا يرى قط، بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه، فإن من كان لله تعالى كان الله عز وجل له، ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها، فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرًا كافيًا لأهل الملك والملكوت. فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب، نعم ما دبره تدبيرًا يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة، وقد يقع ذلك أيضًا في بعض الأحوال لكن دبره تدبيرًا يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة، والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية، فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة، وليس ذلك من

طريق الآخرة، وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب، وهو في الغالب أيضًا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرًا، وفي النادر أيضًا قد يحصل بغير اضطراب: فأثر الاضطراب ضعف عند من انفتحت بصيرته، فلذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيرًا لا يجاوز عبدًا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرًا ندورًا عظيمًا يتصور مثله في حق المضطرب؛ فإذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال: وددت أن أهل البصرة في عيالي، وأن حبة بدينار. وقال وهيب بن الورد: لو كانت السماء نحاسًا والأرض رصاصًا واهتممت برزقي لظننت أني مشرك، فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أنّ التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه، وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل، فإياك أن تجمع بين الإفلاسين: الإفلاس عن وجود المقام ذوقًا، والإفلاس عن الإيمان به علمًا؛ فإذن عليك بالقناعة بالنزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه، وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدي من لا تحتسب، فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] الآية، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة؛ فما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته، وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأنّ إلى ضمانه؛ فإن الذي أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق، بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء. قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وأسرار السماء لا يطلع عليها، ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال: ماذا تطلبون؟ قالوا: نطلب الرزق، فقال: إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه. قالوا: نسأل الله. قال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه، فقالوا: ندخل البيت ونتوكل وننظر ما يكون. فقال: التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة. وقال أحمد بن عيسى الخرّاز: كنت في البادية فنالني جوع شديد فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعامًا، فقلت: ليس هذا من أفعال المتوكلين، فطالبتني أن أسأل الله صبرًا، فلما هممت بذلك سمعت هاتفًا يهتف بي ويقول:

ويزعم أنه منا قريب ... وأنّا لا نضيع من أتانا
ويسألنا على الإقتار جهدًا ... كأنا لا نراه ولا يرانا

فقد فهمت أنّ من انكسرت نفسه وقوي قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوي إيمانه بتدبير الله تعالى، كان مطمئن النفس أبدًا واثقًا بالله عز وجل؛ فإنّ أسوأ حاله أن يموت، ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئنًا فإذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب، والذي ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها صادق، فاقنع وجرّب تشاهد

صدق الوعد تحقيقًا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك، ولا تكن في توكلك منتظرًا للأسباب بل لمسبب الأسباب، كما لا تكون منتظرًا لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فإنه أصل حركة القلم، والمحرّك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه، وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد أو يقعد في الأمصار وهو خامل. وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم فإذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ، وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام، بل يأتيه أضعافه، فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب، فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين وهو بالعلماء أقبح لأنّ شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن، فإنّ الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرّب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطي على نيل الثواب، ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى علم أنّ الرزق ليس على قدر الأسباب، ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيمًا عن الأحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال: أراد الصانع أن يدل على نفسه، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أنّ العقل رَزَقَ صاحبه، فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم، قال الشاعر:

ولو كَانَتِ الأرزَاقُ تجري على الحِجَا ... هَلَكْنَ إذن من جهلهنَّ البهائِمُ

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال:

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا في ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلمانًا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين وبعضهم رغيفًا رغيفًا ويجتهدوا في أن لا يغفلوا عن واحد منهم، وأمر مناديًا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلماني إذا خرجوا إليكم، بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فإذا فتح باب الميدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلًا به إلى أن أتقدم لعقوبته في ميعاد معلوم عندي ولكن أخفيه، ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فإني أختصه بخلعة سنية في الميعاد المذكور لعقوبة الآخر، ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له، ومن أخطأه غلماني فما أوصلوا إليه شيئًا فبات الليلة جائعًا غير متسخط للغلمان ولا قائلًا ليته أوصل إلي رغيفًا فإني غدًا أستوزره وأفوّض ملكي إليه فانقسم السؤال إلى أربعة أقسام: قسم غلبت عليهم

بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة؛ وقالوا: من اليوم إلى غد فرج ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين، فسبقت العقوبة إليهم في الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم، وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة، وقسم قالوا: إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفًا واحدًا ونقنع به؛ فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة؛ وقسم رابع اختفوا في زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا: إن اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد، وإن أخطئونا قاسينا شدّة الجوع الليلة، فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك، فما نفعهم ذلك، إذ اتبعهم الغلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفًا واحدًا، وجرى مثل ذلك أيامًا حتى اتفق على الندور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش، فباتوا في جوع شديد، فقال اثنان منهم: ليتنا تعرّضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر، وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة، فهذا مثال الخلق، والميدان هو الحياة في الدنيا، وباب الميدان الموت، والميعاد المجهول يوم القيامة، والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعًا راضيًا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة؛ لأنّ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، والمتعلق بالغلمان هو المعتدي في الأسباب، والغلمان المسخرون هم الأسباب، والجالس في ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكوت، والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور، فإن مات واحد منهم جائعًا راضيًا فله الشهادة والقرب من الله تعالى، وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرّضين للسبب بمجرّد حضورهم واشتهارهم، وساح في البوادي ثلاثة، وتسخط منهم اثنان، وفاز بالقرب واحد، ولعله كان كذلك في الأعصار السالفة، وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف.

الفن الثاني في التعرّض لأسباب الادخار: فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب، فله في الادخار ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعًا، ويلبس إن كان عاريًا، ويشتري مسكنًا مختصرًا إن كان محتاجًا، ويفرق الباقي في الحال، ولا يأخذه ولا يدّخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدّخره، على هذه النية، فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقًا وهي الدرجة العليا.

الحالة الثانية: المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل: أن يدّخر لسنة فما فوقها،

فهذا ليس من المتوكلين أصلًا؛ وقد قيل: لا يدّخر من الحيوانات إلا ثلاثة: الفأرة، والنملة، وابن آدم.

الحالة الثالثة: أن يدّخر لأربعين يومًا فما دونها، فهذا: هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين؟ اختلفوا فيه: فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حدّ التوكل. وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يومًا ويخرج بما يزيد على الأربعين. وقال أبو طالب المكي: لا يخرج عن حدّ التوكل بالزيادة على الأربعين أيضًا، وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار، نعم يجوز أن يظن ظان أنّ أصل الادخار يناقض التوكل، فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له، وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة، وتلك الرتبة لها بداية ونهاية، ويسمى أصحاب النهايات السابقين، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين، ثم أصحاب اليمين أيضًا على درجات، وكذلك السابقون، وأعالي درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين، فلا معنى للتقدير في مثل هذا؛ بل التحقيق أنّ التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل؛ وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس، فإنّ ذلك كالممتنع وجوده؛ أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره، وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات، وأقصاه ما يتصوّر أن يكون عمر الإنسان، وبينهما درجات لا حصر لها، فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة، وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد، فإنّ تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يومًا لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور، كما قال عليه السلام: «إِنَّ الله خَمَّرَ طِينَةَ آدَمَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»[1]؛ لأنّ استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفًا على مدّة مبلغها ما ذكر، فإذن ما وراء السنة لا يدّخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب، فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب، فإنّ أسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرّر بتكرّر السنين غالبًا، ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله، ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرًا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر، بل هو بينهما في الرتبة، ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل، فالأفضل أن لا يدّخر أصلًا، وإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر، وقد روي في الفقير الذي أمر ﷺ عليًا كرّم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته، فلما دفنه قال لأصحابه: «إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجْهُهُ كَالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَلَوْلا خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ لَبُعِثَ وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ

---

(١) حديث «خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي بإسناد ضعيف جدا وهو باطل.

الصَّاحِيَةِ» قلنا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «كانَ صَوَّامًا قَوَّامًا كَثِيرَ الذِّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الصَّيْفِ لِصَيْفِهِ، وَإِذا جَاءَ الصَّيْفُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الشِّتَاءِ لِشِتَائِهِ، ثم قال ﷺ: بَلْ أَقَلُّ مَا أُوتِيتُمُ اليَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ» (١) . الحديث، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك، فإنّ ادخاره لا ينقص الدرجة، وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف، وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق، فإن كان يستشعر في نفسه اضطرابًا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى، بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيًا بقدر كفايته وكان لا يتفرّغ قلبه إلا به فذلك له أولى؛ لأنّ المقصود إصلاح القلب ليتجرّد الذكر لله، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه، والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل، وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها، ولذلك بعث رسول الله ﷺ إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما، بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أنّ فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى، وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب، فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته، كما أنّ صواب القوي ترك الادخار، وهذا كله حكم المنفرد؛ فأما المعيل فلا يخرج عن حدّ التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرًا لضعفهم وتسكينًا لقلوبهم، وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل؛ لأنّ الأسباب تتكرّر عند تكرّر السنين؛ فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه، وذلك يناقض قوّة التوكل، فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى، واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة. وقد ادخر رسول الله ﷺ لعياله قوت سنة (٢) ، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدّخر له شيئًا لغد (٣) ، ونهى بلالاً عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها، فقال ﷺ: «أَنْفِقْ بِلالا ولا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إقلالا» (٤) ، وقال ﷺ: «إذا سُئِلْتَ فَلا تَمْنَعْ وَإذا أُعْطِيْتَ فَلا تَخْبأْ» (٥) ، اقتداء بسيد المتوكلين ، وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا

---

(١) حديث: أنه قال في حق الفقير الذي أمر عليا أو أسامة فغسله وكفنه ببردته: أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر». لم أجد له أصلا، وتقدم آخر الحديث قبل هذا.

(٢) **صحيح**: حديث: ادّخَرَ لعياله قوت سنة. متفق عليه، وتقدم في الزكاة. [البخاري: ٥٣٥٧، ومسلم: ١٧٥٧ عن مالك بن أوس عن عمر].

(٣) حديث: نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لغد. تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها.

(٤) **صحيح لغيره**: حديث: نهى بلالا عن الادخار وقال «أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا». رواه البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال: دخل عليه النبي ﷺ وعنده صبر من تمر، فقال ذلك. وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة، وكلها ضعيفة. وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز، فلم أره. [انظر صحيح الترغيب: ٩٢١].

(٥) **ضعيف**: حديث قال لبلال «إذا سئلت فلا تمنع، وإذا أعطيت فلا تخبأ». رواه الطبراني والحاكم من حديث

بال تيمم مع قرب الماء ويقول: «ما يُدْرِيني لَعَلِّي لا أَبْلُغُهُ»(١) ، وقد كان لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره، ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليمًا للأقوياء من أمته، فإنّ أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوّته، وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله، ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته، بل أخبر: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ»(٢) ، تطييبًا لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات، فما أرسل رسول الله ﷺ إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم، وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر، ويدل على ما روى أبو أمامة الباهلي: أن بعض أصحاب الصفة توفي فما وجد له كفن، فقال ﷺ: «فَتِّشُوا ثَوْبَهُ» فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال ﷺ: «كَيَّتَانِ»(٣)، وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالًا ولا يقول ذلك في حقه، وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين:

أحدهما: أنه أراد كيتين من النار، كما قال تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة :٣٥] وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبيس.

والثاني: أن لا يكون ذلك عن تلبيس، فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه، وذلك لا يكون عن تلبيس، فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة، إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئًا إلا نقص بقدره من الآخرة. وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدّخر ليس من ضرورته بطلان التوكل، فيشهد له ما روي عن بشر، قال الحسين المغازلي من أصحابه: كنت عنده ضحوة من النهار، فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين، فقام إليه بشر، قال: وما رأيته قام لأحد غيره، قال: ودفع إلي كفًّا من دراهم وقال: اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب، وما قال لي قط مثل ذلك، قال: فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره، قال: فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير، فأخذه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف، فعجبت من ذلك وكرهته له، فقال لي بشر: لعلك أنكرت فعله؟ قلت: نعم أخذ

أبي سعيد وهو ثقة. [انظر ضعيف الترغيب: ٥٤٣].

(١) صحيح: حديث أنه ﷺ بال وتيمم مع قرب الماء ويقول «ما يدريني لعلي لا أبلغه». أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف. [انظر السلسة الصحيحة: ٢٦٢٩].

(٢) صحيح: حديث «إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه». أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي من حديث ابن عمر وقد تقدم. [أحمد: ٥٨٣٢ بنحوه، وانظر صحيح الترغيب: ١٠٦٠].

(٣) صحيح لغيره: حديث أبي أمامة: تُوفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخلة إزاره. فقال ﷺ «كيتان». رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه. [أحمد: ٧٩٠، وانظر صحيح الترغيب: ٩٣٥].

بقية الطعام من غير إذن، فقال: ذاك أخونا فتح الموصلي زارنا اليوم من الموصل فإنما أراد أن يعلمنا أنّ التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار.

الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرّض للخوف: اعلم أنّ الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأسًا؛ أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجاري السيل من الوادي أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر. فكل ذلك منهي عنه، وصاحبه قد عرّض نفسه للهلاك بغير فائدة، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها، ومظنونة، وإلى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكي والرقية؛ فإنّ الكي والرقية قد يقدم به على المحذور دفعًا لما يتوقع، وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة، ورسول الله ﷺ لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرقية والطيرة، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة، والجبة تلبس دفعًا للبرد المتوقع، وكذلك كل ما في معناها من الأسباب، نعم. الاستظهار بأكل الثوم مثلًا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهييجًا لقوّة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة، ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩-١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] وقال عز وجل: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقال تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩] وهذا في أذى الناس، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب، فترك دفعها ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه، ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لإعانته على الدين، وترتب الأسباب هاهنا كترتبها في الكسب وجلب المنافع فلا نطول بالإعادة، وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال، فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير، لأن هذه أسباب عرفت سنة الله تعالى إما قطعًا وإما ظنًا، ولذلك قال للأعرابي لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله: «اعقلها وتوكل»[1]، وقال تعالى: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] وقال في كيفية صلاة الخوف: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] وقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ

(١) حسن: حديث «اعقلها وتوكل». أخرجه الترمذي من حديث أنس، قال يحيى القطان: منكر. ورواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد «قيدها». [الترمذي: ٢٥١٧، وانظر صحيح الترمذي].

بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ [الدخان: ٢٣] والتحصن بالليل اختفاء عـن أعين الأعداء ونوع تسبب، واختفاء رسول الله ﷺ في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعًا للضرر (١)، وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعًا قطعًا كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعًا، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع، وإنما الموهوم هو الذي يقتضي التوكل تركه.

فإن قلت: فقد حكي عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرّك.

فأقول: وقد حكي عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه فلا ينبغي أن يغرّك ذلك المقام؛ فإنه وإن كان صحيحًا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطًا في التوكل، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها.

فإن قلت: وهل من علامة أعلم بها أني قد وصلت إليها؟

فأقول: الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات، ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه: أن يسخَّر لك كلب هو معك في إهابك يسمى الغضب، فلا يزال يعضك ويعض غيرك، فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلي لم يستشل إلا بإشارتك وكان مسخرًا لك، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع، وكلب دارك أولى بأن يكون مسخرًا لك من كلب البوادي، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك، فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر.

فإن قلت: فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذرًا من العدوّ وأغلق بابه حذرًا من اللص وعقل بعيره حذرًا من أن ينطلق، فبأي اعتبار يكون متوكلًا؟

فأقول: يكون متوكلًا بالعلم والحال، فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه؛ فكم من باب يغلق ولا ينفع، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت، وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب؛ فلا تتكل على هذه الأسباب أصلًا بل على مسبب الأسباب، كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله بل يتكل على كفاية الوكيل وقوّته، وأما الحال فهو أن يكون راضيًا بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول: اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك، فإني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها، أو عارية ووديعة فتستردها، ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري، وكيفما قضيت فأنا راض به، وما أغلقت الباب تحصنًا من قضائك وتسخطًا له، بل جريًا على مقتضى سننك في ترتيب الأسباب، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب، فإذا

---

(١) **صحيح:** حديث: اختفى رسول الله ﷺ عن أعين الأعداء دفعا للضرر. تقدم في قصة اختفائه في الغار عند إرادة الهجرة. [البخاري: ٣٩٠٦ عن عائشة].

كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب، ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى، وإن لم يجده بل وجده مسروقًا نظر إلى قلبه، فإن وجده راضيًا أو فرحًا بذلك عالمًا أنه ما أخذ الله تعالى منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه، وإن تألم قلبه به ووجد قوّة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقًا في دعوى التوكل؛ لأنّ التوكل مقام بعد الزهد، ولا يصح الزهد إلا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي، بل يكون على العكس منه، فكيف يصح له التوكل؟ نعم، قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس، وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه، فقد كانت السرقة مزيدًا له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه في جميع الدعاوى؛ فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدّق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها؛ فإنها خدّاعة أمارة بالسوء مدعية للخير.

فإن قلت: فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟

فأقول: المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوّه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت، وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجًا فيصرفه إليه، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلًا لتوكله، وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده، وإنما ذلك في المأكول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة؛ لأنّ سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد، وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع، والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطًا في التوكل، ولذلك كان الخوّاص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين.

فإن قلت: فكيف يتصوّر أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه، فإن كان لا يشتهيه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه، وإن كان أمسكه لأنه يشتهيه لحاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه؟

فأقول: إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع، ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه، فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعًا به، إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلي بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر؛ فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط

اللص تغير ظنه؛ لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به، فيقول: لولا أنّ الله عز وجل علم أنّ الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني، فبمثل هذا الظن يتصوّر أن يندفع عنه الحزن، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفًا، وهو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله، فإن قدّم إليه الغذاء فرح وقال: لولا أنه يعرف أنّ الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قرّبه إليّ، وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضًا فرح وقال: لولا أنّ الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه، وكل من لا يعتقد لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلًا. ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب، فإنه لا يدري أي الأسباب خير له، كما قال عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنيًا أو فقيرًا؛ فإني لا أدري أيهما خير لي؛ فكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل يسرق متاعه أو لا يسرق فإنه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان وكم من غني يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول يا ليتني كنت فقيرًا

بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم:

للمتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه:

الأوّل: أن يغلق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق، وكجمعه أغلاقًا كثيرة؛ فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشدّه بشرط ويقول: لولا الكلاب ما شددته أيضًا.

الثاني: أن لا يترك في البيت متاعًا يحرّض عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم، ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال: خذها لا حاجة لي إليها. قال: لم؟ قال: يوسوس إلى العدوّ أن اللص يأخذها، فكأنه احترز من أن يعصي السارق؛ ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها، ولذلك قال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها.

الثالث: أن ما يضطرّ إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول: ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو في سبيل الله تعالى، وإن كان فقيرًا فهو عليه صدقة، وإن لم يشترط الفقر فهو أولى، فيكون له نيتان لو أخذه غني أو فقير.

إحداهما: أن يكون ماله مانعًا من المعصية، فإنه ربما يستغني به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل.

والثانية: أن لا يظلم مسلمًا آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر، ومهما ينوي حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوي دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» (١)، ونصر الظالم: أن تمنعه من الظلم، وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له، وليتحقق أنّ هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلي. ولكن يتحقق بالزهد نيته، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضًا، كما روي عن رسول الله ﷺ فيمن ترك العزل فأقرّ النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له (٢)؛ لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع، فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه، فلو خلق لكان ثوابه على فعله، وفعله لم ينعدم، فكذلك أمر السرقة.

الرابع: أنه إذا وجد المال مسروقًا فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول: لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى، ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل، فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين؛ وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه. فإنه قد قدّمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة، فإن أعيد عليه، فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل، وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم؛ لأن الملك لا يزول بمجرّد تلك النية، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين.

وقد روي أنّ ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا، ثم قال: في سبيل الله تعالى، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنّ ناقتك في مكان كذا فلبس نعله وقام، ثم قال: أستغفر الله وجلس، فقيل له: ألا تذهب فتأخذها فقال: إني كنت قلت في سبيل الله.

وقال بعض الشيوخ: رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأدخلني الجنة وعرض علي منازلي فيها فرأيتها، قال: وهو مع ذلك كئيب حزين فقلت: قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتنفس الصعداء ثم قال: نعم إني لا أزال حزينًا إلى يوم القيامة. قلت: ولم؟ قال إني لما رأيت منازلي في الجنة رفعت لي مقامات في عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت، ففرحت بها، فلما هممت بدخولها نادى منادي من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هي لمن أمضى السبيل، فقلت وما إمضاء السبيل؟ فقيل لي كنت تقول

---

(١) صحيح: حديث «انصر أخاك ظالما أو مظلوما». متفق عليه من حديث أنس، وقد تقدم. [البخاري: ٢٤٤٣ عن أنس، ومسلم: ٢٥٨٤ عن جابر بنحوه، ولم أقف عند مسلم عن أنس].

(٢) حديث «من ترك العزل فأقر النطفة قرارها». لم أجد له أصلا.

للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه، فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك.

وحكي عن بعض العباد بمكة أنه كان نائمًا إلى جنب رجل معه هميانه، فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به، فقال له كم كان في هميانك؟ فذكر له، فحمله إلى البيت ووزنه من عنده، ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحًا معه، فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب، فأبى وقال خذه حلالًا طيبًا، فما كنت لأعود في مال أخرجته في سبيل الله عز وجل، فلم يقبل، فألحوا عليه، فدعا ابنه وجعل يصره صررًا ويبعث به إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء.

فهكذا كانت أخلاق السلف، وكذلك من أخذ رغيفًا ليعطيه فقيرًا فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه فيعطيه فقيرًا آخر، وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات.

الخامس: وهو أقل الدرجات أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات، وبطل زهده، ولو بالغ بطل أجره أيضًا فيما أصيب به؛ ففي الخبر: «من دعا على ظالمه فقد انتصر» (١). وحكي أنّ الربيع بن خثيم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفًا وكان قائمًا يصلي، فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه، فجاءه قوم يعزونه فقال: أما إني قد كنت رأيت وهو يحله. قيل: وما منعك أن تزجره؟ قال: كنت فيما هو أحب إليّ من ذلك ـــ يعني الصلاة ـــ فجعلوا يدعون عليه فقال؛ لا تفعلوا وقولوا خيرًا فإني قد جعلتها صدقة عليه.

وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له: ألا تدعو على ظالمك قال: ما أحب أن أكون عونًا للشيطان عليه. قيل: أرأيت لو رد عليك؟ قال: لا آخذه ولا أنظر إليه لأني كنت قد أحللته له.

وقيل لآخر: ادع الله على ظالمك، فقال: ما ظلمني أحد، ثم قال: إنما ظلم نفسه، ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرًا.

وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه، فقال: لا تغرق في شتمه، فإنّ الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه.

وفي الخبر: «إنّ العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم» (٢).

السادس: أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرّضه لعذاب الله تعالى، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلومًا ولم يجعله ظالمًا وجعل ذلك نقصًا في دنياه لا نقصًا في دينه، فقد شكا بعض

---

(١) ضعيف: حـديث «من دعا على ظالمه فقد انتصر». تقدم. [الترمذي: ٣٥٥٢، وانظر السلسلة الضعيفة: ٤٥٩٣].

(٢)حديث «إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم». تقدم.

الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال: إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين.

وسرق من علي بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن، فقال: أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا والله ولكن على المسكين أن يسأل يوم القيامة ولا تكون له حجة.

وقيل لبعضهم: ادع على من ظلمك، فقال: إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه؛ فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين.

الفن الرابع: في السعي في إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله: اعلم أنّ الأسباب المزيلة للمرض أيضًا تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب. أعني معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب، وإلى موهوم كالكي والرقية. أما المقطوع فليس من التوكل تركه، بل تركه حرام عند خوف الموت. وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله ﷺ المتوكلين، وأقواها الكي، ويليه الرقية، والطيرة آخر درجاتها، والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب، وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضًا للتوكل بخلاف الموهوم، وتركه ليس محظورًا بخلاف المقطوع، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين، ويدل على أنّ التداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله وقوله وأمره به؛ أما قوله فقد قال ﷺ: «ما مِنْ دَاءٍ إلاَّ وَلَهُ دَوَاءٌ عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ إلاّ السَّام» (١)، يعني الموت. وقال عليه السلام: «تَدَاوَوا عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ» (٢). وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله» (٣)، وفي الخبر المشهور: «ما مررت بملأ من الملائكة إلا قالوا مُرْ

---

(١) حديث «ما من داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام». [أحمد: ٣٩١٢ بدون لفظ «إلا السام»، وهو بلفظ «إلا السام» انظر صحيح الجامع: ١٨٠٩، ومختصراً عند ابن ماجه: ٣٤٣٨، وانظر صحيح ابن ماجه، وبلفظ «إلا الهرم» عند الترمذي: ٢٠٣٨، وانظر صحيح الجامع: ٢٩٣٠] رواه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله «إلا السام» وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله «عرفه... إلى آخره» وإسناده حسن، وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك «إلا الهرم» وللطبراني في الأوسط والبزار من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف، والبخاري من حديث أبي هريرة «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء» [البخاري: ٥٦٧٨] ولمسلم من حديث جابر «لكل داء دواء» [مسلم: ٢٢٠٤].

(٢) **صحيح**: حديث تداووا عباد الله». رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك. [الترمذي: ٢٠٣٨، وابن ماجه: ٣٤٣٦، وانظر صحيح الترمذي].

(٣) **ضعيف**: حديث: سئل عن الدواء والرقي هل يرد من قدر الله فقال «هي من قدر الله». أخرجه الترمذي

أمتك بالحجامة» (١) ، وفي الحديث أنه ﷺ أمر بها وقال: «احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم» (٢) ، فذكر أنّ تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى، وبين أنّ إخراج الدم خلاص منه، إذ لا فرق إلا بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت، وليس من شرط التوكل ترك ذلك، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلًا. وفي خبر مقطوع: «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة» (٣) ، وأما أمره ﷺ فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي وبالحمية (٤) ، وقطع لسعد بن معاذ عرقًا (٥) أي فصده، وكوى سعد ابن زرارة (٦) ، وقال لعلي رضي الله عنه وكان رمد العين: «لا تَأْكُلْ مِنْ هَذَا» يعني الرطب «وَكُلْ مِنْ هذَا فَإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ» (٧) ، يعني سلقًا قد طبخ بدقيق شعير. وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين: «تأكل تمرًا وأنت أرمد» فقال: «إني آكل من الجانب الآخر»

وابن ماجه من حديث أبي خزامة، وقيل عن أبي خزامة عن أبيه، قال الترمذي: وهذا أصح. [الترمذي: ٢٠٦٥، وابن ماجه: ٣٤٣٧، وانظر ضعيف الترمذي].

(١) صحيح: حديث «ما مررت بملأ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة». رواه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب، ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف. [الترمذي: ٢٠٥٢، وابن ماجه: ٣٤٧٩، وانظر صحيح الترمذي].

(٢) حديث «احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين». [انظر السلسلة الضعيفة: ١٨٦٤، وقال الألباني: ضعيف جداً] أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا، ورفعه الترمذي بلفظ «إن خير ما تحتجمون فيه سبع عشرة... الحديث» [الترمذي: ٢٠٥٣، وانظر صحيح الترغيب: ٣٤٦٣] دون ذكر التَّبَيُّغ، وقال: حسن غريب، وقال البزار: إن طريقه المتقدمة احسن من هذا الطريق، ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف «من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر... الحديث» [ابن ماجه: ٣٤٨٦ وانظر صحيح ابن ماجه].

(٣) ضعيف: حديث «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة». رواه الطبراني من حديث معقل بن يسار، وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس وإسنادهما واحد اختلف على راويه في الصحابي، وكلاهما فيه زين العمى وهو ضعيف. [انظر ضعيف الجامع: ٥٣٤٧].

(٤) صحيح: حديث أمره بالتداوي لغير واحد من الصحابة. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوه «تداووا... الحديث» وسيأتي في قصة علي وصهيب في الحمية بعده. [الترمذي: ٢٠٣٨، وابن ماجه: ٣٤٣٦، وانظر صحيح الترمذي].

(٥) صحيح: حديث: قطع عرقا لسعد بن معاذ. أخرجه مسلم من حديث جابر قال: رمي سعد في أكحله فحسمه النبي ﷺ بيده بمشقص... الحديث. [مسلم: ٢٢٠٨، والأكحل: عرق في وسط الذراع، والحسم: الكي بالنار لوقف الدم، والمشقص: سهم بطرف حاد عريض].

(٦) صحيح: حديث أنه كوى أسعد بن زرارة. رواه الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف. ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل. [الترمذي: ٢٠٥٠ عن أنس].

(٧) حسن: حديث قال لعلي وكان رمد العين «لا تأكل من هذا». رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه من حديث أم المنذر. [أبو داود: ٣٨٥٦، وابن ماجه: ٣٤٤٢، والترمذي: ٢٠٣٧، وانظر صحيح الترمذي].

فتبسم ﷺ»(١)، وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روي في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة(٢) وقيل: السنا المكي. وتداوى ﷺ غير مرة من العقرب وغيرها(٣). وروي أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء(٤). وفي خبر: أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء، وقد جعل على قرحة خرجت به ترابًا(٥)، وما روي في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر، وقد صنف في ذلك كتاب وسمي طب النبي ﷺ. وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات؛ أن موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته؛ فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرئت، فقال: لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء، فطالت علته فقالوا له: إن دواء هذه العلة معروف مجرّب، وإنا نتداوى به فنبرأ، فقال: لا أتداوى، وأقامت علته، فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي وجلالي لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك، فقال لهم: داووني بما ذكرتم، فداووه فبرأ، فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟.

وروي في خبر آخر أنّ نبيًّا من الأنبياء عليهم السلام شكا علة يجدها، فأوحى الله تعالى إليه. كل البيض. وشكا نبي آخر الضعف، فأوحى الله تعالى إليه: كل اللحم باللبن فإن فيهما القوّة، قيل: هو الضعف عن الجماع.

---

(١) حسن: حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين «تأكل تمرا وأنت أرمد». تقدم في آفات اللسان. [ابن ماجه: ٣٤٤٣، وانظر صحيح ابن ماجه].

(٢) موضوع: حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة. أخرجه ابن عدي من حديث عائشة وقال: إنه منكر، وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين. [وانظر السلسلة الضعيفة: ٤٢٨٦].

(٣) حديث أنه تداوى غير مره من العقرب وغيرها. رواه الطبراني بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله ﷺ لدغته عقرب فغشي عليه فرقاه الناس... الحديث [لم أقف عليه، ولكن انظر المشكاة: ٤٥٦٧ عن علي، وفيه ﷺ لدغ فرقى نفسه ولعن العقرب، وصححه الألباني]، وله في الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف. عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى تقمح كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلا [انظر السلسلة الضعيفة: ٤١٧١، وقال الألباني: موضوع]، ولأبي يعلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي ﷺ احتجم بعد ما سم [انظر المشكاة: ٤٥٧٢، وقال الألباني: لم تتم دراسته]، وفيه جابر الجعفي ضعفه الجمهور.

(٤) صحيح: حديث: كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فيغلفه بالحناء. أخرجه البزار وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة، وقد اختلف في إسناده على الأحوص ابن حكيم: كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء، رواه الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى، قال الترمذي: غريب. [الترمذي: ٢٠٥٤، وابن ماجه: ٣٥٠٢، وانظر صحيح الترمذي].

(٥) صحيح: حديث: جعل على قرحة خرجت بيده ترابا. رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة: كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي ﷺ بيده هكذا، ووضع سفيان بن عيينة الراوي سبابته بالأرض ثم رفعها وقال «بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفي سقيمنا».[البخاري: ٥٧٤٥، ومسلم: ٢١٩٤ واللفظ له].

وقد روي أنّ قومًا شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم، فأوحى الله تعالى إليه: مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع، إذ فيه يصور الله تعالى الولد، وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل، والنفساء الرطب.

فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهارًا للحكمة، والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب، فكما أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء، والسقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلا في أحد أمرين:

أحدهما: أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلي واضح يدركه كافة الناس، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص، فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول.

والثاني: أن الدواء يسهل، والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر في الباطن وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها، وربما يفوّت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الإسهال. وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطًا كثيرة، وقد يتفق من العوارض ما يوجب دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدًا ينحصر في هذين الشيئين، وإلا فالمسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب، وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره، وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته، فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء؛ فقد روي عن موسى أنه قال: يا رب، ممن الداء والدواء؟ فقال تعالى: مني. قال: فما يصنع الأطباء؟ قال: يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادي حتى يأتي شفائي أو قضائي؛ فإذن معنى التوكل مع التداوي التوكل بالعلم والحال، كما سبق في فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع، فأما ترك التداوي رأسًا فليس شرطًا فيه.

فإن قلت: فالكي أيضًا من الأسباب الظاهرة النفع.

فأقول: ليس كذلك، إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقي المبردات للمحرور. وأما الكي فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه، وقلما يعتاد الكي في أكثر البلاد، وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب؛ فهذا من الأسباب الموهومة كالرقى، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه فإنه ما من وجع يعالج بالكي إلا وله دواء يغني عنه ليس فيه إحراق، فالإحراق بالنار جرح مخرّب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يسدّ مسدهما غيرهما، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الكي دون الرقى (١). وكل واحد منهما

(١) صحيح: حديث: نهى رسول الله ﷺ عن الكي دون الرقي. رواه البخاري من حديث ابن عباس «وأنهى

بعيد عن التوكل. وروي أنّ عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكي فامتنع، فلم يزالوا به وعزم عليه الأمر حتى اكتوى، فكان يقول: كنت أرى نورًا وأسمع صوتًا وتسلم عليَّ الملائكة، فلما اكتويت انقطع ذلك عني، وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت ولا أنجحت، ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله تعالى، فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة. وقال لمطرف بن عبد الله: ألم تر أن الملائكة التي كان أكرمني الله بها قد ردها الله تعالى عليَّ بعد أن كان أخبره بفقدها؛ فإذن الكي وما يجري مجراه هو الذي لا يليق بالمتوكل لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير، ثم هو مذموم، ويدل ذلك على شدّة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها، والله أعلم.

بيان أن ترك التداوي قد يحمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله :

اعلم أنّ الذين تداووا من السلف لا ينحصرون، ولكن قد ترك التداوي أيضًا جماعة من الأكابر، فربما يظن أنّ ذلك نقصان، لأنه لو كان كمالًا لتركه رسول الله ﷺ، إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله.

وقد روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قيل له: لو دعونا لك طبيبًا؟ فقال: الطبيب قد نظر إلي وقال: إني فعال لما أريد. وقيل لأبي الدرداء في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: مغفرة ربي. قالوا: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيب أمرضني.

وقيل لأبي ذرّ وقد رمدت عيناه: لو داويتهما؟ قال: إني عنهما مشغول؛ فقيل: لو سألت الله تعالى أن يعافيك فقال: أسأله فيما هو أهم عليَّ منهما.

وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج، فقيل له لو تداويت؟ فقال: قد هممت ثم ذكرت عادًا وثمود وأصحاب الرس وقرونًا بين ذلك كثيرًا وكان فيهم الأطباء، فهلك المداوي والمُداوَى، ولم تغن الرقى شيئًا.

وكان أحمد بن حنبل يقول: أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره وإن كان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضًا إذا سأله.

وقيل لسهل: متى يصح للعبد التوكل؟ قال: إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلًا بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه.

فإذا منهم من ترك التداوي وراءه، ومنهم من كرهه، ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله ﷺ وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوي. فنقول: إن لترك التداوي أسبابًا.

أمتي عن الكي» [البخاري: ٥٦٨٠] وفي الصحيحين من حديث عائشة: رخص رسول الله ﷺ في الرقية من كل ذي حمى [البخاري: ٥٧٤١، ومسلم: ٢١٩٣].

السبب الأول: أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه، ويكون ذلك معلومًا عنده تارة برؤيا صادقة، وتارة بحدس وظنّ، وتارة بكشف محقق، ويشبه أن يكون ترك الصديق رضي الله عنه التداوي من هذا السبب، فإنه كان من المكاشفين، فإنه قال لعائشة رضي الله عنها في أمر الميراث: إنما هنّ أختاك، وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملًا فولدت أنثى، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضًا بانتهاء أجله، وإلا فلا يظن ربه إنكار التداوي وقد شاهد رسول الله ﷺ تداوى وأمر به.

السبب الثاني: أن يكون المريض مشغولًا بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه، فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوي شغلًا بحاله، وعليه يدل كلام أبي ذرّ إذ قال: إني عنهما مشغول وكلام أبي الدرداء إذ قال: إنما أشتكي ذنوبي، فكان تألم قلبه خوفًا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض، ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته، أو كالخائف الذي يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له: لا تأكل وأنت جائع؟ فيقول: أنا مشغول عن ألم الجوع، فلا يكون ذلك إنكارًا لكون الأكل نافعًا من الجوع ولا طعنًا فيمن أكل، ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له: ما القوت؟ فقال: هو ذكر الحي القيوم، فقيل: إنما سألناك عن القوام؟ فقال: القوام هو العلم. قيل: سألناك عن الغذاء؟ قال: الغذاء هو الذكر. قيل: سألناك عن طعمة الجسد؟ قال: مالك وللجسد دع من تولاه أولًا يتولاه آخرًا: إذا دخل عليه علة فرده إلى صانعه، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها.

السبب الثالث: أن تكون العلة مزمنة والدواء الذي يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع جار مجرى الكي والرقية، فيتركه المتوكل؛ وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال: ذكرت عادًا وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوي والمداوى. أي أن الدواء غير موثوق به، وهذا قد يكون كذلك في نفسه، وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له، فلا يغلب على ظنه كونه نافعًا، ولا شك في أنّ الطبيب المجرّب أشدّ اعتقادًا في الأدوية من غيره، فتكون الثقة والظنّ بحسب الاعتقاد، والاعتقاد بحسب التجربة، وأكثر من ترك التداوي من العباد والزهاد، هذا مستندهم لأنه يبقي الدواء عنده شيئًا موهومًا لا أصل له، وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب، غير صحيح في البعض. ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرًا واحدًا، فيرى التداوي تعمقًا في الأسباب كالكي والرقى، فيتركه توكلًا.

السبب الرابع: أن يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى، أو ليجرّب نفسه في القدرة على الصبر. فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره. فقد قال ﷺ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَل يُبْتَلَى

العَبْدُ عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِ فَإِنْ كَانَ صُلْبَ الإِيمَانِ شُدِّدَ عَلَيْهِ البَلاءُ. وَإِنْ كَانَ فِي إِيمَانِهِ ضَعْفٌ خُفِّفَ عَنْهُ البَلاء» (١)، وفي الخبر: «إِنَّ اللَّهَ يُجَرِّبُ عَبْدَهُ بِالبلاءِ كَمَا يُجَرِّبُ أَحَدُكُمْ ذَهَبَهُ بِالنَّارِ فمنهم من يخرجُ كالذَّهَبِ الإبريزِ، لا يزبد، ومنهم دُونَ ذَلِكَ وِمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجَ أَسْوَدَ مُحْتَرِقًا» (٢)، وفي حديث من طريق أهل البيت: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إذا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلاهُ، فإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ، فإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ» (٣)، وقال ﷺ: «تُحِبونَ أَنْ تَكُونُوا كَالحُمُرِ الضَّالَّةِ لا تَمْرَضُونَ وَلا تَسْقَمُونَ» (٤)، وقال ابن مسعود رضي الله عنه، تجد المؤمن أصح شيء قلبًا وأمرضه جسمًا، وتجد المنافق أصح شيء جسمًا وأمرضه قلبًا، فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسي العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أنّ الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه، وإنما يمنع المرض جوارحه، وعلموا أنّ صلاتهم قعودًا مثلًا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قيامًا مع العافية والصحة، ففي الخبر: «إن الله تعالى يقول لملائكته: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمله فإنه في وثاقي إن أطلقته أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي» (٥)، وقال ﷺ: «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ ما أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ» (٦)، فقيل: معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة:٢١٦] وكان سهل يقول: ترك التداوي وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوي لأجل الطاعات. وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها، وكان يداوي الناس منها، وكان إذا رأى العبد يصلي من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض، فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى

---

(١) صحيح: حديث «نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل». رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف، وقد تقدم مختصرا، ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص وقال: صحيح على شرط الشيخين. [الترمذي: ٢٣٩٨، وأحمد: ١٥٥٨، وانظر صحيح الترغيب: ٣٤٠٢].

(٢) ضعيف جداً: حديث «إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء». رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٨٩].

(٣) حديث: من طريق أهل البيت: إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه. ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجه ولده في مسند، وللطبراني من حديث أبي عنبة «إذ أراد الله بعبد خيرا ابتلاه، وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا» وسنده ضعيف.

(٤) حسن: حديث «تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون». أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة، والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة، وهو صدر حديث «إن الرجل تكون له المنزلة عند الله... الحديث، وقد تقدم. [انظر صحيح الجامع: ١٦٢٥].

(٥) حسن: حديث «إن الله يقول للملائكة: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمله فإنه في وثاقي». أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر، وقد تقدم. [انظر صحيح الترغيب: ٣٤٣١].

(٦) حديث «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس». تقدم ولم أجده مرفوعا.

الطاعات يعجب من ذلك ويقول: صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوي للقوّة والصلاة قائمًا، وسئل عن شرب الدواء فقال: كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف، ومن لم يدخل في شيء فهو أفضل؛ لأنه إن أخذ شيئًا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسأل عنه لم أخذه؟ ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه. وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بأنّ ذرّة من أعمال القلوب: مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبًا مدهشًا. وقال سهل رحمه الله علل الأجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة.

السبب الخامس: أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها، فيرى المرض إذا طال تكفيرًا فيترك التداوي خوفًا من أن يسرع زوال المرض فقد قال ﷺ: «لا تَزَالُ الحُمَّى وَالمَلِيلَةُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الأَرْضِ كَالبَرَدَةِ ما عَلَيْهِ ذَنْبٌ ولا خَطِيئَةٌ»(١) ، وفي الخبر: «حُمَّى يَوْمٍ كَفَّارَةُ سَنَةٍ»(٢) ، فقيل لأنها تهدّ قوّة سنة وقيل للإنسان ثلاثمائة وستون مفصلًا فتدخل الحمى في جميعها ويجد من كل واحد ألمًا فيكون كل ألم كفارة يوم. ولما ذكر ﷺ كفارة الذنوب بالحمى، سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محمومًا فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله، وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لا تزايلهم(٣) ولما قال ﷺ: «مَنْ أَذْهَبَ اللَّهُ كَرِيمَتَيْهِ لَمْ يَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الجَنَّةِ»(٤) ، قال فلقد

---

(١) حديث «لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشي على الأرض كالبردة ما عليه خطيئة». [انظر ضعيف الترغيب: ٢٠٠١]. أخرجه أبو يعلى وابن عدي من حديث أبي هريرة، والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال «الصداع» بدل «الحمى» وللطبراني في الأوسط من حديث أنس «مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفائها ولونها» [الترمذي: ٢٠٨٦، وانظر ضعيف الترمذي، وقال الألباني: ضعيف جداً] وأسانيده ضعيفة.

(٢) حسن: حديث «حمى يوم كفارة سنة». رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال «ليلة» بدل «يوم». [انظر صحيح الترغيب: ٣٤٤١، وفيه «كفارة لما مضى»].

(٣) حديث لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل. أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد: «أن رجلا من المسلمين قال: يا رسول الله: أرأيت هذه الأمراض تصيبنا ما لنا فيها قال «كفارات» قال أبي: وإن قلت؟ قال «وإن شوكة فما فوقها» قال: فدعا أبي أن لا يفارقه الوعك حتى يموت... الحديث» [أحمد: ١٠٧٩٩، وانظر صحيح الترغيب: ٣٤٣٣، وقال الألباني: حسن صحيح].، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي بن كعب أنه قال: «يا رسول الله ما جزاء الحمى؟ قال: تجري الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق، فقال: اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني خروجا في سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا لمسجد نبيك... الحديث» [انظر صحيح الترغيب: ٣٤٤٤، وحسنه الألباني].، والإسناد مجهول، قاله علي بن المديني.

(٤) صحيح: حديث «من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة». تقدم المرفوع منه دون قوله: فلقد كان في الأنصار من يتمنى العمى... الحديث. [انظر صحيح الترغيب: ٣٤٥٠].

كان من الأنصار من يتمنى العمى. وقال عيسى عليه السلام: لا يكون عالمًا من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطاياه. وروي أنّ موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال: يا رب ارحمه فقال تعالى: كيف أرحمه فيما به أرحمه ـــ أي به أكفر ذنوبه ـــ وأزيد في درجاته.

السبب السادس: أن يستشعر العبد في نفسه مبادىء البطر والطغيان بطول مدّة الصحة فيترك التداوي خوفًا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان، أو طول الأمل والتسويف في تدارك الفائت وتأخير الخيرات، فإنّ الصحة عبارة عن قوّة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرّك الشهوات وتدعو إلى المعاصي، وأقلها أن تدعو إلى التنعم في المباحات، وهو تضييع الأوقات وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات، وإذا أراد الله بعبد خيرًا لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب، ولذلك قيل: لا يخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة. وقد روي «أن الله تعالى يقول: الفقر سجني والمرض قيدي أحبس به من أحب من خلقي» فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأي خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصي، فقد قال بعض العارفين لإنسان: كيف كنت بعدي؟ قال: في عافية، قال: إن كنت لم تعص الله عز وجل فأنت في عافية وإن كنت قد عصيته فأي داء أدوأ من المعصية؟ ما عوفي من عصى الله. وقال علي كرّم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم عيد: ما هذا الذي أظهروه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم، فقال: كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد.

وقال تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران :١٥٢] قيل العوافي: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦-٧] وكذلك إذا استغنى بالعافية. قال بعضهم: إنما قال فرعون: أنا ربكم الأعلى لطول العافية، لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ـــ لعنه الله ـــ ولو أخذته الشقيقة يومًا لشغلته عن الفضول فضلًا عن دعوى الربوبية.

وقال ﷺ: «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ» (١)، وقيل: الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويف.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة :١٢٦] قيل: يفتنون بأمراض يختبرون بها. ويقال: إنّ العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت: يا غافل جاءك مني رسول بعد رسول فلم تجب.

---

(١) حسن صحيح: حديث «اكثروا ذكر هاذم اللذات». أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٠٧، والنسائي: ١٨٢٤، وابن ماجه: ٤٢٥٨، وانظر صحيح الترغيب: ٣٣٣٣].

وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال. وقالوا: لا يخلو المؤمن في كل أربعين يومًا أن يروّع روعة أو يصاب ببلية حتى روي أنّ عمار بن ياسر تزوّج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها، وأنّ النبي ﷺ: «عرض عليه امرأة فحكي من وصفها حتى همّ أن يتزوّجها، فقيل وإنها ما مرضت قط، فقال: لا حاجة لي فيها» (١)، وذكر رسول الله ﷺ الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره، فقال رجل: وما الصداع ما أعرفه؟ فقال ﷺ: «إِلَيْكَ عَنِّي مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هذا وَهذا» (٢)؛ لأنه ورد في الخبر: «الحُمَّى حَظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّارِ» (٣).

وفي حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما: قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال: «نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ المَوْتَ كُلَّ يَوْمٍ عِشْرِينَ مَرَّةً» (٤) وفي لفظ آخر: «الَّذِي يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فَتُحْزِنُهُ» ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها إذ رأوا لأنفسهم مزيدًا فيها لا من حيث رأوا التداوي نقصانًا؟ وكيف يكون نقصانًا وقد فعل ذلك ؟.

بيان الرد على من قال: ترك التداوي أفضل بكل حال:

فلو قال قائل: إنما فعله رسول الله ﷺ ليسنّ لغيره وإلا فهو حال الضعفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء؟ فيقال: ينبغي أن يكون من شرط التوكل الحجامة والفصد عند تبيغ الدم.

فإن قيل: إنّ ذلك أيضًا شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيها عن نفسه، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأي فرق بينهما؟. فإن قال: وذلك أيضًا شرط التوكل؟ فيقال: ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لا قائل به.

ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى

---

(١) حديث: عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها، فقيل: فإنها ما مرضت قط، فقال «لا حاجة لي فيها». أخرجه أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد. [أحمد: ١٢١٧٠].

(٢) ضعيف : حديث: ذكر رسول الله ﷺ الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره، فقال رجل: وما الصداع، ما أعرفه؟ فقال «إليك عني». رواه أبو داود من حديث عامر البرام أخي الخضر بنحوه، وفي إسناده من لم يسم. [أبو داود: ٣٠٨٩، وانظر ضعيف الترغيب: ١٩٩٩].

(٣) صحيح لغيره : حديث «الحمى حظ كل مؤمن من النار». رواه البزار من حديث عائشة، وأحمد من حديث أبي أمامة والطبراني في الأوسط من حديث أنس، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود، وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان. [أحمد: ٢١٦٦١، وانظر صحيح الترغيب: ٣٤٤٧].

(٤) حديث أنس وعائشة: قيل يا رسول الله، هل يكون الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال «نعم من ذكر الموت». لم أقف له على إسناد.

وأجرى بها سنته. ويدل على أنّ ذلك ليس من شرط التوكل ما روي عن عمر رضي الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون، فإنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتًا عظيمًا ووباء ذريعًا، فافترق الناس فرقتين، فقال بعضهم: لا ندخل على الوباء فنلقي بأيدينا إلى التهلكة، وقالت طائفة أخرى: بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفرّ من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾[البقرة:٢٤٣] فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه، فقال: نرجع ولا ندخل على الوباء، فقال له المخالفون في رأيه: أنفرّ من قدر الله تعالى، قال عمر: نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله، ثم ضرب لهم مثلًا، فقال: أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديًا له شعبتان: إحداهما مخصبة: والأخرى مجدبة، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى؟ فقالوا: نعم، ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه ـــ وكان غائبًا ـــ فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك، فقال: عندي فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله ﷺ، فقال عمر: الله أكبر، فقال عبد الرحمن: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالوَبَاءِ فِي أَرْضٍ فَلا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ وَإِذا وَقَعَ فِي أَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»(١) ، ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه، ورجع من الجابية بالناس. فإذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل؟.

فإن قلت: فلم نهي عن الخروج من البلد الذي فيه الوباء، وسبب الوباء في الطب الهواء، وأظهر طرق التداوي الفرار من المضر، والهواء هو المضر فلم يرخص فيه؟. فاعلم أنه لا خلاف في أن الفرار عن المضر غير منهى عنه إذ الحجامة والفصد فرار من المضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح، وهذا لا يدل على المقصود. ولكن الذي ينقدح فيه ـــ والعلم عند الله تعالى ـــ أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقي ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له، فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن، فالخروج من البلد لا يخلص غالبًا من الأثر الذي استحكم من قبل، ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما، ولو تجرّد هذا المعنى لكان مناقضًا للتوكل ولم يكن منهيًا عنه، ولكن صار منهيًا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقي في البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين، ولم يبق في البلد من

---

(١) صحيح: حديث عبد الرحمن بن عوف «إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه». وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجابية وأنه بلغهم أن بالشام وباء... الحديث، رواه البخاري. [البخاري: ٥٧٢٩، ومسلم: ٢٢١٩].

يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيًا في إهلاكهم تحقيقًا، وخلاصهم منتظر كما أنّ خلاص الأصحاء منتظر؛ فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعًا بالخلاص وهو قاطع في إهلاك الباقين، والمسلمون كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه. فهذا هو الذي ينقدح عندنا في تعليل النهي وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فإنه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم. نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول هاهنا لأجل الإعانة، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرّض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين، وبهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف(١) لأنّ فيه كسرًا لقلوب بقية المسلمين وسعيًا في إهلاكهم. فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما سمعه، وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك.

فإن قلت: ففي ترك التداوي فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله ﷺ التداوي لينال الفضل؟ فنقول: فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها، أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة، أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهومًا كالرقى، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوي وكان التداوي يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع؛ فإلى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوي، وكل ذلك كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله ﷺ، بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها إذ كان حاله يقتضي أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدها، فإنه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب.

ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أنّ الرغبة في المال نقص، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كمالاً فهي أيضًا نقص بالإضافة إلى من يستوي عنده وجود المال وعدمه، فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر، وكان حاله استواء المدر والذهب عنده، وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم لا لخوفه

---

(١) صحيح: حديث: تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف. رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد جيد، ومن حديث جابر بإسناد ضعيف، وقد تقدم. [أحمد: ٢٤٠٠٦ عن عائشة، ١٤٠٦٩عن جابر، وانظر صحيح الجامع: ٤٢٧٦].

على نفسه من إمساكه، فإنه كان أعلى رتبة من أن تغرّه الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (١)، فكذلك يستوي عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة، وإنما لم يترك استعمال الدواء جريًا على سنّة الله تعالى وترخيصًا لأمته فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف ادخار الأموال فإنّ ذلك يعظم ضرره. نعم التداوي لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعًا دون خالق الدواء وهذا قد نهي عنه، ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصي وذلك منهي عنه، والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك، وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعًا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببًا للنفع كما لا يرى الماء مُرويًا ولا الخبز مُشبعًا، فحكم التداوي في مقصوده كحكم الكسب، فإنه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها، وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه، فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوي قد يكون أفضل في بعض الأحوال، وأن التداوي قد يكون أفضل في بعض، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والنيات، وأن واحدًا من الفعل والترك ليس شرطًا في التوكل إلا ترك الموهومات كالكي والرقى، فإن ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالمتوكلين.

بيان أحوال المتوكلين في اظهار المرض وكتمانه:

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات؛ لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمانه أسلم عن الآفات.

ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت به النية والمقصد. ومقاصد الإظهار ثلاثة:

الأول: أن يكون غرضه التداوي فيحتاج إلى ذكره للطبيب، فيذكره لا في معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى. فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن المطبب أوجاعه، وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول: إنما أصف قدرة الله تعالى فيّ.

الثاني: أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينًا في المعرفة، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها، فيتحدّث به كما يتحدّث بالنعم. قال الحسن البصري: إذا حمد المريض الله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى.

الثالث: أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى، وذلك يحسن ممن تليق به القوّة

---

(١) صحيح: حديث: أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها. تقدم، ولفظه: عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها. [النسائي: ٣٠٨٧، وانظر صحيح الجامع: ٢٤٥٦].

والشجاعة ويستبعد منه العجز، كما روي أنه قيل لعلي في مرضه رضي الله عنه كيف أنت؟ قال: بشرّ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية، فقال: أتجلد على الله؟ فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوّة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي ﷺ إياه حيث مرض علي كرّم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول: اللهم صبرني على البلاء، فقال له ﷺ: «لَقَدْ سَأَلْتَ الله تَعَالَى البَلاءَ فَسَلِ اللَّهَ العَافِيَةَ» (١) .

فبهذه النيات يرخص في ذكر المرض، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام ــ كما ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة ــ ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى، فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه؛ لأنه ربما يوهم الشكاية، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة، ومن ترك التداوي توكلًا فلا وجه في حقه للإظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء، وقد قال بعضهم: من بث لم يصبر، وقيل في معنى قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف :٨٣] لا شكوى فيه. وقيل ليعقوب عليه السلام: ما الذي أذهب بصرك؟ قال: مُر الزمان وطول الأحزان فأوحى الله تعالى إليه. تفرّغت لشكواي إلى عبادي، فقال: يا رب أتوب إليك. وروي عن طاوس ومجاهد أنهما قالا: يكتب على المريض أنينه في مرضه، وكانوا يكرهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضي الشكوى حتى قيل: ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه، فجعل الأنين حظه منه.

وفي الخبر: «إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعوّاده فإن حمد الله وأثنى بخير دعوا له وإن شكا وذكر شرًا قالا كذلك تكون» (٢) ، وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام، فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم، منهم: فضيل ووهيب وبشر، وكان فضيل يقول: أشتهي أن أمرض بلا عوّاد، وقال: لا أكره العلة إلا لأجل العواد. رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه. يتلوه إن شاء الله تعالى: كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى الموفق.

* * *

(١) ضعيف: حديث: مرض علي فسمعه رسول الله ﷺ وهو يقول: اللهم صبرني على البلاء، فقال «لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية». تقدم مع اختلاف. [الترمذي: ٣٥٢٧، وانظر ضعيف الترمذي].

(٢) حسن لغيره: حديث «إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده». تقدم. [انظر صحيح الترغيب: ٣٤٣١].

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرته، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته، فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما اغبر في وجه العقل وبصيرته، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرًا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته، فبقيت بين الرد والقبول والصدّ والوصول غرقى في بحر معرفته، ومحترقة بنار محبته، والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوّته، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرًا.

أما بعد: فإنّ المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدّمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها، وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال: لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال. ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه. ولا بدّ من كشف الغطاء عن هذا الأمر.

ونحن نذكر في هذا الكتاب: بيان شواهد الشرع في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أنّ أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى، ثم بيان سبب زيادة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوّية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى، ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى، ثم بيان معنى الانبساط في الأنس، ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته، ثم بيان حقيقته، ثم بيان أنّ الدعاء وكراهة المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب.

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى:

اعلم أنّ الأمة مجمعة على أنّ الحب لله تعالى ولرسوله ﷺفرض، وكيف يفرض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته؟ فلا بدّ وأن يتقدّم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب. ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة :٥٤]وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة :١٦٥]وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه. وقد جعل رسول الله ﷺالحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة؛ إذ قال أبو رزين العقيلي: يا رسول لله ما الإيمان؟ قال: «أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِمَّا سِوَاهُمَا» (١) ، وفي حديث آخر «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا» (٢) ، وفي حديث آخر: «لا يُؤْمِنُ العَبْدُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (٣) وفي رواية: «وَمِنْ نَفْسِهِ» كيف وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [التوبة :٢٤]الآية. وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار. وقد أمر رسول الله ﷺبالمحبة فقال: «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللَّهِ إِيَّايَ» (٤) ، ويروى أنّ رجلًا قال: يا رسول الله إني أحبك، فقال ﷺ «استعدّ للفقر» فقال إني أحب الله تعالى، فقال: «اسْتَعِدَّ لِلْبَلاءِ» (٥) ، وعن عمر رضي الله عنه قال: نظر النبي ﷺإلى مصعب بن عمير مقبلًا وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال النبي ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى هذا الرَّجُلِ الَّذِي نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْهِ يغذوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَدَعَاهُ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ما تَرَوْنَ» (٦) .

---

(١) حديث أبي رزين العقيلي: أنه قال رسول الله ﷺما الإيمان؟ قال «أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما». أخرجه أحمد بزيادة في أوله وفيه انقطاع. [أحمد: ١٥٧٦١].

(٢) صحيح: حديث «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما». متفق عليه من حديث أنس بلفظ، لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله» وذكره بزيادة. [البخاري: ١٦، ومسلم: ٤٣].

(٣) صحيح: حديث «لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين» [البخاري: ١٥، ومسلم: ٤٤] وفي رواية «ومن نفسه». متفق عليه من حديث أنس، واللفظ لمسلم دون قوله «ومن نفسه» وقال البخاري «من والده وولده» وله من حديث عبد الله بن هشام: قال عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي، فقال «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال «الآن يا عمر» [البخاري: ٦٦٣٢].

(٤) ضعيف: حديث «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة». أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب. [الترمذي: ٣٧٨٩، وانظر ضعيف الجامع: ١٧٦].

(٥) ضعيف: حديث إن رجلا قال يا رسول الله إني أحبك، فقال ﷺ «استعد للفقر». أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ «فأعد للفقر تجفافا » دون آخر الحديث وقال حسن غريب. [الترمذي: ٢٣٥٠، وانظر ضعيف الترمذي].

(٦) ضعيف: حديث عمر قال: نظر النبي ﷺإلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به». أخرجه أبو نعيم في الحلية. [انظر ضعيف الترغيب: ١٢٧٠].

وفي الخبر المشهور: «إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلًا يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: هل رأيت محبًّا يكره لقاء حبيبه؟ فقال يا ملك الموت الآن فاقبض» (١) ، وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه.

وقد قال نبينا ﷺ في دعائه: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ ما يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ المَاءِ البَارِدِ» (٢) ، وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «ما أَعْدَدْتَ لَهَا» (٣) فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله ﷺ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال الحسن: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن. وقال أبو سليمان الداراني: إن من خلق الله خلقًا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا؟.

ويروى أن عيسى عليه السلام مرَّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار، فقال: حق على الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشدّ نحولًا وتغيرًا فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولًا وتغيرًا كأن على وجوههم المرائي من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: نحب الله عز وجل، فقال أنتم المقرّبون أنتم المقرّبون أنتم المقرّبون. وقال عبد الواحد بن زيد: مررت برجل قائم في الثلج فقلت أما تجد البرد؟ فقال من شغله حب الله لم يجد البرد. وعن سري السقطي: تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فيقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين لله تعالى فإنهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحًا.

---

(١) حديث: إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلا يميت خليله؟». لم أجد له أصلا.

(٢) صحيح: حديث «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك». تقدم. [الترمذي: ٣٢٣٥ عن معاذ، وانظر المشكاة: ٧٤٨].

(٣) صحيح: حديث قال أعرابي: «يا رسول الله متى الساعة؟ قال ما أعددت لها». متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه. [البخاري: ٣٦٨٨، ومسلم: ٢٦٣٩ عن أنس، والبخاري: ٦١٧٠، ومسلم: ٢٦٤١ عن أبي موسى، والبخاري: ٦١٦٩، ومسلم: ٢٦٤١ عن ابن مسعود].

وقال هرم بن حيان: المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروّحه في الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده؟ ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه؟ وفي بعض الكتب: عبدي: أنا وحقك لك محب فبحقي عليك كن لي محبًا. وقال يحيى بن معاذ: مثقال خردلة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حب. وقال يحيى بن معاذ: إلهي إني مقيم بفنائك مشغول بثنائك، صغيرًا أخذتني إليك وسربلتني بمعرفتك وأمكنتني من لطفك ونقلتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال سترًا وتوبة وزهدًا وشوقًا ورضًا وحبًا تسقيني من حياضك وتهملني في رياضك ملازمًا لأمرك ومشغوفًا بقولك، ولما طرّ شاربي ولاح طائري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرًا وقد اعتدت هذا منك صغيرًا، فلي ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة إليك همهمة لأني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف.

وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر، وإنما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به.

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى:

اعلم أنّ المطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها، ثم معرفة شروطها وأسبابها، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى: فأوّل ما ينبغي أن يتحقق، أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه، ولذلك لم يتصورّ أن يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحي المدرك. ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ. فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوبًا ولا مكروهًا. فإذن كل لذيذ محبوب عند الملتذ به، ومعنى كونه محبوبًا أن في الطبع ميلًا إليه، ومعنى كونه مبغوضًا أن في الطبع نفرة عنه. فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقًا. والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، فإذا قوي سمي مقتًا فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته.

الأصل الثاني: أن الحب لما كان تابعًا للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات، وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم.

فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة، ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة، ولذة الشم في الروائح الطيبة، ولذة الذوق في الطعوم، ولذة اللمس في اللين والنعومة.

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة، أي كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثلاثٌ: الطِّيبُ وَالنِّسَاءُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ» (١) ، فسمى الطيب محبوبًا ومعلوم أنه لا حظ للعين والسمع فيه؛ بل للشم فقط، وسمى النساء محبوبات ولا حظ فيهنّ إلا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع، وسمى الصلاة قرّة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس، بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب. ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان، فإن كان الحب مقصورًا على مدركات الحواس الخمس ــ حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب ــ فإذن قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات، فلا مشاحة فيه وهيهات، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشدّ إدراكًا من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة ، كما سيأتي تفصيله ، فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلًا.

الأصل الثالث: أنّ الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه، وهل يتصوّر أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه؟ هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصوّر أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته. والحق أنّ ذلك متصوّر وموجود، فلنبين أسباب المحبة وأقسامها، وبيانه أنّ المحبوب الأوّل عند كل حي: نفسه وذاته، ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلًا إلى دوام وجوده، ونفرة عن عدمه وهلاكه؛ لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب، وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده؟ وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه؟ فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل، لا لمجرّد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرّد الحذر من سكرات الموت، بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان

---

(١) **حسن صحيح:** حديث «حبب إلى من دنياكم ثلاث». أخرجه النسائي من حديث أنس دون قوله «ثلاث» وقد تقدم. [النسائي: ٣٩٣٩، وانظر صحيح النسائي].

كارهًا لذلك، ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم في الحياة. ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأنّ فيه زوال البلاء، فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب. وكما أنّ دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضًا محبوب لأن الناقص فاقد للكمال، والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه. والهلاك والعدم ممقوت في الصفات. وكمال الوجود كما أنه ممقوت في أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب، كما أن دوام أصل الوجود محبوب. وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فإذن المحبوب الأوّل للإنسان ذاته، ثم سلامة أعضائه، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه. فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة؛ لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها، والمال محبوب لأنه أيضًا آلة في دوام الوجود وكماله وكذا سائر الأسباب. فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكماله بها، حتى إنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لأجله، لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له، فلفرط حبه في بقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدًا. نعم لو خير بين قتله وقتل ولده ، وكان طبعه باقيًا على اعتداله ، آثر بقاء نفسه على بقاء ولده؛ لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه فإنه يرى نفسه كثيرًا بهم قويًّ بسببهم متجملًا بكمالهم، فإنّ العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة. فإذن المحبوب الأوّل عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله، والمكروه عنده ضدّ ذلك فهذا هو أوّل الأسباب.

السبب الثاني : الإحسان؛ فإن الإنسان عبد الإحسان، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، وقال رسول الله ﷺ: «اللّٰهُمَّ لا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيَّ يَدًا فَيُحِبَّهُ قَلْبِي» (١) ، إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرارًا لا يستطاع دفعه، وهو جبلة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها. وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة. وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأوّل، فإن المحسن من أمدّ بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود، إلا أنّ الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببًا له كالطبيب يكون سببًا

---

(١) حديث «اللهم لا تجعل لكافر علي يدا فيحبه قلبي». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس: من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع، وقد تقدم.

في دوام صحة الأعضاء، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب للصحة، إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته؛ بل لأنه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب، ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب. وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة، لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام. فإذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه. فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقًا بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقًا، ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد، ويتطرّق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه.

السبب الثالث: أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه، وذلك كحب الجمال والحسن، فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال؛ لأنّ إدراك الجمال فيه عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصوّر إلا لأجل قضاء الشهوة، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال أيضًا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبًا لذاته، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية؟ وقد كان رسول الله ﷺ يعجبه الخضرة والماء الجاري [1] والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل، حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر. فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبًا بالطبع، فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبًا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ وَيُحِبُّ الجَمَالَ» [2].

الأصل الرابع: في بيان معنى الحسن والجمال؛ اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون، وكون البياض مشربًا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان، فإنّ الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار، وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصرًا ولا متخيلًا ولا متشكلًا ولا متلونًا مقدّر فلا يتصوّر حسنه،

(١) **ضعيف**: حديث: كان يعجبه الخضرة والماء الجاري. أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري، وإسناده ضعيف. [انظر السلسلة الضعيفة: ٣٤٣٧]

(٢) **صحيح**: حديث «إن الله عز وجل جميل يحب الجمال». رواه مسلم في أثناء حديث لابن مسعود. [مسلم: ٩١]

وإذا لم يتصوّر حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محبوبًا. وهذا خطأ ظاهر فإنّ الحسن ليس مقصورًا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة. فإنا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن، بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن، فأي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة؟ ومعلوم أنّ العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة. وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح، فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء؟ فلا بدّ من البحث عنه. وهذا البحث يطول، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه، فنصرح بالحق ونقول: كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر، فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كرّ وفرّ عليه، والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضدّه، فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به. فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء.

فإن قلت: فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات، وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات، ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس؟

فاعلم أنّ الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال: هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير، وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته، وآية ذلك -- وأنّ الأمر كذلك - أنّ الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا، بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وغيرهم؛ حتى أنّ الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حدّ العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه، فكم من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب، وليت شعري من يحب الشافعي مثلًا فَلِمَ يحبه ولَمْ يشاهد قط صورته؟ ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته، فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة، فإنّ صورته الظاهرة قد انقلبت

ترابًا مع التراب، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لإفادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات في العالم، وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة، فأما الحواس فقاصرة عنها. وكذلك من يحب أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه ويفضله على غيره، أو يحب عليًا رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره، فمعلوم أنّ من يحب الصدّيق رضي الله تعالى عنه مثلًا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدّل وانعدم، ولكن بقي ما كان الصدّيق به صديقًا وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الجميلة، فكان الحب باقيًا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور. وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته، فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين، وهما غير مدركين بالحس، ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة. وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبًا لأجله فإذن الجمال موجود في السير، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبًا فالمحبوب مصدر السير الجميلة، وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس، حتى أن الصبي المخلى وطبعه إذا أردنا أن نحبب إليه غائبًا أو حاضرًا حيًا أو ميتًا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة.

فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه، فهل غلب حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابح التي لا تدرك بالحواس؟ بل لما وصف الناس حاتمًا بالسخاء ووصفوا خالدًا بالشجاعة أحبتهم القلوب حبًا ضروريًا، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم، بل إذا حكي من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ونأي الديار. فإذن ليس حب الإنسان مقصورًا على من أحسن إليه، بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب؛ لأن كل جمال وحسن فهو محبوب، والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة؛ فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة، فشتان بين من يحب نقشًا مصوّرًا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيًا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة.

السبب الخامس: المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرّد تناسب الأرواح كما قال ﷺ: «فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ» (١)، وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لأنه أيضًا من عجائب أسباب الحب فإذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب: وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه، وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه، وحبه من كان محسنًا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنًا إليه، وحبه لكل ما هو جميل في ذاته؛ سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة، وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن. فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوبًا لا محالة غاية الحب، وتكون قوّة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوّة هذه الخلال في نفسها، فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات.

فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصوّر كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى.

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده:

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى، وحب الرسول ﷺ محمود لأنه عين حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوزه إلى غيره، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه. وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها، ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها، وأنها حقيقة في حق الله تعالى، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له، ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذي بصيرة ضدّ ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقًا، وبان أن التحقيق يقتضي أن لا تحب أحدًا غير الله تعالى.

فأما السبب الأوّل: وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حي، ولا يتصوّر أن ينفك عنها، وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعًا أنه لا وجود له من ذاته وإنما

---

(١) صحيح: حديث «فما تعارف منها ائتلف». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم في آداب الصحبة. [مسلم: ٢٦٣٨]

وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله، فهو المخترع الموجد له وهو المبقي له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته. وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به، فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقًا موجدًا ومخترعًا مبقيًا وقيومًا بنفسه ومقوّمًا لغيره، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه، والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوّتها، ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها. وكيف يتصوّر أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟ ومعلوم أن المبتلى بحرّ الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإنّ الكل من آثار قدرته، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أنّ النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها، وهو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافًا أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعًا عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضًا حاصل من قدرة الله تعالى، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق. فإذن إن كان حب الإنسان نفسه ضروريًا فحبه لمن به قوامه أوّلًا ودوامه ثانيًا في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضًا ضروري، إن عرف ذلك كذلك، ومن خلا عن الحب هذا فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته، وهو عالم الشهادة الذي يشاركه البهائم في التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذي لا يطأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة، فينظر فيه بقدر قربه في الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم.

وأما السبب الثاني: وهو حبه من أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونته وانتدب لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شر الأشرار عنه وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده، وهذا بعينه يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالى فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أنّ المحسن إليه هو الله تعالى فقط، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدّها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى: ﴿وَإِن

تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر، ولكنا نقتصر الآن على بيان أنّ الإحسان من الناس غير متصوّر إلا بالمجاز، وإنما المحسن هو الله تعالى. ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فإنك تظن أنّ هذا الإحسان منه، وهو غلط فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك، فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذي حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه أنّ صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله. ومهما سلط الله عليه الدواعي وقرّر في نفسه أنّ صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهورًا مضطرًا في التسليم لا يستطيع مخالفته، فالمحسن هو الذي اضطرّه لك وسخره وسلط عليه الدواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل، وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطرّ في ذلك اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه، فإن اعتقدته محسنًا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلًا بحقيقة الأمر، فإنه لا يتصوّر الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه، أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين؛ لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له في البذل إما آجل وهو الثواب وإما عاجل وهو المنة والاستسخار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة، وكما أنّ الإنسان لا يلقي ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقيه في يد إنسان إلا لغرض له فيه، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده، وأما أنت فلست مقصودًا بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال، فقد استسخرك في القبض للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضًا هو أرجح عنده من ماله، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلًا ألبتة. فإذن هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين:

أحدهما: أنه مضطرّ بتسليط الله الدواعي عليه فلا قدرة له على المخالفة، فهو جار مجرى خازن الأمير فإنه لا يرى محسنًا بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه؛ لأنه من جهة الأمير مضطرّ إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك، فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعي عليه وألقى في نفسه أنّ حظه دينًا ودنيا في بذله فبذله لذلك.

والثاني: أنه معتاض عما بذله حظًّا هو أوفى عنده وأحب مما بذله، فكما لا يعد البائع محسنًا لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله، فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضًا آخر، وليس من شرط العوض أن يكون عينًا متمولًا بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بالإضافة إليها، فالإحسان في الجود، والجود هو بذل المال من غير

عوض وحظ يرجع إلى الباذل، وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذي أنعم على العالمين إحسانًا إليهم ولأجلهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فإنه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والإحسان في حق غيره كذب أو مجاز، ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض، فهو المنفرد بالجود والإحسان والطول والامتنان، فإن كان في الطبع حب المحسن، فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله تعالى، إذ الإحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده، وأما غيره فيستحق المحبة على الإنسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته.

وأما السبب الثالث: وهو حبك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه. وهذا أيضًا موجود في الطباع. فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضًا بعيد عنك؛ فإنك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد في القلب ميلًا إلى الأوّل وهو الحب، ونفرة عن الثاني وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأوّل وآمن من شر الثاني لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما، فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك، وهذا أيضًا يقتضي حب الله تعالى بل يقتضي أن لا يحب غيره أصلًا إلا من حيث يتعلق منه بسبب، فإنّ الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق؛ أولًا: بإيجادهم، وثانيًا: بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم، وثالثًا: بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظانّ حاجاتهم وإن لم تكن في مظانّ الضرورة، ورابعًا: بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم.

ومثال الضروري من الأعضاء: الرأس والقلب والكبد، ومثال المحتاج إليه: العين واليد والرجل. ومثال الزينة: استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة.

ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان: الماء والغذاء. ومثال الحاجة: الدواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوائد: خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة.

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش. فإذن هو المحسن؛ فكيف يكون غيره محسنًا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته؟ فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان، فالحب بهذه العلة لغيره أيضًا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى.

وأما السبب الرابع: وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال: فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة، والأول يدركه الصبيان والبهائم، والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا. وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال، فإن كان مدركًا بالقلب فهو محبوب القلب. ومثال هذا في المشاهدة حب الأنبياء والعلماء وذوي المكارم السنية والأخلاق المرضية، فإن ذلك متصور مع تشوّش صورة الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه. نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه، فمن يحب رسول الله ﷺ أو الصدّيق رضي الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها، فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة، ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالاً وعظمة كان العلم أشرف وأجمل، وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرًا. وأجل المعلومات هو الله تعالى، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى، وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به.

فإذن جمال صفات الصدّيقين الذين تحبهم القلوب طبعًا ترجع إلى ثلاثة أمور:

أحدها: علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه.

والثاني: قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة.

والثالث: تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر، وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى.

أما العلم: فأين علم الأوّلين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥] بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] . والقدر اليسير

الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمن:٣-٤] فإن كان جمال العلم وشرفه أمرًا محبوبًا وكان هو في نفسه زينة وكمالاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى. فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما تتقاضاه معيشته. والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم؛ لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصوّر في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية.

وأما صفة القدرة: فهي أيضًا كمال والعجز نقص، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيذ، حتى إنّ الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزازًا وفرحًا وارتياحًا ضروريًّا بمجرّد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حبًا في القلب ضروريًّا للمتصف به فإنه نوع كمال، فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى، فأعظم الأشخاص قوّة وأوسعهم ملكًا وأقواهم بطشًا وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ، ما منتهى قدرته؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتًا ولا حياة ولا نشورًا ولا ضرًّا ولا نفعًا، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض، ولا يحتاج إلى عدّ ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته، فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها، فلا قدرة له على ذرّة منها.

وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك. ولو سلط بعوضًا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الكهف:٨٤] فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة، ثم تلك الغبرة أيضًا من فضل الله تعالى وتمكينه، فيستحيل أن يحب عبدًا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي

العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر، السموات مطويات بيمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرّة. وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعي بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء، فإن كان يتصوّر أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلًا.

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدّس عن الرذائل والخبائث، فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة، والأنبياء والصدّيقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصوّر كمال التقدّس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدّوس ذي الجلال والإكرام.

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزًا مخلوقًا مسخرًا مضطرًا هو عين العيب والنقص، فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإنّ منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدًا مسخرًا لغيره قائمًا بغيره وذلك محال في حق غيره، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدّس عن العيوب. وشرح وجوه التقدّس والتنزه في حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطوّل بذكره. فهذا الوصف أيضًا إن كان كمالًا وجمالًا محبوبًا فلا تتم حقيقته إلا له، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقًا بل بالإضافة إلى ما هو أشدّ منه نقصانًا، كما أنّ للفرس كمالًا بالإضافة إلى الحمار وللإنسان كمالًا بالإضافة إلى الفرس. وأصل النقص شامل للكل وإنما يتفاوتون في درجات النقصان.

فإذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ندّ له، الفرد الذي لا ضدّ له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السموات والأرض، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة، الأزلي الذي لا أول لوجوده الأبدي الذي لا آخر لبقائه، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به، جبار السموات والأرض، خالق الجماد والحيوان والنبات، المنفرد بالعزة والجبروت، والمتوحد بالملك والملكوت، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الألسنة، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوّة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله

عليه وعليهم أجمعين: «لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١) ، وقال سيد الصدّيقين رضي الله تعالى عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك. سبحان من لم يجعل للخلق طريقًا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقًا ويجعله مجازًا؟ أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أن ينكر كون الله تعالى موصوفًا بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبًا بالطبع عند من أدركه؟ فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون، وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون؛ يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون.

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان لأنّ الإحسان يزيد وينقص. ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنّ أود الأوداء إلى من عبدني بغير نوال لكن ليعطي الربوبية حقها. وفي الزبور: من أظلم ممن عبدني لجنة أو نار لو لم أخلق جنة ولا نارًا ألم أكن أهلًا أن أطاع. ومرّ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا: نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم: مخلوقًا خفتم ومخلوقًا رجوتم. ومرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا: نعبده حبًا له وتعظيمًا لجلاله فقال: أنتم أولياء الله حقًا معكم أمرت أن أقيم. وقال أبو حازم: إني لأستحيي أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل، وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل.

وفي الخبر: «لا يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ كَالأَجِيرِ السُّوءِ إنْ لَمْ يُعْطَ أَجْرًا لَمْ يَعْمَلْ، وَلا كَالْعَبْدِ السُّوءِ إنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلْ»(٢) .

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لأن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل. ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير، ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح. وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الأخبار والآثار كما استقصيناه في باب الأخوّة في الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه. وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا، وقد يكون خفيًا حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي ﷺ إذ قال: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا

---

(١) صحيح: حديث «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». تقدم. [مسلم: ٤٨٦ عن عائشة]
(٢) حديث «لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل». لم أجد له أصلا.

ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ» فالتعارف هو التناسب، والتناكر هو التباين، وهذا السبب أيضًا يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك.

فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله، وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة. فكل ذلك يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات.

وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يومىء إليها قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء :٨٥] إذ بيَّن أنه أمر رباني خارج عن حدّ عقول الخلق.

وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[الحجر :٢٩] ولذلك أسجد له ملائكته. ويشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[ص :٢٦] إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله ﷺ: «إنّ الله خلق آدم على صورته»(١) ، حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوّروا، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا. وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام: «مرضت فلم تعدني فقال: يا رب وكيف ذلك؟ قال: مرض عبدي فلان فلم تعده ولو عدته وجدتني عنده»(٢) ، وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى: «لا يزال يتقرّب العبد إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به»(٣) . وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حدّ المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول، حتى قال بعضهم: أنا الحق. وضل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا: هو الإله، وقال آخرون منهم تذرع الناسوت باللاهوت، وقال آخرون: اتحد به. وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة

---

(١) صحيح: حديث «إن الله خلق آدم على صورته». تقدم. [البخاري: ٦٢٢٧، ومسلم: ٢٨٤١]

(٢) صحيح: حديث قوله تعالى «مرضت فلم تعدني، فقال: وكيف ذاك؟». تقدم. [مسلم: ٢٥٦٩ عن أبي هريرة]

(٣) صحيح: حديث قوله تعالى «لا يزال يتقرب العبد إلي بالنوافل حتى أحبه». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم. [البخاري: ٦٥٠٢]

الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون. ولعل أبا الحسن النوري عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل:

لا زلت أنزل من ودادك منزلًا ... تتحير الألباب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقي أصوله حتى تشققت قدماه وتورّمتا ومات من ذلك. وهذا هو أعظم أسباب الحبّ وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودًا. فهذه هي المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقًا لا مجازًا وفي أعلى الدرجات لا في أدناها، فكان المعقول المقبول عند ذوي البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط، ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب، والشركة نقصان في الحب وغض من كماله. ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد، إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجودًا، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانًا، فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرّق النقصان إلى حبه كما لا تتطرّق الشركة إلى صفاته. فهو المستحق، إذ الأصل المحبة، ولكمال المحبة استحقاقًا لا يساهم فيه أصلًا.

بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى من حرم هذه اللذة:

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوّة وغريزة لذة ولذتها في نيلها المقتضي طبعها الذي خلقت له فإن هذه الغرائز ما ركبت في الإنسان عبثًا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع. فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها. وغريزة شهوة الطعام مثلًا خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذي هو مقتضى طبعها، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها. فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الإيمان واليقين، ولا معنى للاشتغال بالأسامي فإنّ الاصطلاحات مختلفة، والضعيف يظنّ أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة، كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية، ولنسم تلك الغريزة عقلًا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا

ذمه بعض الصوفية، وإلا فالصفة التي فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تذم، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى أن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به، والذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به، وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدّي بالعلم والتمدح به في الأشياء الحقيرة.

فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به، ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، حتى أن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رئاسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك، فإن اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس، فإن كان خبيرًا بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولي على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير، وكان تمدّحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشدّ وحبه له أكثر لأن لذته فيه أعظم.

فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها. وليت شعري هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها؟ وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادىء جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين؟ فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار، وبهذا تبين أنّ العلم لذيذ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته، من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين ، فينبغي أن يعلم أنّ لذة المعرفة أقوى من سائر

اللذات أعني لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس، فإنّ اللذات مختلفة بالنوع أوّلًا، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع، ولذة المعرفة للذة الرئاسة.

وهي مختلفة بالضعف والقوّة كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه في الجمال. وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمرّ اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل، فيعلم به أنّ لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل. فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول:

اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس، وإلى باطنة كلذة الرئاسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها، إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق، والمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرئاسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة، وإن كان علي الهمة كامل العقل اختار الرئاسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أيامًا كثيرة. فاختياره للرئاسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة. نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي، أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرئاسة وكما أنّ لذة الرئاسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرئاسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق، وغاية العبارة عنه أن يقال: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾[السجدة :١٧] وأنه أعدّ لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعًا، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرّد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرئاسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رئاسته وفناء من عليه رئاسته، وكونه مشوبًا بالكدورات التي لا يتصوّر الخلو عنها، وكونه مقطوعًا بالموت الذي لا بدّ من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فإنها خالية من المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض، وإذا خرج النظر عن المقدّرات فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها، إذ

ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة، ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي، وإنما الموت بغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فأما أن يعدمها فلا. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠] الآية. ولا تظنن أنّ هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر: «إنّ الشهيد يتمنى في الآخرة أن يردّ إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء» (١).

فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك إليها بجسمه وشخصه، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض. وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلًا، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم، فقد ظهر أن لذة الرئاسة وهي باطنة أقوى في ذوي الكمال من لذات الحواس كلها، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة الرئاسة ولكن يؤثرون الرئاسة، فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبه المعرفة وذاقها، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين، لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف. ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على طلبها، فإنها أيضًا معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية، فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به، ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق، والحكاية فيه قليلة الجدوى. فهذا القدر ينبهك على أنّ معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء

---

(١) حديث «إن الشهيد يتمنى في الآخرة أن يرد إلى الدنيا». متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم، وليس فيه «وإن الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء... الحديث». [حديث «إن الشهيد يتمنى...» عند مسلم: ١٨٨٧ عن ابن مسعود، ولم أره عند البخاري، وحديث «إن الشهداء يتمنون...»].

وأنه لا لذة فوقها.

ولهذا قال أبو سليمان الداراني: إن لله عبادًا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له: أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت فقال: ذكر الموت، فقال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكًا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا. وفي أخبار عيسى عليه السلام: إذا رأيت الفتى مشغوفًا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه. ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال: ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق؟ فقال: تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان، قلت: فأنت؟ قال: علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه. وعن علي بن الموفق قال: رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة، فرأيت رجلًا قاعدًا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل، ورأيت رجلًا قائمًا على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضًا ويرد بعضًا، قال: ثم جاوزتهما إلى حديقة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلًا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف، فقلت لرضوان: من هذا؟ فقال: معروف الكرخي عبد الله لا خوفًا من ناره ولا شوقًا إلى جنته بل حبًا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة. وذكر أن الآخرين: بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل. ولذلك قال أبو سليمان: من كان اليوم مشغولًا بنفسه فهو غدًا مشغول لنفسه، ومن كان اليوم مشغولًا بربه فهو غدًا مشغول بربه. وقال الثوري لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفًا من ناره ولا حبًا لجنته فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حبًا له وشوقًا إليه وقالت في معنى المحبة نظمًا:

أحبك حبين حب الهوى ... وحبًا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى: حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة، وبحبه لما هو أهل له: الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها؛ وهو أعلى الحبين وأقواهما، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكيًا عن ربه تعالى: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١) ،

---

(١) صحيح: حديث قال ﷺ حاكيا عن ربه تعالى «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة. [البخاري: ٣٢٤٤، ومسلم: ٢٨٢٤]

وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية، ولذلك قال بعضهم: إني أقول: يا رب يا الله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليسًا ينادي جليسه؟ وقال: إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة، أي يخرج كلامه عن حدّ عقولهم فيرون ما يقوله جنونًا أو كفرًا. فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط، فهي قرّة العين التي لا تعلم نفس ما أخفي لهم منها، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقًا بنعيمها، فلو ألقي في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية، وليت شعر من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يأمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكر؟ وأي معنى لو عدّ الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم؟ بل من عرف الله عرف أنّ اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم:

كانت لقلبي أهواء مفرقةً ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلًا بذكرك يا ديني ودنيائي

ولذلك قال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ... ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإنّ الجنة معدن تمتع الحواس، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط.

ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما نذكره: وهو أن الصبي في أوّل حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو، حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب، ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها، ثم تظهر لذة الرئاسة والعلو والتكاثر، وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ﴾ [الحديد: ٢٠] الآية. ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها، فكل متأخر فهو أقوى، وهذا هو الأخير، إذ يظهر حب اللعب في سنّ التمييز، وحب النساء والزينة في سنّ البلوغ، وحب الرئاسة بعد العشرين، وحب العلوم بقرب الأربعين، وهي الغاية العليا، وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرئاسة؛ فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرئاسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى. والعارفون يقولون: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣٨-٣٩] .

بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا:

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال: كالصور المتخيلة والأجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات، وإلى ما لا يدخل في الخيال: كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها. ومن رأى إنسانًا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة، وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف، فإن صورة المرئي صارت بالرؤية ثم انكشافًا ووضوحًا، وهو كشخص يرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤي عند تمام الضوء؛ فإنه لا يفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف. فإذن الخيال أول الإدراك والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال وهو غاية الكشف، وسمي ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في العين، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجهة أو الصدر مثلًا استحق أن يسمى رؤية.

وإذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضًا في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجات إحداهما: أولى. والثانية: استكمال لها. وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرئي، فيسمى الثاني أيضًا بالإضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية. وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف، وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابًا بين البصر والمرئي، ولا بدّ من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرّد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار. والقول في سبب كونها حجابًا يطول ولا يليق بهذا العلم. ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف :١٤٣] وقال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام :١٠٣] أي في الدنيا، والصحيح أن رسول الله ﷺ ما رأى الله تعالى ليلة المعراج (١) ، فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا، غير منفكة

(١) صحيح : حديث: أنه ﷺ ما رأى الله تعالى ليلة المعارج في الصحيح. هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة، ففي الصحيحين: أنها قالت من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب. ولمسلم من حديث أبي ذر: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال «نور أني اراه» وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له، وعائشة لم ترو ذلك عن النبي ﷺ، وحديث أبي ذر قال فيه أحمد: ما زلت له منكرا، وقال ابن خزيمة: في القلب من صحة إسناده شيء، مع أن في رواية لأحمد في حديث أبي ذر «رأيته نورا أنى اراه» ورجال إسناده رجال الصحيح.

عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة، فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ، نعوذ بالله من ذلك ، ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضًا يقمع منه الخبث الذي هو متدنس به، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية، وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين ، كما وردت به الأخبار ، سبعة آلاف سنة [(١)] ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما وإن قلّت، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم :٧١-٧٢] فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها، فإذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة ، وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدًا من خلقه فإنه واقع بعد القيامة؛ ووقت القيامة مجهول ، فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة لأنّ فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى، فيتجلى له تجليًا يكون انكشاف تجلية بالإضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلي المرآة بالإضافة إلى ما تخيله.

وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية، فإذن الرؤية حق، بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصوّر مخصوص بجهة ومكان، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوًّا كبيرًا، بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصوّر وتقدير شكل وصورة، فتراه في الآخرة كذلك. بل أقول: المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح، كما ضربناه من المثال في استكمال الخيال بالرؤية. فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضًا جهة وصورة؛ لأنها هي بعينها لا تفترق منها إلا في زيادة الكشف، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم:٨] إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف،

[حديث «من حدثك أن محمد. . .» عند البخاري: ٣٢٣٤، ومسلم: ١٧٧، وحديث «هل رأيت ربك. . .» عند مسلم: ١٧٨، وحديث «رأيته نورا. . .» عند أحمد: ٢٠٨٠٦].

(١) موضوع: حديث «إن أقصى المكث في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة». أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة «إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتي... الحديث» وفيه «وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة» وإسناده ضعيف. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٣٨١]

ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعًا، ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل؟ ومن لم يزرع الحب فكيف يحصل الزرع، فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضًا على درجات متفاوتة، فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر، إذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوّتها وضعفها، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ عَامَّةً وَلِأَبِي بَكْرٍ خَاصَّةً»(١) ، فلا ينبغي أن يظنّ أنّ غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر، بل لا يجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره، ولما فضل من الناس بسر وقر في صدره فضل لا محالة بتجل انفرد به، وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرئاسة على المطعوم والمنكوح؛ وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرئاسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعًا؛ فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب؛ وسائر الخلق مشغولون به. ولذلك لما قيل لرابعة: ما تقولين في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار. فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة.

وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظرة في الآخرة، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به؛ كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإنّ ذلك منتهى لذته، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي، فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره، بل ربما يتأذى به. فإذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته؛ فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان.

فإن قلت: فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها؛ لأنّ

---

(١) حديث «إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة». أخرجه ابن عدي من حديث جابر. وقال باطل بهذا الإسناد وفي الميزان للذهبي أن الدارقطني رواه عن المحاملي عن علي بن عبدة وقال الدارقطني أن علي بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة.

لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حدّ قريب لا ينتهي في القوّة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها؟.

فاعلم أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة، فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها؟ وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها؟ فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلًا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلًا إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة المعشوق إلى رؤيته، ولا لذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع.

وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول: لذة النظرة إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب:

أحدها: كمال جمال المعشوق ونقصانه، فإنّ اللذة في النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة.

والثاني: كمال قوّة الحب والشهوة والعشق؛ فليس التذاذ من اشتدّ عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه.

والثالث: كمال الإدراك، فليس التذاذه برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذاذه بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرّد.

والرابع: اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب؛ فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرّد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بمهم من المهمات.

فقدّر عاشقًا ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه، فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقي سليمًا فارغًا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتدّ بها، فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة. فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به، والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن، وضعف الشهوة، والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى والتفاتها إلى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته إلى اللعب بالعصفور، والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه

المشوّشات ولا يتصوّر أن يخلو عنها ألبتة. نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته، ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلّما يدوم؛ بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوّشه وينغصه، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإنما العيش عيش الآخرة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤] وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت، ولا يكره إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فإنّ المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له، فالإحاطة بكنه جلال الله محال، فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت؛ كثر النعيم في الآخرة وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن، كثر الزرع وحسن، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا، ولا يزرع إلا في صعيد القلب، ولا حصاد إلا في الآخرة. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ الْعُمْرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ» (١)، لأنّ المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرّد للطلب، ويستدعي ذلك زمانًا لا محالة، فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفًا في المعرفة بالغًا إلى منتهى ما يسر له، ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرًا عما تحتمله قوّته لو عمر، فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة.

وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا إن اتسعت أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت. وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة. فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة. والعلم والمعرفة أسباب كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة، ومعنى العشق فإنه المحبة المفرطة القوية، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوي النقصان، كما لم تكن الرئاسة ألذ من المطعومات عند الصبيان.

فإن قلت: فهذه الرؤيا محلها القلب أو العين في الآخرة؟.

فاعلم أنّ الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا

---

(١) حديث «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله». أخرجه إبراهيم الحربي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن المطلب عن أبيه عن النبي ﷺ قال «السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله» ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف في صحبته ولأحمد من حديث جابر «أن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة» والترمذي من حديث أبي بكرة: أن رجلا قال يا رسول الله أي الناس خير؟ قال «من طال عمره وحسن عمله» قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم. [حديث «السعادة كل السعادة. . .» انظر السلسلة الضعيفة: ٢٤٠٧، وحديث «إن من سعادة المرء. . .» عند أحمد: ١٤١٥٤، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٢٨، حديث «من طال عمره. . .» عند الترمذي: ٢٣٢٩، وانظر صحيح الترغيب: ٣٣٦٣، وقال الألباني: صحيح لغيره]

ينظرون فيه، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة، ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو جبهته، بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها، فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له، والحق فيه أنّ القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين، هذا في حكم الجواز، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع ، والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره، إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم (١) .

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى:

اعلم أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حبًا لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدة أبد الآباد من غير منقص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوّة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوّة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهتار الذي يسمى عشقًا فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بسببين.

أحدهما: قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب، فإنّ القلب مثل الإناء لا يتسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤] وكمال الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه. وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله، وبقدر ما يبقي من الماء في الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه. وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ [الأنعام:٩١] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت:٣٠] بل هو معنى قولك: «لا إله إلا الله» أي لا معبود ولا محبوب سواه، فكل محبوب فإنه معبود، فإن العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به. وكل محب فهو مقيد بما يحبه. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان:٤٣] وقال ﷺ: «أَبْغَضُ إِلهٍ عُبِدَ فِي الأَرْضِ الهَوَى» ، ولذلك قال عليه السلام: «مَنْ قَالَ لا إله إلاَّ اللَّهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الجَنَّةَ» (٢) ، ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه

---

(١) صحيح: حديث «رؤية الله في الآخرة حقيقة». متفق عليه من حديث أبي هريرة: أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر... الحديث». [البخاري: ٧٤٣٨، ومسلم: ١٨٢]

(٢) صحيح: حديث «من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة». تقدم. [انظر صحيح الجامع: ٦٤٣٣]

ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب، فما حال من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلي من السجن ومكن من المحبوب وروّح بالأمن أبد الآباد، فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوّة حب الدنيا ومنه الأهل والمال والولد والأقارب والعقار والدواب والبساتين والمتنزهات حتى إن المتفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرّض لنقصان حب الله تعالى بسببه، فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئًا إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضرتها، فالدنيا والآخرة ضَرَّتَانِ وهما كالمشرق والمغرب، وقد انكشف ذلك لذوي القلوب انكشافًا أوضح من الإبصار بالعين، وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء. فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدّمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله، وأوّله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما. ثم ينجرّ ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فكل ذلك مقدّمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة. وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «الطهور شطر الإيمان» (١)، كما ذكرناه في أوّل كتاب الطهارة.

السبب الثاني: لقوة المحبة. قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلائها على القلب، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني. ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلًا حيث قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٢٤] وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠] أي المعرفة ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠] فالعمل الصالح كالحمّال لهذه المعرفة وكالخادم وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أوّلًا من الدنيا ثم إدامة طهارته، فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة، وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل، فالعلم هو الأوّل وهو الآخر، وإنما الأوّل علم المعاملة وغرضه العمل، وغرض المعاملة صفاء القلب

(١) صحيح: حديث «الطهور شطر الإيمان». أخرجه مسلم من حديث أبي مالك من الأشعري وقد تقدم. [مسلم: ٢٢٣]

وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه، ومهما أحبه حصلت اللذة، فاللذة تبع المحبة بالضرورة، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم والجدّ البالغ في الطلب والنظر المستمرّ في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته.

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء: ويكون أوّل معرفتهم بالله تعالى، ثم به يعرفون غيره. وإلى الضعفاء: ويكون أوّل معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل. وإلى الأوّل الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت :٥٣] وبقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران :١٨] ومنه نظر بعضهم حيث قيل له: بم عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي، وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت :٥٣] الآية. وبقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف :١٨٥] وبقوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس :١٠١] وبقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك :٣-٤] وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر.

فإن قلت: كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة؟

فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض، والكلام فيه خارج عن حدّ فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيراده في الكتب، وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حدّ الأفهام؛ وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس، والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية، إذ ما من ذرّة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته، وذلك مما لا يتناهى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف :١٠٩] فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول:

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى، ثم الأفعال الإلهية كثيرة

فنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر في عجائبها، فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها ، أعني بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات ، فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفًا وستين مرة، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هو مركوزة فيه، فإنه لا نسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة، وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة في فلاة، والكرسي في العرش كذلك. فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار فقد قال رسول الله ﷺ: «الأَرْضُ فِي البَحْرِ كَالإِصْطَبْلِ فِي الأَرْضِ» (١) ، ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة، وعلم أن المكشوف في الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض، ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب ، الذي هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض، ودع عنك جميع ذلك، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه، فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومه، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحه، وأخرج يده ورجله، وشق سمعه وبصره، ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره في سائر الحيوانات، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في سائر الحيوانات، هذا في شكله وصفاته، ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرّفه أنّ غذاءه دم الإنسان ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدّد الرأس وكيف هداه إلى مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم وكيف علمه المص والتجرّع للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوّفًا حتى يجري فيه الدم الرقيق وينتهي إلى باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه ثم كيف عرّفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب ثم إذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه.

وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار. خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى

(١) حديث «الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض». لم أجد له أصلا.

الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه. وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر، وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الأهداب، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار. وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدين، ولأجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج لأنّ بصره ضعيف فهي تطلب ضوء النهار، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظنّ أنه في بيت مظلم وأنّ السراج كوّة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء، فلا يزال يطلب الضوء ويرمي بنفسه إليه فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق، ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها، فاعلم أنّ جهل الإنسان أعظم من جهلها، بل صورة الآدمي في الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار، إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أنّ تحتها السم الناقع القاتل، فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكًا مؤبدًا، فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة، ولذلك كان ينادي رسول الله ﷺ ويقول: «إنِّي مُمْسِكٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَتَهَافَتُونَ فِيها تَهَافُتَ الفَرَاشِ» (١) ، فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأوّلون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته، فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى.

ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره، فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء، ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار، وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصًا وهو أميرها، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة ، لقضيت منها عجبًا آخر العجب إن كنت بصيرًا في نفسك وفارغًا من هم بطنك وفرجك

---

(١) صحيح : حديث «إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش». متفق عليه من حديث أبي هريرة «مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه» لفظ مسلم واقتصر البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر «وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يدي». [البخاري: ٣٤٢٧، ومسلم: ٢٢٨٤ عن أبي هريرة، ومسلم: ٢٢٨٥ عن جابر]

وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك. ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدّس، فلا تبني بيتًا مستديرًا ولا مربعًا ولا مخمسًا بل مسدّسًا، لخاصية في الشكل المسدّس يقصر فهم المهندسين عن دركها، وهو أنّ أوسع الأشكال وأحواها: المستديرة وما يقرب منها، فإنّ المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإنّ الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى اجتماعها فرجة إلا المسدس، وهذه خاصية هذا الشكل، فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفًا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنأ بعيشه، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه.

فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات، فإنّ القدر الذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه، ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه، بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علمًا في جنب علم الله تعالى، فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة، فإن كنت طالبًا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك، واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير، ولكن تنال بذلك اليسير ملكًا عظيمًا لا آخر له.

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب:

اعلم أنّ المؤمنين مشتركون في أصل الحب لاشتراكهم في أصل المحبة، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها، وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدًا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين، والمتخيلون هم الضالون، والعارفون بالحقائق هم المقرّبون. وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[الواقعة :٨٨-٨٩] الآية. فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالًا فنقول: أصحاب الشافعي مثلًا يشتركون في حب الشافعي ، رحمه الله ، الفقهاء منهم والعوام؛ لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله، ولكن العامي يعرف علمه مجملًا والفقيه يعرفه مفصلًا، فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وحبه

له أشدّ، فإنّ من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة ومال إليه قلبه، فإن رأى تصنيفًا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لا محالة أحبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه، وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبًّا، وكذا سائر الصناعات والفضائل. والعامي قد يسمع أنّ فلانًا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل، والبصير إذا فتش عن التصانيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة؛ لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف، والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه، والعامي يعلم ذلك ويعتقده، وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه، حتى يرى في البعوض ، مثلًا ، من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله ويتحير فيه لبه ويزداد بسببه لا محالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه فيزداد له حبًّا، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعًا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله، وازداد به معرفة وله حبًّا. وبحر هذه المعرفة – أعني معرفة عجائب صنع الله تعالى ، بحر لا ساحل له، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصر له، ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب، فإنّ من يحب الله مثلًا لكونه محسنًا إليه منعمًا عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته، إذ تتغير بتغير الإحسان، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء. وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه.

فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة. والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه:

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أوّل المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول، وترى الأمر بالضدّ من ذلك، فلا بدّ من بيان السبب فيه. وإنما قلنا: إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال. وهو أنا إذا رأينا إنسانًا يكتب أو يخيط مثلًا كان كونه حيًّا عندنا من أظهر الموجودات، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة، إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته. أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانًا فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته، فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته، فلو نظرنا إلى كل ما في العالم سواه لم نعرفه به صفته،

فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح، ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض، بل أوّل شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة، وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته. والموجودات المدركة لا حصر لها، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس لها يشهد إلا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده؛ فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصوّر في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله؟ إذ كل ذرّة فإنها تنادي بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرّك لها، يشهد بذلك أوّلًا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة، فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أنّ يد الكاتب لم تتحرّك بنفسها، ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه.

فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان:

أحدهما: خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله.

والآخر: ما يتناهى وضوحه، وهذا كما أنّ الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره ولكن لشدّة ظهوره فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببًا لامتناع إبصاره فلا ترى شيئًا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره.

فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرّة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإنّ الأشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده حتى أن ما لا ضدّ له عسر إدراكه، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر. ومثاله: نور الشمس المشرق على الأرض، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنا نظنّ أنه لا هيئة في الأجسام إلا

ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما، فإنا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض، فأما الضوء فلا ندركه وحده، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين، فعلمنا أنّ الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور، هذا مع أنّ النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره، انظر كيف تصوّر استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضدّه؟ فالله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدّت السموات والأرض وبطل الملك والملكوت، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين.

ولو كان بعض الأشياء موجودًا به وبعضها موجودًا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أورثت شدّة الظهور خفاء، فهذا هو السبب في قصور الأفهام.

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله. وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها. ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزًا له إلى غيره، كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرًا إلا في الله ولا عارفًا إلا بالله ولا محبًا إلا له، وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبدًا لله، فهذا الذي يقال فيه إنه فني في التوحيد وإنه فني عن نفسه. وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن. فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر، أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبادة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم. فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، وانضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلًا قليلًا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانًا غريبًا أو نباتًا

غريبًا أو فعلًا من أفعال الله تعالى خارقًا للعادة عجيبًا انطلق لسانه بالمعرفة طبعًا فقال: «سبحان الله» وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها، ولو فرض أكمه بلغ عاقلًا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتدّ بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة العجائب لخالقها.

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سدّ على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة، فالناس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكبًا لحماره وهو يطلب حماره، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة. فهذا سر هذا الأمر فليحقق. ولذلك قيل:

فقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبًا ... فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى:

اعلم أنّ من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بدّ وأن ينكر حقيقة الشوق، إذ لا يتصورّ الشوق إلا إلى محبوب ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى، وكون العارف مضطرًا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار. أما الاعتبار فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحب، فكل محبوب يشتاق إليه في غيبته لا محالة، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه، فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر والموجود لا يطلب. ولكن بيانه أنّ الشوق لا يتصوّر إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه، فأما ما لا يدرك أصلًا فلا يشتاق إليه، فإنّ من لم ير شخصًا ولم يسمع وصفه ولا يتصوّر أن يشتاق إليه، وما أدرك بكماله لا يشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداومًا للنظر إليه لا يتصوّر أن يكون له شوق، ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه، وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات.

فنقول مثلًا: من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية، فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصوّر أن يشتاق إليه، ولو رآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية، فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله، فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته، وتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه.

والثاني: أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلًا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته، وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوًا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط.

والوجهان جميعًا متصوران في حق الله تعالى، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية ، وإن كان في غاية الوضوح ، فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحًا غاية الاتضاح، بل يكون مشوبًا بشوائب التخيلات، فإنّ الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات، وهي مكدرات للمعارف ومنغصات، وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة، وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين. فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحًا ما.

الثاني: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة. والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال متشوقًا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلًا، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة.

والشوق الأول: ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة، ولا يتصور أن يسكن في الدنيا. وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال: قلت ذات يوم يا رب إن أعطيت أحدًا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك فقد أضرّ بي القلق، قال: فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال: يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه فقلت يا رب تهت في حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلمني ما أقول، فقال: قل اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك. فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة.

وأما الشوق الثاني فيشبه: أن لا يكون له نهاية في الدنيا ولا في الآخرة، إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لا نهاية له. ولا يزال العبد عالمًا بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه، لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال، فهو يجد لذلك شوقًا لذيذًا لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية، فلا يزال النعيم واللذة متزايدًا أبد الآباد، وتكون لذة ما يتجدّد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل: وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلًا، فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفًا على حدّ لا يتضاعف ولكن يكون مستمرًا على الدوام.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم :٨] محتمل لهذا المعنى. وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزوّد من الدنيا أصل النور، ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد

الاستكمال والإشراق، فيكون هو المراد بتمامه. وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد :١٣] يدل على أنّ الأنوار لا بدّ وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقًا، فأما أن يتجدّد نور فلا، والحكم في هذا برجم الظنون مخطر، ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوثق به، فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علمًا ورشدًا ويرينا الحق حقًّا. فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه.

وأما شواهد الأخبار والآثار: فأكثر من أن تحصى، فمما اشتهر من دعاء رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ وَبَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الكَرِيمِ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ» (١) ، وقال أبو الدرداء لكعب: أخبرني عن أخص آية ، يعني في التوراة - فقال: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم لأشدّ شوقًا. قال: ومكتوب إلى جانبها: من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني، فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا. وفي أخبار داود عليه السلام: إنّ الله تعالى قال: يا داود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني وجليس لمن جالسني ومؤنس لمن أنس بذكري وصاحب لمن صاحبني ومختار لمن اختارني ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينًا من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حبًّا لا يتقدّمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني؛ فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وائتنسوا بي أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم، فإني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نجيي ومحمد صفيي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي.

وروي عن بعض السلف: أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصدّيقين إن لي عبادًا من عبادي يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك، قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلي أقدامهم وافترشوا لي وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إلي بإنعامي فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي، أول ما أعطيهم ثلاث: أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السموات والأرض وما فيها من

---

(١) صحيح : حديث: أنه كان يقول في دعائه «اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت». أخرجه أحمد والحاكم وتقدم في الدعوات. [أحمد: ٢١١٥٨، وهو عند النسائي: ١٣٠٦، وانظر صحيح النسائي]

موازينهم لاستقللتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، فترى من أقبلت عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

وفي أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: يا داود إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إليّ، قال: يا رب من المشتاقون إليك؟ قال: إن المشتاقين إليّ الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إلي خرقًا ينظرون إلي، وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي، ثم أدعو نجباء ملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوا لي، فأقول إني لم أدعكم لتسجدوا لي ولكني دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلي وأباهي بكم أهل الشوق إلي فإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض، يا داود إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدّثي، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقًا ينظرون به إلي يزدادون في كل يوم شوقًا، قال داود: يا رب أرني أهل محبتك، فقال: يا داود ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفسًا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول، فإذا أتيتهم فأقرئهم مني السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم. فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله عز وجل، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرّقوا عنه، فقال داود: إني رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود: إني رسول الله إليكم جئتكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة؟ ألا تنادوني أسمع صوتكم وكلامكم فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة؟ قال: فجرت الدموع على خدودهم، فقال شيخهم: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا. وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك. وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترىء على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأتمم بذلك المنة علينا. وقال الآخر: نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا علينا بجودك. وقال الآخر: من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر في عظمتك أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر في جلالك؟ وطلبتنا الدنوّ من نورك. وقال الآخر: كلت ألسنتنا من دعائك لعظم شأنك، وقربك من أوليائك، وكثرة منتك على أهل محبتك. وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك؛ وفرّغتنا للاشتغال بك، فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك. وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا إنما هي النظر إلى وجهك. وقال الآخر: كيف يجترىء العبد على سيده؟ إذ أمرتنا بالدعاء بجودك، فهب لنا نورًا نهتدي به في

الظلمات من أطباق السموات، وقال آخر: ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا. وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا. وقال الآخر: لا حاجة لنا في شيء من خلقك فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك. وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة. وقال الآخر: قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك. فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربًا فإني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجلالي. فقال داود: يا رب بم نالوا هذا منك؟ قال: بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بي ومناجاتهم لي وإنّ هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفرّغ قلبه لي واختارني على جميع خلقي، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إليّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة وأقرّبه من نور وجهي، إن مرض مرّضته كما تمرّض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكري، فإذا فعلت ذلك به يا داود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لا يفتر عن الاشتغال بي، يستعجلني القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقي لا يرى غيري ولا أرى غيره، فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكري أباهي به ملائكتي وأهل سمواتي يزداد خوفًا وعبادة، وعزتي وجلالي يا داود لأقعدنه في الفردوس ولأشفين صدره من النظر إليّ حتى يرضى وفوق الرضا.

وفي أخبار داود أيضًا: قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي ما ضركم إذا احتجبت عن خلقي ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائي.

وفي أخبار داود أيضًا: إن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبني، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك فإنّ حبي وحبها لا يجتمعان في قلب. يا داود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال، أما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به، وأما ما أشكل عليك فقلدنيه حقًّا على أني أسارع إلى سياستك وتقويمك وأكن قائدك ودليلك، أعطيك من غير أن تسألني وأعينك على الشدائد وإني قد حلفت على نفسي أني لا أثيب إلا عبدًا قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كنفه بين يدي وأنه لا غنى به عني. فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فإني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد لي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها، أضف الأشياء إلي لا تضاد عملك فتكون متعنيًا ولا ينتفع بك من يصحبك ولاتجد معرفتي حدًّا فليس لها غاية،

ومتى طلبت مني الزيادة أعطك ولا تجد للزيادة مني حدًّا، ثم أعلم بني إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندي أبح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ضعني بين عينيك وانظر إلي ببصر قلبك ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عني فأمرجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها فإني حلفت بعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويف، تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين، فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضًا يمشون عليها. يا داود لأن تخرج مريدًا من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيدًا، ومن كتبته عندي جهيدًا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين. يا داود تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب عنك محنتي لا تؤيس عبادي من رحمتي، اقطع شهوتك لي فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقي ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتي، وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عني فإني لم أرض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها. يا داود لا تجعل بيني وبينك عالمًا يحجبك بسكره عن محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم، وإياك والتجربة في الإفطار فإنّ محبتي للصوم إدمانه. يا داود تحبب إلي بمعاداة نفسك امنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابي إذا مننت عليك به وإني أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي.

وأوحى الله تعالى إلى داود: يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقًا إلي وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبلين عليّ. يا داود أحوج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عني، وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلي، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق.

بيان محبة الله للعبد ومعناها:

اعلم أنّ شواهد القرآن متظاهرة على أنّ الله تعالى يحب عبده فلا بدّ من معرفة معنى ذلك، ولنقدم الشواهد على محبته فقد قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] وقد روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالى عَبْدًا لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ

لَهُ: ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] »[١] ومعناه إنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت، كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام، وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران :٣١] وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ وَلا يُعْطِي الإِيمَانَ إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ»[٢] ، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ أَحَبَّهُ اللَّهُ»[٣] ، وقال عليه السلام: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ»[٤] ، الحديث. وقال زيد بن أسلم: إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول: اعمل ما شئت فقد غفرت لك. وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر.

وقد ذكرنا أنّ محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط. وقد بينا أنّ الإحسان موافق للنفس، والجمال موافق أيضًا، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر، وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر.

فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلًا، بل الأسامي كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلًا، حتى إن اسم «الوجود» الذي هو أعم الأسماء اشتراكًا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد، بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى، فالوجود التابع لا يكون مساويًا للوجود المتبوع. وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما، لأن يكون فيه أصلًا، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه، وهذا التباعد في سائر الأسامي أظهر كالعلم والإرادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق.

---

(١) ضعيف: حديث أنس «إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له». ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في التوبة. [الحديث كاملا انظر السلسلة الضعيفة: ٦١٥، والشطر الثاني عند ابن ماجه: ٤٢٥٠، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٤٥، وقال الألباني: حسن لغيره]

(٢) ضعيف: حديث «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب». أخرجه الحاكم وصحح إسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود. [انظر ضعيف الترغيب: ١٠٧٦]

(٣) ضعيف جدًا: حديث «من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله «ومن أكثر... إلى آخره» ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة. [الحديث مختصرًا عند ابن ماجه: ٤١٧٦ بنحوه، وأحمد: ٢٧٣٢٤، والحديث كاملا انظر السلسلة الضعيفة: ٤٨٧٥]

(٤) صحيح: حديث «قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم. [البخاري: ٦٥٠٢]

وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامي أولًا للخلق فإنّ الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق، فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوّز والنقل. والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم، وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كمالًا فتلتذ بنيله، وهذا محال على الله تعالى، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدًا وأزلًا، ولا يتصور تجدّده ولا زواله، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله تعالى لما قرىء عليه قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤] فقال: بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته، فهو إذن لا يحب إلا نفسه، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤوّل ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب، وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له كما قال تعالى: «لا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه» فيكون تقرّبه بالنوافل سببًا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه.

ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرّب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه، إما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهيىء أسباب طعامه وشرابه، فيقال: إن الملك يحبه، ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له. وقد يقرب عبدًا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفًا من الأخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبًا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلًا، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال: قد أحبه، وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال: قد توصل وحبب نفسه إلى الملك. فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول. وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدّد القرب، فإنّ الحبيب هو القريب من الله تعالى، والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية، فهو قرب بالصفة لا بالمكان، ومن لم يكن قريبًا فصار قريبًا فقد تغير، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدّد فقد تغير وصف العبد والرب جميعًا إذ صار قريبًا بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله

تعالى، إذ التغير عليه محال، بل لا يزال في نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال.

ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعًا، وقد يكون أحدهما ثابتًا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر، بل القرب في الصفات أيضًا كذلك، فإنّ التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه، والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم، فلا يزال دائبًا في التغير والترقي إلى أن يقرب من أستاذه والأستاذ ثابت غير متغير، فكذلك ينبغي أن يفهم ترقي العبد في درجات القرب، فكلما صار أكمل صفة وأتم علمًا وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوّة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال، ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله. نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال، فإنه لا نهاية لكماله، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي إلا إلى حدّ محدود فلا مطمع له في المساواة، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتًا لا نهاية له أيضًا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال.

فإذن محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه.

وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته، وإذا أدرك منه شيئًا يلتذ به، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى.

فإن قلت: محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله؟ فأقول: يستدل عليه بعلاماته. وقد قال ﷺ: «إذا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلاهُ فَإِذا أَحَبَّهُ الحُبَّ البالِغَ اقْتَنَاهُ» قيل: وما اقتناه؟ قال: «لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلًا وَلا مَالًا»[1]، فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره.

قيل لعيسى عليه السلام: لم لا تشتري حمارًا فتركبه؟ فقال: أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلني عن نفسه بحمار. وفي الخبر: «إذا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا ابْتَلاهُ فإنْ صَبرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ»[2] وقال بعض العلماء: إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد أن يصافيك. وقال بعض المريدين لأستاذه: قد طولعت بشيء من المحبة فقال: يا بني هل ابتلاك

(١) حديث «إذا أحب الله عبدا ابتلاه». أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني وقد تقدم.

(٢) حديث «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه». ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجه ولده في مسنده.

بمحبوب سواه فأثرت عليه إياه؟ قال: لا، قال: فلا تطمع في المحبة فإنه لا يعطيها عبدًا حتى يبلوه. وقد قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا جَعَلَ لَهِ وَاعِظًا مِنْ نَفْسِهِ وَزَاجِرًا مِنْ قَلْبِهِ يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ» (١) ، وقد قال ﷺ: «إذا أراد الله تعالى بعبد خيرًا بصره بعيوب نفسه» (٢) ، فأخص علاماته حبه لله تعالى فإنّ ذلك يدل على حب الله تعالى له.

وأما الفعل الدال على كونه محبوبًا فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدبر لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدّد لظاهره وباطنه والجاعل همومه همًّا واحدًا والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته. فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد. فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله تعالى فإنها أيضًا من علامات حب الله تعالى للعبد.

القول في علامات محبة العبد لله تعالى:

اعلم أنّ المحبة يدّعيها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة. والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح. وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهي كثيرة.

فمنها: حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام، فلا يتصوّر أن يحب القلب محبوبًا إلا ويحب مشاهدته ولقاءه، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محبًّا للموت غير فارّ منه، فإنّ المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة.

قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» (٣) ، وقال حذيفة عند الموت: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم. وقال بعض السلف: ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدّم حب لقاء الله على السجود. وقد شرط الله سبحانه

---

(١) **ضعيف**: حديث «إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ «إذا أراد الله بعبد خيرا». [انظر السلسلة الضعيفة: ٢١٢٤]

(٢) حديث «إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف.

(٣) **صحيح**: حديث «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه». متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة. [البخاري: ٦٥٠٧، ومسلم: ١٥٧ عن عائشة، ومسلم: ٢٦٨٥ عن أبي هريرة]

لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله، حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف :٤] وقال عز وجل: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة :١١١] وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما: الحق ثقيل وهو مع ثقله مريء والباطل خفيف وهو مع خفته وبيء، فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه. ويروى عن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص قال: حدّثني أبي أنّ عبد الله بن جحش قال له يوم أُحُد: ألا ندعو الله؟ فخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال: يا رب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدوّ غدًا فلقني رجلًا شديدًا بأسه شديدًا حرده أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ويبقر بطني، فإذا لقيتك غدًا قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك، فأقول: فيك يا رب وفي رسولك، فتقول صدقت. قال سعد: فلقد رأيته آخر النهار وإنّ أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط[(١)]

قال سعيد بن المسيب: أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوّله. وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان: لا يكره الموت إلا مريب؛ لأنّ الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه. وقال البويطي لبعض الزهاد: أتحب الموت؟ فكأنه توقف فقال لو كنت صادقًا لأحببته، وتلا قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٩٤] فقال الرجل: فقد قال النبي ﷺ: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ المَوْتَ»[(٢)] ، فقال: إنما قاله لضر نزل به لأنّ الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه.

فإن قلت: من لا يحب الموت فهل يتصوّر أن يكون محبًّا لله؟ فأقول: كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد، وهذا ينافي كمال حب الله تعالى، لأنّ الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة، فإنّ الناس متفاوتون في الحب. ويدل على التفاوت ما روي أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوّج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا: أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى؟ فقال: والله لقد أنكحته إياها وإني لأعلم أنه خير منها، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله، فقالوا: وكيف وهي أختك وهو مولاك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ

---

(١) حديث إسحاق بن سعد بن أبي وقاص قال: حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد. ألا ندعو الله؟ فخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال: يا رب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلقّني رجلا شديدا بأسه. أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وإسناده جيد.

(٢) **صحيح:** حديث «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به». متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم. [البخاري: ٦٣٥١، ومسلم: ٢٦٨٠]

يُحِبُّ اللَّهَ بِكُلِّ قَلْبِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَالِمٍ» (١) ، فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضًا غيره فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها.

وأما السبب الثاني للكراهة: فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله، فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيىء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلًا، وعلامته الدءوب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد.

ومنها: أن يكون مؤثرًا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبًا على طاعة الله ومتقرّبًا إليه بالنوافل وطالبًا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه. وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر :٩] ومن بقي مستقرًا على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه، بل يترك المحب هوى نفسه كما قيل:

أريدُ وصاله ويريد هجري ... فأترك ما أريد لما يريدُ

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب، كما روي أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى، فكان يدعوها إلى فراشه نهارًا فتدافعه إلى الليل، فإذا دعاها ليلًا سوّفت به إلى النهار وقالت: يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلًا، حتى قال لها: إن الله جل ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين، فقالت: أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلني طريقًا إليه فطاعة لأمر الله تعالى، فعندها سكنت إليه. فإذن من أحب الله لا يعصيه، ولذلك قال ابن المبارك فيه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في الفعال بديعُ

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحبَّ لمن يحب مطيعُ

---

(١) موضوع: حديث أبي حذيفة بن عتبة: أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك. وفيه: فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم». لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم في الحلية المرفوع منه من حديث عمر «أن سالما يحب الله حقا من قلبه» وفي رواية له «أن سالما شديد الحب لله عز وجل لو لم يخف الله عز وجل ما عصاه» وفيه عبد الله بن لهيعة. [انظر السلسلة الضعيفة: ٣١٧٩]

وفي هذا المعنى قيل أيضًا:

وأترك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

وقال سهل رحمه الله تعالى: علامة الحب إيثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبًا، وإنما الحبيب من اجتنب المناهي. وهو كما قال؛ لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه، وإنما عدوّه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته. ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء:٤٥].

فإن قلت: فالعصيان هل يضاد أصل المحبة؟

فأقول: إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره؟ وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه. ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة. ويدل عليه ما روي أنّ نعيمان كان يؤتى به رسول الله ﷺ في كل قليل فيحدّه في معصية يرتكبها إلى أن أتي به يومًا فحدّه، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به رسول الله ﷺ؟ فقال: «لا تَلْعَنْهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» (١) ، فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة. نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حبًا متوسطًا، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي. وبالجملة في دعوى المحبة خطر، ولذلك قال الفضيل: إذا قيل لك أتحب الله تعالى؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت وإن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت. ولقد قال بعض العلماء: ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشدّ من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك.

ومنها: أن يكون مستهترًا بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئًا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به، فعلامة حب الله: حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله ﷺ وحب كل من ينسب إليه، فإنّ من يحب إنسانًا يحب كلب محلته. فالمحبة إذا قويت تعدّت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه، وذلك ليس شركة في الحب فإنّ من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله، وكلامه لأنه كلامه، فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه، ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه، فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله

---

(١) صحيح: حديث: أُتي بِنُعَيْمان يوماً، فَحَدَّهُ، فلعنه رجل، قال: ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال «لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله». أخرجه البخاري وقد تقدم. [البخاري: ٦٧٨٠ عن عمر]

الصالحين؟ وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحبة ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال رسول الله ﷺ: «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي لِلَّهِ تَعَالَى» (١) ، وقال سفيان: من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنما يكرم الله. وحكي عن بعض المريدين قال: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلًا ونهارًا ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال: فسمعت قائلًا يقول في المنام؟ إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي، قال: فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعاودت إلى حالي. وقال ابن مسعود: لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله. وقال سهل رحمة الله تعالى عليه: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنَّة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادًا وبلغة إلى الآخرة.

ومنها: أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته؟ قيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله. وفي أخبار داود عليه السلام: لا تستأنس إلى أحد من خلقي، فإني إنما أقطع عني رجلين رجل استبطأ ثوابي فانقطع ورجل نسيني فرضي بحاله، وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران، ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشًا من الله تعالى ساقطًا عن درجة محبته. وفي قصة برخ – وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام – أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: إنّ برخًا نعم العبد هو لي إلا أنّ فيه عيبًا، قال: يا رب وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحبني لم يسكن إلى شيء. وروي أنّ عابدًا عبد الله تعالى في غيضة دهرًا طويلًا فنظر إلى طائر وقد عشش في شجرة يأوي إليها ويصفر عندها، فقال: لو حوّلت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال: ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد: استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدًا. فإذن علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة.

---

(١) ضعيف: حديث «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه».تقدم. [انظر ضعيف الجامع: ١٧٦]

وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقًا بلذة المناجاة، كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه، وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرّة عينه يدفع بها جميع الهموم، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرّر على سمعه مرارًا، مثل العاشق الولهان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه. فالمحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قال: هشت إليه واستأنست به. وقال الصدّيق رضي الله تعالى عنه: من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال مطرف بن أبي بكر: المحب لا يسأم من حديث حبيبه، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قد كذب من ادّعى محبتي إذا جنه الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبه؟ فها أنا ذا موجود لمن طلبني. وقال موسى عليه السلام: يا رب أين أنت فأقصدك؟ فقال: إذا قصدت فقد وصلت. وقال يحيى بن معاذ: من أحب الله أبغض نفسه. وقال أيضًا: من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب: يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق.

ومنها: أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة. قال بعض العارفين: إنّ لله عبادًا أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تامًّا، وما شاء كان، فما كان لهم فهو واصل إليهم وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم. وحق المحب إذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب، ويسأله ويقول: رب بأي ذنب قطعت برك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسي وبمتابعة الشيطان؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة، وتكون هفوته سببًا لتجدّد ذكره وصفاء قلبه. ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئًا إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أنّ المحبوب لم يقدّر له إلا ما فيه خيرته، ويذكر قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومنها: أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة. ثم تنعست به عشرين سنة. وقال الجنيد: علامة المحب دوام النشاط والدءوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه. وقال بعضهم: العمل على المحبة لا يدخله الفتور. وقال بعض العلماء: والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل. فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات، فإنّ العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان

شاقًا على بدنه. ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به، فهكذا يكون حب الله تعالى، فإن كل حب صار غالبًا قَهَرَ لا محالة ما هو دونه، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه. وقيل لبعض المحبين - وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء: ما كان سبب حالك هذه في المحبة؟ فقال: سمعت يومًا محبًا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول: أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت معرض عني بوجهك كله فقال له المحبوب: إن كنت تحبني فأيش تنفق علي؟ قال: يا سيدي أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحي حتى تهلك فقلت: هذا خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بعبيد لمعبود؟ فكل هذا بسببه.

ومنها: أن يكون مشفقًا على جميع عباد الله رحيمًا بهم شديدًا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئًا مما يكرهه كما قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف، وبه وصف الله أولياءه إذ قال: الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ويأوون إلى ذكري كما يأوي النسر إلى وكره، ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا، فانظر إلى هذا المثال فإنّ الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلًا، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه، فإن نام أخذه معه في ثيابه، فإذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك، ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه. وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدّة غضبه أنه يهلك نفسه. فهذه علامات المحبة، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعَذُب مشربه، ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه، إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقرّبين كما قال تعالى في الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [المطففين:٢٢] ثم قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففين:٢٥-٢٨] فإذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقرّبين. والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨] ثم قال: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١] فكان أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقرّبون، وكما أنّ الأبرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقرّبين ومشاهدتهم لهم، فكذلك يكون حالهم في الآخرة: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨].

قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤] وكما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] أي وافق أعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب. وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه وأعماله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة :٧-٨] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد :١١] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء :٤٠] ، ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء :٤٧] فمن كان حبه في الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحور العين والقصور؛ مكن من الجنة ليتبوّأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان؛ فهناك تنتهي لذته في الآخرة لأنه إنما يعطى كل إنسان في المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذ عينه.

ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق أنزل: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر :٥٥] فالأبرار يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحور العين والولدان. والمقرّبون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرّة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون، وللمجالسة أقوام آخرون، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أَكْثَرُ أَهْلِ الجَنَّةِ البُلْهُ وَعِلِّيُّونَ لِذَوِي الأَلْبَابِ» (١) ، ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين :١٩] كما قال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝﴾ [القارعة :١-٣] .

ومنها : أن يكون في حبه خائفًا متضائلًا تحت الهيبة والتعظيم، وقد يظنّ أنّ الخوف يضاد الحب وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أنّ إدراك الجمال يوجب الحب ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشدّ من بعض، فأوّلها خوف الإعراض، وأشدّ منه خوف الحجاب، وأشدّ منه خوف الإبعاد، وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين (٢) إذ سمع قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود :٦٨] ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود :٩٥] وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به، فحديث البعد في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد، ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب، ثم خوف الوقوف وسلب المزيد، فإنا قدّمنا أن درجات القرب لا نهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزاد فيه قربًا، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ» (٣) وكذلك قال عليه السلام: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى

---

(١) ضعيف : حديث «أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب». أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف مقتصرا على الشطر الأول، وقد تقدم، والشطر الثاني من كلام أحمد بن أبي الحواري ولعله أدرج فيه. [الشطر الأول انظر ضعيف الجامع : ١٠٩٦]

(٢) صحيح : حديث «شيبتني هود». أخرجه الترمذي وقد تقدم غير مرة. [الترمذي: ٣٢٩٧، وانظر صحيح الترمذي]

(٣) حديث «من استوى يوما فهو مغبون». لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال: رأيت النبي ﷺ في

قَلْبِي فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ سَبْعِينَ مَرَّةً»(١) وإنما كان استغفاره من القدم الأوّل فإنه كان بعدًا بالإضافة إلى القدم الثاني، ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب، كما روي أنّ الله تعالى يقول: إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي. فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرّد الدعوى والعجب والركون إلى ما ظهر من مبادىء اللطف، وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة، ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته. سمع إبراهيم بن أدهم قائلًا يقول وهو في سياحة وكان على الجبل.

كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عنا
قد وهبنا لك ما فات فهب لنا ما فات منا

فاضطرب وغشي عليه فلم يفق يومًا وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال: سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدًا فكنت عبدًا واسترحت.

ثم خوف السلو عنه فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد، فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته. والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوّة البشر الاطلاع عليها، فإذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان، فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان، وكما أنّ من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحب وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة، فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء، وذلك من مقدّمات المكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به فانتقال القلب من حبه إلى حب غيره، وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والإعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها. وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت ، نعوذ بالله منه ، وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب، فإنّ من أحب شيئًا خاف لا محالة فقده فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته. وقد قال بعض العارفين: من عبد الله تعالى بمحبة من غير خوف

النوم فقلت: يا رسول الله أوصني، فقال ذلك بزيادة في آخره. رواه البيهقي في الزهد.

(١) صحيح: حديث «إنه ليغان على قلبي». متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم. [مسلم: ٢٧٠٢، ولم أجده عند البخاري]

هلك بالبسط والإدلال، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحب الله تعالى فقرّبه ومكنه وعلمه، فالمحب لا يخلو عن خوف والخائف لا يخلو من محبة، ولكن الذي غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة ويعد من المحبين، وكان شوب الخوف يسكن قليلاً من سكر الحب، فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر، فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب. فقد روي في بعض الأخبار: أنّ بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرّة من معرفته، ففعل ذلك، فهام في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصًا سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء، فسأل له الصديق ربه تعالى فقال: يا رب أنقصه من الذرّة بعضها، فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيناه جزءًا من مائة ألف جزء من المعرفة، وذلك أنّ مائة ألف عبد سألوني شيئًا من المحبة في الوقت الذي سألني هذا، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته، فقسمت ذرّة من المعرفة بين مائة ألف عبد، فهذا ما أصابه من ذلك، فقال: سبحانك يا أحكم الحاكمين أنقصه مما أعطيته فأذهب الله عنه جملة الجزء، وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين، وقد قيل في وصف حال العارف:

قريبُ الوجد ذو مرمى بعيد ... عن الأحرار منهم والعبيدِ
غريب الوصف ذو علم غريب ... كأن فؤاده زبر الحديدِ
لقد عزت معانيه وجلت ... عن الأبصار إلا للشهيدِ
يرى الأعياد في الأوقات تجري ... له في كل يوم ألف عيدِ
وللأحباب أفراح بعيد ... ولا يجد السرور له بعيدِ

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتًا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره. وهي هذه الأبيات:

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم ... فحلُّوا بقرب الماجد المتفضل
عراصًا بقرب الله في ظل قدسه ... تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى ... ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح بعز مفرد من صفاته ... وفي حلل التوحيد تمشي وترفل
ومن بعد هذا ما تدق صفاته ... وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمي به ما يصونه ... وأبذل منه ما أرى الحق يبذل
وأعطي عباد الله منه حقوقهم ... وأمنع منه ما أرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرًا يصونه ... إلى أهله في السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا، فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا، بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يومًا لخربت الدنيا لزهدهم فيها، وبطلت الأسواق والمعايش، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم، ولكن لله تعالى فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم، كما أن له في الخير أسرارًا وحكمًا، ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته.

ومنها: كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقي من إظهار الوجد والمحبة تعظيمًا للمحبوب وإجلالًا له وهيبة منه وغيره على سره، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد دخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه في العقبى وتتعجل عليه البلوى في الدنيا. نعم قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه، فإن وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور، وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه. فالقادر على الكتمان يقول:

وقالوا: قريب، قلت: ما أنا صانع — بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري
فما لي منه غير ذكر بخاطر — يهيج نار الحب والشوق في صدري

والعاجز عنه يقول:

يخفى فيبدي الدمع أسراره — ويظهر الوجدَ عليه النفسُ

ويقول أيضًا:

ومن قلبه مع غيره كيف حاله — ومن سرّه في جفنه كيف يكتُم؟

وقد قال بعض العارفين: أكثر الناس من الله بعدًا أكثرهم إشارة به. كأنه أراد: من يكثر التعريض به في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل. ودخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ، ممن كان يذكر المحبة ، فرآه مبتلى ببلاء فقال: لا يحبه من وجد ألم ضره فقال الرجل: لكني أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره، فقال ذو النون: ولكني أقول: لا يحبه من شهر نفسه بحبه، فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه.

فإن قلت: المحبة منتهى المقامات وإظهارها إظهار للخير فلماذا يستنكر؟

فاعلم أنّ المحبة محمودة وظهورها محمود أيضًا، وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار، وحق المحب أن ينم على حبه الخفي أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله. وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال

على الحب، بل ينبغي أن يكون قصد المحب إطلاع الحبيب فقط، فأما إرادته إطلاع غيره فشرك في الحب وقادح فيه، كما ورد في الإنجيل: إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك. فالذي يرى الخفيات يجزيك علانية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك. فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه.

حكي أن رجلًا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر ذلك معروفًا الكرخي رحمه الله فتبسم ثم قال: يا أخي له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذي رأيته من مجانينهم. ومما يكره: التظاهر بالحب، بسبب أنّ المحب إن كان عارفًا ، وعرف أحوال الملائكة في حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذي به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعًا أنه من أخس المحبين في مملكته وأنّ حبه أنقص من حب كل محب لله. قال بعض المكاشفين من المحبين: عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أنّ لي عند الله شيئًا، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها: فبلغت صفًّا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن المحبون لله عز وجل نعبده هاهنا منذ ثلاثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولاذكرنا غيره، قال: فاستحييت من أعمالي فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفًا عنه في جهنم.

فإذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى. نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته؛ كما حكي عن الجنيد أنه قال: مرض أستاذنا السريّ رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببًا، فوصف لنا طبيب حاذق. فأخذ قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليها مليًا ثم قال لي: أراه بول عاشق قال الجنيد: فصعقت وغشي علي ووقعت القارورة من يدي، ثم رجعت إلى السري فأخبرته، فتبسم وقال: قاتله الله ما أبصره قلت: يا أستاذ وتبين المحبة في البول؟ قال: نعم.

وقد قال السري مرة: لو شئت أقول: ما أيبس جلدي على عظمي ولا سل جسمي إلا حبه ثم غشي عليه. وتدل الغشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدّمات الغشية. فهذه مجامع علامات الحب وثمراته.

ومنها: الأنس والرضا ، كما سيأتي.

وبالجملة: جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب، وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق. نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله

وإن لم يحسن إليه. والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين، ولذلك قال الجنيد: الناس في محبة الله تعالى عام وخاص، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان؛ فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرّد بالملك. ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه إذ استحق عندهم المحبة بذلك، لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم، نعم من الناس من يحب هواه. وعدوّ الله إبليس – وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل – فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذي فقدت فيه هذه العلامات، أو يلبس بها نفاقًا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك، كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله في أرضه، وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال: يا دوست ، أي يا حبيب ، فقيل له: قد لا يكون حبيبًا فكيف تقول هذا؟ فقال في أذن القائل سرًا: لا يخلو إما أن يكون مؤمنًا أو منافقًا: فإن كان مؤمنًا فهو حبيب الله عز وجل، وإن كان منافقًا فهو حبيب إبليس: وقد قال أبو تراب النخشبي ، في علامات المحبة ، أبياتًا:

لا تخدعنّ فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسمًا ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهمًا ... لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفًا ... متحفظًا من كل ما هو قائل

وقال يحيـى بن معاذ:

ومن الدلائل أن تراه مشمرًا ... في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرًا ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيًا ... أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلمًا ... كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيًا ... بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل

بيان معنى الأنس بالله تعالى :

قد ذكرنا أنّ الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة، إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على

المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه، وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقًا وهو بالإضافة إلى أمر غائب، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورًا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد؛ استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسًا، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفًا. وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات، والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها، فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال، حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرّق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له: أنت مشتاق؟ فقال: لا إنما الشوق إلى غائب، فإذا كان الغائب حاضرًا فإلى من يشتاق؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف.

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، كما حكي أنّ إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل فقيل له: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله، وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله، بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب، كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان؛ لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه. ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه: يا من آنسني بذكره وأوحشني من خلقه، وقال الله عز وجل لداود عليه السلام: كن لي مشتاقًا وبي متأنسًا ومن سواي مستوحشًا، وقيل لرابعة: بم نلت هذه المنزلة؟ قالت: بتركي ما لا يعنيني وأنسي بمن لم يزل. وقال عبد الواحد بن زيد: مررت براهب فقلت له يا راهب لقد أعجبتك الوحدة؟ فقال: يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك، الوحدة رأس العبادة، فقلت يا راهب ما أقل ما تجده في الوحدة؟ قال: الراحة من مداراة الناس والسلام من شرهم، قلت: يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الود وخلصت المعاملة، قلت: ومتى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم فصار همًّا واحدًا في الطاعة، وقال بعض الحكماء: عجبًا للخلائق كيف أرادوا بك بدلًا؟ عجبًا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك؟.

فإن قلت: فما علامة الأنس؟.

فاعلم أنّ علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر، فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر

كما قال علي كرّم الله وجهه في وصفهم: هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه. فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهده.

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات، ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب ومنهم أحمد بن غالب، يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا، وقال: ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصوّر. وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر، فإن المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب، فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أنّ الجوز خشب كله، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل:

الأنس بالله لا يحويه بطال ... وليس يدركه بالحول محتالُ
والآنسون رجال كلهم نجب ... وكلهم صفوة لله عمالُ

بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس:

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوّشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر نوعًا من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس، ومن لم يقم في ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر.

ومثاله: مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل؛ بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسقي لهم في سبعين ألفًا، فأوحى الله عز وجل إليه: كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم سرائرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري، ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف، فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له: ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ، قال: فأنت طلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا. فخرج فقال في كلامه: ما هذا من فعالك ولا هذا من حلمك؟ وما الذي بدا لك أنقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نفد ما عندك أم اشتد غضبك على المذنبين؟ ألست كنت غفارًا قبل خلق

الخطائين؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطف، أم ترينا أنك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة، قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب، قال: فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف أنصفني؟ فهم موسى عليه السلام به، فأوحى الله تعالى إليه: إن برخًا يضحكني كل يوم ثلاث مرات. وعن الحسن قال: احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة، فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخص، قال: فأتي بشيخ فقال: يا شيخ ما بال خصك لم يحترق؟ قال: إني أقسمت على ربي عز وجل أن لا يحرقه، فقال أبو موسى رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَكُونُ في أُمَّتِي قَوْمٌ شَعِثَةٌ رُءوسُهُمْ، دَنِسَةٌ ثِيَابُهُمْ لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُمْ» [1] ، قال: ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخوّاص فجعل يتخطى النار، فقال له أمير البصرة: انظر لا تحترق بالنار، فقال: إني أقسمت على ربي عز وجل أن لا يحرقني بالنار، قال: فاعزم على النار أن تطفأ، قال: فعزم عليها فطفئت. وكان أبو حفص يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له أبو حفص: ما أصابك؟ فقال: ضل حماري ولا أملك غيره، قال: فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره، قال: فظهر حماره في الوقت ومرّ أبو حفص رحمه الله.

فهذا وأمثاله يجري لذوي الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم. قال الجنيد رحمه الله: أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة. وقال مرة: لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك.

وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل:

قوم تخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاهُ
تاهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما، ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني ولو فطنت وفهمت، فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولي البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار، فإنما هي عند ذوي الاعتبار من الأسماء.

فأوّل القصص، قصة آدم عليه السلام وإبليس أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا في الاجتباء والعصمة. أما إبليس فأبلس عن رحمته، وقيل إنه من المبعدين. وأما آدم عليه السلام فقيل فيه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝﴾ [طه: ١٢١-١٢٢] .

(١) حديث الحسن عن أبي موسى «يكون في أمتي قوم شعثة رؤوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة.

وقد عاتب الله نبيه ﷺ في الإعراض عن عبد والإقبال على عبد، وهما في العبودية سيان ولكن في الحال مختلفان، فقال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس :٨-١٠] وقال في الآخر: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس :٥-٦] وكذلك أمره بالقعود مع طائفة، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام :٥٤] وأمره بالإعراض عن غيرهم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام :٦٨] حتى قال: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام :٦٨] وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الكهف :٢٨] .

فكذلك الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون بعض. فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف :١٥٥] وقوله في التعليل والاعتذار لما قيل له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه :٢٤] فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ [الشعراء :١٤] وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء: ١٢-١٣] وقوله: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه :٤٥] وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذي أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل، ولم يحتمل ليونس عليه السلام ما دون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت ، في ظلمات ثلاث ، ونودي عليه إلى يوم القيامة: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم :٤٩] . قال الحسن: العراء هو القيامة. ونهي نبينا ﷺ أن يقتدي به. وقيل له: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم :٤٨] .

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء :٥٥] وقد قال: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة :٢٥٣] فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولإدلاله سلم على نفسه، فقال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم :٣٣] وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس.

وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ [مريم :١٥] .

وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف ما فعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء: قد عددت من أوّل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف :٨] إلى رأس العشرين من أخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفًا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع، فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزير في مسألة واحدة سأل عنها في القدر، حتى قيل محي من ديوان النبوّة وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء

فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك. وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته في الجوارح فعفا عنه. فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام: يا رأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرّة بعد مرّة فوعزتي وجلالي لئن أخذته عصفة من عصفاتي عليه لأتركنه مثلة لمن معه ونكالاً لمن بعده، فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا كثيبًا من رمل، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال: إلهي وسيدي أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تتب علي وكيف أستعصم؟ إن لم تعصمني لأعودنّ، فأوحى الله تعالى إليه: صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا أستقبل التوبة وقد تبت عليك وأنا التواب الرحيم، وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه.

وفي الخبر: «إنّ الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشفى على الهلكة كم من ذنب واجهتني به غفرته لك قد أهكلت في دونه أمة من الأمم» فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به المشيئة الأزلية.

وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه، فتارة يتعرّف إليهم بالتقديس فيقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾ [الإخلاص :١-٤] وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر :٢٣] وتارة يتعرّف إليهم في أفعاله المخوفة والمرجوّة فيتلو عليهم سننه في أعدائه وفي أنبيائه فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر :٦-٧] ، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل :١] .

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي: الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسننه مع عباده. ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله ﷺ بثلث القرآن فقال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الإِخْلَاصِ فَقَدْ قَرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ» (١) ؛ لأنّ منتهى التقديس أن يكون واحدًا في ثلاثة أمور، لا يكون حاصلاً منه من هو نظيره وشبهه. ودل عليه قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص :٣] ولا يكون حاصلاً ممن هو نظيره وشبهه. ودل عليه قوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص :٣] ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلاً له ولا فرعًا من هو مثله. ودل عليه قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص :٤] ويجمع جميع ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص :١] وجملته تفصيل قول:

---

(١) صحيح: حديث «من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن». أخرجه أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه. [البخاري: ٥٠١٤ عن أبي سعيد، ومسلم: ٨١١ عن أبي الدرداء، وأحمد: ٢٦٩٧٦ عن أبي الدرداء، ولم أقف عليه عن أبي بن كعب]

«لا إله إلا الله» فهذه أسرار القرآن ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار في القرآن ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: نوّروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الأوّلين والآخرين، وهو كما قال، ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكرُه وصفا له فهمُه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر وأنه خارج عن حدّ استطاعة البشر. وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار، فكن حريصًا على استنباطها ليكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه. فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم.

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته:

اعلم أنّ الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المقرّبين وحقيقته غامضة على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين، فقد أنكر منكرون تصوّر الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا: إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى. ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله ﷺ لابن عباس حيث قال: «اللّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»(١) ، فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا، ثم بحكايات أحوال الراضين، ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوّره فيما يخالف الهوى، ثم نذكر ما يظنّ أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي.

بيان فضيلة الرضا:

أما من الآيات فقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المائدة:١١٩] وقد قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن:٦٠] ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى. وقال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾ [التوبة:٧٢] فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت:٤٥] فكما أنّ مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان.

---

(١) صحيح: حديث دعائه لابن عباس «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». متفق عليه دون قوله «وعلمه التأويل» ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم. [البخاري: ١٤٣، ومسلم: ٢٤٧٧، وأحمد: ٢٣٩٣، وانظر السلسلة الصحيحة: ٢٥٨٩]

وفي الحديث «إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك»[(١)] ، فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل. وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته، وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه. وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر، فكأنهم رأوا غاية الغايات وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر، فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أنّ الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب. وقال الله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] قال بعض المفسرين: يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين؛

إحداها: هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] .

والثانية: السلام عليهم من ربهم، فيزيد ذلك على الهدية فضلًا وهو قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] .

والثالثة: يقول الله تعالى: إني عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] أي من النعيم الذي هم فيه. فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد.

وأما من الأخبار: فقد روي أن النبي ﷺ سأل طائفة من أصحابه: «ما أَنْتُمْ؟» فقالوا: مؤمنون، فقال: «ما عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ؟» فقالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء. فقال: «مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ» [(٢)] وفي خبر آخر أنه قال: «حُكَمَاء عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ» [(٣)] ، وفي الخبر: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان رزقه كفافًا ورضي به» [(٤)] ، وقال ﷺ: «مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ بِالقَلِيلِ مِنَ العَمَلِ» [(٥)] ، وقال أيضًا: «إِذا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا ابْتَلَاهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ

---

(١) حسن: حديث «إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك». أخرجه البزار والطبراني في الأوسط من حديث أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه «فيتجلى لهم يقول أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي وهذا محل إكرامي فسلوني فيسألونه الرضا... الحديث» ورواه أبو يعلى بلفظ «ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك... الحديث» ورجاله رجال الصحيح. [انظر صحيح الترغيب: ٣٧٦١]

(٢) حديث: سأل طائفة من أصحابه «ما أنتم» فقالوا: مؤمنون». تقدم.

(٣) منكر: حديث: أنه قال في حديث آخر «حكماء علماء». تقدم أيضا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٦١٤]

(٤) صحيح: حديث «طوبى لمن هدي للإسلام وكان رزقه كفافا ورضي به». أخرجه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد بلفظ «وقنع» وقال صحيح وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٤٩، وانظر صحيح الترغيب: ٨٣٠]

(٥) ضعيف جدًا: حديث «من رضي من الله بالقليل من الرزق». رويناه في أمالي المحاملي بإسناد ضعيف من حديث علي بن أبي طالب ومن طريق المحاملي رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٥٧٣]

اصْطَفَاهُ» وقال أيضًا: «إذا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَنْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى لِطَائِفَةٍ مِنْ أُمَّتِي أَجْنِحَةً فَيَطِيرُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الجِنَانِ يَسْرَحُونَ فِيها وَيَتَنَعَّمُونَ فِيها كَيْفَ شَاءُوا، فَتَقُولُ لَهُمُ المَلائِكَةُ: هَلْ رَأَيْتُمُ الحِسَابَ؟ فَيَقُولُون: ما رَأَيْنَا حِسَابًا، فَتَقُولُ لَهُمْ: هَلْ جُزْتُمُ الصِّرَاطَ؟ فَيَقُولُونَ: ما رَأَيْنَا صِرَاطًا، فَتَقُولُ لَهُمْ: هَلْ رَأَيْتُمْ جَهَنَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: ما رَأَيْنَا، فَتَقُولُ المَلائِكَةُ: مِنْ أُمَّةِ مَنْ أَنْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ، فَتَقُولُ: نَاشَدْنَاكُمُ اللَّهَ حَدِّثُونا ما كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُونَ: خَصْلَتَانِ كَانَتَا فِينا فَبَلَغْنَا هذِهِ المَنْزِلَةَ بِفَضْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَيَقُولُونَ: وَما هُمَا؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا إذا خَلَوْنَا نَسْتَحِي أَنْ نَعْصِيه وَنَرْضَى بِاليَسِيرِ مِمَّا قُسِمَ لَنَا، فَتَقُولَ المَلائِكَةُ: يَحِقُّ لَكُمْ هذا»(١) ، وقال ﷺ: «يا مَعْشَرَ الفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وإِلاَّ فَلاَ»(٢) .

وفي أخبار موسى عليه السلام؛ إن بني إسرائيل قالوا له: سل لنا ربك أمرًا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا، فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا، فقال: يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم. ويشهد لهذا ما روي عن نبينا ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ ما لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَنْظُرْ ما لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ فإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ العَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ»(٣) .

وفي أخبار داود عليه السلام: ما لأوليائي والهم بالدنيا، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، يا داود إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون.

وروي أنّ موسى عليه السلام قال: يا رب دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله، فأوحى الله تعالى إليه: إن رضاي في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره، قال: يا رب دلني عليه، قال: فإنّ رضاي في رضاك بقضائي. وفي مناجاة موسى عليه السلام: أي رب أي خلقك أحب إليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمني، قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من ستخيرني في الأمر فإذا قضيت له سخط قضائي. وقد روي ما هو أشدّ من ذلك وهو أنّ الله تعالى قال: «أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمتي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربًا سواي»(٤) ، ومثله في الشدّة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ أنه قال: «قَالَ اللَّهُ

---

(١) موضوع: حديث «إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة». رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن علي القيس ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن، وللأحاديث الصحيحة في الورود وغيره. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٠٧]

(٢) حديث «أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا». تقدم.

(٣) ضعيف: حديث «من أحب أن يعلم ما له عند الله عز وجل». أخرجه الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ «منزلته» و «منزلة الله». [انظر ضعيف الترغيب: ٩١٨]

(٤) ضعيف جدًا: حديث قال الله تعالى« أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي». أخرجه الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الداري مقتصرًا على قوله «من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليلتمس ربا سواي» وإسناده ضعيف. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٠٥]

تَعَالَى قَدَّرْتُ المَقَادِيرَ وَدَبَّرْتُ التَّدْبِيرَ وَأَحْكَمْتُ الصُّنْعَ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا مِنِّي حَتَّى يَلْقَانِي وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخط مني حَتَّى يَلْقَانِي»(١) ، وفي الخبر المشهور: «يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير علي يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه، وويل ثم ويل لمن قال: لِمَ وكيف»(٢) .

وفي الأخبار السالفة أن نبيًّا من الأنبياء شكا إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكو، أهكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدل ما قدّرته عليك؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتي وجلالي لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوّة. وروي أنّ آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه، ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه ، فقال له بعض ولده: يا أبت أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا؟ فقال: يا بني إني رأيت ما لم تروا، وعلمت ما لم تعلموا، إني تحرّكت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبني ما لا أعلم. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته، ولا قال في شيء كان ليته لم يكن، ولا في شيء لم يكن ليته كان، وكان إذا خاصمني مخاصم من أهله يقول دعوه لو قضي شيء لكان(٣) . ويروى أنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد.

وأما الآثار: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما. أوَّل من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال. وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر، وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله. وقال ميمون بن مهران: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء. وقال الفضيل: إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير

---

(١) حديث «قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير». لم أجده بهذا اللفظ، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة «خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين... الحديث» وإسناده ضعيف.

(٢) **ضعيف جدًا:** حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه». أخرجه ابن شاهين في شرح السنة عن أبي أمامة بإسناد ضعيف. [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٤٢٩ بنحوه]

(٣) **صحيح:** حديث أنس: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته. متفق عليه وقد تقدم. [البخاري: ٦٠٣٨، ومسلم: ٢٣٠٩]

نفسك. وقال عبد العزيز بن أبي رواد: ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخل ولا في لبس الصوف والشعر، ولكنّ الشأن في الرضا عن الله عز وجل. وقال عبد الله بن مسعود: لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إليَّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان. ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع، فقال: إني لأرحمك من هذه القرحة، فقال: إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني.

وروي في الإسرائيليات: أن عابدًا عبد الله دهرًا طويلًا فأري في المنام؛ فلانة الراعية رفيقتك في الجنة؛ فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثًا ينظر إلى عملها، فكان يبيت قائمًا وتبيت نائمة ويظل صائمًا وتظل مفطرة. فقال: أما لك عمل غير ما رأيت؟ فقالت: ما هو والله إلا ما رأيت لا أعرف غيره، فلم يزل يقول: تذكري، حتى قالت: خصيلة واحدة هي فيَّ؛ إن كنت في شدّة لم أتمنّ أن أكون في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمن أن أكون في صحة، وإن كنت في الشمس لم أتمن أن أكون في الظل، فوضع العابد يده على رأسه وقال: أهذه خصيلة؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد.

وعن بعض السلف: إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه. وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر. وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدّة أو رخاء. وقال الثوري يومًا عند رابعة: اللهم ارض عني، فقالت: أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض؟ فقال: أستغفر الله، فقال جعفر بن سليمان الضبعي: فمتى يكون العبد راضيًا عن الله تعالى؟ قالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة. وكان الفضيل يقول: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى، وقال أحمد بن أبي الحواري: قال أبو سليمان الداراني: إنَّ الله عز وجل من كرمه قد رضي من عبيده بما رضي العبيد من مواليهم قلت: وكيف ذاك؟ قال: أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه؟ قلت: نعم، قال: فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه.

وقال سهل: حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل. وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحِكْمَتِهِ وَجَلالِهِ جَعَلَ الرَّوحَ وَالفَرَحَ فِي الرِّضَا وَاليَقِينِ، وَجَعَلَ الغَمَّ وَالحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ» (١).

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى:

اعلم أنّ من قال: ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصوّر؟

(١) موضوع: حديث «إن الله عز وجل بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين». أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال «بقسطه» وقد تقدم. [انظر ضعيف الترغيب: ١٠٦٤]

فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة، فأما إذا ثبت تصوّر الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أنّ الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب، ويكون ذلك من وجهين.

أحدهما : أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها. ومثاله: الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بألم ذلك لشغل قلبه. بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كآلة يتألم به، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به. وكل ذلك لأنّ القلب إذا صار مستغرقًا بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتمّ له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه؟ وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل، وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصوّر في الألم العظيم بالحب العظيم، فإنّ الحب أيضًا يتصوّر تضاعفه في القوّة كما يتصوّر تضاعف الألم، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال، فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بما يجري عليه. فقد روي أن امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه، فقيل له في ذلك فقال: يا دوست ضرب الحبيب لا يوجع.

وأما الوجه الثاني: فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيًا به بل راغبًا فيه مريدًا له ، أعني بعقله ، وإن كان كارهًا بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصاد به منة بفعله، فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم. وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيًا بها. ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه. هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبًا عنده ومطلوبًا، وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقذار والأخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة. وإن نظر إلى المدرك للجمال فهي العين

الخسيسة التي تغلط فيما ترى كبيرًا، فترى الصغير كبيرًا والكبير صغيرًا والبعيد قريبًا والقبيح جميلًا، فإذا تصوّر استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم.

فقد قال شقيق البلخي: من يرى ثواب الشدّة لا يشتهي المخرج منها. وقال الجنيد: سألت سريًّا السقطي هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا. قلت: وإن ضرب بالسيف قال: نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة. ضربة على ضربة، وقال بعضهم: أحببت كل شيء يحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار. وقال بشر بن الحارث: مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس، فتبعته فقلت له: لم ضربت؟ فقال: لأني عاشق، فقلت له: ولم سكت؟ قال لأنّ معشوقي كان بحذائي ينظر إليّ، فقلت: فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر قال: فزعق زعقة خرّ ميتًا. وقال يحيى بن معاذ الرازي - رحمه الله تعالى: إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله؟ إذا لاحظت جلاله هابت وإذا لاحظت جماله تاهت.

وقال بشر: قصدت عبادان في بدايتي فإذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه، فرفعت رأسه فوضعته في حجري وأنا أردد الكلام، فلما أفاق قال من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي لو قطعني إربًا إربًا ما ازددت له إلا حبًّا؟ قال بشر: فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها. وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث: إنّ أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصدّيق عليه السلام، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع. بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو قطع النسوة أيديهنّ لاستهتارهنّ بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك. وقال سعيد بن يحيى: رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شابًّا وفي يده مدية وهو ينادي بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول:

يومُ الفراق من القيامة أطولُ ... والموتُ من ألم التفرق أجملُ
قالوا الرحيل فقلت لست براحلٍ ... لكن مهجتي التي تترحلُ

ثم بقر بالمدية بطنه وخرّ ميتًا، فسألت عنه وعن أمره فقيل لي: إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يومًا واحدًا. ويروى أنّ يونس عليه السلام قال لجبريل: دلني على أعبد أهل الأرض. فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره، فسمعه وهو يقول: إلهي

متعتني بهما ما شئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول. ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتدّ وجده عليه حتى قال بعض القوم: لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث، فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشدّ سرورًا أبدًا منه، فقيل له في ذلك، فقال ابن عمر: إنما كان حزني رحمة له، فلما وقع أمر الله رضينا به.

وقال مسروق: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكلب يحرسهم، قال: فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له وكان الرجل صالحًا فقال: عسى أن يكون خيرًا، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم، قال: وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدّره الله تعالى. فإذن من عرف خفيّ لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال. ويروى أنّ عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرًا من خلقه، فقال له عيسى: يا هذا أي شيء من البلاء أراه مصروفًا عنك؟ فقال: يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال له: صدقت هات يدك، فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجهًا وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به، فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه. وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته ، من أكلة خرجت بها ثم قال: الحمد لله الذي أخذ مني واحدة ولئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت، ثم لم يدع ورده تلك الليلة. وكان ابن مسعود يقول: الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيتهما ركبت؟ إن كان الفقر فإنّ فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل. وقال أبو سليمان الداراني: قد نلت من كل مقام حالاً إلا الرضا فما لي منه إلا مشام الريح. وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيًا. وقيل لعارف آخر: هل نلت غاية الرضا عنه؟ فقال: أما الغاية فلا، ولكن مقام الرضا قد نلته، لو جعلني جسرًا على جهنم يعبر الخلائق عليّ إلى الجنة ثم ملأ بي جهنم ، تحلة لقسمه وبدلاً من خليقته ، لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه. وهذا كلام من علم أنّ الحب قد استغرق همه حتى منعه الإحساس بألم النار، فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار. واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان بعيدًا من أحوالنا الضعيفة، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ويظنّ أنّ ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء. وقال الروذباري: قلت لأبي عبد الله بن الجلاء الدمشقي قول فلان: وددت أنّ

جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه ما معناه؟ فقال: يا هذا إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف، قال: ثم غشي عليه. وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد ، قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة قال: لا تبك فإنّ أحبه إلى الله تعالى أحبه إليّ ثم قال: أحدّثك شيئًا لعل الله أن ينفعك به، واكتم عليّ حتى أموت، إنّ الملائكة تزورني فآنس بها وتسلم علي فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضيًا به؟ قال: ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده، فرأينا ثوبًا ملقى فما ظننا أن تحته شيئًا حتى كشف، فقالت له امرأته: أهلي فداؤك ما نطعمك. ما نسقيك؟ فقال: طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوًا لا أطعم طعامًا ولا أسيغ شرابًا منذ كذا، فذكر أيامًا، وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر. ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة ، وقد كان كف بصره ، جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا – وكان مجاب الدعوة – قاله عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرّفت إليه فعرفني وقال: أنت قارىء أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم وقال: يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري. وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر، فقيل له: لو سألت الله تعالى أن يرده عليك، فقال: اعتراضي عليه فما قضى أشدّ علي من ذهاب ولدي.

وعن بعض العباد أنه قال: إني أذنبت ذنبًا عظيمًا فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة ، وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من الذنب ، فقيل له: وما هو؟ قال: قلت مرة لشيء كان ليته لم يكن.

وقال بعض السلف: لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى سبحانه ليته لم يقضه. وقيل لعبد الواحد بن زيد: هاهنا رجل قد تعبد خمسين سنة، فقصده فقال له: يا حبيب أخبرني عنك هل قنعت به؟ قال: لا، قال أنست به؟ قال: لا، قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا، قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة؟ قال: نعم، قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب، وإنما أنت تعدّ في طبقات أصحاب اليمين؛ لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم. ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة، فقال: من أنتم؟ فقالوا: محبوك، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال: ما بالكم ادعيتم محبتي إن صدقتم

فاصبروا على بلائي

وللشبلي رحمه الله تعالى:

إن المحبةَ للرحمن أسكرني وهل رأيت محبًا غير سكران؟

وقال بعض عباد أهل الشام: كلكم يلقى الله عز وجل مصدّقًا ولعله قد كذبه، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها، ولو كان بها شلل ظل يواريها؛ يعني بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه.

وقيل: إنه وقع الحريق في السوق، فقيل للسري: احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله، ثم قال: كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارًا من قوله الحمد لله.

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعًا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلًا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين. ومهما كان ذلك ممكنًا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنًا في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعًا. وإمكانه من وجهين.

أحدهما: الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظارًا للشفاء.

والثاني: الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له، فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب، فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه. كما قيل:

وقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعي قال: كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية، وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت:

علامة ذل الهوى على العاشقين البُكَا

ولا سيما عاشق إذا لم يجد مُشْتَكَى

فقال لها الفتى: أحسنت والله يا سيدتي أفتأذنين لي أن أموت فقالت: مت راشدًا قال: فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه، فحركناه فإذا هو ميت. وقال الجنيد: رأيت رجلًا متعلقًا بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة، فالتفت إليه الصبي وقال له: إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي؟ فقال: قد علم الله أني صادق فيما أورده، حتى لو قلت لي مت لمت، فقال: إن كنت صادقًا فمت، قال: فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتًا. وقال سمنون المحب: كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسًا، فبينا هو يحرّك القدر إذ قالت الجارية: آه قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرّك في القدر بيده حتى سقطت أصابعه فقالت الجارية: ما هذا؟ قال: هذا مكان قولك ، آه.

وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال: رأيت بالبصرة شابًا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول:

من مات عشقًا فليمت هكذا لا خيرَ في عشق بلا موت

ثم رمى بنفسه إلى الأرض؛ فحملوه ميتًا. فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى؛ لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر، وجمال الحضرة الربانية أو في كل جمال، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال. نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة، فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضًا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا:

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضًا. وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع.

فأما الدعاء فقد تعبدنا به، وكثرة دعوات رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام ، على ما نقلناه في كتاب الدعوات ، تدل عليه. ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلى المقامات من الرضا. وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء :٩٠] وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس :٧] وقال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة :٨٧] وفي الخبر المشهور: «من شهد منكرًا فرضي به فكأنه قد فعله» وفي الحديث: «الدال على الشر كفاعله» (١) ، وعن ابن مسعود: إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه وقيل: وكيف ذلك؟ قال: يبلغه فيرضى به. وفي الخبر: «لو أن عبدًا قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكًا في قتله» (٢) . وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة في الخيرات وتوقي الشرور فقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين :٢٦] وقال النبي ﷺ: «لا حَسَدَ إلاّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتاهُ اللّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَبُثُّها فِي النّاسِ وَيُعَلِّمُها

---

(١) حديث «الدال على الشر كفاعله». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا.

(٢) ضعيف : حديث «لو أن رجلا قتل بالمشرق». لم أجد له أصلا بهذا اللفظ ولابن عدي من حديث أبي هريرة «من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها» وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف. [حديث «من حضر معصية . . .» انظر السلسلة الضعيفة: ٤٥٨٨]

وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ» [(١)]، وفي لفظ آخر: «وَرَجُلٌ آتَاهُ اللّٰه القُرآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آناء اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَيَقُولُ الرَّجُلُ لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ ما آتى هذا لَفَعَلْتُ مِثْل ما يَفْعَلُ».

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران :٢٨] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة :٥١] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ [الأنعام :١٢٩] وفي الخبر: «إن الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن» [(٢)]، وقال عليه السلام: «المرء مع من أحب» [(٣)]، وقال: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا وَوَالاهُمْ حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ» [(٤)]، وقال عليه السلام: «أَوْثَقُ عُرَى الإِيمانِ الحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبُغْضُ فِي اللَّهِ» [(٥)]. وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة، وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- فلا نعيده.

فإن قلت: فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى [(٦)] فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟.

فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم، وقد التبس

---

(١) صحيح: حديث «لا حسد إلا في اثنتين». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم. [البخاري: ٥٠٢٦، ومسلم: ٨١٦]

(٢) حديث «إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق». لم أجد له أصلا.

(٣) صحيح: حديث «المرء مع من أحب». تقدم. [البخاري: ٦١٦٩، ومسلم: ٢٦٤١ عن ابن مسعود]

(٤) موضوع: حديث «من أحب قوما ووالاهم حشر معهم». أخرجه الطبراني من حديث أبي قرصافة وابن عدي من حديث جابر «من أحب قوما على أعمالهم حشر في زمرتهم» زاد ابن عدي «يوم القيامة» وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التميمي ضعيف. [انظر السلسلة الضعيفة: ٤٥٣٦]

(٥) حسن لغيره: حديث «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله». رواه أحمد وتقدم في آداب الصحبة. [أحمد: ١٨٠٥٣، وانظر صحيح الترغيب: ٣٠٣٠]

(٦) - الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله. رواها الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص «من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل... الحديث» وقال غريب وتقدم حديث «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس» وحديث «إن الله بقسطه جعل الروح والفرح في الرضا» وتقدم في حديث الاستخارة «واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به» وحديث «من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي منه بالقليل من العمل وحديث «أسألك الرضا بالقضاء... الحديث» وغير ذلك. [حديث «من سعادة...» عند الترمذي: ٢١٥١، وانظر ضعيف الترمذي، وحديث «ارض بما قسم...» عند الترمذي: ٢٣٠٥، وانظر صحيح الترغيب: ٢٣٤٩، وقال الألباني: حسن لغيره، حديث «إن الله بقسطه...» انظر ضعيف الترغيب: ١٠٦٤ بنحوه، حديث «واقدر لي...» عند البخاري: ١١٦٦ عن جابر، وحديث «من رضي بالقليل...» انظر السلسلة الضعيفة: ١٥٧٣، وقال الألباني: ضعيف جدًا، وحديث «أسألك الرضا بالقضاء...» عند النسائي: ١٣٠٦، وانظر صحيح النسائي]

على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقامًا من مقامات الرضا وستره حسن الخلق وهو جهل محصن، بل نقول: الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضى به من وجه؛ إذ قد يموت عدوّك الذي هو أيضًا عدوّ بعض أعدائك وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدوّ عدوّك وترضاه من حيث إنه مات عدوّك.

وكذلك المعصية لها وجهان: وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته؛ فيرضى به من هذا الوجه تسليمًا للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتًا عند الله وبغيضًا عنده حيث سلّط عليه أسباب البعد والمقت، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم. ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال:

فلنفرض محبوبًا من الخلق قال بين يدي محبيه: إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب فيه معيارًا صادقًا وميزانًا ناطقًا وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضربًا يضطره ذلك إلى الشتم لي. حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوًا لي، فكل من أحبه أعلم أيضًا أنه عدّوي، وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبّي، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة. فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة. فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم. ولكنه كان مرادك منه؛ فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانًا في تدبيرك وتعويقًا في مرادك، وأنا كاره لفوات مرادك، ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك، وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضًا مبغض له؛ لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبًا ولعدوّه عدوًّا. وأما بغضه لك فإني أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض، ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك، فهو ممقوت عندي لمقته إياك، وبغضه ومقته لك أيضًا عندي مكروه من حيث إنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي. وإنما التناقض أن يقول: هو من حيث إنه مرادك مرضي ومن حيث إنه مرادك مكروه، وأما إذا كان مكروهًا لا من حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه، ويشهد لذلك

كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه، ونظائر ذلك لا تحصى.

فإذن تسليط الله دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى يجرّه ذلك إلى حب المعصية ويجرّه الحب إلى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلًا؛ ليجرّه الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم.

ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره، يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه، وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده ، أعني تسليط دواعي المعصية عليه ، يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته. فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادي من أبعده الله عن حضرته ، وإن اضطّره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ، فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة، وإن كان بعيدًا بإبعاده قهرًا ومطرودًا بطرده واضطراره. والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتًا بغيضًا إلى جميع المحبين. موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده.

وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل. وهذا كله يستمد من سر القدر ، الذي لا رخصة في إفشائه ، وهو أنّ الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضيّ به. فمن قال: ليس الشر من الله، فهو جاهل وكذا من قال: إنهما جميعًا منه ، من غير افتراق في الرضا والكراهة ، فهو أيضًا مقصر. وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه؛ فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال ﷺ: «القَدَرُ سِرُّ اللَّهِ فَلا تَفْشُوهُ»[1] ، وذلك يتعلق بعلم المكاشفة. وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى، وقد أظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه.

وبهذا يعرف أيضًا أنّ الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحًا للكشف وسببًا لتواتر مزايا اللطف. كما أنّ حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضًا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش، وشرب الماء طلبًا لإزالة العطش مباشرةً سببٌ رتبه مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به. وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريًا على سنة الله تعالى لا

---

(١) ضعيف : حديث «القدر سر الله فلا تفشوه». أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف. [انظر ضعيف الجامع : ٤١٣١]

يناقض التوكل ، واستقصيناه في كتاب التوكل ، فهو أيضًا لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض. وقد قال بعض السلف: من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار ، أي في معرض الشكاية ، وذلك في الصيف فأما الشتاء فهو شكر، والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع، والكل من صنع الله تعالى. وقول القائل: الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كدّ ومشقة، كل ذلك قادح في الرضا، بل ينبغي أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنيًا أو فقيرًا فإني لا أدري أيهما خير لي.

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظانّ المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا:

اعلم أنّ الضعيف قد يظن أن نهي رسول الله ﷺ عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون (١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي؛ لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال؛ بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا متعهد لهم فيهلكون هزالًا وضرًا، ولذلك شبهه رسول الله ﷺ في بعض الأخبار بالفرار من الزحف (٢) ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب في البلدة في الانصراف ، وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل، وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارًا من القضاء بل من القضاء الفرار مما لا بدّ من الفرار منه. وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها؛ لأجل التنفير عن المعصية ، ليست مذمومة. فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها، فقال ابن المبارك: قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدًا شرًا من بغداد قيل: وكيف؟ قال: هو بلد تزدرى فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله. ولما قدم خراسان قيل له: كيف رأيت بغداد؟ قال: ما رأيت إلا شرطيًا غضبان أو تاجرًا لهفان أو قارئًا حيران ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة؛ لأنه لم يتعرّض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة ، وقد كان مقامه ببغداد ، يرقب استعداد القافلة ستة عشر

(١) صحيح : حديث: النهي عن الخروج من بلد الطاعون. تقدم في آداب السفر. [البخاري: ٥٧٢٩، ومسلم: ٢٢١٩ عن ابن عباس].

(٢) صحيح : حديث: إنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف. تقدم فيه. [انظر صحيح الجامع : ٤٢٧٦].

يومًا، فكان يتصدّق بستة عشر دينار لكل يوم دينار كفارة لمقام.

وقد ذم العراق جماعة: كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار. وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له: أين تسكن؟ فقال: العراق، قال: فما تصنع به؟ بلغني أن ما من أحد يسكن العراق إلا قيض الله له قرينًا من البلاء. وذكر كعب الأحبار يومًا العراق فقال: فيه تسعة أعشار الشر، وفيه الداء العضال. وقد قيل: قسم الخير عشرة أجزاء؛ فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق، وقسم الشر عشرة أجزاء، على العكس من ذلك. وقال بعض أصحاب الحديث: كنا يومًا عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفي متدرع بعباءة فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال: أين تسكن؟ فقال: بغداد. فأعرض عنه وقال: يأتينا أحدهم في زي الرهبان فإذا سألناه أين تسكن؟ قال: في عش الظلمة؟ وكان بشر بن الحارث يقول: مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش. وكان يقول: لا تقتدوا بي في المقام بها من أراد أن يخرج فليخرج. وكان أحمد بن حنبل يقول: لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسي قيل: وأين تختار السكنى؟ قال: بالثغور. وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد: زاهدهم زاهد وشريرهم شرير.

فهذا يدل على أنّ من بلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها، بل ينبغي أن يهاجر، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء :٩٧] فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيًا بحاله مطمئن النفس إليه، بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلًا على الدوام: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء :٧٥] وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال :٢٥] فإذن ليس في شيء من أسباب نقص الدين ألبتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال.

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث رجل يحب الموت شوقًا إلى لقاء الله تعالى، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى، ورجل قال: لا أختار شيئًا بل أرضى بما اختاره الله تعالى؛ ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين، فقال: صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولًا. واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط، فقال الثوري: كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم، واليوم وددت أني مت، فقال له يوسف: لم؟ قال: لما أتخوّف من الفتنة، فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء، فقال سفيان: لم؟ قال: لعلي أصادف يومًا أتوب فيه وأعمل صالحًا، فقيل لوهيب: إيش تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا، أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله سبحانه وتعالى، فقبله الثوري بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة.

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم:

قيل لبعض العارفين: إنك محب، فقال: لست محبًّا إنما أنا محبوب والمحب متعوب. وقيل له أيضًا: الناس يقولون إنك واحد من السبعة؟ فقال: أنا كل السبعة. وكان يقول: إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلًا، قيل: وكيف وأنت شخص واحد؟ قال: لأني رأيت أربعين بدلًا وأخذت من كل بدل خلقًا من أخلاقه. وقيل له: بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام؟ فتبسم وقال: ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه.

وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال: ما حدّثت نفسي يومًا قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم وليًا لم أعرفه. وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة: حدّثنا عن مشاهدتك من الله تعالى، فصاح ثم قال: ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك قيل: فحدّثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى، فقال: وهذا أيضًا لا يجوز أن أطلعكم عليه. قيل: فحدّثنا عن رياضة نفسك في بدايتك، فقال: نعم، دعوت نفسي إلى الله فجمحت عليَّ فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك.

ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد ، في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر ، مستوفزًا على صدور قدميه رافعًا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربًا بذقنه على صدره شاخصًا بعينيه لا يطرف، قال: ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال: اللهم إنّ قومًا طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قومًا طلبوك فأعطيتهم طي الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قومًا طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك، حتى عدّ نيفًا وعشرين مقامًا من كرامات الأولياء، ثم التفت فرآني فقال: يحيى فقلت: نعم يا سيدي، فقال: منذ متى أنت هاهنا؟ قلت: منذ حين، فسكت، فقلت: يا سيدي حدّثني بشيء فقال: أحدّثك بما يصلح لك، أدخلني في الفلك الأسفل فدوّرني في الملكوت السفليّ وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوّف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه فقال: سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك؟ فقلت: يا سيدي ما رأيت شيئًا استحسنته فأسألك إياه فقال: أنت عبدي حقًّا تعبدني لأجلي صدقًا لأفعلن بك ولأفعلن فذكر أشياء. قال يحيى: فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت: يا سيدي لم لا سألته المعرفة به؟ وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت، قال: فصاح بي صيحة وقال: اسكت ويلك غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه.

وحكي أنّ أبا تراب النخشبي كان معجبًا ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه

والمريد مشغول بعبادته ومواجدته فقال له أبو تراب يومًا: لو رأيت أبا يزيد؟ فقال: إني عنه مشغول، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيت أبا يزيد، هاج وجد المريد فقال: ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد؟ قال أبو تراب: فهاج طبعي ولم أملك نفسي، فقلت: ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال: فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال: وكيف ذلك؟ قال له: ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره؟ فعرف ما قلت، فقال: احملني إليه، فذكر قصة قال في آخرها: فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة ، وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع ، قال: فمرّ بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى: هذا أبو يزيد فانظر إليه فنظر إليه الفتى فصعق، فحركناه فإذا هو ميت، فتعاونا على دفنه فقلت لأبي يزيد: يا سيدي نظره إليك قتله، قال: لا ولكن كان صاحبكم صادقًا واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه، فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله؛ لأنه في مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك.

ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا: لو سألت الله تعالى دفعهم؟ فسكت ثم قال: إنّ لله عبادًا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة؛ ولكن لا يفعلون، قيل: لم؟ قال: لأنهم لا يحبون ما لا يحب، ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يستطاع ذكرها، حتى قال: ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها. وهذه أمور ممكنة في أنفسها فمن لم يحظ بشيء منها، فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها، فإن القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملكوت كثيرة، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له. ولذلك كان أبو يزيد يقول: إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ما وراء ذلك، فإنّ عنده فوق ذلك أضعافًا مضاعفة، فإن سكنت إلى ذلك حجبك به، وهذا بلاء مثلهم ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمثل فالأمثل. وقد قال بعض العارفين: كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين في الهواء، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يومًا، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال، وقيل لي: انظر إليهن، قال: فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن وقلت: أعوذ بك مما سواك لا حاجة لي بهذا، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني.

فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضاق مجال الإيمان عليه، بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس

وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرًا وباطنًا، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنًا بحصن الخمول. فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس. وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادىء الحق، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجري مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة، فنظر المنكر إلى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئي فيها عند ظهور جوهرها، وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال.

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه، وبئس المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى، بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئًا ولو من مبادي الطريق، كما قيل لبشر: بأي شيء بلغت هذه المنزلة؟ قال: كنت أكاتم الله تعالى حالي. معناه أسأله أن يكتم عليّ ويخفي أمري. وروي أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له: ادع الله تعالى لي، فقال: يسر الله عليك طاعته، قلت:زدني، قال: وسترها عليك. فقيل: معناه سترها عن الخلق، وقيل: معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها. وعن بعضهم أنه قال: أقلقني الشوق إلى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يريني إياه ليعلمني شيئًا كان أهم الأشياء عليّ، قال: فرأيته فما غلب على همي ولا همتي إلا أن قلت له: يا أبا العباس علمني شيئًا إذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة، فقال: قل اللهم أسبل عليّ كثيف سترك وحط عليّ سرادقات حجبك واجعلني في مكنون غيبك واحجبني عن قلوب خلقك، قال: ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك، فما زلت أقول هذه الكلمات في كل يوم، فحكي أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن ، حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به ، فكانت راحته ركود قلبه، واستقامة حاله في ذله وخموله. فهكذا حال أولياء الله تعالى، ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا، والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرئاسة، وغيرة الله تعالى على أوليائه تأبى إلا إخفاءهم كما قال تعالى: أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري. وقال ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ» (١) .

وبالجملة : فأبعد القلوب عن مشام هذه المعاني القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها

---

(١) حسن صحيح : حديث «رب أشعث أغبر ذي طمرين». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم. [الترمذي: ٣٨٥٤ عن أنس، وانظر صحيح الترغيب: ٢٠٨٣، ولم أره عند مسلم].

المستبشرة بعملها وعلمها. وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعارًا إذا ذل واهتضم لم يحسس بالذل، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه، فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضًا بعدم التفاته إلى الذل، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلًا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته. فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادىء هذه الروائح، فإن فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله، فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبًا لأولياء الله مؤمنًا بهم فعسى أن يحشر مع من أحب. ويشهد لهذا ما روي أن عيسى عليه السلام قال لبني إسرائيل: أين ينبت الزرع؟ قالوا: في التراب، فقال: بحق أقول لكم لا تنبت الحكمة إلا في قلب مثل التراب.

ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة، حتى روي أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيد دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات، ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرّة الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال: قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت. وعنه أيضًا أنه قال: نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح، فتشتت علي قلبي، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت، وجعلت أمشي قليلًا قليلًا. فلحقوني فنزعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربًا، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي.

فهكذا كان يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل، وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس. ولذلك حكي أن شاهدًا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد، فقال له يومًا: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئًا وأنا أصدّق به وأحبه، فقال أبو يزيد: ولو صمت ثلاثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرّة قال: ولم؟ قال: لأنك محجوب بنفسك، قال: فلهذا دواء؟ قال: نعم، قال: قل لي حتى أعمله، قال: لا تقبله، قال: فاذكره لي حتى أعمل، قال: اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزًا، واجمع الصبيان حولك وقل: كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك، فقال الرجل: سبحان الله تقول لي مثل هذا.

فقال أبو يزيد: قولك: سبحان الله شرك، قال: وكيف؟ قال: لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك فقال: هذا لا أفعله ولكن دلني على غيره فقال: ابتدىء بهذا قبل كل شيء.

فقال: لا أطيقه، قال: قد قلت لك إنك لا تقبل؟. فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه، ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله، فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً. فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضًا.

وهذه أمور جلية في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعدّ نفسه من علماء الشرع، فقد قالﷺ: «لا يَسْتَكْمِلُ العَبْدُ الإيمانَ حَتَّى تَكُونَ قِلَّةُ الشيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ وَحَتَّى يَكُونَ أَنْ لا يُعْرَفَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ»(١)، وقد قال عليه السلام: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ: لا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، وَلا يُرَائِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِذا عُرِضَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيا وَالآخَرُ لِلآخِرَةِ آثَرَ أَمْرَ الآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيا»(٢)، وقال عليه السلام: «لا يَكْمُلُ إيمانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ ثَلاثُ خِصالٍ: إذا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنِ الحَقِّ، وَإِذا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاه فِي بَاطِلٍ، وَإِذا قَدرَ لَمْ يَتَناوَلْ ما لَيْسَ لَهُ»(٣)، وفي حديث آخر: «ثَلاثٌ مَنْ أُوتِيَهُنَّ فَقَدْ أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوْتِيَ آلُ دَاوُدَ: العَدْلُ فِي الرِّضا وَالغَضَبِ، وَالقَصْدُ فِي الغِنَى وَالفَقْرِ، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ»(٤)، فهذه شروط ذكرها رسول اللهﷺ لأولي الإيمان، فالعجب ممن يدّعي علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرّة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عليه وراء الإيمان؛ وفي الأخبار أنّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: إنما أتخذ لخلتي من لا يفتر عن ذكري ولا يكون له هم غيري ولا يؤثر عليّ شيئًا من خلقي وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار

---

(١) حديث «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف». ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة، وعلى هذا فهو معضل فعلي بن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجد له أصلاً.

(٢) ضعيف: حديث «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومة لائم». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم المرادي ضعفه ابن معين والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه عبد الواحد. [انظر السلسلة الضعيفة: ٣٤٤٥].

(٣) موضوع: حديث «لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال». أخرجه الطبراني في الصغير بلفظ «ثلاث من أخلاق الإيمان» وإسناده ضعيف. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٤١].

(٤) حسن: حديث «ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود: العدل في الرضا والغضب». غريب بهذا اللفظ، والمعروف «ثلاث منجيات» فذكرهن بنحوه وقد تقدم. [انظر صحيح الجامع: ٣٠٣٩].

وجعًا وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألمًا. فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات؟ وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان، ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له.

ولذلك قال عليه السلام للصديق رضي الله تعالى عنه: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاكَ مِثْلَ إِيمانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِي مِنْ أُمَّتِي وَأَعْطَانِي مِثْلَ إِيمانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ وَلَد آدَمَ» (١)، وفي حديث آخر: «إِنَّ للَّهِ تَعَالَى ثَلاثَمِائَةَ خُلُقٍ مَنْ لَقِيَهُ بِخُلُقٍ مِنْهَا مَعَ التَّوْحِيدِ دَخَلَ الجَنَّةَ» فقال أبو بكر: يا رسول الله هل فيَّ منها خلق؟ فقال: «كُلُّها فِيكَ يا أبا بَكْرٍ وَأَحَبُّها إِلَى اللَّهِ تَعَالَى السَّخَاءِ» (٢)، وقال عليه السلام: «رَأَيْتُ مِيزَانًا دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُضِعْتُ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ أُمَّتِي فِي كِفَّةٍ فَرَجَحْتُ بِهِمْ وَوُضِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي كِفَّةٍ وَجِيءَ بِأُمَّتِي فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَ بِهِمْ» (٣)، ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله ﷺ بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال: «لَوْ كُنْتَ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أبا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلكِنْ صَاحِبُكُمْ خلِيلُ اللَّهِ تَعَالَى» (٤) يعني نفسه.

خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها:

قال سفيان: المحبة اتباع رسول الله ﷺ: وقال غيره: دوام الذكر، وقال غيره: إيثار المحبوب. وقال بعضهم: كراهية البقاء في الدنيا. وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم يتعرّضوا لها. وقال بعضهم: المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتنع الألسن عن عبارته. وقال الجنيد: حرّم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة. وقال: كل محبة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت المحبة. وقال ذو النون: قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذلّ لغير الله. وقيل للشبلي رحمه الله: صف لنا العارف والمحب؛ فقال: العارف إن تكلم هلك، والمحب إن سكت هلك، وقال الشبلي رحمه الله:

---

(١) حديث: إنه قال للصديق «إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف.

(٢) حديث «إن لله تعالى ثلاثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس مرفوعا عن الله «خلقت بضعة عشر وثلاثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة» ومن حديث ابن عباس «الإسلام ثلاثمائة شريعة وثلاثة عشر شريعة» وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ «الإيمان» وللبزار من حديث عثمان بن عفان «إن الله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة... الحديث» وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة.

(٣) صحيح: حديث «رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجحت بهم». أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف. [أحمد: ١٩٩٣٢ وصححه الألباني في صحيح الترمذي من حديث أبي بكرة: ٢٢٨٧]

(٤) صحيح: حديث «لو كنت متخذًا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلًا ولكن صاحبكم خليل الله تعالى». متفق عليه وقد تقدم.

يا أيُّها السيِّدُ الكريمُ حبّك بين الحشا مقيمُ
يا رافعَ النومِ عن جفوني أنت بما مرّ بي عليمُ

ولغيره:

عجبت لمن يقول ذكرت إلفي وهل أنسى فأذكر ما نسيتُ
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظني ما حييتُ
فأحيا بالمنى وأموت شوقًا فكم أحيا عليك وكم أموتُ
شربت الحبَّ كأسًا بعد كأسٍ فما نفدَ الشراب وما رويت؟
فليت خياله نصب لعيني فإن قصرت في نظري عميتُ

وقالت رابعة العدوية يومًا: من يدلنا على حبيبنا، فقالت خادمة لها: حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه. وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى: أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: إني إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليته بحفظي. وقيل: تكلم سمنون يومًا في المحبة فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات. وقال إبراهيم بن أدهم: إلهي إنك تعلم أنّ الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك، وقال السري - رحمه الله: من أحب الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن عيوبه فتاش. وقيل لرابعة: كيف حبك للرسول ﷺ؟ فقالت: والله إني لأحبه حبًا شديدًا ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين. وسئل عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال: الرضا عن الله تعالى والحب له.

وقال أبو يزيد: المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة إنما يحب من مولاه مولاه. وقال الشبلي: الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم.

وقيل: المحبة أن تمحو أثرك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك، وقيل: المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح. وقال الخوّاص: المحبة محو الإرادات واحتراق الصفات والحاجات. وسئل سهل عن المحبة فقال: عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه.

وقيل: معاملة المحب على أربع منازل: على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم، وأفضلها التعظيم والمحبة لأنّ هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما.

وقال هرم بن حبان: المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه، وإذا أحبه أقبل عليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة، وهي تحسره في الدنيا وتروّحه في الآخرة، وقال عبد الله بن محمد: سمعت امرأة من المتعبدات تقول - وهي باكية والدموع على خدها جارية: والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت

الموت يباع لاشتريته شوقًا إلى الله تعالى وحبًا للقائه، قال: فقلت لها: فعلى ثقة أنت من عملك؟ قالت: لا ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا أحبه؟ وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقًا إليّ وتقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود هذه إرادتي في المدبرين عليّ فكيف إرادتي في المقبلين عليّ، يا داود أحوج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عني وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني وأجل ما يكون عبدي إذا رجع إليّ، وقال أبو الصفار: لقي نبي من الأنبياء عابدًا فقال له: إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه، أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق.

وقال الشبلي رحمه الله: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكري للذاكرين، وجنتي للمطيعين، وزيارتي للمشتاقين، وأنا خاصة للمحبين، وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبًا صدّق قوله ومن أنس بحبيبه رضي فعله ومن اشتاق إليه جدّ في مسيره. وكان الخوّاص رحمه الله يضرب على صدره ويقول: واشوقاه لمن يراني ولا أراه.

وقال الجنيد رحمه الله: بكى يونس عليه السلام حتى عمي، وقام حتى انحنى، وصلى حتى أقعد، وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته إليك شوقًا مني إليك.

وعن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال: «المَعْرِفَةُ رَأس مَالِي وَالعَقْلُ أَصْلُ دِينِي وَالحُبُّ أَسَاسِي وَالشَّوْقُ مَرْكَبِي وَذِكْرُ اللَّهِ أَنِيسِي وَالثِّقَةُ كَنْزِي وَالحُزْن رَفِيقِي وَالعِلْمُ سِلاَحِي وَالصَّبْرُ رِدَائِي وَالرِّضَا غَنِيمَتِي وَالعَجْزُ فَخْرِي وَالزهْدُ حِرْفَتِي وَاليَقِين قُوتِي وَالصِّدْقُ شَفِيعِي وَالطَّاعَةُ حُبِّي وَالجِهَادُ خُلُقِي وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ»(١)

وقال ذو النون: سبحان من جعل الأرواح جنود مجندة فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى، وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة، وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا. وقال بعض المشايخ: رأيت في جبل اللكام رجلًا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول:

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال: الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات، فهذا القدر كاف في شرح المحبة والأنس والشوق والرضا، فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب.

تم كتاب المحبة والشوق والأنس، يتلوه كتاب النية والإخلاص والصدق.

---

(١) حديث علي: سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال: «المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني». ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب ولم أجد له إسنادًا.

الفهرس

* * *